الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

د. أحمد عمر

د. محمد المهدي رفاعي ● د. خالد خالد ● د. إياس الرشيد

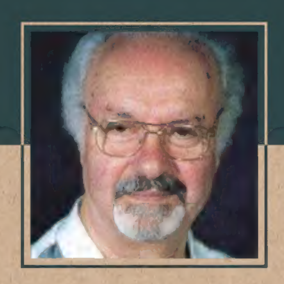
د. إسلام جانكير ● د. عرابي عرابي ● د. أنس صالح

الجزء السادس





«إلى الأصدقاء.. الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًّا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمعية في بلاد الشام. أناشدكم الاهتمام بهذا الإرث، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها... والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة...»



فاضل السباعي

الجزء السادس



+90 506 023 22 35 www.dar-ikdam.com
+90 212 671 62 48 dar-ikdam@gmail.com
www.facebook.com/dar-ikdam





6. cilt isbn

الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

الجزء السادس

د.أحمد عمر | د.محمد المهدي رفاعي

د.خالد خالد | د.إياس الرشيد

د.إسلام جانكير | د.عرابي عرابي

د.أنس صالح

اسم الكتاب: الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي دراسة وتحقيقا
المؤلف: مجموعة مؤلفين
الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر
الطبعة: الاولى
سنة النشر: 2023
مكان النشر: اسطنبول- تركيا
isbn: 978-625-6483-03-3
6. cilt isbn: 978-625-6483-09-5

خواطري، أفكاري، أحاسيسي

خواطري، أفكاري، أحاسيسي

التي بِذَوْب العين أكتبها

أُمنّي النفس بأن أطبعها

كتابًا بعد كتاب

في موطني هنا

فلا أدعَها تمضي مع قوافل المهاجرين

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٢١-٤-٢٠١٨

هناك

هناك

عندما يلمحون موهبة في ناشئ بينهم

يفرشون في دربه السجاد

والورود

ليغدو عبقريًّا

وفي أمتي

يسرع أولئك لاغتياله بيننا في غسق الليالي.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٢٣-٤-٢٠١٨

"زاوية" في جريدة.. لقلم معارض

أمام الحُضور، في المركز الثقافي بأبو رمانة قبل أيام، وقف يرفع صوته مستنكرًا:

"كيف تُخصِّص جريدة "تشرين" زاويةً أسبوعية للمعارض فاضل السباعي؟ (وأشار عليهم) روحوا ادخلواع صحيفته وشوفوا"!.

وليت هذا القائل يدري أنّ "تشرين" (التي أسّسها يومًا الإعلامي المخضرم جلال فاروق الشريف لتكون للجميع دون تمييز)، أكتب فيها منذ العام ١٩٧٥.

ونعم،

صفحتي تُشرق بالقول الجريء المعتدل، وما أزال أُندّد بالقهر والفساد منذ ستينيّات القرن الماضي، في أدب أطبعه بدمشق، مقروء ومترجم، ولعله لا يعلم أني أحد الذين أسهموا -قبل مولده- في تأسيس اتحاد الكتّاب (١٩٦٩) الذي يشغل فيه اليوم موقعا قد يكون فضفاضا عليه.

ولم أعلم أنّ أحدا من الحاضرين صفق لقوله.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٣-٤-٢٠١٨

لماذا التدخل.. عند الكيماوي فقط؟

في كلّ السكود والبراميل وتهجير نصف سكان البلاد لم تتدخّل أمريكا ودول الغرب.

ولكنهم يتدخّلون عند السارين والكلور، مع تواضع عدد الضحايا فيهما بالنسبة للمجموع...

ذلك أنهم يخشون أن يتوجه الكيماوي، في لحظة من فقدان البوصلة، إلى حبيبتهم

إسرائيل...

يا للغرب من كذوب منافق!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ٢٤-٤-٢٠١٨

السؤال الأول.. من حوار تعذَّر نشره!

كان عمر الصداقة بيني وبين الشاعر الصحفي محمد ناصر الصّوّان، التي ابتدأت عند عودتي من الندوة الكويتية، أقصرَ من خريفٍ سارع إليه البرد والمطر!

في جَلَساتٍ صيفية (عام ٢٠٠١)، تمّ إنجاز الحوار، وقد تلطَّف المحاوِرُ بأن قدَّم له بكلماتٍ مشبعةٍ بالودّ وبالشاعرية معًا، ما أظن أنّ كثيرًا من مُعِدّي الحوارات يصوغون مثلها. وربما كان من بواعث عنايته بالحوار وبالمحاوَر، رغبتُه في أن يُنشئ علاقةَ مراسلةٍ مع إحدى الجرائد التي تصدر في الخليج، ولكنّ الحوار طُوِيَ لأسبابٍ، فأَمْلَتْ على صديقي رهافةُ حسّه أن يقطع العلاقة الناشئة بيني وبينه، تماما كانعدام نشوء العلاقة بينه وبين تلك الدورية، وذلك بانقطاعه عني زيارةً وإسماعَ صوت.

واليوم... أستخرج نصَّ الحوار، الذي لم يُكتبَ له -في علمي- الظهور، وأُقدّمه ههنا، لوثيق صلته بزيارتي إلى الكويت وحضوري ندوة مجلة "العربي"... كتب يقول:

- - - - - - - - - -

عبر الهاتف انساب في أُذني صوتٌ هادئ وقور كأنه آتٍ من مسجد. وبعد استيثاقه من شخصي وطبيعة عملي هداني إلى عنوان داره (دار إشبيلية للنشر) مرحّبا. وفي تلك الليلة ظللت، حتى مطلع الفجر، أراجع بعض نتاجه ممّا هو منشورٌ في أعداد مجلة "العربي" العتيقة الرائعة، حتى استظهرتُ أكثر من عشر قصص له، فمن المعيب أن تحدِّث أستاذًا بمادّته وأنت كسول!

وفي الحديقة الدمشقيّة الساكنة، صافحت عيناي عَبَقَ أندلسٍ أعرفها، ويمامات يتخايلنَ على جوانب الأحواض ويقفنَ على مدارج البِركة الصامتة، وطاولةً صغيرة ضاحكة مثقلة بالكتب، ورزمةَ أوراقٍ ترتاح عليها أقلامٌ ونظارةٌ بيضاء، وكرسيًّا يكسوه غطاء من قماش ملوّن.

رأيتُه رجلاً مديد القامة، بنظارةٍ بيضاء ولحيةٍ صغيرة رمادية كلون شعره الذي محا الزمن مقدَّمَه، يبتسم كهديةٍ صباحيّة، وصافحني وهو يرتدي ثيابًا رياضيّة عصرية. لقد بدا لي كطبيبِ أعصابٍ آتٍ من أكاديميّةٍ قديمة، ومازال يملك المقدرة على الحبّ والعِشرة الطيّبة. لم يُشعرني بأنه يعرف كلّ شيء حينما بدأ بالحديث، ولكني أحسست أنّ مهنة هذا الرجل هي الكتابة، وهو يستمتع بها ولن يتخلّى عنها أبدًا.

إنه أحد مؤسّسي اتحاد الكتّاب العرب (عام ١٩٦٩)، انتُخِب فيه عدة مرات مقرِّرًا لجمعية القصة والرواية. كتب القصة القصيرة ونشرها في أمّهات المجلات العربية كـ"الأديب" و"الآداب" و"الأدب" و"المجلة" و"العربي" و"الفيصل" و"القافلة" و"المعرفة" و"الموقف الأدبي" و"البيان"... تُرجِمت بعض قصصه إلى الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والألمانية والروسية والفارسية ولغات أخرى... كتب الرواية، ومن أشهر أعماله فيها: "ثمّ أزهر الحزن" و"رياح كانون" و"الظمأ والينبوع" و"بدر الزمان"، هذه التي نال مترجمُها إلى الإسبانية مؤهِّل الدكتوراه. هاجر بنتاجه فنشره في كلٍّ من بيروت والقاهرة حتى وصل به إلى تونس، قبل أن يؤسس بدمشق "دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع"، وفيها أصدر سلسلة "شهرزاد الـ٢١" للأطفال، التي تُعَدّ من أرقى ما قُدِّم في المكتبة العربية في هذا المجال. مال إلى التاريخ الأندلسيّ، وكتب فيه كثيرًا، وأصدر كتابًا لشيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين البروفسور خوان فيرنيت: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، مذيِّلاً إيّاه بالحواشي المستفيضة. تجاوزت

أعماله المنشورة الثلاثين، وتكرّرت طباعة بعضها غير مرة.

دُعي إلى الكويت، بصفتها عاصمةً للثقافة العربية للعام ٢٠٠١، لحضور نشاط أقامته مجلة "العربي" في نيسان/ أبريل الماضي بعنوان: "الثقافة العربية وآفاق النشر الإلكتروني"، فأحببت أن يدور حواري معه حول: رحلة الكتاب، بين الأمس واليوم والغد.

لحظةَ بدأت أضع أوراقي وعُدّتي على طاولةٍ صغيرة أمامي، كان يُقدّم لي قهوةً صنعها بيده مصحوبةً بكأسٍ من الماء البارد، وسمح لي بأن أُدخّن. وعندما بدأ الحوار كان قد أدار حلقة نافورة البركة لتُضفي على كلماته قطراتٍ من ندى صباحٍ دمشقيٍّ لا يُنسى... وكان هذا الحوار:

• أستاذ فاضل السباعي، منذ متى وأنت تعيش رفقة الكتاب؟ فأنت من جيل "ما قبل التلفاز"؟

ـ أذكر أني تعرّفت على الكتاب وأنا في نحو الخامسة من عمري، يوم رأيته بين يدَي أبي، يقرأ سيرة عنترة. وفي آخر مراحل الدراسة الابتدائية قرأت كثيرًا من كتب الأطفال، استعارةً من زميل لنا في الصفّ كان يشتري ويُعِير، الكتاب الواحد لليلة واحدة بخمسة قروش! وتعرّفت في أول الدراسة الإعدادية على مجلة "المختار" فأدمنت قراءتها. وأعترف بأنها هي التي حبّبت إليّ المطالعة المنتظمة، وقادتني إلى أن أقتني مجلة "الكتاب" المصرية منذ عددها الأول (سبتمبر ١٩٤٥). ولعلّ قراءتي لشعرٍ لابن زيدون -وأنا في صفّ الكفاءة- فتّقت موهبتي في نظم الشعر، فـ"قَرْزَمْتُ[١]" أشعارًا ما زلت أدفنها في عميق أدراج مكتبي!

كان المذياع في أيامنا هو الذي يصلنا بالعالم، ولكنه لم يصرفني عن المطالعة. ولم أسمح فيما بعد للتلفاز بأن يُلهيني عن المطالعة والكتابة، ذلك أنّ هذا الاختراع السحريّ إذا ما أفلح في

---

(١) القَرْزَمة: الابتداء بقول الشعر.

اختطاف الكاتب تضاءل إبداعه، على أنه بانَ في السنوات الأخيرة تأثير الفضائيات أيضا، لولا استنقاذي نفسي منها بقوة الإرادة.

• هل لقراءة الـ..... الخ....

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الأربعاء ٢٥-٤-٢٠١٨

طبيبة الأرواح المرهفة

جاءتني مساء أمس لمساعدتي في إرسال بعض النصوص بالبريد الإلكتروني إلى جهات خارجية. في هذه الأثناء سقطت مني "النظّارة" على الأرض، وانكسرت.

أدركت جارتي الحنون أني لن أستطيع العمل الليلة دون هذه الأداة المبصِّرة. انحنت تلتقط الحطام، فتبيّن أنّ ما جنيتُه هو كسر الإطار فقط.

لم تمهلني. سألتني هل من بائع نظارات أتعامل معه هنا في ساحة الجسر الأبيض؟

وتوجّهت إليه فورا، تحت العاصفة الرملية ورذاذ المطر.

بعد قليل هتفتُ لصاحبي، فأجابني بأنّ "الشباب" يوشكون على الانتهاء من إعداد نظارة أفضل من التي كانت، وهي تقدمة من "المحلّ"، تقديرًا لصاحبها وإكرامًا للآنسة التي تنتظر!

بربّكم... هل هناك إنسان، أنبلُ نفسًا وأطيب قلبًا وأسرعُ أداء، من جارتي، التي تساعدني في إرسال نصوصي عبر الأثير إلى البعيد، والمسعِفةِ في استعادة نظري؟ نعم، هي التي تتابع تخصّصها العالي في الجامعة بطبّ العيون؟

سأسمّيها... طبيبة الأرواح المرهفة؟

دمشق الشام: عصر الخميس ٢٦-٤-٢٠١٨

أساء إليّ إساءات مجانيّة...

أساء إليّ إساءات مجانيّة... فلما تبيّنت ذلك هجرتُه

جعل يقرع عليّ الأبواب، وبمعسول الكلام يتنصّل تارة، ويعتذر

فلما رأى الأبواب مغلقة عاد إلى جِبلّته الأصليّة، يردح في الوجه على نحو ما كان فعل في الخفاء.

الأمر المُفارق أنّ ما وصل إليّ منه هذا الصباح يناقض ما بدر من "طبيبة الأرواح المرهفة"، يفصل ما بين الفعلين قليل من وقت... إنها الحياة، فيها الحلو والمرّ

لن أحذفه، لن أحظره، فإنّ عندي هواية في تملّي النظر من النماذج البشرية المختلفة، أستوحي منها!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢٧-٤-٢٠١٨

عن الحنين إلى الوطن..

أيها المقيمون في الوطن

تَروحون فيه وتمرحون

تملؤون من مناظره عيونَكم والأحداق

ومن عبيره الصدورَ والقلوب...

هل تعرفون مدى حنين المهاجرين إليه؟

إلى شوارعه العريضة المستقيمة، وأزقته الضيّقة المتعرّجة يفوح منها عبقُ التاريخ؟

إلى ياسمينه الأبيض، ووردِه الأحمر، وأزهاره العسليّة؟

إلى بساتينه المثقَلةِ أغصانُها بالمِشمِش والكرز والدُّرّاق؟

أنا أعرف كلّ هذا... لأنني عانيته

والنظام يعرفه أيضا... دون أن يعانيه

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢٧-٤-٢٠١٨

الأطفال أيضاً يحبون النساء

أول ما نشرت في جريدة "تشرين" المُحدَثة في حينه، وفي زاوية كان اسمها "شيء ما"، هذه المقالة القصصية، أنشرها اليوم استكمالا لتغريدة الإثنين ٢٣-٤- ٢٠١٨ المعنونة "زاوية في جريدة.. لقلم معارض".

- - - - - - - - -

بعيدًا عن هموم الأدب، أدب القصة والشعر، رحت -أنا وصديقي الشاعر- نتحدث عن هموم الحياة.. وتشعّب بنا الحديث، حتى قادنا إلى التساؤل عمّا يحققه "الزواج" للراغبين فيه من الجنسين: أهو هذه الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة، والتعاون بينهما على النهوض بأعباء الحياة؟ أم أنه إنجاب الذرّية، وتحقيق الذات في هؤلاء "الأكباد" التي "تمشي على الأرض" كما قال الشاعر العربي القديم؟ أم أنه تحقيق تلك الحاجة البيولوجية، التي تطفو في مرحلةٍ ما على سطح التفكير حتى يخال المرء أنها هي الباعث الحقيقي ثمّ يتبيّن أنّ هذا الباعث يُفضي آخر الأمر إلى تلك المعاني الأخرى السامية؟

ثمّ إنّ الحديث قادنا، مرة أخرى، إلى ما يمكن أن يفهمه "الصغار" من كلمة زوج أو زواج؟

وبدا أننا -صديقي وأنا- اتفقنا على أنّ الطفل يفهم الزواج "تعايشًا" بين أمّه وأبيه، مقرونًا

"بالحب" ولا يعدو عنده أنّ يكون مجرد "صداقة" و"مودة" ليس إلّا.

أحدنا -نحن الاثنين- روى ما وقع لابنه الصغير (٧سنوات في الصف الثاني) قبل أيام معدودات ولعله من الخير ألّا أفصح عمّا إذا كان الراوي هو أنا أو صديقي الشاعر!

قال الراوي:

عدت من عملي ظهرًا، لأتخذ مجلسي أمام مائدة الغداء، أنا وزوجتي وطفلي، هذا الذي دللته بعض الدلال لاحقًا، ولكني أحسب أني قويت فيه، من ناحية أخرى، الثقة بالنفس ونزعة الصراحة التي تصل به أحياناً حد الـ.....

قال ونحن نتغدّى:

ـ بابا! أريد أنّ أصارحك بشيء! وكان ذلك دأبه عندما يكون قد ارتكب ذنبًا موجبًا للمعاقبة، فهو يمهّد لاعترافه بعبارات صرنا -أنا وأمّه- نعرفها جيدًا.

ـ هل أذيت أذيّة؟

نفى ذلك عن نفسه:

ـ لا، ولكني سأطلب منك طلبًا، وأرجو ألا "تبهدلني"!

ـ إذا كنت تستحقّ عليها "البهدلة" فستأخذ نصيبك منها!

أومضت عينا الصغير، ونمّ وجهه على شيء:

ـ لا بابا. أنت اسمع مني، وبعدين احكمْ عليّ!

وراح يحكي.. ونحن نتابع الطعام.

كان صديقنا مهندس "الديكور"، قد اتخذ، إلى جوار بيتنا من أحد منازل الحي في سفح قاسيون، مَرسَمًا له ومكتبًا يمارس فيه عملاً صباحًا ومساءً، وهو يوظّف عنده "سكرتيرة"

تنهض بما تيسّر من أعباء المكتب، وأنّ له من هؤلاء السكرتيرات الحلوات واحدة جديدة في كلّ موسم، لأسباب نجهلها.

وكان ابني الصغير يُحصيهن من على شرفة بيتنا، ويتردّد عليه في مكتبه أحيانًا، ويتعرّف إليهنّ، ويتودّد، ويجامل، ويتلقى المجاملات...

في صباح ذلك اليوم -ونحن في عطلة المدارس الانتصافية- لمح ابني من شرفة البيت صديقنا الرسام وهو يقف بسيارته على مقربة، وإلى جواره سكرتيرته الجديدة، الحسناء.. فترك البيت، مسرعًا إليهما.

كان الرسام قد غادر سيارته، وبدا أنّ السكرتيرة انشغلت في أخذ بعض الأشياء من السيارة، فسبقها صديقنا متجهًا نحو مرسمه.

لحق به الطفل، وسلم عليه بحرارة استجاب له الرسام مصافحًا، فقد عوّده أن يعامله كرجل.

همس الطفل في أذنه:

- أستاذ، أريد أن أقول لك شيئًا!

- ما هو هذا الشيء؟

ودون تلعثم أعلن الصبي:

- هل تزوّجني سكرتيرتك؟!

لم يستغرب الرسام كثيرًا، فابني عوده، أيضًا، أن يدير معه أحاديث "على مستوى عالٍ"! سايره:

- ولكن "فريال" كبيرة عليك، عموّ!

- معليش.

- كيف معليش! إنها قدّ أمّك!

- أنا حبّيتها!

- وما أحببت فيها!

- حلوة وظريفة!

- ولماذا تطلب مني أنا أن أزوجك إياها؟ لم لا تطلب هذا منها هي؟ حدّثها برغبتك!

وأعاد الطفل "طلب اليد"، وكان الطلب هذه المرة موجهًا إلى الفتاة نفسها، التي أشرقت عيناها واحمرت وجنتاها من فرط الدهشة والفرح، وضمته إلى صدرها، و.. ساخ الصبي في حِضنها... أنا أبوه، أعرفه!

- أنا موافقة. ولكن هل يوافق أبوك؟

فكر لحظة:

- يوافق.

- كيف عرفت؟

- بابا لا يردّ لي طلبا!

- طيّب، اعرض عليه الأمر وخبّرني.

قصّ ابني عليّ هذه التفاصيل، ونحن على مائدة الغداء.. فزجرته بلطف، وأفهمته أنّ زواجه سابق لأوانه! وأنّ الأطفال لا يتزوجون، ما داموا هم ثمرة زواج حديث!

وخلال لحظات، غاب فيها عن الغرفة، أكملت زوجتي ما غاب عنه من الرواية: أنه

بعد أنّ عاد من المرسم ليقصّ ما وقع له، فطن إلى أمرٍ هام، أعلن أمام أمّه آسفًا: "هي قبلتني، وأنا لم أقبلها"!.

وطلبتْه أمّه بعد حين في البيت، فافتقدته. لقد عاد إلى المرسم، حيث أخذ، طَوال ربع ساعة، يحادث البُنيّة ويلاطفها، حتى حملها على أن تقبّله، فقبّلها.. وعاد إلى أمّه ظافرًا، والبِشر يلوح في عينيه: "قبّلتها".

غفوت بعد الغداء، على مقعدي المريح، أُقيل كعادتي، قبل أن أدلف إلى مكتبي.. عرض التلفزيون أفلام الكرتون، فضحك لها ابني بملء جوارحه، مع أنه شاهدها عشرات المرات! ثمّ أقفل الجهاز، بعد أن بدأ تقديم البرامج التعليمية، فما له بها حاجة.

لاحت مني التفاتة إليه، فرأيته ساهمًا، عبر النافذة، إلى الأفق البعيد.

ـ مالك، يا ولدي؟

أجابني:

ـ بابا.. أحببتها!

ـ أحببت، الآن، أفلام الكرتون التي حفظتها عن ظهر قلب؟

أجاب في ضيق:

ـ لا بابا! الآنسة فريال، سكرتيرة جارنا! اخطُب لي ياها، الله يخلّيك!

ـ اعقل يا ولد. قلت لك: الأطفال لا يتزوجون! وهل يتزوج طفل امرأة "قدّ أمّه"؟

ـ ولكنني أحببتها. بابا، والله "بتجنّن"!

ـ قم إلى كتبك واجتهد.

ـ العطلة في أولها، وأنا حافظ دروسي.

في المساء، زرت صديقي في مرسمه، وعاتبته ممازحًا:

ـ يا أخي، أنتم فتنتم لي الصبي! يقول لي إنها بتجنّن! [1]

في استعراضنا لما أداره ابني في حوار مع الرسام وسكرتيرته ومعي، أفصحت الفتاة "وقد رأيتها فاتنة حقًا" أنّ الصبي في إغرائها وعدَها بأن يشتري لها في المستقبل "بنايتين"! (وبيتنا ما يزال بالكِراء، فنحن ننتظر مشروع ضاحية دمر النموذجية).

قلت في نفسي: يا للعاقّ! بنايتان اثنتان للحبيبة التي منحته قبلة، ولا يتذكّر والديه بواحدة؟! "ربّوا واتعبوا".

ونصحتُ الفتاة:

ـ لا تصدّقيّه، يا فريال. هذا "كلام رْجال"!

فرغ الراوي من حديثه.

وكان الأخ، الذي يصغي، يعرف جيدًا أنّ الراوي قد تزوج وهو في العشرين من عمره، وخطب بعد أن حصل على شهادة الكفاءة، وأحبّ -الفتاة التي خطبها وتزوجها- يوم كان يلبس "الشورت".. فتساءل:

ـ تُرى.. الولد طالع لمين؟!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٧-٤-٢٠١٨

(١) رائعة جدا.

مررت بأغصان النارَنْج والكبّاد

مررت بأغصان النارَنْج والكبّاد

فرأيت الزهر وقد انعقد ثمرًا أخضر، سوف ينمو في النهارات الصيفيّة تُنضِجه ليالي السَّمَر... وسوف أرى الضعيفَ منه يتساقط، فألُمّه وألقي به في البِركة يطفو على سطح الماء...

في الخريف يصفرّ...

ويتكاثر طلاّبه من الأصدقاء... فأهدي إليهم قولي بأني أحبّ أن أستمتع به ثمرًا تحتضنه أمّه الحنون.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٣٠-٤-٢٠١٨

"أدب الإحساس".. في سنتها السابعة

يُمكننا أن نقول: إنّ مَن سمّى المجموعة بـ"أدب الإحساس" كان يملك منذ يومها الأول التصور لما ستكون عليه من الرقّة في الإحساس، والدقّة في التطبيق، والأناقة في عرض الخواطر والأفكار، وما يُعطّرها من تغريدات تتوارد إليها ليلَ نهار، رجلٌ وامرأة، طبيبٌ وطبيبة، يتواصلان مع أصدقاء، منهم من هُم في نطاق المعرفة والصداقة من قبل، وآخرون قد حدث التعارف معهم في هذا "العالم الافتراضي"، وإني واحد من هؤلاء... إلى أن اجتمعتُ "بالدكتور نضال جابر" حول مائدة، في مدينة "أورلندو" الأمريكية، ذات يوم عليل النسمات من صيف العام ٢٠١٤!

نعم،

ولن أنسى، يا أصدقائي، شمعةً كنّا نستضيء بها، نستظلّ حروف قصيدها، يغزلها لنا شاعرٌ من بلادي، في فجرٍ باكر أو في هزيعٍ من ليل، يُؤرّخ لأيام الشام في حاضرها وفي

غابرها... أسأل ما إذا كان قد آن لمجموعتنا الطيّبة أن تجمع هذه الأشعار وتنشرها على الناس، في كتاب من ورق، موسوم باسم "الشاعر زياد نسب" الذي اغتاله قصفٌ عشوائي غاشم؟

دمشق الشام: عصر الإثنين ٣٠-٤-٢٠١٨

من طبخة "الفوليّة".. إلى العشّاب الأندلسي "أبو العباس النباتيّ"

مساء أمس سألت بالهاتف ابنة شقيقتي بحلب (معلّمتي في الطبخ!) كيف تُطبخ "الفوليّة باللحمة" وبجوارها الرز، حتى أتولّى الأمر والفول اليوم في عزّ موسمه؟ فأسرعت تُجيبني: "لا أعرف!"، فاستغربتُ، وأجابت بأنها لا تحبّها، فيوم تناولتها أول مرة في حياتها أحسّت بحرقة في "سقف الحلق" فكرهتها حتى لم تهتمّ بتعلّم طبخها! وتذكّرت هنا بائع الفول الأخضر متجوّلًا في الأزقة والحارات بحلب، أسمعه في طفولتي ينادي كالمتندّر بها تحمله دابّته: "يا حيف ع اللحمة فيك يا فول!".

وإني، إذ أمرّ هذه الأيام بباعة الخضرة في ساحة الجسر الأبيض، أرى الفول الأخضر النازل من ريف بلادنا الغنيّة بشمسها وخضرتها، فأستأذن البائع بعد شرائي أغراضي بأن آخذ قرنين آكل حبّهما اللذيذ وأنا أمضي في طريقي.

وأظلّ، أيها الأصدقاء، أتذكّر أني في ربيع ١٩٨٦ في أثناء عودتنا (نحن المشاركين في "مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب") من حلب إلى العاصمة في أوتوكار الجامعة، التمستُ من قائد الرحلة عند اقترابنا من "معرّة النعمان"، أن يدخل بنا -وبيننا باحثون أجانب- مدينة "أبي العلاء المعري"، نزور مثواه... بعد ذلك تجوّلنا في سوق هذه المدينة التاريخية، فشاء صديقنا الباحث اللبناني المقيم في أمريكا "الدكتور سامي حداد"، أن يشتري قدرا من الفول الأخضر، ويوزّعه

علينا... فوجدته تلك الساعة أطيب مذاقا من البرتقال أبو صُرّة!

كان البحث الذي شاركت فيه في ذلك المؤتمر (الذي عُدّ ندوةً دولية رعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس)، يدور حول أكبر "عَشّاب" في تاريخ الأندلس: "أبو العباس النباتي" المعروف أيضًا بـ"ابن الروميّة" (من أهل القرن ٦/٧ هـ، ١٢/١٣ م)، ونزل بعدئذ في السِّفْر الذي نشره معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٢-٥-٢٠١٨

عجوز.. ثرثارة!

يوم كنت زائرا في ذلك البلد العربي، في ربيع ١٩٨٢مقيمًا في فندق يقلّنا منه إلى العاصمة مترو (على سطح الأرض لا في الأنفاق) يسمّونه "الرَّتْل"، وفيها تعرّفت على كبير المذيعين (على ما ذكرت في التغريدة السابقة)، وقد سألني قصة ينشرها في مجلة الإذاعة والتلفزيون التي يرأس تحريرها، فقدمت له قصة مرحة عنوانها "اللَّوْزِيْنَج"، ولم يبالِ بأنها نُشرت قبيل مدة في إحدى المجلات العربية، وإعزازًا لي أبدى حرصًا على أن أكتب كلمة بخط اليد، نشرها مقدمةً للقصة... كان ذلك منه إكرامًا لم أنل مثله في بلدي الحبيب.

ما لهذا أكتب الآن سويعة الفجر من عاصمة بلادي، ولكن لأروي هذه السالفة:

لاحظت، وأنا في مكتب هذا المسؤول، أنّ صوتا ما زال ينبعث من الراديو أو من مصدر غيره، يسترسل فيه المتكلم، أو المتكلمة، بحديث لا ينتهي، مَجَّهُ سمعي أسلوبَ حديث وصوتا غير مريح... ما دعاني إلى أن أسأله: مَن هذه العجوز الثرثارة التي ما زلت تسمعها! فغضّ الرجل بصره وهو يقول: هذه خُطَب رئيسنا بو رقيبة!

دمشق الشام: فجر الخميس ٣-٥-٢٠١٨

"لعبة الأرقام المتوافقة"

قبل أربعين سنة، أو خمسين، وأنا موظف في إحدى دوائر الدولة (جامعة دمشق)، قدّم لي زميلي (م. محروس) أوراق "معاملة" وهو يقول: خذ اقرأ أنت الكاتب واستوحِ قصة! واستأذنته بأن آخذ هذه "الكدسة" من الأوراق، المعلّقِ بعضُها ببعض بكثير من الدبابيس، لأسهر ليلتي أفكّها، وبيدي أنسخها (فلم تكن أجهزة "الماسح الضوئي" الفوتوكوبي قد شاعت). أوراق تروي حكاية موظف، أهمل تحريك معاملة مما يصل إليه، ونسيها في دُرج مدة خمس سنين!

من هذه الواقعة استوحيت قصة ذات مغزى: يحرّك هذا الموظف المعاملة بتاريخ اخترته ٥-٥ (وكان تاريخ وصولها إليه ٥-٥ قبل خمس سنين)، بأن يرفعها إلى رؤسائه.... وتدور الأوراق متنقّلةً بين دوائر مؤسسته، مرفوعةً إلى وزيره، ثمّ محالةً إلى وزارة المالية للاستئناس برأيها! وينتهي الأمر بإحالة الموظف، المغمور المقهور، إلى "التفتيش" و"التحقيق"، ما يؤدّي أخيرا إلى اقتراح صرفه من الخدمة!

أخذ الموظف، لمّا بُلّغ، يصرخ بصوت اخترق أبهاء المؤسسة:

"ولكن.. لماذا أدفع، أنا وحدي، ثمن تناقضات النُّظم البالية؟

لِمَ لا يعاقب واضعوها، ومطبّقوها، والراضون بها؟

إذا كانت هذه النظم تعجز عن حلّ مسألة صغيرة، فكيف بها أمام المعضلات الجسام؟

ألا تحتاج عقليتكم ذاتها إلى تغيير؟!

أليس مجتمعنا الغافي في حاجة إلى ثورة، ثورة حقيقية، لا ثورة شعارات؟!

أكثر من مئة توقيع تُخفق في صرف عشر ليرات سورية من خزينة الدولة؟! يا له من نظام!!

أن أسرّح أنا، تلك عدالة!!

أن يجوع صغاري، ذلك حق!!

ولكن الثورة الحقيقية آتية لا ريب فيها، إنّ الظلام يُعقِبه فجر منذ الأزل! "

تقول القصة:

إنّ زملاء العمل لم يصدّقوا أنّ هذا صوت زميلهم، "ولكنهم علّلوا بأنّ الظلم قد يجعل من الساذج فيلسوفًا ومن الخامل ثائرًا حقيقيًّا"

كتبتُ القصة أواخر العام ١٩٧٢ بعنوان "لعبة الأرقام المتوافقة"، نُشرت في مجلة "الثقافة العربية" (بنغازي، ليبيا) ١٩٧٤، ونزلت في كتابي "الابتسام في الأيام الصعبة".

دمشق الشام: ليل السبت ٥-٥-٢٠١٨

هل قرأتم ما قرأتُ؟

موظفة شابة، تعلّقت برجل الجيران، الذي تُطلّ على حديقته من نافذة في الدائرة الرسمية التي تعمل فيها. فتاة حالمة. إنه التخيّل الذي يشطّ بالكاتب؟

أمسِ، اتّصلَ بي صديقٌ مسؤول في مجلة "الرافد" الثقافية (تصدر في إمارة الشارقة) يُعلمني أنّ القصة نشرت في عدد هذا الشهر (مايو). هي طويلة بعض الشيء (نحو ألفَي كلمة)، ليحاول محبّو القراءة منحي نصف ساعة من وقتهم، لا أظنّ يأسفون!

قراءة ممتعة.

- - - - - - - - - -

في البدء ضايقها أنهم اختصّوا أنفسَهم بالحجرات الوسيعة المطلّة على الشارع، وأَفرَدوها هي وحيدةً في غرفةٍ خلفية! ولكنّ ما حلّ بها من الضيق فارقها ساعة تبيَّنت أنّ غرفتها تطلّ

على حديقةٍ منزلية صغيرة ذات شَجَر وزَهَر، وبِركةٍ تتوسّطها نافورةٌ ما تزال تتساقط من عيونها قطراتُ الماء طَوال ساعات الدوام!

في هذا المقرّ، الذي انتقلوا إليه من مبنى الوزارة استجابةً لدواعي التوسُّع، استطاعت أن تتكيَّف مع "منزلها" الجديد: الشجر؟ هي تحبّ الطبيعةَ، والزهرَ والماء، ولكنها اكتشفت أنّ هناك رَجُلاً يتّخذ من هذه الحديقة الخاصة مجلسًا له في ساعات نهاره، فأخذت ترقبه من مَكمَنها.

وإذا كان الطابق، الذي شغلوه في التوسُّع، يرتفع عن رصيف الشارع درجاتٍ عشرا، فإنّ حديقة هذا الرجل تنخفض عن نافذتها قليلاً، فتراها منبسطةً أمامها مثل كفّ، فكأنّ الحديقة أُنشئت لهذه النافذة بمقدار ما هي ملحقةٌ بالبيت الذي يسكنه الرجل.

بدا لها ساكنُ البيت في منتصف العمر، فارعَ القامة، مَهيبا. ولاحظت أنه يتحرّك في حديقة بيته على نحوٍ يتّسم بالطرافة واللطافة. أجل، فإنه، في دخوله الحديقة التي ينزل إليها عبر درجتين اثنتين، وفي تجواله فيها، تراه متخفِّفًا -في موسم الصيف هذا- من لِبْسه، مُتَبذِّلاً، فلا يكاد يستر جِذْعَه[1] إلاّ قميص، تحته بنطال البيجامة وأحيانًا الشورت القصير.

ولكنّ أكثر ما استرعى انتباهها جِلستُه على "الديوانة"، مادًّا ساقيه فوق "الطربيزة"، وهو يحتسي ساعة الضحى فنجان القهوة، ولعله الحليب، فهو كأسٌ بيضاء ذات عروة. وترى إلى جانب الديوانة طاولةً صغيرة، ينتظم فوقها ما تَعرِف هي من أدوات الكتابة.

كفَّت عن أن تشعر بالضيق لأنهم جعلوها في هذه الغرفة الخلفية، بل أخذت تَضيق ذرعًا

---

(١) جِذْعُ الإنسان ما عدا رأسه وأطرافه. ولا وجود لهذا المعنى في المعجمات القديمة، وإنما هو تعبير حديثٌ، تشبيهاً بجِذع النخلة: ساقها.

بزملائها، وخاصة الزميلات إذ يلجأنَ إلى غرفتها وفي يد كلٍّ منهنّ كأسُ شاي وشطيرة، فيتناولنَ فَطورهنّ عندها بعيدًا عن عيون الإدارة، وكان لا بدّ من أن يلحظنَ الرجلَ في جِلسته، يحتسي مثلهنّ فنجانه، ويرفع بين اللحظة والأخرى إلى وجهه طبقًا أنيقًا قد امتلأ بأزاهير الياسمين، ويُخيَّل إليها أنها تسمعه يقول متلذِّذًا: أشهد ألاّ إله إلاّ الله!

هتفت إحداهنّ وهي تراه للمرة الأولى:

- يا إلهي! إنه الكاتب "مِهْيَار المَهَايْري"، القاصّ والروائيّ والشاعر المعروف! هل نتبادل غرفتَينا، أنا وأنت، يا "أحلام"؟

ومع رفضها الذي لم تعلنه لهذا المقترح المجاني، أحسّت بأنها تمتلك إذن، وهي في مَطَلّها الخلفيّ، ميزةً جديرة بأن تستمتع بها، واقترن هذا الإحساس بالحرص وبالغَيْرة أيضًا!

عرفت أنه ذلك الاسم الذي ظلّت تسمع به وما كان يَعنيها من قبل أن تقرأ له. ثمّ استدلّت على المجلة التي دأب على أن ينشر فيها ما يكتب، قصصًا وأشعاراً وخواطر، فكان من شأن ذلك أن ردَّها إلى دنيا المطالعة التي غادرَتْها منذ عشر سنين أو يزيد، من يوم أن تخرّجت في الجامعة.

وأية مطالعة؟!

إنها لترى بعينيها الكاتبَ يكتب وهو في حديقة بيته، ثمّ تقرأ في الغد المكتوبَ منشورًا في تلك المجلة الأسبوعية المشهورة!

وإنها لتسمع... أجل، أصبح يُمتعها أن تسمع رنين الهاتف يأتيها من تحت النافذة. وإنّ هاتفه يرنّ بصوتين مختلفين: رنينُ جهاز الهاتف، ورنينٌ آخر ينبعث من جرسٍ متّصل بالجهاز، يستدعيه إن كان على مَبعدة. ويترامى إليها حديثُه، فتستوعب كثيرًا من عباراته الضاجّة بعد هدوء يكون مخيِّما: يعاتب، ينتقد، يفرح، يضحك، يقهقه عاليًا لدرجة الصخب! وربما رأته،

بعد المكالمة، ينهض إلى البركة، وينحني، ليأخذ كأسًا من فوق صحن المرمر تحت النافورة، قد ملأتها قطراتُ الماء المتساقطة، يتناولها، ويشرب هنيئًا ماءً طازَجًا مُبْتَرِدا. وأحيانًا، قبل أن يشرع في الكتابة أو بعدها، يأخذ المِقَصّ ينظّف به الشجر من الأغصان التي حلّ بها اليباس. وأحلى ما تراه سويعةَ ينتهي من سقاية الحديقة، أن يأخذ خرطوم الماء يرشّ الشجر، قاتلاً الضجر، غاسلاً الأغصان ومبلِّلاً الأزهار، وكما راق لها منظره وهو في مباذِلِه الخفيفة، استحقّ إعجابها وهو في لباس الخروج... إلى أين؟ إلى المجلة، تتوقّع، ليُقدِّم لهم مادةً جديدة للنشر؟ وساعة يزوره أحد الكتّاب، ويحتدم بينهما النقاش، فإنها تُهيِّئ نفسها لأن تقرأ في الغد مقالةً تتعلّق بالموضوع: اختلفنا، اتفقنا... رأته موضوعيًّا في عرض الآراء ومتواضعًا أيضًا.

أحبّت هذا العالَمَ الذي تطلّ عليه من وراء نافذتها. أحبّت أيام الدوام، وباتت تضيق بعطلة نهاية الأسبوع. وبدت أكثر ضيقًا بالعطل الرسمية التي أصبحت تراها مباغتةً وبغيضة!

خُيّل إليها أنها تعيش في بيت الكاتب الكبير، مهيار المهايري، تشاركه عالمه، ترافقه -وهي وراء نافذتها- منذ تَلِدُ الخاطرة في ذهنه، مرورًا بكتابتها وراء تلك الطاولة قريبًا من البركة، وانتهاءً بخروجها إلى النور... الكتابة! ليس في أثناء الكتابة وحدها، بل تراه -وما أعجب ما باتت ترى وهي في وقوفها وراء نافذتها السحرية!- يستقبل في بعض الأيام "المساعِدة"، التي تبدأ بغسل بلاط الحديقة، ثمّ تدخل البيت، تنظّفه، "تَقْلُطه"، تُدَبِّر أموره، وربما خرجت إلى الحديقة بسلّةٍ بيضاء، تسحب منها "قطعة غسيل" بعد قطعة، تناوله إياها، ينفُضها في الهواء، مثل ربّة بيت عريقة، وعلى الحبل يُلقيها... وتتابعه في اليوم التالي، وهو يَلُمّ، ثمّ يجلس على الديوانة، يطوي، يُطبّق، وتسمعه يغنّي: "يا مالْ الشامْ يا الله يا مالي، طالْ المطالْ، يا حلوَهْ تعالي"، رأت أنّ صوته جميل في الغناء أيضا... وتساءلت بشيء من الغَيْرة: ومن الحلوة التي

يناديها وقد طال انتظاره لها؟!

ولكن لماذا يعيش هذا الرجل في بيته وحيدًا؟

لم يَجْرِ هذا السؤال على لسانها. ولكنّ زميلتها "جميلة" -التي كان من حظّها أن حصلت على غرفةٍ مطلّة على الشارع الشماليّ- حدّثتها بأنّ زوجته قد "رحلت"، وأضافت زميلتها "نبيلة" -التي حصلت على غرفةٍ تطلّ على الشارع الشرقيّ- أنّ ابنه الوحيد يتابع دراسته في أمريكا. وأما زميلتها "عقيلة" -الساكنة في غرفةٍ تطلّ على الشارع القبليّ- فقد أكّدت لها أن ذُرِّيَّته كلّها تنحصر في الابن والبنت وبمن أنجبا، المتفرِّقين في الأقطار والأمصار!

ويومًا كانت في زيارتها "حفيظة"، سكرتيرة المدير العام، رأتها تهتف بصوتٍ عال، وهي ترى شابّةً وأطفالاً يدخلون الحديقة مرحين: "هي ذي ابنته وأطفالها، قادمين من "الخليج". ثمّ تراه، في الأيام التالية، وهو يأخذ أحفاده -في زياراتهم المفاجئة- بالحضن، واحدًا بعد آخر، يضمّهم، يشمّهم، ويدور بكلّ واحد في أرجاء الحديقة... فأدركت أيَّ عاطفةٍ يحمل في صدره هذا الكاتب، الذي رحل عنه الجميع، وتركوه مع قلبه المتدفّق حنانًا ومع قلمه السيّال! وأدركت، من ناحيةٍ أخرى، أنّ إعجابها بالكاتب يتحوّل إلى حبٍّ للرجل، حبٍّ من جانبٍ واحد طبعا، وهي ترقبه، من وراء نافذتها، يُبدع أفكاره عن الحياة، ويمارس عواطفه تجاه أحفاده الأحبّاء.

ثمّ إنه أخذ يتراءى لها في مناماتها! حَلَمَتْ مرةً أنها تعرّفت على المدخل المُفضي إلى بيته في الشارع الخلفيّ، وأسعدها أن رأته يهُشّ لها في استقباله، ثمّ يتبسّط في الحديث إليها، وهما جالسان متقابلين بجوار البركة، فكأنّ بينهما معرفةً تعود إلى قديم. ووجدت عندها ما يشجّعها على أن تُبلغه أنها تتابع ما يكتب... وهو من ناحيته، أبدى استحسانه بصبرها على ما أَلحقوا بها من غَبْنٍ يوم اختصّوها بغرفةٍ لا تطلّ على أيٍّ من الشوارع الثلاثة. ومن العجب أن سمعته

يعلن، باعتدادٍ ملحوظ، أنّ هذه النافذة (وأشار بيده) كانت "المعبر إلى أن تقرئي لي! "... ولم تكد تفرح بالذي سمعت حتى وجدت نفسها في سريرها!

أخذت تفكر فيما تأتّى له من "العمر الأدبيّ" وهو يكتب وينشر، وفيما تقضّى من "عمره الزمنيّ" وهو يعيش وحيدًا في هذا البيت وفي هذه الحديقة! تراه، أحيانًا وكأنه تجاوز الخمسين، ولكنها تراه دون ذلك عندما يمارس، تحت بصرها، رياضته الخفيفة: يرفع الذراعين ويَثني الجِذع. وكم يطيب لها أن تراقبه متمدِّدًا على الديوانة، مُراوِحًا رفع الساقين! فارقُ العمر بينها وبينه ليس كبيرًا، عشرُ سنين، عشرون، أكثر أقلّ، لا يهمّ. لياقةٌ في الجسم وفي الروح. كتابةٌ وإبداع. يكتب عن الناس. ليته يكتب عنها، هي الأقرب إليه مكانًا من كلّ الناس! "جارة الوادي"... إنها "جارة الحديقة"، "جارة النافذة". يكتب عنها؟ وماذا تراه يكتب؟ إنه لا يعرف عنها شيئًا أيّ شيء!

ولكنه كتب!

في المجلة، التي طلبت من آذن المؤسسة في آخر ساعات الدوام أن يأتيها بعددها الجديد، شدّها عنوانٌ عجيب: "فتاة وراء نافذة خلفية"!

أَهناك نافذةٌ خلفية أخرى، تطلّ منها على حديقة بيته فتاةٌ أخرى!

"كان يلمح طيفها -هكذا يقول- وهي ترقبه من وراء النافذة... "!

يا للفضيحة!

"كان قد لحقها غَبْنٌ يوم أَفردوها في هذه الغرفة الخلفية، ولكنها، إذ رأته... "!

ربّاه! إنه يرقبني كما أرقبه! ومن أين جاءه العلم بأني غُبِنْت!

"كانت حليمة -هكذا سمّاها- تختلس النظر إليه وهو يتجوّل في أرجاء الحديقة...

يسقي... يقصّ... يحتسي من كأس الحليب ذات العروة... يتناول كأس الماء من تحت النافورة... يطوي الغسيل ويغنّي "يا مال الشام"... يمارس الرياضة... يستقبل الزوّار... يضمّ أحفاده إلى صدره... ولطالما تساءلت: لماذا يعيش في بيته وحيدا؟ أخبرَنَها بأنّ الزوجة رحلت، وأنّ الأولاد والأحفاد تفرّقوا في الأقطار والأمصار... "!!

انطلقت منها صرخةٌ لم تفارق حلقَها: إنها حفيظة! لم أكن أعلم أنها وثيقة الصلة به إلى هذا الحدّ، وأنها تنقل إليه الأخبار والأفكار والأسرار!

لماذا يضطهدونني! رَمَوْني في هذه الغرفة الخلفية، فلما أتيح لي أن أُطلّ منها على ما ظننته عالَمًا متميِّزًا، وَشَوْا بي... يريدون تكسير أحلامي!

لم تستطع المضيَّ في قراءة القصة.

همّت بأن تخرج إليهنّ، تُعاتب، تحتجّ، تصرُخ، تسبّ.

ولكنها، من وراء النافذة هذه، جالبةِ المسرّات والفضائح، لمحته. لم تجرؤ على النظر، فإنه يملك -عدا المخبِرين والمخبِرات- "رادارًا" تخفيه عيناه. لاحظت أنه ليس في مباذله اليومية، بل في لباس الخروج. لا ينظر ناحيتها، هذا الذي كتب وفضح وخرَّب الدنيا! حتى الاسم لم يُوَفِّره! وإنْ حَوَّره من "أحلام" إلى "حليمة". أنا حليمة؟! كنتُ. أنا الآن امرأةٌ غَضُوب، شرسة، نمرة!

خرجت والمجلة في يدها. سبقوها في الانصراف. هربت سكرتيرةُ المدير العام، حفيظة الغليظة، ومعها جميلة ونبيلة وعقيلة، وكلُّ الواشيات والواشين!

على الرصيف، رأته. هو ذا... إنه -يا للعجب! - يتصدّى لها، وعلى وجهه بسمةٌ تتّسع، وكأنه لم يرتكب إثمًا!

.مساء الخير، "أحلام"!

لم ينادها "حليمة". ماذا يريد منّي؟

.هل راقت لك "قصة العدد"؟

رمته بنظرة شزراء. يا للجرأة "غير الأدبية"، التي يتّصف بها مَن ظنَّته، على مدى أسابيع، أديبًا كاملا مكمَّلا. ولكنها، في اقترابه منها، استروحت "عِطرًا رجاليًّا" من نوعٍ ما!

.أنا معجب بك!

معجب! أي تناقض؟

.ذلك ما عبَّرتُ عنه في القصة... هل أعجبتك الخاتمة؟

تشجّعت:

.لم أُتِمَ قراءتها.

.ظننت أنك ستلتهمينها.

اعتذرت:

.وصلتْ إليّ المجلة في آخر ساعات الدوام.

.كان طيفك يَشْغَلُني وهو يتراءى لعينيّ من وراء النافذة، ربما أكثر مما شغلك تحرُّكي وأنا في الحديقة!

ولكن... ولكنها لم يقع لها أن لاحظت عليه شيئًا من هذا!

.إني أعرف عنك كثيرا، يا أحلام!

تمتمت:

.ومن أين عرفت؟

.الإلهام! إنه الإلهام، يا أحلام!

ما أحلى اسمَها، تلفظه شفتاه!

.... الذي لولاه ما أبدع كاتبٌ أو فنان! أنا... أنا في حاجةٍ إليك، يا أحلام، تؤنسين وحدتي، وأَملأ الفراغ الذي تعانين منه، في حياتك الخاصة... والعامة... وعندئذ تتبيّنين أنّ دَفْعهم إيّاك إلى الغرفة الخلفية لم يكن غبْنا!

لم تتمالك نفسها وهي على الرصيف، أمام هذا الرجل الغريب الذي يتكلم كما في الأحلام. تزاحمت فيها الرغبات والاحتياجات والاختلاجات: أَتضحك فرحًا، تطير؟ أم تبكي إشفاقًا على نفسها من هول المفاجأة؟!

وما أحسّت إلاّ وهي تغادر الرصيف، موسِعةً الخطا، ثمّ... جَرْيًا في الشارع نحو البيت.

اجتازت الدرج وثبًا.

وقبل أن تنضو ثيابها، فتحت المجلة لتستكمل القراءة، قراءة القصة التي كتبها عنها، ولها، الأديبُ العظيم "مهيار المهايري"، مانحًا الأمل، مفسحًا الأفق... ستعيد قراءة البداية، ثمّ تقرؤها مرةً ومرات، تحفظ عباراتها، مفرداتها، حروفها، نصَّها كلَّه.

قلَّبت الصفحات، بحثًا عن القصة.

لم تجد القصة، لم تجد أثرًا لقصة عنوانها "فتاة وراء نافذة خلفية"، لم تجد في هذا العدد قصةً قط!

قلَّبت، وقلَّبت...

انهارت فوق سريرها. أجهشت بالبكاء.

لسوف تسأل، غدًا، زميلاتها وزملاءها، وتستجديهم الجواب:

هل قرأتم ما قرأت؟!

هل أحدٌ منكم رآه وهو يحدّثني على الرصيف؟!!...

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر السبت ٥-٥-٢٠١٨

عن النكبتين: الفلسطينية والسورية

تلقيت سؤالًا صحفيًّا، أجبت عنه بما يلي:

كانت النكبة الفلسطينية شديدة على أمتنا، لتجاوزها ما كنا نعانيه من توغّل الاستعمار في أراضينا، حتى الاستيطاني منه الذي استعبد الناس ولم يُلجئهم إلى ترك البيوت وحمل المتاع على الرؤوس والتوجّه إلى ما وراء الحدود. وجاءت النكبة السورية اليوم بجديدها الذي هدم البيوت على رؤوس ساكنيها وألجأهم إلى النزوح وإلى افتراش الأرصفة والعيش في المخيمات والملاجئ البعيدة.

وأما العلاقة بين النكبتين، فالفلسطينية التي ابتدأت بقرار التقسيم خريف ١٩٤٧، كان وراءها أمريكا والغرب ولم يتوانَ حتى الاتحاد السوفياتي عن الضلوع. ووراء النكبة السورية اليوم، الغرب أيضا، المتواطئ بصمته، وكأنه يدفع "بقيصر روسيا" الجديد ليكون في المقدمة، يتظاهرون برفع الصوت احتجاجا، ثمّ يهادنون.

ومن مفارقات الزمان أنّا لم نقرأ في التاريخ أنّ شعبًا هُجّر نصفه، يركبون الأهوال في توجّههم إلى المنافي والفيافي، مثلما يقع في سورية: عشرة ملايين نسمة، رقم مذهل، ويُرحّل اليوم آخرون إلى شمال الوطن، لا يُعرف حاضرهم ولا المصير.

ويكمن وراء هاتين النكبتين تخطيط مبيّت لتحجيم أمتنا العربية والأمم الإسلامية، فقد "جاء الدور" بعد القضاء على امبراطورية السوفيات، ومن بعد يأتي الدور على أمّة الصين.

نُشر مساء الجمعة ٤-٥-٢٠١٨ في موقع "جيرون"

دمشق الشام: فجر السبت ٥-٥-٢٠١٨

الأسطر قد كُتبت...

الأسطر قد كُتبت...

لكنها تحتاج إلى "فريق عمل" يخرجها في كتب إلى ضياء الأيام القادمة!

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٧-٥-٢٠١٨

ما أصعب أن...

ما أصعب أن يرخي الظلام سدوله..

وبعض الأسطر لم تكتب بعد..

أخبار.. سوريّة

سألته لماذا لا يردّ على الهاتف؟ فأجاب، وهو يُلعّب مقصّه بعصبيّة بجوار أذني:

ـ لأنه لا يأتيني منه إلا الأخبار المزعجة، ابنك كان راح يمسكوه الشرطة العسكرية وياخدوه، بنتك في لبنان زوجها يهدّدها بالطلاق، عمّتك أم صبحي ماتت... أنا لي قدرة أروح للتشييع والتعزية!

كنت قد نزعت سماعة الأذن الصغيرة ووضعتها على المرمرة أمامي، قال:

ـ خذ السماعة، أستاذ، حتى تسمع منيح!

في لبنان شابّ سوري يعمل سائق سيارة مدرسيّة، توقّف في مكان لينزّل أطفالا، زمّر له من ورائه لبناني مستعجل، قال له: طيب طيّب استنّى [(١)] حتى ينزلوا الصغار! لاحظ اللبناني النَّزِق أنّ الشاب سوري، قال له: "سوري وبتحكيي! "، عاد إلى سيارته وجاء بعصا غليظة وبرفيق له، ظلاّ يضربان الشاب حتى نزف، وفي المستشفى مات. تريد قصة أخرى سمعتها من بنتي ع التلفون؟ بائعة ورد سورية صغيرة، دعستها سيارة لبنانية وماتت على الفور، السيارة تابعت، وجاء بعض الناس وحملوها إلى الحاوية!

نزعت السماعة، وقلت للحلاق:

- بس بس!

وهأنذا أضيف:

يا سيدي النظام!

ألا تعمل شيئا من أجل مواطنيك الذين يموتون في كلّ مكان بالمجّان!

حتى في لبنان، الذي أنزلنا لاجئيه يومًا في بيوت من حجر، وفي مزارع ذات ثمر، ومسابح يملؤها الماء العذب، يا سيدي النظام!

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٨-٥-٢٠١٨

لم يكن قد بلغ العشرين

لم يكن قد بلغ العشرين من العمر يوم توجّه إلى ديار الغرب، بقدر من اللغة وبقليل من الدراهم، ولكنّ الصدر كان عامرًا بآمالِ علم وتحصيل...

---

(١) انتظِر. وهي تحريف الفعل استَأْنى في الفصحى بمعنى ترفَّق ولم يتعجّل.

أولى محطّاته كانت في تلك الدولة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية مكسورة، لكنّ القامة انتصبت من بعد دمار، على نحو أصبح الناس فيه يخرجون مصطافين، يُطلّون على مياه المتوسط الدافئة، بالرغم من تلك القبضة الفولاذية المهيمنة عليهم القادمة من الغرب البعيد.

عمل الفتى في شركة تستورد وتَنْخُب وتُعَبّئ، وهو يُمنّي النفس في أن ينعم بـ"إقامة" نظامية يتعلم لغة القوم الصعبة، ويدرس.

ويلتقي في يوم من الأيام بضابط، هو واحد من الذين يمارسون النفوذ على أنهم مستعمرون لهذا البلد، رأى من جميل ودّه ما جعله يرتاح لهذا الأمريكي، الذي وعده بأن يوفّر له الإقامة، يأمر بالدالّة التي يملكها فيُطاع!

ولم يَطُل استعجابُه من هذه الأريحيّة التي هبطت عليه من عل، فقد تبيّن له أنّ الضابط "مِثْلِيّ" الاتجاه ممّن يُمارَس عليهم... فتقزّز، وزاده تقزّزًا بأنّ ذاك أخذ يحاول "إقناعه" مبرّرًا ومسوّغًا... وفد مكّنته الحظوظ من أن يدخل الدولة المجاورة، فرنسا، وفيها أكبّ على تعلّم لغتها الجميلة، وعمل ودخل الجامعات، واستطاع أن يجمع بين فروع من العلوم المدنية وبين التراث الذي نشأ عليه في الوطن، وأصبح بحرًا من علم جعله داعيةً يُستضاف ويُستفتى.

يجمعني مع هذا المثقف أنّ جدّه لأمّه هو جدّي لأبي، القادم من حمص إلى جلب استجابة للنفير العام الذي أعلن في أواخر العهد العثماني عام ١٩١٥، الحاج سليم المفتي السباعي، يرحمه الله.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٠-٥-٢٠١٨

لا يريد "أبو الجود" أن يخادع نفسه

لا يريد "أبو الجود" أن يخادع نفسه. لا يُنكر أنه أتى، البارحة، فعلاً إدّا، ما جعل جيرانه،

في "سوق العطارين"، يتواردون إلى دكانه طَوال النهار، ملقين في سمعه أقسى عبارات اللوم والتقريع!

على أنه غسل، هذا الصباح، عار الخطيئة بالعطاء الكثير... فهو، الآن، راضٍ مطمئنّ.

وفد عليه، صباح البارحة، في دكانه، جارُه الفتى "ياسين"، وقال وهو يخفي بين شفتيه بسمة ماكرة:

ـ أهل التبرّع، يا أبو الجود، آتون إلى السوق بعد قليل. فماذا أعددت لهم؟

فما كان منه إلا أن أجاب، وهو متشاغل بتنفيض الغبار عن رفوف الدكان:

ـ هذا أمر بيني وبين نفسي!

فقال الفتى في فُضول:

ـ بل هو أمر يخصُ الناس كلهم وإنّ ما يهمّ أهل السوق أن يعلموا ما تنوي أن تدفع، أكثير هو، أم قليل؟

فاغتاظ لهذا الفضول، وصاح في ضيق:

ـ ألن تذهب إلى دكانك هذا الصباح؟!

فقال ياسين متصنعًا لهجة الناصح المستحثّ:

ـ عمّي أبو الجود.. دع نقودك تتنسّم الهواء. الواجب الوطني يدعوك للدفع والفداء!

فاندفع يقول:

ـ بل الواجب يدعو الأغنياء! ماذا يملك جارك أبو الجود العطار؟ بيته بالكِراء وماؤه بالشِّراء! ألا يكفي أنني أكدح نهاري لتوفير اللقمة لأبنائي الخمسة الصغار؟ ألا ترى كدي هذا واجبًا أؤديه تجاه الوطن؟ ليذهبوا إلى الأغنياء. إنّ منفعة القرش عند جارك أبو الجود هي

أضعاف منفعته عند التاجر الميسور!

ولقد ظن أنه أصاب قناعة الفتى؛ لأنّ هذا لاذ بالصمت، واكتفى بأن هز رأسه هزّات متوالية وكفّاه معقودتان خلف ظهره، واستدار ومضى إلى دكانه.

وفيما عاد إلى تنفيض الرفوف، كان يتصور المبلغ الذي راح يدّخره منذ سنين، تراوده في ذلك دار للسكنى يشتريها عمّا قريب. ولقد أفضى، من أسبوعين، إلى جارٍ له يدعى "عبد الستار"، دكانه في آخر سوق العطارين، بحكاية عزمه على شراء دار، ولعبد الستار خبرة بالعمران ورأيٌ سديد، وطلب منه أن يترصّد له دارًا نظيفة تكون لبنيه الخمسة الصغار ذخرًا في الأيام الغوادر... إلا أنّ عبد الستار –سامحه الله! – قام يُذيع الحكاية بين أهل السوق عندما تنادَوا للتبرّع، يقصد إلى التدليل على المَلاءة والقدرة على الدفع!

وما لبث أن رأى "الحاج خالد"، كبير الباعة في السوق، يسير الهوينى متجهًا صوب دكانه. إنّ الفتى الخبيث ياسين قد حكى له، لا بد، عمّا دار بينهما من حديث.

ووقف الحاج خالد في فم الدكان، وقال:

ـ صباح الخير، يا أبو الجود.

فاستدار إليه ورد التحية، ولم يدعه للدخول إلى الدكان، فقد حدَس أنّ مجيئه ليس إلا بقصد التحدث في أمر التبرّع. وما لبث أن ارتدّ إلى صدر دكانه يهُشّ الرفوف منفِّضًا.

قال الحاج، بعد هنيهات، كمن يحكي بينه وبين نفسه:

ـ اللهم أسمعنا الأخبار الطيّبة عن أهل سوق العطارين في أسبوع التسلح هذا.

لقد حزَر! ألم يقل هذا في نفسه؟ ماذا يريد منه الحاج خالد؟ ما لأهل السوق آكلين همّه؟ لن يتبرّع! لا يملك مالًا. لا يملك فائضًا. ما معه لا يكاد يفي بثمن الدار، وهو لا يريد أن يؤجل شراءها!

وبادره الحاج خالد قائلاً:

ـ أتدري ما ينوي أن يتبرّع أبو عامر، اليافاوي، صاحب الدكان المواجهة؟

فلم يجبه. فأضاف الحاج:

ـ ألف ليرة سورية!

الحقّ، إنّ الرقم يدعو إلى الإعجاب، وقد شعر بعينيه تضيقان. ولكنه تمالك نفسه، واندفع يقول بحرارة:

ـ وما الألف! لو كنت مكانه لدفعت أكثر، فدكانه تُغِلّ له أضعاف ما تربح دكاني ودكانك جميعًا... ثمّ مَن أولى منه بالدفع، والعرب إنما يحاربون لاسترداد وطنه السليب فلسطين؟!

فقال الحاج خالد:

ـ وهل تعتقد، يا أبو الجود، أنْ ليس للتبرّع سوى هذا الهدف؟ ألا ترى أننا لو تهاونّا وضنَنّا لاستُلِب وطنُنا كما استُلبت بالأمس أرض فلسطين؟ أتظنّ أنّ مطامع العدو تقف وراء الحدود التي هو دونها اليوم؟ ألا ترى أنه يتطلّع إلى ابتلاع الأرض التي تقف أنت عليها الآن؟!

وقد جعل يتفكر بمقال الحاج خالد، وتصور اقتحام العدو بلاده... أين هذا التصور الخيالي من التحقيق؟ إنما يُمليه على الألسن حرصٌ على استثارة النخوة للتبرّع في أسبوع التسلح هذا. أفيُعقل أن يستولي اليهود على أرض سوريّة، وعلى حلب هنا في أقصى الشمال؟ معناه ليست لنا عقول!! إلا أنه أحبّ أن يختم الحديث بما يرضي الحاج، فقال:

ـ لا شكّ، يا حاج خالد، أنّ التبرّع واجب ينبغي ألا يقصّر فيه القادرون.

فحدجه الحاج بعين مفتّحة، وقال:

ـ وما تنوي أن تدفع، يا أبو الجود؟

ـ ما يقدرني الله عليه!

ـ لقد قررنا، نحن أهل سوق العطارين، أن يدفع كلّ منّا خمسين ليرة حدّ أدنى... ومن شاء فليزد عليه بقليل أو كثير، وأحبِبْ به من كريم غيور.

ـ والله، يا حاج خالد، صراحة: أنا، من جهتي، اليد قصيرة!

قال الحاج مستفهمًا:

ـ يعني!

ـ لا أستطيع أن أدفع كلّ هذا المبلغ!

ـ وأيّ مبلغ خصّصته للتبرّع؟

وتنحنح في موضعه، ثم قال:

ـ لن أدفع شيئًا.

فصاح الحاج خالد غير مصدّق:

ـ كيف؟ ولماذا؟

ـ لأنني لا أملك فائضًا من المال!!

فإذا الحاج يتوثّب في موضعه، ويقول:

ـ ما شاء الله، يا أبو الجود! أهذا ما تُمليه عليك وطنيّتك! أتستكثر على جيشك مثل هذا المبلغ اليسير؟ ذلك الجيش الذي يحفظ لك حياتك، ويدافع عن بنيك العدوان، ويُبقي عليك دارك التي ستقتنيها بعد حين؟!

وترك فِناء الدكان، ومضى.

ثمّ إن لجنة جمع التبرّعات دخلت سوق العطارين من أعلاه. وجعل رجالها يتفرّقون كلٌّ

إلى دكان، يتسلّمون التبرّعات ويدفعون إلى أصحابها بقسائم تُشعر بمقدار التبرّع.

أما هو، فقد انزوى، لدى دخول رجال التبرّع إلى السوق، في ركنٍ مُعتم من دكانه. وقد خشي، إن هو أبدى عدم استعداده للتبرّع بعد لحظات، أن يصيبه من أهل السوق سخريةٌ وأذى... فهم مصرّون على الظنّ بأنه ميسور الحال، وأنه مقتدر على دفع الخمسين ليرة، في حين أنه لا يملك فائضًا، وأنه يَعِزُّ عليه أن يَنقص مالُه المدّخر فيتأخّر شراء الدار. ليتبرّعْ الموسرون، فتبرّعُهم إن أخلصوا يُغني... أما تبرّعه هو، فلن يزيد في حصيلة التبرّع شيئًا مذكورًا.

وكان، كلما تدانى رجال التبرّع من دكانه، اشتدّ ذُعرُه وهو في زاويته المعتمة. كيف يثبت لهم فقره ورقة حاله؟ إنهم لن يُصدّقوه. فإن صدّقوا، انبرى له أهل السوق، وفي طليعتهم ياسين الخبيث، مُسَفِّهين زعمه مكذّبين!

على أنه ما لبث أن واتته الجراءة. فوثب واقفًا. وتناول "الشبكة" من جانب، ورماها على مدخل الدكان... ثمّ أَوْلاها ظهره، وهمّ بأن يمضي. إلا أنّ جاره ياسين تصدّى له، لم يخطُ غير خطوتين، وسأله:

- إلى أين، يا أبو الجود؟

فأجاب على عجَل:

- إلى الجامع.. أنقض وضوءًا!

وأَغَذّ السير هاربًا لا يلوي، قبل أن يدهمه رجال التبرّع. فإذا ياسين الخبيث يطلق له صرخة الهزء المعروفة عند أهل السوق: "هوو.. أبو الجود هرب.. هووو... ". وسرعان ما تردّدت، لهذه الـ"هوو" المطوطة، أصداء أبعدَ مطًّا راحت تنساب، كنعيب البوم، من أفواه أهل السوق، إلى سمعه وهو يتعثّر في طريقه إلى الجامع القريب!

وقد مكث هناك، في الجامع، وقتًا، قدَّرَ بعده أنّ رجال التبرّع لا بدّ قد انصرفوا. فخرج من مكمنه إلى الدكان. فلما وقع عليه نظر أهل السوق أنشؤوا يطلقون له تلك الـ"هوو" المـمطوطة من جديد...

وطفق جيرانه بعد ذلك يتواردون إلى دكانه، طوال نهار البارحة، واحدًا إثر آخر، لائمينَ على ضنّه طورًا، وهازئين من هربه -بإيحاء من ياسين! - أطوارًا.

ثمّ إنه عاد إلى بيته ليقضي أمسيته بين زوجته وأطفاله كاسفَ البال محزونًا.

ولما أوى إلى فراشه، جعل يستعرض في مخيّلته ما مرّ به في يومه الحافل من أحداث: حديث ياسين والحاج خالد، وإقبال رجال التبرّع إلى السوق، وهربه إلى الجامع، واستهزاء أهل السوق به... وتذكّر أبا عامر اليافاوي، وما تبرّع به من مبلغ سخيّ، وبلده يافا التي هجرها، و"بيارات" البرتقال الغنيّة التي نزح عنها ولم يحمل معه منها غصنًا... وتصوَّرَ ما قال الحاج خالد من أنّ الأعداء طامعون بالاستيلاء على وطنه، هذا الذي يقيم على أرضه اليوم ويستظلّ سماءه طاعمًا ناعمًا...

ولقد أخذته، في ذلك، سَنَةٌ من النوم، فرأى نفسَهُ وقد امتلك الدار التي صبا إليها منذ سنين، قد دلّه عليها جاره عبد الستار... ورأى أيضًا، فيما يرى النائم، أنّ أطفاله الخمسة الصغار قد تزايد عددهم فراحوا يملؤون الدار بِشرًا وسعادة... إنه، في أيامه الرخيّة تلك، يستفيق الزمان الغافل ليرى أنّ أبو الجود العطار قد مُنح حظًا من السعادة أكثر مما يستحقّ، فإذا هو يُعمل في سعادته يد التخريب والتشتيت!

وإنه، الآن، لا يذكر، من أضغاث ذلك الحلم المروّع، إلا أنّ عدوًا، غفير العَدد هائل العُدد، قد اقتحم وطنه، الذي شحّ فيه السلاح وما هان على أهليه التبرّع... فإذا المدينة قد أصبحت بَلْقعًا، وإذا الناس جميعًا ينزحون عنها هاربين، وقد خلّفوا وراءهم كلّ ما ملكت

أيديهم من دار ومتاع، وإذا عددٌ غيرُهم كثير تُزهَق أرواحهم ما بين عشيّةٍ وضحاها.. ثمّ تدخل جحافل العدو تخوض بحرًا من دماء... ويتفقّد في ذلك داره، ذاك الحلم الزاهر، فإذا هي خرابٌ في خراب، وإذا أبناؤه، قرّة العين، قد قضَوا تحت أنقاضها... فيبكي الأولادَ والدار مرّ البكاء، ويَعَضّ البَنان ندمًا، لحرصه فيما مضى على ماله، وبخله حتى بالقليل منه، يوم دعاه داعي الوطن للبذل والفداء، فاشترى تلك الدار ولم تنفعه في دنياه شيئًا ماعزّ على حُماتها السلاح... ولا ريب أنّ نفرًا كثيرًا قد شاركه هذا التقصير، ولو كان قد عرف هؤلاء المقصرون ما يؤول إليه ضنُّهم، لامتدّت بالتأكيد أيديهم بسخيّ العطاء... إذن، فقد كان الحاج خالد محقًا عندما قال له في ذلك اليوم البعيد: "إنّ العدو ليتطلع إلى ابتلاع الأرض التي تقف عليها الآن! ".. تُرى، من أين واتاه هذا الرَّجْم الصحيح؟ وأين هو، الآن، هذا الناصح العارف اللبيب؟

وصحا، وقد امتلأت نفسه فزعًا وذعرًا... فإذا كلّ ما مرّ به، في ليلته، ليس سوى خيال لا تربِطه بالواقع وشيجة. فاطمأنّ قلبه وهدأ باله، وحمد الله كثيرا على أنه كان في حلم. ثم جعل يقابل ما بين مقال الحاج خالد في صبيحة البارحة وبين أحداث هذا الحلم الرهيب: ألا يمكن أن تقع الواقعة لو تقاعس عن التبرّع كثيرٌ غيره تقاعُسَه هو؟ ولِمَ يكون في زمرة المتقاعسين؟ أليس الأسلم أن يدفع شيئًا من ماله المدّخر ويؤجّل شراء الدار شهرًا، شهرين، عامًا كاملاً؟

وفي خروجه من بيته، في هذا الصباح، مرّ في "شارع القلعة". فرأى في باب القلعة مدفعًا من مدافع الميدان وحوله عدد من الجنود... وصافحت عينيه لافتاتٌ قرأ فيها: "المجد للسلاح.. فصُنْ مجد بلادك بثمن بندقيّة"، "بالسلاح تُحمى الأرواح"، "الجندي يبذل روحه.. فابذل أنت شيئًا من مالك"... فأحسّ بالرغبة في أن يعانق هذا الجندي الفدائي، بعد أن أيقن، الليلة، أنّ حياته وحياة أبنائه، رهينة بالسلاح، تملكه يداه، فيدفع به العدوان، ويحمي الأرواح،

ويصون المجد.

وما هو إلا أن شقّ لنفسه طريقًا وسط الزحام. ولما وصل إلى "الصندوق" كانت دمعتان تنحدران على خديه. وألقى بمبلغ بين أيدي رجال التبرّع. ثمّ انسلّ من وسط الجمع، يمسح دموعه بيد ويدسّ بالأخرى قسائم التبرّع في جيبه... بينما راح المتجمّعون يُنْعِمون فيه النظر بمزيد من الإكبار.

وفي وصوله إلى سوق العطارين، مرّ بدكان الحاج خالد، وأطلعه على القسائم. فدُهش هذا غاية الدهش وكاد يكذّب عينيه. فحكى له حكاية الحلم المروّع، والعين منه دامعة والقلب واجف.

وسرعان ما انتشر الخبر في السوق. فجعل أهلوه يتواردون إلى دكانه، طوال ساعات الضحى من هذا النهار، مهنّئين مباركين... على حين كانت بسمة الارتياح لا تفارق شفتيه.

إنّ "أبو الجود" لا يريد أن يخادع نفسه. لقد أتى، البارحة، فعلاً إدّا. ولكنه غسل، في باكر هذا الصباح، عار الخطيئة بالعطاء الكثير، فهو، الآن، راضٍ مطمئنّ.

أما الدار، فسوف يشتريها بعد عامين اثنين... ولسوف تبقى له، ولأبنائه، في حرز، ما دام يحرسها السلاح.

حلب، ١-١-١٩٥٦

للعلم..

للعلم.. إنّ الأكثرية الساحقة من سكان الأندلس كانوا من أصول إسبانية (وأقلهم من أصول عربية ومغربية)، وهم بإسلامهم ولغتهم العربية شكلوا ما يمكن تسميته بمصطلح اليوم "القومية الأندلسية" المتميّزة، وهم الذين ظلوا يدافعون عن الأندلس الإسلامية ضد

الممالك الإسبانية المسيحية.

وعند سقوط آخر معاقل الأندلس، غَرْناطة (١٤٩٢م)، كان أُسْقُف قرطبة المتشدّد "سيسنروس خيمينيس" يحُضّهم على "العودة" إلى دين أجدادهم، وهم متمسّكون متماسكون، ومن هنا كانت "محاكم التفتيش" (والصحيح "دواوين التحقيق")، والتعذيب، والإبادة، والترحيل إلى أنحاء إسبانيا والتهجير إلى المغرب.

حدثني قريب لي مرّ بإسبانيا أنه التقى بإسباني، أخذ يحدثه عن أنه "يشعر" بأنّ أجداده أندلسيون مسلمون، وأبدى له حزنه لأن بناته الثلاث يلبسنَ مُسُوح الرهبنة.

إضافة صغيرة عن الأندلسيين، المتمّسكين بدينهم الإسلامي: أنّ أديب الأندلس الأكبر وفقيهها الأشهر، ابن حزم، هو من أصول إسبانية، وكان أبوه وزيرًا في آخر عهد الأمويين هناك أيام سيطرة "الحاجب المنصور".

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٨-٥-٢٠١٨

"علمانية" بامتياز

نعلم أنّ حكومة بلدنا "علمانية" بامتياز

فكيف تسمح باللطم في شوارع دمشق وفي سوق الحميدية، هذا "الطقس" الذي كان منعه العراق، فلما باد النظام هناك عاد... فهم اليوم يشُقّون الجيوب ويلطِمون الخدود.

كان يتردّد عليّ فنيٌّ يعتني بما عندي من أجهزة. وفي الصداقة التي نشأت بيني وبينه قدّمت له بعض كتبي، فكان يلتمس أن أكتب عليها إهداءً لولده المولع بالقراءة يصحبه إليّ أحيانًا... بالأمس "يَزُفّ" إليّ أنّ ابنه ينزل إلى "شارع الأمين" يلطِم... فوا أسفي على "التربية الأدبية المضيَّعة"!

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٩-٥-٢٠١٨

في صدر بيتي

في صدر بيتي، الغرفةِ التي يحلو لي أن أكتب وأنا فيها، شُبّاكٌ عالٍ يُطلّ على باحة المدرسة الابتدائية المجاورة، لا يُتيح لي، لارتفاعه، أن أرى ما وراءه ولكن منه تأتيني أصوات التلاميذ وهم في الباحة يلعبون، آنس بهم وأتذكّر أولادي المسافرين والأحفاد.

ذات يوم زرت المدرسة لأمر ما، فرحبّت المديرة وبعض المعلمات بالجار الذي يعرفنَ أنه دأَبَ على الكتابة، وخطر لي في ذلك أن أعبّر لهنّ عن استمتاعي وأنا أكتب بسماع أصوات التلاميذ عند خروجهم إلى الباحة كلّ ساعتين، وأني على هذا "أضبط وقتي"!

ولم أستغرب ما أبدته إحداهنّ من دهشة لاستمتاعي بضجيج الصغار، وهي التي يمتلئ سمعها به أشكالًا وألوانًا طوال ساعات عملها اليومي.

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٠-٥-٢٠١٨

كان علينا أن يُهنّئ بعضُنا بعضًا

كان علينا أن "يُهنّئ" بعضُنا بعضا عندما نتلاقى، وأن نتعانق، فرحًا بذهاب النظام الملكي، ونحن نستمع إلى أخبار السحق والمحق في بغدادِ العباسيّين، ورَبْطِ أجساد المسؤولين بمؤخّرات السيارات والجَري بهم في الشوارع حتى تذوب أسافلهم من الجرّ والسحل (وذلك ما لم نكن قد سمعنا به من قبل...)

ذلك ما كان في يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، و"المارشات العسكرية" من إذاعة "صوت

العرب" تقرَع أسماعنا، تتخلّلها جعجعة أحمد سعيد[١].

دمشق الشام: عصر الأحد ٢٠-٥-٢٠١٨

لا تقتلوهم...

دعوهم يمارسون البراءة والمرح والحبّ والحياة...

دمشق الشام: مساء الإثنين ٢١-٥-٢٠١٨

وكان امتحانا باللغة العربية

قبل أن أغادر عالم الوظيفة الحكومية (في عزّ شبابي وليس في مستهلّ الشيخوخة)، عَهِد إليّ وزيري الدكتور أسعد عربي درقاوي (واحد من سُلالة الأمجاد رفقاء الأمير عبد القادر القادمين إلى بلادنا)، أن أتولّى امتحان المرشّحين لشَغْل وظيفة "مُعيد" بجامعات الوطن فيما سُمّي يومئذ "امتحان المقدرة اللغوية" متشاركًا في هذه المهمة والدكتور محمود ربداوي عميد كلية الآداب، نجتمع معًا في أحيان قليلة وغالبًا ما يَمتحِن كلّ منّا في مقرّه مَن يصل إليه من هؤلاء المرشَّحين، امتحانًا شفويًّا نعرض فيه على "الطالب"، المهيَّأ ليكون أستاذًا جامعيًّا، أن يقرأ نصًّا، ومن خلال ذلك نحكم عليه بالنجاح أو عدمه... ويقتضيني الأمر أن أبيّن أنّ ذلك كان في شتاء ١٩٨١ حتى أواخر ٨٢ وفيها غادرت الوظيفة.

أقول: حضرت إليّ مرة خريجةٌ في كلية العلوم "ر. ف. ك"، ولدى امتحاني لها، كُتب عليّ أن أستمع إلى أسوأ اللُحُون في لغتنا الجميلة... فأوشكت أن أصرخ: ما هذا، يا خريجة الجامعة،

---

(١) مُذيع مصري، اشتهر في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وكان مديراً لإذاعة صوت العرب في تلك الفترة، وكانت صوت العرب من أهم الإذاعات العربية آنذاك.

أنت التي سوف تقفين عمّا قريب أستاذة تُلقين محاضراتك على طلاب هم زهرات الوطن! قلت لها هذا لكن دون ضجيج أو صراخ، فرأيت العرق يَزُخّ من جبينها، وكنت لاحظت عليها بوادر خوف وتحفّظ منذ دخولها، فأنشأت تتحدّث معترفةً بأنها تدرك مقدار ضعفها في لغتها العربية، وفسّرت بأنها وهي في آخر مرحلة الابتدائي أخطأت يومًا في القراءة فصفعتها المعلمة على وجهها أمام التلميذات، فكان أن "تعقّدت" الصبيّة وتخلّفت في العربية!

وما الحلّ الذي كان؟

كنت أقترح على المرشّح للمعيديّة أن يذهب من فوره إلى "مؤسسة الكتب المدرسية"، فيتناول من هناك كتب القواعد لصفوف الإعدادي الثلاثة، فإنّ فيها كلّ القواعد، يدرسها منفردًا أو بإشراف معلم، ويعود إليّ بعد أشهر ثلاثة، وإلا يخسر طموحه!

ولما كان صدور قرار التعيين لا يكون إلا بتلك الوثيقة التي نوقّعها معًا -أنا وعميد الآداب- فإنّ الطالب لا يجد مندوحة من الانكباب على الدراسة المقترحة. ولقد عدت أستقبل خريجة العلوم بعد تلك الأشهر، وبامتحانها أسعدني سماعي إياها تقرأ دون أخطاء، وكنت أسألها عن هذه القاعدة النحوية أو تلك فتجيب مغرّدة مثل بلبل.

وهنا بيّنت لي "خريجة الرياضيات" منشرحة الصدر أنها رأت في النحو "منطقًا" كما في الرياضيات: هنا واحد زائد واحد يساوي اثنين، وهنا "أكلَ الولدُ تفاحةً" فعل وفاعل مرفوع ومفعول به منصوب... واسترسلت بأنها، وهي معلمة في قرية مجاورة لبلدتها (في الساحل السوري)، تسكن غرفة تضمّ سريرين، وهي لغرامها المستحدث بالنحو كانت تسهر وتُطيل، حتى لتخشى أن يُضايق ضوء الكهرباء عينَي صديقتها!

نجحت، وعُيّنت، وتأهّلت، وعملت -كما أتوقع- أستاذة للرياضيات في الجامعة، وأرجّح أن تكون "أُعيرت" لبعض الجامعات العربية هنا وهناك، وأغلب الظنّ أنها بلغت سنّ

التقاعد، وأنها مارست الأمومة وأمست جدّة أيضًا!

ورحم الله زمانًا... يمرّ بنا... ثمّ يُغرينا بأن نستدعي منه ذكرياتٍ نترنّم بها.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢٣-٥-٢٠١٨

أحكمت السيطرة على أفراد أسرتها

أحكمت السيطرة على أفراد أسرتها، الزوج ثمّ الأبناء واحدًا بعد الآخر... وهي كلما اختلفت مع أحد من الناس هبّوا يقفون إلى جانبها بالباطل قبل الحقّ، ويقاطعون، وزاد الأمر بأنهم، في عالم الفيس، يحذفون ويحظرون.

وبعض النساء ينظرنَ إليها بعين الغِبطة والحسد: نيّالها، زوجها وأولادها في إيدها متل الخاتم!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢٤-٥-٢٠١٨

في تردّده عليه

في تردّده عليه كان يسترسل في الحديث عن الحرية المغيَّبة، وأحيانا يناوله ورقة مطبوعة تنطوي على آخر تغريداته في قضيّة الحريّة.

ذات يوم رأى وسائل الإعلام تعلن تسميته في منصب سياسي رفيع... فاستغرب جدًّا.

التقى به، فانبرى يعاتبه: "فهكذا أنت، يا منظوم! "

فأجابه: "أن أكون أنا في مثل هذا الموقع خير لكم من أن يكون غيري! ".

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٤-٥-٢٠١٨

عندما رأيت الناس ينتظمهم صفٌّ طويل

عندما رأيت الناس ينتظمهم صفٌّ طويل تبيّنت عجزي عن الوقوف في الدور.

تقدمت أستأذن الموظف وراء الكَوَّة بأني موجوع الظهر ولا أقوى على الوقوف في الصفّ، فأشار عليّ بأن أستأذن المنتظرين، فوافقوا، وانبرت من بينهم سيدة تملأ لي الاستمارة...

لما عدت إلى الكوّة رأيت رجلا يُماثلني في الطول ويَبُزّني في العرض، يُقدّم استمارته متجاوزًا ودون استئذان، وكان يلبَس "المرقّش".

فأدركت أنّ الذين يتقدّمون الصفوف هم مَن طعنت بهم السنّ بعد استئذان، ولابسو المرقّش من غير استئذان.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٥-٥-٢٠١٨

منذ صغري كنت أتهوّر في تصرفات أندم عليها

منذ صغري كنت أتهور في تصرفات أندم عليها.

ولم يساورني الندم قط وأنا أنافح عن الحرية فيما بِتُّ أكتبه منذ ستينيات القرن الماضي، مع ما جرّ عليّ هذا من متاعب كان احتمالها فوق طاقتي!

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢٥-٥-٢٠١٨

ذهبت لأَصْرِف حَوالة

ذهبت لأصرف حوالة تلقّيتها من وراء الحدود.

ما استرعى انتباهي أنّ كلّ العاملين هنا هم من الجنس اللطيف، وأنّ المراجعين أكثرهم من ربّات البيوت، جئنَ يقبِضنَ معونات يرسلها أبناؤهنّ اللاجئون في العالم النشيط.

فكاد صوتي يرتفع:

ـ أصبح مجتمعنا "أنثويًّا"، يا سيدي النظام... من أين نأتي بعرسان... حتى تستمرّ فينا الحياة!

دمشق الشام: عصر السبت ٢٦-٥-٢٠١٨

يا سيدي رئيس مجلس الوزراء

يا سيدي رئيس مجلس الوزراء

هل لك أن تُجاري مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا

بأن تقمع الفاسدين والمعفّشين والنهّابين

وتدخل التاريخ من أزهى أبوابه؟

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٧-٥-٢٠١٨

يتساءل المواطن الطيّب:

يتساءل المواطن الطيّب:

يعني أولئك المسؤولون في دول العالم الثالث

لا نتحدث عن "التعذيب" الذي يمارسون

لكن عن "التنهيب" الذي يظلون يفعلون..

ألا يشبعون من جمع الثروات؟

أليس شيء من ذلك يكفيهم لأجيال وأجيال!!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٧-٥-٢٠١٨

هل من يوقف التعفيش!

لو تتلطّف، أيها النظام، بإيقاف "التعفيش" الذي يمسح فيه "المستردّون" كلّ ما في البيوت التي هدمتها البراميل... سحبوا حتى الأسلاك من باطن الجدران، وقلعوا البلاط من الأرض ومن الدَّرَج الذي تدوسه أقدام المتفقدين بيوتَهم المتروكة...

هي ليست "غنائم حرب"... إنها مُلك لمواطنين كانوا بَنَوها بِشِقّ النفس وعرق الجبين، يا سيدي النظام.

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٧-٥-٢٠١٨

واليوم...

واليوم...

خرجت إلى الحديقة فرأيت مَن يكتب على ورقة: جئت من قبل "أبو بديع"، هالمشمشات من حديقة بيته في الصبّورة.

صديقي أبو بديع، الأستاذ تقي القدسي، لا يُخلف عادته، بل هو يؤدّيها في اليوم نفسه من كلّ عام... حيّاه الله. أيّ سوريّ هو؟!

دمشق الشام: الثلاثاء ٢٩-٥-٢٠١٨

وترى المعفّشين متخصصين

وترى المعفّشين متخصصين، كلّ يأخذ ما اتفقوا على انتهابه ويترك ماعدا ذلك لغيره (يحترمون الاتفاق).

سيارة تحمل الغسالات والبرادات المنهوبة...

إنها دمشق، عاصمة الأمويين الذين فتحوا العالم ما كان معروفا منه في زمنهم وأقاموا حضارة.

فجر الخميس ٣١-٥-٢٠١٨

بعد انسحاب "المقاتلين"

بعد انسحاب "المقاتلين" ذهب إلى بلدته ليتفقد بيته الذي كان هجره

منعه الحراس الواقفون على الحاجز، قالوا: إنّ "التمشيط" يعمل لتنظيف المنطقة من بقايا المقاتلين والألغام المزروعة...

صابَرَ النفسَ أسبوعًا،

فلما عاد لم يجد حرسًا ولا حاجزًا، ورأى بيته ولا شيء فيه على الإطلاق، حتى السيراميك فكّوه من المطبخ والحمّام، وأسلاك الكهرباء سحبوها من باطن الحيطان وأشعلوا فيها النار ليأخذوا ما يتخلّف من معدن يبيعونه بالميزان.

ومن عجبٍ أن يجد قنابل وبعض السلاح الخفيف، الذي نسيه المُمشّطون!

قبل عشرين عامًا بكيت على الأحوال في كتاب سمّيته "آه، يا وطني! "، وهي ذي أيام تستحقّ بكاءً أكثر.

دمشق الشام: فجر الخميس ٣١-٥-٢٠١٨

لو أنّ البناة يأخذون فرصتَهم في العمل والإبداع

لو أنّ البناة يأخذون فرصتَهم في العمل والإبداع

ولو تكُفّ عنهم يدُ الفساد الممدودة

لجعل السوريون بلدَهم

خلال أعوام قليلة

أحسنَ ما في هذه المنطقة من بلدان.

لو.....

دمشق الشام: ليل السبت ٢-٦-٢٠١٨

كلام.. في "الهجرة الداخلية"

نقل إليّ صديق على الخاص، ليلة أمس، قائمة طويلة، وممتعة قراءتها، أنّ كثيرًا من العائلات اللبنانية الشهيرة اليوم تنتمي بأصولها إلى سوريتنا الحبيبة... وراح القائمة تعدّد:

آل الجميّل في الأصل من قرية يحفوفا قرب دمشق،

وآل إدة من إزرع في محافظة درعا، وأن الرئيس أميل إدة ولد في دمشق،

أما آل تويني فهم ينتمون إلى عشيرة بدوية هي المساعيد في جبل الدروز ومنه نزحوا إلى قرية عناز في وادي النصارى والتحقوا مؤخراً بلبنان،

وموريس صحناوي الوزير في الحكومة هو من باب توما في دمشق،

والوزير الآخر عدنان عضوم هو إدلبي

البطرك مار نصر الله بطرس صفير هو نفسه من قرية الصفرا من حوران،

البطرك يوحنا الحلو أيضاً كان من عين حليا، ومن عائلته الرئيس شارل حلو، والنائب والوزير بيار الحلو، وفرج الله الحلو، يوسف خطار الحلو،

عائلة الزغبي، عائلة زيدان (منها المؤرخ جرجي زيدان)، عائلة واكيم (منها نجاح واكيم)، نفاع، نوفل، هزيم، ملحم، مدلج، بدين، غندور وفاضل من حوران

المرّ من صافيتا

غانم وباخوس من النبك

أبو كسم من حمص

غرّة من الجولان

فرحة وزكا ونصر الله وشلهوب وماضي من إزرع

محفوظ من جبلة

ورد، عفيش من دير الزور

معلولي من معلولا

أبو حيدر ويارد من صلخد في السويداء

معلوف من قرية داما في السويداء

عون من جبل العرب

غريّب من السويداء

عويس، يونس، هدايا، مغبغب، فرحات وبحلق من حلب

معراوي من معرة النعمان

أبو فاضل، ملحم، أبو معشر والصليبي من عين حليا (ومنها المؤرخ كمال صليبي)

نقّاش، مصابني من دمشق

أما الأمراء اللبنانيون فكلهم تقريباً من أصول سورية:

فآل أبي اللمع من الجبل الأعلى في حلب،

وآل أرسلان من معرة النعمان،

وآل الحرفوش من الجولان،

وآل البستاني من مدينة جبلة، ولَمع منهم كثيرون: المعلم بطرس البستاني وسليم البستاني وسليمان البستاني والمطران عبد الله البستاني، وجاؤوا في الأصل إلى بقرقاشا ثم إلى دير القمر فالدبيّة فالدلهمية

وحتى آل الجنبلاط هم من كلّس من أعمال مدينة حلب

ولا ننسى أن الشاعر سعيد عقل هو أصلاً من حوران.

انتهى

أقول: لقد كان هذا طبيعيًّا في ظلال دولة بلاد الشام، فكثير من الأسر تنقّلوا في أنحائها، وهو ما نسمّيه "الهجرة الداخلية"، وكان الساحل الشامي (في المنطقة التي سُمّيت منذ ١٩٢٠ دولة لبنان) موئلاً لمسيحيّي البلاد.

ولأقدّم مثالًا صغيرًا من نفسي: انتقلتُ من حلب إلى دمشق عام ١٩٦٦، وجدّي الأقرب كان قد جاء من حمص إلى حلب عام ١٩١٥ أيام حرب السفربرلك وفيها أقام وذريّته من بعده. وأبعد من ذلك أنه يقال: إنّ آل السباعي (وهي أكبر الأسر أو العشائر في سورية، حسب الدكتور وديع بشور عالم الأنساب) جاءت من المغرب الأقصى... فهناك كثير ممّن يحملون اسم هذه الأسرة في المملكة المغربية وموريتانيا وفي الثغور المطلة على المتوسط، وكان قد ذهب إلى هناك جد الأسرة الأكبر من ذرية سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب، قادما من الحجاز.

وبقليل من الاستطراد أقول: إن كثيرًا من الأسر في حلب قدمت إليها من خارجها واستظلت سماءها، وأذكر أن مؤرخ حلب الأشهر كامل الغَزِّي كان أبوه قد جاء من غزّة، والعلامة خير الدين الأسدي قال لي صديقي المتتبع الشاعر نهاد رضا: إنّ أصوله العائلية من بلاد البلقان (تحتاج هذه المسألة للتثبّت)، وأمر آخر أن كثيرًا من الأسر المسيحية العريقة بحلب تعود بأصولها إلى بلاد الغرب، فهم إما من ذراري القناصل الأوربيين الذين آثروا البقاء في حلب لعظمتها (وهي اليوم مهدَّمة!) وإما من سلالات التجار المقيمِ أجدادُهم فيها (طريق الحرير).

وإضافة صغيرة: رأيت مَسيحيّي الجزيرة الفراتية إن عَمَر الطموحُ قلوب بعضهم انتقلوا إلى حلب، ومنها إلى بيروت.

وأخيرًا فلنلقِ نظرة إلى كثير من الأسر المعروفة في سورية: الطرابلسي، البيروتي، اليافي، القدسي، الصفَدي، المصري، التونسي، الجزائري، المغربي.

أمة يطمح أبناؤها إلى رغد العيش، أو إلى التخلّص من جور السلطان... لكنّ ما يجري اليوم لم يُحدّثنا بمثله التاريخ أبدًا.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٦-٦-٢٠١٨

تمدين الريف وترييف المدينة

وقد أحسن النظام عندما "نَوَّر الريف" استمدادًا من كهرباء سدّ الفرات، فغدا في كلّ بيت مصباح يُنير وتلفاز يُنوِّر الأذهان بمنجزات الدولة.

ولكنه في طريقه "ريّف المدينة" ترييفًا، فسِلك "صفّ الضباط" الذين يحققون مع الناس، أخذوا يفعلون الأعاجيب... وكانت قد طغت على الأسماع في سبعينيات القرن الماضي أغنية

"يا عْنَيِّد يا يابا"... حتى أدخلها غوّار الطوشة في مسلسله "صح النوم".

دمشق الشام: ليل الجمعة ٨-٦-٢٠١٨

عندما كان صغيرًا

كان يقول لأخته الكبرى، وهي تأخذ بيدها صحنا تنزل به إلى الحقل تَقطِف حبات كرز:

ـ زكاتك خدي معك صحن عبّيلي[1] ياه!

فتقول له:

ـ انزل اقطف لحالك!

اليوم...

احترقت حقول الكرز والمشمش والدُّرّاق، وانهدم المنزل على رأس الأب والأم، وأختُه وزوجها وأطفالهما أخذوا طريقهم إلى ديار الغرب، وهو في مخيّم للاجئين يبحث عن عمل.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٨-٦-٢٠١٨

يومًا ما

يومًا ما

كانت الولايات المتحدة الأمريكية نصيرًا للشعوب المطالبة بالحرية...

اليوم

أصبحت مثل كثير من الحكام العرب، قاهرةً لشعوبهم متواطئةً بالسرّ معهم.

دمشق الشام: فجر السبت ٩-٦-٢٠١٨

---

(١) املئي لي

ما زلنا.. في التعفيش

طيّب، ما دام الجميع يعرفون حكاية التعفيش، والقائمين به والمشرفين عليه، والتنظيم المتّبع:

- هذا الفريق "يُعفّش"[1] الأجهزة الكهربائية ولا شيء غيرها،
- والفريق الثاني يُلملم أدوات المطابخ،
- والثالث يَعْتل المفروشات،
- والرابع يقتلع بمهارةٍ البلاطَ من الأراضي والجدران حتى بلاطاتِ درج المبنى الكبيرة...

ويعرفون نظام القسمة والمحاصصة بين كلّ هؤلاء الفاعلين ومن هم وراءهم، ومقدار ما يُدفع للحواجز على الطرقات عن كلّ شِحْنة من "المأخوذات" بحسب الحجم والقيمة...

طيب، سؤال مشروع:

ماذا تفعل إزاء ذلك الحكومة؟

دمشق الشام: عصر السبت ٩-٦-٢٠١٨

سألتُه:

سألَتْه: لو اكتشفتَ خيانة أحد لك وقد وثقت به.. ماذا تفعل؟

قال: وقع لي هذا آخر ساعات الشهر الماضي (مايو)، فحزنت.

---

(١) ينهب العفْش: الأثاث

قالت: هل تظنّ الحزن يكفي؟ طيّب ولو خان الزوج زوجته ماذا تفعل؟

قال: تتركه... تنسحب، بهدوء أو بضجيج يصل عَنان السماء. يبدو أنّ الخيانة بمختلف أشكالها هي في جبلّة الإنسان.

وعلى هذا سكتا.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٠-٦-٢٠١٨

في بلدي

في بلدي

أَعلمُ أنّ أصحاب المطاعم يبعثون، كل يوم وفي ساعات معينة، بسطول تحتوي على الزائد من المآكل إلى بيوت يكون اتفاق مسبق على توريدها...

في بلدي

إذا اتفق أن داس أحدنا على قطعة خبز انحنى يأخذها، يُقبّلها ويرفعها إلى رأسه مستغفرًا الله

نعم، نحن بلد متحضّر، يحفظ النعمة.

دمشق الشام: الثلاثاء ١٢-٦-٢٠١٨

يدي.. التي أكلها النمل

كنت أتوقع، بعد الذي كتبت في ذلك اليوم، أن يطلبوني. وعند الفجر سمعت طرقًا على الباب، إنهم "زوّار الفجر" قد جاؤوا.

سألني كبيرهم:

- أنت المواطن "..... "؟

أجبت: نعم.

قال: نحن فرع "الأربع أربعات". تفضّل معنا. خمس دقائق فقط!

لم أطلب منهم بطاقة شخصية للتثبّت، كانت وجوههم تُنبي، ولأني كنت أعرف أنّ هذا الفرع هو الأقسى، فقد أدركت أنّ "اللقاء" سيكون صعبًا، وكنت -كالعهد بنفسي- مستعدًّا لكلّ احتمال. ألبسوا رأسي كيسًا أسود ذا ثقوب، وأخذوا يدي، يدي اليمنى التي خطّت ذلك الكلام، واقتادوني. ومضَوا بي في سيارتهم التي تخضّني يمينًا ويسارًا، يخترقون طرقات لا تُبصرها عيناي.

هناك سألني المحقق، الذي تَخرُج الكلمات بصعوبة من جانب فمه الذي يمسك بسيكار كوبيّ:

- فأنت تكتب أنّ قذائف الهاون، التي تتساقط على رؤوس الناس، هي مِن فِعلنا... وقلتَ متحذلقًا: إنها من "إبداع النظام"!

قلت: نعم.

- وتعترف؟

- وكيف أُنكر ما كتبتْه يدي، وقرأه الناس في "العنكبوتيّة" أمس، وجاءني عليه كثير من التعليقات!

سألني بكثير من الجِدّية:

- أمعقول أنّ مَن جريتَ على أن تُسمّيه "النظام"، يقتل أبناء الوطن؟

- هذا ما يجري منذ زمن، يا سيدي.

- وبالهاون أيضًا؟

- وبالسكود والبراميل والكيماوي... ذلك ما يعرفه الجميع.

- خلّنا في الهاون، من أين جئت بهذه "المعلومة"؟

- جندي جريء، بَقَّ هذه الحَصاة في رسالة نشرها: "أمرونا بأن نضرب الناس بالهاون حتى يظنّوا أنّ الضرب آت من المقاتلين فيكرهوهم، ويؤيدوا سَحْقَهم هم وحواضنَهم"، وخَتَم: "أقول هذا وأنا ذاهب لألقى حتفي".

- ما اسم هذا المفتري؟

- لا أذكر.

- فمن أين جئت بهذه الفِرية؟

- من صفحةِ آخَر، صوّر هذه الكلمات وأذاعَها.

- من هو هذا الآخر؟

- كنت أتنقّل في "الرئيسيّة" فقرأتُ هذا عابرًا.

كان قد آن للمحقق أن يأخذ من السيكار نفَسًا عميقًا يَمُجّه دوائر.

- يدُك التي كتبتَ بها هذا... سوف نُطعِمها... للنمل!

لا أعرف لماذا ملأت الابتسامة وجهي وأنا أسائل نفسي: لم لم يقل "الدود" الذي يأكل الموتى تحت التراب!

سألني:

- بأيّ يد تكتب؟ يمين، يسار؟

ولأني خشيت على يدي التي أكتب بها، فقد راوغت:

ـ اليسرى!

ـ فأنت أعسر، دائمًا تكونون متميّزين حتى في الشرّ!

وقدّم لي ورقة وقلمًا، وأمرني أن أكتب: "أنا المواطن "...... "، عضو اتحاد الكتّاب في جمهورية فردوسيا، أُقرّ وأعترف... "

قلت:

ـ إني أكتب باليمنى، يا سيدي.

قرّعني:

ـ تظلون، أنتم المعارضين الذين تتعاملون مع الأجنبي، تتشَيْطنون، حتى بالتصريح عن اليد التي بها تكتبون. لنتأكّد أولا.

وعاد يُملي عبارته.

استأذنتُه:

ـ هل تسمح بأن أستبدل بها عبارة من عندي؟

قال باسمًا:

ـ اكتبْ ما يحلو لك وأنت تُودِّع يدَك!

وبيدي اليمنى أخذت أكتب بخطّي المتأنّق: "أنا المواطن برهان البرهاني أقرّ بأني أعشق الحقيقة ولا أتوانى عن... ".

أمرني بأن أتوقّف عن المتابعة:

ـ في التقارير عندنا أنك مشاكس عنيد، يتأكّد هذا لي الآن. عبارتك التي كتبتها هنا ستكون

آخر ما تخطّ يمينُك! (ونادى) هاتوا "كيس النمل".

حقيقة، لم يُداخلني الخوفُ، وأنا في فرع الأربع أربعات السيّئ السمعة، بقدر ما حلّ بي العَجَبُ من أنّ العقاب على ما كتبتْ يدي يقبع في "كيس نمل"، وفكرت في أنّ هذا على الأقلّ، أهون من قطع اليد... ومِن مَتّ[١] العنُق!

ودخل جِلْوازٌ[٢] يدفع أمامه عربة صغيرة.

- جاهز، سيدي.

لم يغادر المحقق مكتبه. والعسكري رأيته يفكّ عُقدة "كيس" فوق العربة، ثمّ يطلب مني أن أُدخل يدي اليمنى فيه. استجبت. أغلق الكيس وربط. قال وهو يرسم بسمة بلهاء على فمه:

- خمس دقائق فقط!

فتلك هي الدقائق الخمس التي وعدوني بها!

هل أقول إنّ حشرات صغيرة، هي النّمل كما قالوا، بدأت تغزو كفّي، ظاهرَها والباطن؟ هل قطعوا عن هذه النِّمال القوتَ أياما حتى غدت شديدة الجوع والقَرص؟ يا لها من أفانين! ومن عجبٍ أني لم أشعر بألم من ذلك كلّه، ولا انطلقت من فمي تأوّهةٌ واحدة.

أعلن المحقق وهو ينظر في ساعته:

- انقضت الدقائق الخمس. أطلقْ سراح يده.

وأخرجت يدي من الكيس وقد علاها سَوادٌ هو تزاحم مواكب النمل فوقها حتى لم تبدُ لعيني بارقةٌ من جِلد يدي الحنطيّ اللون.

---

(١) في لهجة حلب: مَتّ راسه: قطعه..

(٢) الجِلْواز: مساعد الشرطي أو حاجبه.

تناول الجِلواز الصغير كيسا أسود ألبَسه يدي، التي يشتدّ فيها التآكل، وأحكم الإغلاق عند المعصم، بمادة شديدة اللصق، وهو يمنحني بسمة بلهاء أخرى، فجاريته بابتسامة وديعة وأنا أحدّث النفس: إنه لموضوعٌ شائق أكتبه وأبثّه بين الناس.

قال المحقق:

ـ مسموح لك الآن أن تغادر!

ورافقني الجلواز، أحمل يمناي التي أحسّها تتآكل.

على بابهم استوقفني جلواز آخر. أخذ يدي، في كيسها الأسود، بَسَطها على الطاولة، سوّاها، أحكم تثبيتها بسُيُور... وبسكين همّ بأن يحتزّها... اعترضت:

ـ ولكنها يدي، أيها الإنسان!

أجابني:

ـ أعرف، أيها المعتقل... وهل يمكن أن تكون يد غيرك!

وأَمضى سكينَه في مِعصمي، دون أن يجتاحني ألم، فاصلا الكفّ عن الذراع، وحمّلني إيّاها، وسمعته أذناي يقول كالناصح:

ـ حافظ على يدك الأخرى!

وبينما كنت أمشي باتجاه البيت، حاملا يدي بيدي الأخرى، خطر لي أن أتساءل: ماذا لو أنهم كانوا قطعوا إحدى قدميّ، كيف كان يمكنني أن أقطع الطريق!

أعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأني لحظة استيقظت أخرجت يدي اليسرى من تحت اللحاف قصد أن أتناول يدي المقطوعة، أركّبها، فلعلّها تعود إلى موضعها بنفس الأعجوبة التي بها قطعت.

لم أجدها على المنضدة بجواري.

جَزِعتُ.

ثمّ تبيّنت أنها لم تغادر ذراعي.

وهأنذا أكتب بها لكم... أضغاث أحلامي.

الكتابة: دمشق ٢٤-٢-٢٠١٨.

ونشرت في المجلة الالكترونية "رؤية سورية"، العدد ٥٢، حزيران ٢٠١٨

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٢-٦-٢٠١٨

لم يكن لي أهداف مسبقة في الحياة

لم يكن لي أهداف مسبقة في الحياة، فأنا جئت إليها مصادفة.

ولكنّ الأهداف تكوّنت عندي بعد الوعي بالحياة: أن أعيش بكرامة وسط شعب يتمتّع بالحدّ الأدنى من الحرية.

وقد بدا تحقيق هذا عسيرا جدا، في ظلال:

- نظامنا،
- ووجود إسرائيل الطامعة بأراضينا،
- وتطلّع أمريكا إلى السيطرة على العالم،
- وبوتن المتفنّن في قتل السوريين بعد تجربته في الشيشان.

دمسق الشام: مساء الأربعاء ١٣-٦-٢٠١٨

تقدّميّون

وترى السيكار الكوبيّ الفاخر معلّقًا بين شفاههم

وهم يتحدّثون

يأتون به من حيثما كان

يُدخّنونه

ويُعبّرون عن تقديرهم للعاملات الكوبيّات

اللواتي يسهرنَ

على تطبيقه

وتطييبه بدمع العين...

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٤-٦-٢٠١٨

تعليق مميز

ومن أمْيز ما تلقّيت من التعليقات حول سؤالي الأصدقاء (في أول أيام عيد الفطر) ما إذا كانوا يقبلون مني التقصير في الردّ على معايداتهم فقد بات هذا فوق قدرتي... كان ما خطّه يراع شاعرنا الكبير شوقي بغدادي... قال:

"لا تردّ عليّ يا فاضل... كلّ عام، أنت وروایاتك الحلوة بألف خير"

أقول له:

بل أردّ، يا شوقي:

كلّ عام، وأنت وقصائدك المطيّبة بعطر الإنسانية والوطنية، بألف خير.

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ١٧-٦-٢٠١٨

"البُرْغُل".. في باريس

حين كنت أتابع كتابة "رياح كانون" (عام ١٩٦٤ وأنا بحلب)، ألزمني فصلٌ فيها أن أشير إلى "البُرْغُل" السوري وما قد يُصنع منه في باريس. فسألتُ صديقي الشاعر "نهاد رضا" (وكان قد عاش سنين في فرنسا) عمّا إذا كان في باريس برغل... فأجابني بأن نعم، هناك صاحب محلّ معروف (من أرمن حلب) يُصنّع البرغل من الحنطة المناسبة، يسلقها ثمّ بعد اليباس يجرشها ويبيعها برغلا لطالبيه من السوريين واللبنانيين القاطنين هناك.

اليوم كل مستلزمات الأطعمة وتصنيعها (حتى "حلاوة الجبن") متوافرة في كلّ مكان يقيم فيه السوريون...

نعم... سوف يقول لي الأصدقاء: ولكن النكهة الحلبية!

دمشق الشام: ليل الأحد ١٧-٦-٢٠١٨

بين براءة الأطفال الشهداء ووجوه القتلة.. بَون شاسع!

قبل عام، وفي شهر رمضان، طفل (في الصف الرابع ابتدائي) يتكسّب في هذا الشهر الفضيل من بيع الورود للقلوب المرهفة، كان يتناول على رصيف مطعم، وجبة إفطار مجانية يقدمها صاحب المطعم الطيب للمحتاجين.

دخل المطعم رجل "غير محتاج"، بلغت فيه الغطرسة أن يشتم هذا الطفل، الذي تقدم منه يعرض عليه وروده. الولد الجميل حامل الورود الجميلة، المنصفُ لنفسه ولكبريائه، أجابه بأنه لم يخطئ معه فلا يخطئ هو بحقه، فما كان من المتغطرس إلا أن أخرج، وسدَّد، وأطلق، وسقط الولد مضرجا.

بعد أيام استدلّ أهل القاتل على والد الطفل، فجاؤوه بـ"هدية" يقولون: والله أبناؤنا دافعوا عن حلب وعن الوطن بأرواحهم، وحصل ما حصل... نعطيك مبلغا (وقدره...) وتتنازل عن حقك الشخصي، وتترك الباقي لرب العالمين.

نعم، "دِيَة" المواطن من قاتليه، خروف وألفا دولار... ما أرخص الأرواح في وطني!

ترى هل القاتل يقبع اليوم في غَيابة سجن، أم أنه يدافع عن الوطن على حدودنا مع إسرائيل؟

دمشق الشام: فجر الأحد ١٧-٦-٢٠١٨

إنّ الأنظمة العتيقة

إنّ الأنظمة العتيقة

تملك المقدرة على إجهاض أيّ مطالبة بالحريّة

ليس بالاعتقال والتعذيب والتشريد وحسب

ولكن بالإشاعة

أنها تعمل ضدّ الوطن

وأنها تتآمر على القضيّة.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٩-٦-٢٠١٨

الحماسة في الرياضة.. تُعدي

في سنة بعيدة زارني صديق قريب وأسرته ليُهنّئونا بسُكنى دمشق، وفي حديقة البيت، بجوار البِركة، جلسنا.

في تلك الساعة كانت مباراة في "كرة السلّة" تُعرض في التلفاز. ترك أولاده وأولادي الحديقة، ودخلوا يتفرّجون. أخذتْهم الحماسة للأهداف التي يُسجّلها كلٌّ من الفريقين لحظة بعد لحظة. صفّقوا، ثم أخذوا يعبّرون بأصواتهم عن الابتهاج. وبدا لي أنّ الأب استشعر حرجًا، أنّ أولاده يُحْدثون ضجيجًا في بيت مضيفه، فرفع صوته يدعوهم إلى السكوت.

ولمّا تكرر منه ذلك اضطررت للقيام إليهم.

تحرّج الأولاد من دخولي، فكفّوا، ولكنّ تتابُع اللعب وتسجيل الأهداف المتلاحقة جعلهم يعاودون... ثمّ وجدتُني، أنا، أتحمّس وأشاركهم التعبير عن الابتهاج.

ما أشك في أنّ ضيفي، الذي تركته في الحديقة، استغرب، فقام إلينا، دخل، فكففنا عن التعبير لحظة، ثم عبّرنا... الطريف أنه سرعان ما شاركنا الابتهاج.

كان ذلك صيف ١٩٦٦. رحم الله صديقي "عبد الرحمن خزندار".

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٢-٦-٢٠١٨

ما بين "ساروجة" و"الميدان".. وأحياء حلب الشرقيّة!

حدّثتني صديقة أنّ جارتها ترث بيتًا في "حيّ ساروجة"، يحتوي على غير قليل من الغرف، يسكنها القادمون إلى العاصمة، وقد اتّخذ كلّ "ركنًا" خارج غرفته استَحدث فيه "مُستراحًا" ومَجلى مستغنيًا بهما عمّا هناك، والبحرة وسط أرض الديار أزالوها لأنها تُعيق... ووارثة الدار ترى هذا بعينيها الذابلتين، وتسمع بأذنيها الوانيتين كلّ لهجاتِ سورية من أدناها إلى أقصاها، لا يُسَكّن امتعاضَها إلا أنّ الأمر يومئذ لله.

تابعت الصديقة حديثها:

ـ تبهدل الحيّ، يا أستاذ، لم يعد حيّ "ساروجة" الذي كان، ذاك الذي أُنشئ زمن المماليك،

فكان أول ما بُني في دمشق خارج الأسوار، واعتُدّ به في العهد العثماني حتى سمّي "إسطنبول الصغرى". صرتُ والله أشتاق لدمشق القديمة، أذهب إلى "حيّ الميدان"، أتجوّل بين أزقّته، أتنسّم عطر الحارات الشامية وأستنشق عبق تاريخها، بيوت من زمرّد وذهب وماس، ثمّ... ثمّ أرفع نظري إلى تلك البنايات تنتظم في طرفها صفّا هجينا، أقول: لقد هتكوا خصوصيّة الحيّ، حين كشفوا حرمة بيوته لعيون ساكني تلك الطوابق العالية، فكيف تتفتّل الصبايا في أرض الديار! لله درّكم يا تجار العقارات في كلّ ما تواطأتم مع آخرين!

كان حديثًا طويلاً مسترسلاً... كنت فيه أصغي بكلّ جوارحي، وفي الخاطر ما وقع في حلب مدينتي الحبيبة، التي دَمّرت البراميل المتفجرة نصف حاراتها وأحيائها، وعُرضت علينا صور الدمار لتكون عبرة... لمن يعتبر!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٥-٦-٢٠١٨

بيّاع الحليب والبوظة

بيّاع الحليب والبوظة وماء الفيجة بالقناني في الحارة، متديّن، صايم مصلّي لا يقطع وقتًا، ولكنّ هذا لا يمنعه من زيادة الأسعار وتطفيف الميزان، يقول في ذلك: هادا بيع وشرا.

في عام بعيد ذهب إلى الحجّ، وعاد. طبلٌ وزمر، وانضاف إلى اسمه لقب "حجّي" مثل حاملي "الدكتوراه" [من أوروبة الشرقية في زمن مضى]. بعد حين تاقت نفسه للحج مرة أخرى، وهذا مخالف للتعليمات فلبلدنا "حصّة" من عدد الحجيج توزّعها بين الناس، فدبّر نفسه بأن اندسّ في فئة من الحِرَفيين أخرى، وذهب، وعاد، وطبلٌ وزمر لكن أكثر ضجيجًا فهذه حجّة ثانية... واستأنف، غيرَ مغيِّر عادته في التزيُّد والتطفيف!

وصل الخبر إلى الأمن، فأخذوه في يوم شتاء من دكانه بغتةً، وهو بلباس العمل الخفيف

وبالشحّاطة. بقي هناك أربعة وأربعين يوما، ثمّ طلع، فَداها بالمصاري، فهذا ما حداهم للقبض عليه أصلاً.

فلا الذي حجّ كان صادقا... ولا الذي طبّق القانون نزيها.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٦-٦-٢٠١٨

من يرى الكلام على الأعراق والأديان حديثًا طائفيّا

إنّ الذين يرون في الكلام على الأعراق والأديان حديثًا طائفيّا يجب الترفّع عنه، هم:

- إمّا طائفيون يستفيدون من الوضع الراهن ولا يريدون كشف المستور
- وإمّا متأثرون بتوجيهات النظام، فهم من الخوف يرفضون ويشجبون.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢٦-٦-٢٠١٨

الطاولة المقلوبة

لست أدري لم تُلحّ عليّ هذه الأيام صورةٌ من صور الحياة، غريبةٌ جدا وكئيبة كآبة الحياة أحيانًا، من أنّ "ربّة بيت" تستدعي جارة لها بينها وبينها من الألفة والودّ ما يجعلها تتوقّع منها أن تُعينها في الإعداد لوليمة، تحضيرًا وطبخًا على النار وترتيبَ صحون على المائدة هذه التي سوف يتحلّق حولها سبعٌ من الصديقات الحميمات...

في أثناء العمل، الذي استغرق ساعات من التعاون المثمر، كانت ربّة البيت تُبدي أحيانا ملاحظات حول هذه المسألة أو تلك... بدا أنّ الجارة -على طيبها- ضاقت بها، فتجمّعت في صدرها مشاعر غريبة غرابةَ الحياة أحيانا... حتى إذا صُفّت على المائدة الصحون وانتظمت فيها الملاعق والسكاكين، ولم يبقَ لوصول الصديقات إلا قليلٌ من وقت، يُقبِلن ضاحكاتٍ سعيدات بهذه الجَمعة الحلوة، انفجرت الصديقة المعاونة على نحو مباغت قائلة:

ـ أنا ساعدت في كلّ هذا أليس كذلك؟ والآن اسمحي لي أن أقلب الطاولة احتجاجًا عليك، و... "استروا ما شفتوا منّا"

وغادرت!

هي صورة غريبة وكئيبة، أجل، ما زالت تَثقُل عليّ منذ أيام... ويساورني ظنٌّ بأنّ كتابتي إياها الآن حروفًا، وبهذه الفظاظة والسماجة، سوف يُحرّرني منها وينزعها من خاطري، فأعود سيرتي الأولى في كتابة ما قد عوّدتُكم من فنون القول المسرود.

سلام.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٢٧-٦-٢٠١٨

ذات يوم

ذات يوم، ربما في ثمانينيّات القرن الماضي، قال لي صديق من الطائفة العلوية، وكان القهر قد اشتدّ يومئذ على الناس... قال يُندّد بجبن الجبناء:

ـ لَكْ هدول اللي عم ياكلوا قتل ويموتوا.... ما فيه حدا يرفع صوته يقول لا!

ولـمّا لفتُّ نظره إلى القبضة الحديدية فوق الرؤوس... بدا كما لو أنه الآن فَطِن.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٧-٦-٢٠١٨

في مطار دمشق الدولي

بعد مشاركتي في الاحتفال الخمسيني لمجلة "القافلة" (عن شركة أرامكو) في مدينة الظَّهْران بالسعودية عام ٢٠٠١، كان عليّ أن أتوجّه –بمعونة حفيدي مازن سعود– من المنطقة الشرقية إلى البحرين عبر الجسر البحري المستحدَث، ومن هناك أغادر إلى دمشق على الطائر

السوري. وبدا أن حفيدي همس في أذن مديرة المحطة السورية هناك (السيدة شَنَن) ما جعل مكبّر الصوت وأنا داخل الطائرة يناديني... ماذا؟ نقلوني من الدرجة السياحية إلى الدرجة الأولى في الطائرة إكرامًا وإعزازًا. وكان ذلك أول مرة آوي فيها إلى هذه الدرجة!

ولكن ما لهذا أكتب هذه الذكرى، بل لأقول: إني عند النزول في مطار دمشق الدولي، ووقوفنا في صفوف لختم الجوازات، رأيت شابة من القادمين بيننا تنوء بحمل طفلها على ساعدها وحقيبة يد وأشياء أخرى تقف في آخر الصفوف، فتركت موضعي المتقدّم، وتوجّهت إلى رجال الأمن الجالسين على كراسيهم يسمُرون، وقلت لهم بما زدت فيه من دماثة القول بأنّ السيدة هناك وطفلها وأشياءها... إنهم في الدول المتحضّرة يقدمونها الصفوف احتراما للأمومة وإشفاقًا... فأوعز كبيرهم بما كان من الاستجابة المرجوة.

وخرج الناس إلى حيث البساط الدائر يحمل الحقائب واصلة من الطائرة. ومرة ثانية التقيت بالسيدة وقدمت لها عربة وساعدتها في تحميل حقائبها، وافترقنا بتحية.

بعد أعوام يسيرة اتفق لي أن كنت في حفلة شاي بمركز ثقافي لإحدى الدول الأوروبية في حيّ المالكي، وإذ بسيدة تتقدّم مني وبصحبتها صديقاتها، وكان تعارفٌ وتذكير بيوم المطار! كانت من مسيحيّي السويداء العزيزة، وهي تعمل طبيبة أسنان في الخليج... ولم أسألها عن طفلها في أيِّ صفوف الابتدائي أمسى! واليوم هو ناجح في البكالوريا كما أتوقع!

تذكرت ذينك اللقاءين بالسيدة، فجرَ هذا اليوم، وقد قدّمتُ تغريدتي حول سفري إلى إيران، وما كان تبدّى من ضنّ ذلك الطبيب في معروف يقدمه لنا بكثير من اليُسر في مطاري طهران ودمشق، وما فعل!

وأفسّر: الفارق بيني وبينه أني أنتمي إلى الشعب بأصالته الفطرية، وهو ينتمي إلى النظام بعُنْجُهِيّته الطارئة.

أجل، لنا الفُتات!

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٩-٦-٢٠١٨

سقوط الكبّادة الأخيرة!

جاءتني ابنتي خلود وبرفقتها بعضُ صوَيحباتها، فجلسنا في الحديقة نَسمُر على تغريد النافورة تتساقط منها قطرات الماء منسفحة على سطح البِركة. ولاحظت السيدات آخر كبّادة مُدَلاة، فأبدينَ الإعجاب بحجمها الكبير والعجَبَ من بقائها "على أمّها" بجوار ما تَحْفِل به الأغصان من الكبّادات الخُضر الصغيرات بنات الموسم الجديد!

مع القهوة ورائحتها التي عطّرت الأجواء، قالت ابنتي تتباهى بأنّ أباها يُحسن صنع مربّى الكبّاد من هذه الكبّادات التي ما تزال تتساقط في حرّ الصيف. فاستغربنَ أن يُحَلّي كاتبُ الكبّاد وهو المعنيّ بتحلية الكلام!

فما كان من ابنتي إلا أن أتت بزورق قد تمدّدت فيه حُزوزٌ من هذا المربّى مغمورةً بالقَطْر، وأخذت تسكُب لكلّ من صديقاتها ضيفاتي حُزّا، معه شوكة وسكين... فلما ذُقنَ انضاف، إلى الإعجاب بالحجم وطول البقاء على الأغصان، حديثٌ عن براعة الرجال في هذه الأمور التي تتقنها النساء... وسألوني كيف؟

فاسترسلت أبيّن:

• البَشْر أولاً، ولأنّ الكبّادة أكبر من أن تُحكِم الكفُّ إمساكها لتمريرها هناك، فإنه يُمكن تمرير المِبشرة ذاتها على جسد الكبّادة،

• ثمّ يكون تقطيع قشر الكبادة السميك الذي تمّ بَشْرُه حزوزًا، مع الاستفادة الاستثنائية من عصير اللبّ ذي النكهة،

• ثمّ غمر الحزوز في الماء بضعة أيام مع تغيير الماء مرات استبعادًا لما في هذا القشر من مرارة،

• ثمّ السَّلق، وهنا يتعيّن الاختبار لا بأن تُغَزّ شوكة في جسد حزّ بل هو الغزّ بطرف عودة ثقاب،

• وبعد ذلك تُعصر الحزوز من مائها، وتُغمس في القطر (الحلاوة)، ويرفع ذلك كله مرة أخرى على نار هادئة جدًّا لتمكين الحزوز من امتصاص القطر.

• والقطر عيارُه كأس ماء تقابلها كأسان من سكّر.

وكانت كلٌّ من ضيفاتي الغاليات تتناول ما في صحنها، حتى اللواتي يعملنَ "ريجيم" فقد مسحنَ صحونهنّ.

أقول: بعد أن ودّعنَني سقطت الكبّادة الأخيرة... فأصبح عليّ أن أشمّر في الغد عن الزندين، تاركًا إلى حينٍ صوغَ معسول الكلام إلى صنع معسول الكبّاد.

زورونا!

دمشق الشام: ليل الأحد ١-٧-٢٠١٨

في عام بعيد

في عام بعيد قلت لموظف حكومي كبير على سبيل الدعابة: إن "مديرنا" يبعث بسيارة الدائرة لبيته ليأخذ السائق صينية الخضرة باللحمة للفرن، ويغيب في ذلك ساعتين!

فأسرع يجيبني: وهل تريد مديرك أن يقضي هو الساعتين هناك!

وسكتُّ تأدّبًا فلم أقل: طيب، وإذا أردت أنا -المدير المعاون- أن أوجّه مثل هذه الصينية إلى الفرن؟

اليوم أرى رئيسة أكبر دولة اقتصادية في العالم تنزل للتسوّق...

قلت: اليوم... وأنا وأنتم نعرف ما يجري اليوم.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٣-٧-٢٠١٨

أخ في الرضاع.. والحليبات!

كان المهندس عبد الغني السعداوي [١٩٣٠-٢٠٠٩] أسمر البشرة جدًّا (وقد أطلق العرب على من يتحلى بهذه السُّمرة: أزرق)[١]، وكان لتجاوُر بيتَينا في عهد الطفولة ما زاد في التواصل بين الأسرتين حتى تبادلَت الوالدتان الشابتان إرضاع الأولاد عند الضرورة (شقيقتي سعاد وشقيقته فاطمة، وأنا وهو).

يوم عُيّن المهندس عبد الغني رئيسًا لبلدية حلب في أعقاب الثامن من آذار ١٩٦٣ (وقد كان أخي في الرضاع بَعْثِيًّا)، طرأت عندي معاملة في البلدية، فقدّمت إليهم المستندات، وعُرضت مسألتي على المجلس البلدي، الذي كلّف أحد أعضائه من المعنيّين بالثقافة والأدب دراسة المعاملة ووضع تقرير (يؤسفني أن غاب عني اسمه، وكانت له صيدلية في نواحي "باب الحديد"!). وقد لاحظت في ذلك أنّ عبد الغني كان حريصًا على ألا يشير أمامهم إلى تلك "القرابة" (التي عزّزها ديننا الحنيف)، تجنّبًا للتأثير والتزامًا بالنزاهة، وكان أن حضرتُ الجلسة لسماع التقرير والرد على ما قد يطرأ من أسئلة.

في الجلسة، كان من بين أعضاء المجلس البلدي المحامي "قسطنطين مْكَرْبَنة"، رئيس نقابة المحامين بحلب ومن وجهاء المدينة. تُلي التقرير ودُرست المسألة من قبل الأعضاء، وعبد

(١) لعل الصواب: الأخضر. ومنه قول الشاعر: وأنا الأخضر من يعرفني....أخضر الجِلدة في بيت العربْ.

الغني ملتزم الصمت، وبعد أن اتُّخذ قرار لصالحي، عرّفهم بأني "أخ له في الرضاع"، وكان من ابتهاج الموجودين أن تجلّت عند الأستاذ مكربنة نكتة باح بها، قال للسعداوي: "يعني ما عرفت تاخد لك شوية بياض من حليبات أمّه".

رحم الله كلّ من ذكرت وأشرت.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٣-٧-٢٠١٨

في زيارة لي لحلب

في زيارة لي لحلب قادمًا من دمشق شتاء ١٩٧٤-٧٥، زرت صديقي الذي كان قد أُعفي من كلّ مناصبه الرسمية، واعتُقل وأُطلق.

سألته...

فأجابني: "كنّا متل أحجار الشطرنج!"،

ولم يَزِد.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٤-٧-٢٠١٨

يقينًا

يقينًا

لو أنهم يقرؤون التاريخ

لما فعلوا ما يفعلون...

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٤-٧-٢٠١٨

البيت الذي سكنه نزار

في هزيع متأخر من الليل بعثت إليّ ابنتي التشكيلية "خلود" بفيديو يصوّر البيت الشامي الذي سكنه الشاعر المبدع نزار قَبّاني، صالونًا، وحديقة، وبِركة تبثّ خيمةً من ماء على ثمار كبّاد... وعلّقتْ في الخاص عندي: وكيف لا يصبح شاعراً من يسكن هذا البيت؟

فكتبت لها:

يا ابنتي خلود

هذا ليس بيت نزار قباني، إنه بيت أبيه الذي توفي في الخمسينيات فأسرع الورثة في بيعه حسب العادة. ومن حسن الحظ أنّ المشترين جمّلوه.

لو يشتري بيتَنا في شارع نوري باشا (من أصحابه آل الخباز الكرام) مثقفٌ ذوّاقة ميسور الحال، فيجعل منه بيتًا يضاهي البيت الذي سكنه الشاعر نزار قباني!

أبوك يسكن هذا البيت منذ نصف قرن ويزيد، ونشأت فيه الفنانتان المبدعتان "خلود" وشقيقتها "سهير"، وشاركَنا الإقامة فيه مدة خالكم لؤي كيالي.

ثمّ اتفقنا على الهاتف أنا وابنتي، بُعيد منتصف الليل... أن ننتظر ذاك المثقف الذوّاقة الميسور الحال والأحوال!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٤-٧-٢٠١٨

المساجد الباذخة

ليتها تجاورُها مستشفياتٌ في مثل روعتها

ومتاجرُ مرتّبة تبيع بربح معلوم.

دمشق الشام: مساء الخميس ٥-٧-٢٠١٨

الفساد مرضٌ جبان

يقمَعه "الإعلام"... إن كان معافًى ونزيهًا

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٥-٧-٢٠١٨

في ثلاثينيات القرن الماضي

عندما كنت في السابعة من العمر أو نحوها (في ثلاثينيات القرن الماضي)، كنت أرى أن شقيقتي التي تكبرني بسنتين، إذا تكلمتْ أمام أفراد الأسرة مجتمعين، انتهرتْها جدتي، القاعدة في فِراشها تَسْعُل: "اسكتي، أنت بنت!".

وأذكر يوما عاد فيه جدّي من مصر (وله هناك زوجة مصرية وبنون وبنات)، أنه لاحظ حفيدته وقد بدأ الصبا يتبدّى فيها، فأوعز بأن تنقطع عن الدراسة في الصف الثالث الابتدائي، وما شفعَتْ لها دموعها عبر ليال بالرجوع عن هذا القرار!

اليوم...

أليس رائعًا أن "المرأة" في بلادي ملأت المدرّجات الجامعية، وشغلت الوظائف العامة والخاصة، وأكدت نجاحها حيثما تكون؟

دمشق الشام: مساء الخميس ٥-٧-٢٠١٨

ذات عام

ذات عام، التقيت بزميل دراسة كانت قد تمادت بنا الأيام ونحن في بِعاد... قال لي باهتمام زائد وكأنه كان ينتظر أن نلتقي ليقولها:

"أقرأُ في المجلات ما تكتب من قصص انتقاديّة... ألا تعلم أنّ هناك "بعث"؟

ولم يضحك أيٌّ منّا، ولا ابتسمنا... بل أخذنا نفكر!

دمشق الشام: ليل الخميس ٥-٧-٢٠١٨

قبل نحو خمسين سنة

قبل نحو خمسين سنة بدوت لنفسي أني أخطأت تجاه أحدهم، فاعتذرت له، وكان الاعتذار بحضور سيدة تخص الطرفين. ثمّ إني سمعتها تعبّر عن استغرابها من أن أقوم بالاعتذار، اعتقادا منها أن في ذلك مهانة للمعتذر، وهذا فهم خاطئ... فإني إن اعتذرت لأحد صادقًا أحسّ براحة نفسية وبسموّ في مشاعري الإنسانية.

ووقع لي قبل عام وشهرين اثنين على وجه التحديد، أنّ أحدهم نوى أن يقوم بتصرف من شأنه أن يعود عليّ بضرر ما انتقامًا مني على ما لم أفعله (أو على فعل يسير يستحقّ أن يسامحني فيه)، فالتمست منه ألا يفعل ولكنه أصرّ... هنا وجدتني مضطرا لأن أقدّم له اعتذارا غير صادق اتقاءً للضرر فاستكبر، فكررت الاعتذار وكرر هو... تركته لحظات أملاً في أن يُمعن في التفكير، وعدت لأضعه أمام مسؤوليته الأخلاقية التي سيحاسبه فيها ضميره لاحقًا، وهو أصرّ وتصرَّفَ على نحو ما أراد.

بعد مدة أدرك مدى خطئه، تجاه اعتذاري له ثلاث مرات، فبعث إليّ يعتذر صادقًا، فأجّلته إلى عام يأتي... وقد مضى العام وهو في خجله ما يزال.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٦-٧-٢٠١٨

وكان من مكر النظام ودهائه السياسي

وكان من مكر النظام ودهائه السياسي أنّ الانتفاضة عندما قامت وطالبت الجماهير (التي كانت تمنح ٩٩ فاصلة ٩٩) بحريتها

بادر إلى الادّعاء بأنّ الأكثريّة تريد قتل الأقليّات!

ومن عَجَبٍ أن يُصدّق بعضهم ذلك.

وإنّ امرأة ممّن أعرف، مثقفةً، قالت بملء فيها، ونحن في حديقة بيتي صيف ٢٠١٢، بالحرف الواحد: "إنهم يريدون قتلي. أنا أغادر الوطن!. "

وتمضي الأيام... فنرى أنه أُثْخِن في الأكثرية، وأنّ عشرة ملايين منهم قد غادروا منازلهم وتفرّقوا في عراء الوطن وفي كلّ مكان في العالم!

دمشق الشام: صباح الجمعة ٦-٧-٢٠١٨

لن يغفر الغربُ للعرب

لن يغفر الغربُ للعرب أنهم جاؤوا بالإسلام دينًا ونشروه في أصقاع الأرض

وما تزال في الذاكرة عندهم واقعة بواتييه، ويقلقهم تذكرهم قرعُ أبواب فيينا، متغافلين عن أنّ النُّخَب من مثقفيهم كانوا يأتون "قرطبة"، ينهلون في مساجدها العلوم والآداب، ثمّ يحملون مخطوطاتنا إلى "طليطلة" التي أصبحت في يدهم، يترجمون، ويستخلصون روح حضارتنا الطويلة العمر المترامية الأطراف؟

إنهم اليوم، ومنذ مطلع القرن العشرين، جادّون في تمزيق العرب والأمم الإسلامية بخطط موضوعة مدروسة، منذ مؤتمر كامبل ١٩٠٥ وبعده تفاهماتُ السفيرين سايكس وبيكو على اقتسام المنطقة، بالأمس واليوم وفي كلّ المستقبل... ينفّذونها خطوة خطوة، يعدّلون،

ويستحدثون:

- يقيمون علينا حُكّامًا ليسوا بأفضلنا
- ويستثيرون بيننا غلاة المتديّنين ثمّ يتّهموننا بالخروج
- ويستعينون علينا بمن تربطهم بهم مودّات باطنة أو ظاهرة.

دمشق الشام: ليل السبت ٧-٧-٢٠١٨

أجل.. أنا في دمشق أقيم!

في تغريدتي أمس، عمّا يضعه الغرب من الخطط لتمزيق العرب والأمم الإسلامية شارك فيها بعض الأصدقاء، تساءل أحد القراء هناك عمّا إذا كان كاتب التغريدة هذه يقيم في الوطن؟

أجيب هنا أني في حيّ الروضة بدمشق أقيم.

وأؤكد أني لم أكن يوما من الصامتين، بل إني من الذين يتحدثون برهافة القلم وبما يَرعف في القلوب من ألم ودم، منشئًا أدبا يُعبّر عمّا في النفوس من نزوع للحق والعدالة والحرية، منذ منتصف الستينيّات الراحلة إلى يوم الناس هذا.

وأعلن، للمرة العاشرة ربما، أنّ اتحاد الكتاب في وطني (وأنا فيه من الأعضاء المؤسسين في صيف ١٩٦٩)، الذي دأب على نشر الأعمال الجيدة، والمتوسطة، والهابطة التي تؤول إلى معامل الكرتون، ظلّ يُحجم عن نشر أي من أعمالي الإبداعية، وأخصّ أول ما قدّمت له، تلك المخطوطة التي أصرّوا على رفض نشرها، فظهرت في بيروت كتابًا عنوانه "حزن حتى الموت"، ثمّ كان الإصدار الخامس منه بالفرنسية في باريس.

واليوم يمتنع اتحاد الكتّاب عن نشر أيّ نصّ لي أو عني، في دورياته المتعددة والمرموقة.

وبالأمس وقف ممالئٌ على منبر في مركز ثقافي يعلن استنكاره لأن تمنحني جريدةٌ في العاصمة زاويةً أسبوعية، أتحدّث فيها عن الأدب والثقافة وأسترجع الذكريات الحميمة، فحُرمت حتى من هذه الإطلالة على قراء أحبّهم وأشتاق أن أُسمِعهم صوتي.

إنه... غياب النزاهة والعدل.

دمشق الشام: مساء الأحد ٨-٧-٢٠١٨

عرّفْ لنا الاشتراكيّة، يا لؤي!

في صيف ١٩٦٦، تأتّى لـ لؤي كيالي أن يجتمع ببعض رموز الحاكمين من حزب البعث، أعني الذين قاموا بالتصحيح الأول (فجر ٢٣ شباط ١٩٦٦).

وفي الحقيقة لقد أحبّت فئاتٌ من الناس الفنان لؤي، كلّ واحدة منها لأسباب خاصة بها، ابتداءً من المثقفين الذين يقدّرون الابداع الأصيل، إلى شباب الحزب الذين رأوا فيه فناناً منحازاً للفقراء وهو الذي يرونه من "مَنبِتٍ بُرجوازي" كما كانوا يصنّفون، إلى النساء والأطفال لشكله الذي ترتاح له العين، وأخصّ الصبايا المسيحيات لذلك الشبه في الوجه واللحية الجميلة التي تذكّر بالسيد المسيح، على نحو ما تخيّله فنانو أوروبا في القرن الخامس عشر... وإني لأعرف أنه يوم كان يدرس في البوزار بروما[1]، كانت بعض الراهبات إذا صادفنه في الطريق ارتفعت أيديهنّ تُصلّب.

أقول: في محبّة ضُباط البعث له، الحاكمين في تلك المرحلة (ومنهم، كما جالست مرة في مقهى الغاردينيا، المقدم أحمد المير، من أبناء السَّلَميّة بلد المئة شاعر)، وردت على لسان بعضهم عبارة تشير إلى أنه من الممكن ترشيح لؤي كيالي (ابن الاثنين والثلاثين ربيعًا يومذاك) ليكون

---

(١) أي مدرسة الفنون الجميلة في روما.

وزيرا للثقافة... كلمة قيلت على مائدة، وذاعت. وإذا كان بعض من سمع لم يستبعد فإنّ بعض الفنانين التشكيليين والعاملين في هذا المجال، المنتمين إلى الحزب، وأخصّ (غ. خ) و(ط. ش)، جنّ جنونهم... فراحوا يشنون على لؤي "حربًا"، أذهلَتْه عن نفسه، مع سائر العوامل الأخرى المؤدّية لتفاعل هذا المرض (الفُصام، الشيزوفرينيا)، وكانت ضربتهم الأقسى في "ندوة" اقترحوا عقدها في المركز الثقافي بأبو رمّانة في ظلّ معرضه "في سبيل القضية" (نيسان ١٩٦٧)، حيث أغمدوا فيه آخر ما عندهم من سكاكين الغيرة والضغينة، وكان أول ما سدّدوا إليه سؤالهم، الذي لا جوابَ له عِلمياً عند لؤي المبدع الذي لم يمارس السياسة: أنت تدّعي الاشتراكية في رسومك هذه، عرّف لنا معنى الاشتراكية... ثمّ لما حاول مصور أن يلتقط صورة للؤي وإلى جواره الفنان (ف. م)، أهاب هذا بالمصور: لا أريد أن أظهر في صورة مع لؤي بعد هذا المعرض الـ...!

حدثتني إحدى طالباته في كلية الفنون الجميلة أنها وبعض زميلاتها خرجنَ من تلك الندوة يمسحنَ دموعهنّ.

ذلك ما استعرضته في كتابي "لؤي كيالي، أوراق مطويّة"، الذي ما أزال أبحث عن ناشر له وللعشرين مخطوطة الأخرى، قبل أن يأزف الرحيل.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ١٠-٧-٢٠١٨

لنا "السطحُ".. أو "القبو!

بعد أن أتمّ الكُتّاب وضع النظام الأساسي لاتحادهم المأمول في اجتماعات متوالية عقدناها وأنا واحد من المجتمعين المواظبين، برئاسة الأستاذ سليمان الخشّ (وزير التربية آنذاك)، في شرفة المركز الثقافي بأبو رمانه (قبل أن تضمّ الشرفة إلى قاعة المعارض)، وذلك صيف

١٩٦٨... غبنا عامًا كاملاً، عُرض فيه "المشروع" على الحزب والحكومة واستوفى مقوماته القانونية...

أذكر أن قيادة الحزب دعتنا إلى وليمة غداء في مطعم في "الربوة" (غاب عني اسمه) في صيف ١٩٦٩، حضره الأعضاء المؤسسون ومندوبون عن حزب البعث... وكان من لطف المطعم أن أخرجوا من مستودعاتهم ملاعق وتوابعها تلمع بين أيدينا لمعان الفضة.

أذكر أن أحدنا، شاعر شاب تلك الأيام، شاء أن يمزح مزاح الشباب... فقال:

ـ والله هالمعالق خرجْ واحد ياخد منُّن لبيته!

فقالت واحدة من الأعضاء، أنيقة وجميلة، مستنكرة هذا القول وهي تلوي شفتيها:

ـ يي! ليش ما عنّا في بيوتنا متلُن!

وهي لا تعلم أنّ القائل، النازل من الجبل، يسكن قبوًا مع رفاق، وهو الذي كان أجرى تعديلا في شطر من بيت لأبي فراس الحمداني:

لنا (السطحُ) دون العالمين، أو (القبوُ)!

فأمّا القائل، المشاغب الظريف، فهو ممدوح عدوان.

وأما المعترضة، الأنيقة الجميلة، فهي قمر كيلاني.

رحمهما الله تعالى ورحم كلّ الأعضاء المؤسسين الذين رحلوا وتركونا.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٠-٧-٢٠١٨

أبو العين البصّاصة

قصة بقلمي:

أوى في تلك الليلة إلى فراشه، ونام كما ينام في كلّ لياليه مهمومًا مقهورًا. يذكر جيدًا أنه لم

يكن في عينيه شيء يُثير القلق، ولكنه إذ استيقظ في الصباح، أو هو لم يستيقظ بعد، تلمّس بكفّه وجهه فوجد أنّ عينًا أكبر من عين!

بادئ الأمر لم يبالِ، ظنّ نفسه يتوهّم، فقد بات الناس يقعون كثيرا في مثل هذه الأوهام وفيما هو أمرّ. ولكنه بعد أن تحرّك هنا وهناك، وأخذ يُجِدّ النظر في المرئيّات التي حوله، اكتشف أنّ منها ما يراه كبيرًا ومنها صغيرًا، ومنها المستقيم والمعوجّ، بل القريب والبعيد والبعيد جدا! وأنّ هذا يقع له في عينه اليمنى دون اليسرى، فانتابه جزعٌ زاد فيما يحمل من هموم.

هُرع إلى المرآة، فرأى بالعين السليمة أنّ اليمنى قد توسّعت حتى أتت على الحاجب. همس في ذات نفسه: "ويقولون "العين لا تعلو على الحاجب"، لقد التهمتْه! ".

لا يعرف كيف ارتدى ملابسه. في الرؤية كان يعتمد العينَ اليسرى وحدها ويَغُضّ اليمنى، ولكنّ الجفنين فيها كانا يعجزان عن تغطية هذه العين التي تزداد اتساعًا لحظة بعد لحظة. صعوبة عاناها في لُبس الحذاء وخاصة عندما انحنى ليربط الشريط.

على رصيف البيت وقف مرعوبًا ومتحفّزًا في آن. أرسل نظره -هنا كان مضطرًا لأن يرسله من العينين معا- فرأى البقال، من بُعْد، يُطفّف في الميزان دون أن يلحظ الزبون ذلك.

ولكنه إذ سار قليلاً مارًّا من أمام بيت صديقه، الذي ما زال يتابع على مهل دراسته الجامعية، رآه يتهجّم على أخته طالبة الكفاءة، لأنها أطلّت من النافذة تنادي بيّاع التوت الشامي في عربته، وهو الذي طالما حدّثه متباهيًا عن هوايته في التقرّب من زميلاته في الجامعة وتحرّشه بهنّ أيضًا.

فتأكّد له أن عينه، التي ما زالت تتّسع، تُريه أمورا أبعد وأدخل في حياة الناس!

وفي الشارع هناك، الذي يسكنه كبار المسؤولين، امتدّت عينُه دون قصد فرأى أكداسًا من

العملات الصعبة تُستخرج من الخزائن وتُعبّأ في الحقائب. وعلى رصيفهم رآهم يستعجلون للحاق بالطائرة قبل أن تطير.

وإذ مضى في تَجواله مرّ عن بُعد بذلك المبنى ذي الأسوار العالية الذي يُحشر خلفه الناس، يُستجوَبون بقليل من الكلام وبكثير من التعنيف والتعذيب، فوجد نفسه تفيض خوفًا عليهم وحسرة.

واتّجه به التفكير وجهة أخرى: إنّ ما حلّ به من إصابة جعلت العين ثاقبة إلى حدّ اختلاس النظر واستراق السمع أيضًا، من قُرب وعن بُعد، ذلك سوف يعود عليه بالضرر، لِما ينفتح أمامه من أسرار الناس الذين تحت، والناس الذين فوق، وهو إذا توقع من أبناء طبقته أن يهادنوه بأن يغضّوا الطرف عنه، فهل يغفر "الفوقيون" له أنه بات قادرا على الاطلاع على المستور مما هناك، من نهب أموال ومن تعذيب نفوس، وربما استطاع -يظنّون- أن يصل إلى ما هو أدهى، فزاد هذا من مخاوفه، وعزم على أن يستشير أحد العارفين بالأمور، هذا الذي لم يكن -بالمصادفة- إلا جاره الذي رآه قبل قليل يُعنّف شقيقته لمناداتها بيّاع التوت: رآه الآن واقفًا على رصيف بيته، مرتديًا الجينز الأزرق والبلوزة الخمريّة اللون، وفي اليد وردة جورية.

سأله:

- إلى أين، يا صديق؟

هشّ الشاب:

- إلى الكلية، يا رفيق!

فلما لاحظ الصديق ما في عينه اليمنى من اتساع، سأله مشفقًا عما جرى لهذه العين؟

والواقع أنه لم يكن في حاجة لهذا السؤال. أخذ يروي بعفوية كيف أنه أحسّ أولا بهذا العارض، ثمّ كيف أمام المرآة رأت العينُ اليسرى أختَها اليمنى، ووصل به الحديث إلى ارتدائه

ملابسه بصعوبة، وربْط فتحة الحذاء... ثمّ ما رأى من تطفيف البقال في الميزان، فقاطعه الصديق مؤيدا:

ـ كلّ الباعة هكذا، حتى بيّاع التوت الشامي.

هل أخطأ في بيانه أنه أيضا رآه هو شخصيّا يُعنّف شقيقته "الأمّورة" لأنها نادت بيّاع التوت، وأضاف بسذاجة:

ـ طيب، إن لم تناده من الشباك... هل كنت تفضّل أن تلحقه في الشارع!

وتابع رواية ما رأى من نهب أموال الشعب وتعذيب الناشطين السياسيين، وأضاف رغم وجعه من عينه المتوسّعة:

ـ إلى متى ينهبون أموالنا ويهرّبون دخلنا القومي إلى الخارج، ويمارسون تعذيبنا حتى الموت! أما لهذا الليل أن ينجلي؟

كانت عينا الجار، في أثناء هذا اللقاء، تتّسعان، ليس لعلّة مرضية مثله، لكن دهشة من أن يتحوّل جاره إلى عارف بأحوال الناس وأسرار الدولة. وقبل أن يُنهي حديثه ليُعبّر عن حيرته فيما يجب أن يفعل، كان الشاب قد انصرف دون وداع.

دخل بيته، وقد زاد في استغرابه من وقائع اليوم، هذا اللقاءُ العابر مع جاره الذي لا يضمر له الودّ، ولم يُسائل نفسه عما إذا كان أخطأ في بَوحه له بكلّ ما هنالك. وما كاد يستريح حتى سمع الهاتف يرنّ:

ـ أنت "أبو عين بصّاصة"!

فكّر:

ـ لكن من أنت، يا سيد؟ ومن تقصد بأبو عين بصّاصة؟

فجاءه صوتٌ آمر:

ـ ابقَ حيث أنت، آتون إليك!

وطُرق الباب. جاؤوا ليحملوه معصوبَ العينين.

ـ نحن نعرف عنك كلّ شيء. منذ متى حلّت بعينك هذه الحالة؟

ـ أمس عند منتصف الليل، سيدي.

ـ بماذا أعلمتْك هذه العين؟

وحكى لهم عن تطفيف الميزان وتعنيف الصبيّة... سألوه:

ـ هل هناك علاقة بينك وبينها؟

ـ لا والله، يا سيدي.

ـ وبماذا أمدّتك عينك أيضًا؟

هل يقول لهم عن نهب الأموال وتعذيب الناس؟

ـ لا شيء غير ذلك، يا سيدي.

ـ تقول... أو نقلع عينك؟

ـ لا يا سيدي... أقول.

وروى لهم كلّ ما رأته عينه وسمعته أذناه.

قالوا:

ـ سوف نُجري لك جراحة في المستشفى العسكري، نُصغّر حَجَر العين ونقصّ التمدّد في الجفنين.....

***

عندما فتح عينيه وهو في سريره، كان أول ما فعل أن أخرج يده من تحت اللحاف يتلمّس بها عينيه الاثنتين.

ثمّ قام إلى المرآة يتملّى النظر من لونهما الذي يحاكي كستناء بلادنا.

[الكتابة: الأربعاء ٤-٧-٢٠١٨] دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٠-٧-٢٠١٨

عدا إبداعه

عدا إبداعِه

للطف لؤي كيالي، وصدقه، وكرمه

أحبّه كلُّ الناس

كبارًا وصغارًا،

رجالا ونساء،

العامة والخاصة،

مواطنين وأجانب

فقط أبغضه حسّاده بغضًا شديدًا

وما كفّوا

إلّا عندما عرفوا أنّ مرضه لا شفاء منه.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١١-٧-٢٠١٨

في كلّ مرة

في كلّ مرة

أحمل فيها قهوتي من داخل البيت إلى الحديقة

يُساورني خوفٌ من أن تعثر قدمي

فأفقد الثقة بقدرتي على المشي...

أتمنى لو أنّ هنا مَن يُعِدّ لي فنجاني!

دمشق الشام: عصر الأربعاء ١١-٧-٢٠١٨

دموع شجرة الكرز!

ما دمنا في الحديث عن الكرز، الذي يُعدّ منه أهل حلب أكلة اللحمة بالكرز، فإني أقدم هنا قصة كنت استوحيت فكرتها من ذلك، هي للصغار وللكبار أيضًا:

\- - - - - - - - - - -

لا تعرف "شجرةُ الكَرَز" الصغيرةُ، شيئا عن أصلها وفصلها، سوى أنهم جاؤوا بها، إلى هذه الحديقة المنزليّة، من المشتل عودًا مجرد عود. كانت أمُّها -هناك- قد حدّثتها بأنّ نسغًا كامنًا فيها سوف يُعطي، في ربيع قريب، براعمَ وزهرًا تتحوّل كلّها إلى ثمار صغيرة ذاتِ لون أحمر قانٍ، فيأتيها بستانيٌّ خبير يُطَعّمها في موضع من جسدها، تصبح ثمارها بعد ذلك أكبر حجمًا، وخدًّا ورديَّ اللون وخدًّا يميل إلى الصُّفْرة، يأكلها الناس ويقولون متلذّذين: الله، ما أطيب هذه الفاكهة!

وفي انتظارها لأن تجيء تلك الأيام التي تعطي فيها تلك الثمار اللذيذة، كانت تستمع إلى أحاديث أهل الدار، وهم يتفيّؤون ظلالها وما امتدّ من أغصان الياسمينة القريبة منها،

وتتساءل: تُرى كيف يكون "التطعيم"؟ هل هو موجع أم أنه يبعث على الابتهاج؟ ولكنها بدلًا من ذلك سمعتهم يتحدثون عمّا سمَّوه "الوَشْنة"، كرز الوشنة، ذا الطعم المُزِّ، وأنهم لا يريدون تطعيمها ليكون كرزها حلو المذاق!

ويا له من فصل جميل حين أحسّت الشجرة أنّ شيئا ما بدأ يسري في أغصانها وينبثق براعم، هذه البراعم التي أزهرت في عناقيد صغيرة، ثمّ تساقطت بَتَلات الزهر، وبدأت الثمار تنمو، وهي -الشجرة- تحسّ لذّةً في جسدها... وتسمع أبناء الدار يهتفون فرحين بأنهم سوف يأكلون في الصيف الآتي "مربّى الكرز"، و"الكرزيّة" المطبوخة باللحم، فتساءلت الشجرة: "كرزيّة"! هذا ما لم تحدّثها به أمُّها. ثمّ ترى أياديهم الصغيرة تمتدّ إليها، يأكلون حُبَيباتها ويقولون: "لمّا تنضَج بعد!".

لم تنضَجْ حبّاتُها، نعم... ولكنْ لا البستانيّ جاء "يُطَعِّم"، ولا خُدودًا صُفْرًا أو ورديّةَ اللون تبدّت في ثمارها! إلا أنّ صغارها، وهنّ في عناقيدهنّ، بدأنَ في النموّ، وأخذنَ في الكلام، يدور بينهنّ حديث، تُصغي إلى لَغْوهنّ، وتعلّمهنّ الكلام.

وكان ممّا تحدّثت إليهنّ أنهم أتَوا بها إلى هنا عودًا أجرد، زرعوه في هذا الركن من حديقتهم. فجاءها من بناتها استفسارٌ عن معنى "عود أجرد"، فشرحت لهنّ بأنْ لا فرعَ فيه، ولا ورق، ولا براعم، فتعجّبنَ: "أمُّنا كنت هكذا، يا ليتنا كان كُتب لنا أن نراك يوم ذاك، يا أمّاه!"، وصدرت عنهنّ ضحكاتٌ ناعمات، فزجرتهنّ مازحةً: "عيب، يا بنات! تضحكنَ لهذا التصوّر!"، ثمّ جارتْهنّ في الضحك

على هذا مضت أيام الربيع...

إلى أن كان يوم جاء فيه الأولاد بسلَّم ذي ساقين، وقطفوا منها عناقيد قانية اللون،

يتذوّقونها متلذّذين ويقولون بأنّ فيها حُموضة لذيذة! وغسلوا ما قطفوا بماء البِركة، ثمّ تحلّقوا حول طاولة، يُفَقّشونه[1] مستخرِجين منه النوى.

كانت الشجرة وبناتها يَرقُبنَ هذا كلّه، بينما الأنسام العليلة تحرّك أغصانها فيُغنّي حفيف الأوراق أغنياتِ الصيف الشجيّة. وتعرف الشجرة أنّ في البيت اليوم وليمة يَعمل لها أهل الدار، الطبق الرئيسي فيها "الكرزيّة".

الأم توجّه:

ـ هاتي، يا "هلا" اللحمة من البرّاد، أُحضّرها وأنا هنا تحت شجرة الكرز. وأنت، يا "حلا"، اعصري الكرز بيديك الحلوتين!

كانت عناقيد الكرز، المدلاة من أغصانها، تشهد ما يجري تحت أبصارهنّ! هل خشِيت الشجرة – الأمّ أن تتأذّى مشاعرهنّ من رؤية "شقيقاتهنّ" تُستخرج قلوبُهنّ من أجوافهنّ؟ فأحبّت أن تصرفهنّ عن ذلك:

ـ يبدو أنّ وليمة هنا اليوم، يا بناتي، تتصدّر فيها المائدةَ هذه الأكلةُ التي يطلقون عليها "الكرزيّة"!

بجوار البِركة يسأل "حمّودة" أمّه:

ـ وأنا ماذا أفعل، يا أمي؟

ـ أنت تقطّع أرغفة الخبز، ليس الآن، تنتظر حتى يأتي الضيوف!

ودخل الحديقة رجلٌ وامرأة، ترافقهما بنتٌ وصبيّ. وفي الترحيب بالرجل المَهيب كانوا ينادونه "دكتور"، وعلى حين انضمّ الابنان إلى أولاد الدار يلعبون معًا في الحديقة، استأذنت ربّةُ

---

(١) في الفصحى: يفضَخونه. الضغط على الثمرة لاستخراج نواتها.

البيت في الذهاب هنيهة لتُلقي نظرة على الكرزيّة.

قال الدكتور وهو يرنو بعينيه نحو شجرة الكرز:

ـ لا تتأخّري، سيدتي. سعيدٌ أنا جدا بعطاء شجرتكم المباركة. عندي كلامٌ علميّ أريد أن أحكيه عن الكرز، الذي استمَدّ اسمَه من اللغة الفرنسيّة Cerise!

عبّر ربّ البيت عن سروره:

ـ أنت دائما تُتحفنا بجديد من المعرفة، يا دكتور! (وتوجّه إلى زوجته) أَطِلّي على البنتين ما تفعلان وعودي حالا.

شجرة الكرز تستمع. هل استثار فُضولها أن تعرف ما سوف يُدلي هذا الرجل من حديث عن "أصلها وفصلها"؟

لم تتأخّر سيدة الدار. أخذ الكبار والصغار، ومعهم شجرةُ الكرز وصغيراتُها، يُصغون: أنه منذ زمن بعيد جيء بشجرة الكرز من أواسط آسيا إلى بلادنا، فتكاثر شجره عندنا. ثمرُه هذا الذي أعطته شجرة الدار، يُسمّى "الوَشْنَة"، فيه نكهة حامضة مستحبّة، تُؤهِّله لأن يُعمَل منه "مربّى"، وأن يُجعل عصيرُه في عُبوات، وأن تُعَدّ منه أكلة "الكرزيّة" هذه التي ينتظرونها... ذلك إذا لم تُطعَّم أشجاره فتتحوّل ثماره إلى كرز أكبر حجمًا، خدًّا وخدًّا، حلوَ المذاق، هو المرغوب فيه فاكهةً بين الناس.

شجرة الحديقة لم تكن تعرف شيئًا من هذا قط. لم تحدّثها أمّها به يوم كانت في حضنها. الآن تعرف لماذا لم يُطعّمها البستاني، يريدونها للكرزيّة، وللمربّى والعصائر!

الرجل يتابع:

ـ وهناك صنفٌ مقارب للكرز اسمه "القراصية Karasia"، كانوا يسمّونه في بلاد الأندلس

"عين البقر" لشبهه بعيونها، من منافعه أنه يجلو الصوت. وقد احتفى به المطربون في بلادنا فغنَّوا له: "ع القراصيّة يا ربي، الفرقة حرقتْ لي قلبي!."

قالت صاحبة البيت:

ـ مساكين أهل الهوى!

وأضاف زوجها:

ـ هذه نسمعها من "صباح فخري".

وعلت ضحكاتهم.

وحمّودة ينحني على أرغفة الخبز يقطّعها "مثلّثات" ويصفّها في صينيّة. حُملت الصينيّة إلى الداخل، ليعودوا بها وقد سُكب على الخبز مَرَقُ الكرز المعقود بالسكر، وفوقه دُلق اللحم كرات مصطبِغةً باللون القاني، ورُشّ على الصينيّة نُثارُ القِرفة ومفروم البقدونس الأخضر، وبجوار ذلك الفليفلة الحمراء حلوةً وحارة، والماءُ المثلّج...

والدكتور، كثير الشرح والتفسير، يرفع صوته:

ـ الله الله، يا أهل الدار!

وشجرة الكرز وبناتُها، يَرَينَ كيف يسحب كلٌّ بشوكته شيئا من مثلثات الخبز المغرّقة بالمرق، مدحرِجًا إلى صحنه شيئًا من كُرات اللحم، يأكلون، ويرفعون عيونهم نحو الشجرة:

ـ كرزيّة... من شجرة حديقتنا... يا فرحَنا!

وتضاحكت الحبّات في عناقيدهنّ، فرحاتٍ بما قدّمتْ شقيقاتُهنّ لأهل الدار من لذيذ الطعام.

وأما أمّهنّ، الشجرة عميقة النظر، فقد أحسّت في عينيها دمعات، أخفَتْها عن بناتها،

مُشيحةً إلى جانب، ذَرَفتْها، فتلقّتها أوراق الشجرة، وجفّفها النسيم العليل، فلم تصل إلى مائدة الكرزيّة.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٥-٧-٢٠١٨

وإني لأحتفي بأبياتك الشعرية

وإني لأحتفي بأبياتك الشعرية، قرأتها الساعة

في البصرة الفيحاء شَبّت نارُها

ليعمّ أرضَ الرافدَينِ أُوارُها

ليكون إيرانَ الطغاةِ مدارُها

ويسود أرضَ المارقين شرارُها

لك منّي ألف تحية، يا ابن العراق الأبيّ.

دمشق الشام: فجر الأحد ١٥-٧-٢٠١٨

وكنتُ صغيرًا.. حسن الصوت

آن لي أن أقول إنه علّمنا دروس الموسيقى في مرحلة الدراسة الإعدادية (أربعينيات القرن الماضي) أستاذان هما من أشهر أساتذة الموسيقى بحلب، أولهما "مجدي العقيلي" والآخر "جميل جوخدار" الذي كان يعزف لنا على تلك الآلة الوترية المسماة "الجُنْبُش" تشبه العود لكنها قُدَّت من معدن؟

كان الأستاذ مجدي العقيلي (١٩١٧-٨٣) باحثًا كبيرًا في الموسيقى التراثية، وقد نشر في

مرحلة لاحقة من حياته كتابه الثمين "السماع عند العرب" من خمسة مجلدات. وكم أَسِفتُ لأنّ مكتبتي خلت من نسخة منه، منذ عام السبعين من القرن الماضي، فبهذا االكتاب كانت تكتمل.

وممّا أذكر له أنّ مدرستنا يوم احتفلت عام ١٩٤٤ بعيد الشهداء (السادس من أيار ١٩١٦)، اختار الأستاذ العقيلي منّا نحن تلاميذ الأول إعدادي الشعبة الثانية خاصة بضعة فتيان ليؤدّوا النشيد الذي مطلعه:

أَبَت العينُ أن تذوق المناما والمنايا تغتال منّا الكراما

ذلك أنّ تلاميذ تلك الشعبة هم في سنّ لما تخشوشن فيه أصواتهم، ولا هي أشبه بأصوات الأطفال. وأذكر أن العقيلي في تعليمنا النشيد كان يعزف على البيانو ونحن في الطابق الثاني من مبنى المدرسة، فلما جاء يوم الاحتفال تخلّى عن العزف لشابٍّ من "آل الصابوني"، فهم أرادوا أن يكون النشيد طلابيّا أداءً وعزفًا.

وأما الأستاذ الجوخدار (كلمة تركية تعني "أمين الملابس"، الذي يُعنى بملبس السلطان أو الوالي)، فكان يتصف بالمرح من ناحية وبذاكرة تحفظ الأسماء والأنساب، فلان ابن فلان ابن فلان الذي كان تلميذا عنده في مدرسة كذا عام كذا، تقول "شيخ حارة حلب" كلّها، وكان كلما صادف إحدى التلميذات التي لها قرابة مع أسرتي يسألها بكل أريحية: "شلونه فاضل؟"، فتتساءل التلميذات حوله عمّن يكون فاضل هذا!

وللأستاذ جميل ابن من جيلنا، قضى الإعدادي في التجهيز الثانية (سيف الدولة) بالفرافرة قريبا من بيته، فلما نال شهادة الكفاءة أراد له أبوه أن يتابع الثانوية في التجهيز الأولى (ثانوية المأمون) بالجميلية، ونحن طلاب الصف العاشر (هكذا كانوا يطلقون عليه) رحّبنا بالابن وأحببناه على محبّتنا لأبيه.

نهفة[1] حصلت، أنه دخل علينا قاعة الدرس في أول أيام الدوام (العام الدراسي ١٩٤٨-٤٩) أستاذ المنطق "أحمد القادري" (وكان قد درّسَنا في سنة الكفاءة المنصرمة مقرر "المعلومات المدنية")، وكنّا نحبّه ونجلّه لما نجد في درسه من معلومات مختلفة تتعلق بحياة الناس وبالسياسة أيضًا، وبدا لنا تلك الساعة أنّ ابن أستاذنا جميل الجوخدار، الذي يفضّل أن نناديه بـ"أبو جميل"، مولعٌ بالشغب، فقد سأل الأستاذ سؤالًا، وجادل، وتمادى، والأستاذ القادري الحليم يصبر عليه... إلى أن سأله عن اسمه؟ فأجاب... هنا قال الأستاذ كالحائر، كالمستغرب: "الآن أبوك تركني على باب الصفّ وهو يوصيني بك!"، وضجّ الطلاب بالضحك، وشاركَنا فيه "أبو جميل".

رحم الله من ذكرت. دمشق الشام: مساء الأحد ١٥-٧-٢٠١٨

تكاثرت المعاول

تكاثرت المعاول

تحفِر في تراب حديقتي

تجرح صدري

تؤلمني

من أيدي الأصدقاء قبل الأعداء

وهم لا يعلمون

ويتّهمونني بالتوهّم

---

(١) حادثة مضحكة، أو نكتة مستملَحة.

وقد يكون هذا صحيحًا!

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٦-٧-٢٠١٨

رشدي الكيخيا

رشدي الكيخيا من ألمع السياسيين في سورية في عصرها الذهبي،

لا يضاهيه إلا ناظم القدسي، وشكري القوتلي، وفارس الخوري، وسعد الله الجابري...

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٦-٧-٢٠١٨

سرقة.. لم تتمّ!

كاتب أعرفه من بُعد، أديبًا وصحفيًّا يقيم في العاصمة. صدر له عام ١٩٥٦ (ربما) عمل روائي عنوانه "مكاتيب الغرام"، قرأته وكتبت عنه دراسة نشرتها في ذلك الحين بمجلة "الأديب" اللبنانية.

واتفق أن التقيته، وأنا في زيارة لدمشق عام ١٩٥٩، في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل (مبناها الأول المطلّ على ساحة المرجة)، بحضور الدكتورة زاهدة حميد باشا وسهام ترجمان. وفي استرسال الحديث، أشرت إلى ما كنت كتبت عن روايته تلك، فبدا أنه لم يطلع على المقالة، وسألني أن أعيره المجلة ليقرأ، فبيّنت له أنّ ذلك العدد مضموم مع أعداد السنة في مجلد كبير، فقال: هات "المجلد" معك من حلب ذات مرة... فابتسمت لهذا الطلب الغريب!

ولما تأكّد من اعتذاري، قال: "الله حماك!"

قلت: "كيف؟"

قال: "لأنّ ذلك المجلد ما كان له أن يخرج من بيتي!"، واعترف -مُصارِحًا أو ممازحًا-

بأنّ نصف مكتبته في البيت استعارات غير مردودة!

إنه الأديب الصحفي الساخر "حسيب كيالي"، رحمه الله.

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ١٧-٧-٢٠١٨

متعَبٌ أنا

متعَبٌ أنا

رغم البسمات في الكلمات

وما أُشيعه في النفوس من بهجة وأمل

وما أرسم في المحيّا

دمشق الشام: فجر الخميس ١٩-٧-٢٠١٨

حَرَدُ الياسمين

ذات يوم

جاءني صديق مهندس ادّعى الفهم بالزراعة، وقطع في حديقتي شجرة الياسمين التي وصلت إلى شرفة الجيران،

حزنت الياسمينة وأصابها "الحَرَد"،

وحزنتُ

وأنا منذ ذلك اليوم أعاينها كلّ صباح لعلني ألمح في أغصانها الجديدة زهرة

بعد زمن

عثرتُ على شيء يَبرُق في تضاعيف أغصانها الكثيفة، كان ذاك الزهرةَ الأولى.

فرحت، وسجّلت هذا في أَجَنْدتي.

وبعد أيام رأيت زهرة أخرى

وثالثة

اليوم

أبصرت ثلاث زهرات في موضع معًا، ورابعة وخامسة هنا وهناك.

وساعة زارني صديقي "الطيبي" حدثته وأطلعته، فشاركني الفرح.

الآن

أنا موقن بأنّ ياسمينتي الحزينة تَبِلُّ من مرضها،

هي في "النقاهة" وسوف تُقلع في الإزهار عمّا قريب.

أبحث عن الفرح في الأشياء الصغيرة.

دمشق الشام: مساء الخميس ١٩-٧-٢٠١٨ س ٧: ٥٠

هل العمل الروائي تأريخٌ للمجتمع؟

مهداة إلى الصديقة السورية "هدى" في مدريد، لرسالتها أمس.

انضمّ إلى العمل معنا في مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب، ربيع ١٩٦٣، موظفٌ كان في أمسه ضابطًا في الجيش، فأُبْعِد بسبب قناعته بالوحدة مع مصر ولتعلّقه بالرئيس عبد الناصر.

في تلك الآونة كانت قد صدرت روايتي عن دار مكتبة الحياة ببيروت، ومع المودة التي انعقدت بيني وبين زميلنا الجديد (واسمه "صلاح الدين الأيوبي"، نعم اسم مطابق!)، قدّمت

له نسخة من كتابي "ثمّ أزهر الحزن".

كنت في شبه يقين من أنّ اهتمامه بالشأن السياسي يحول بينه وبين قراءة الروايات، الواقعية والرومنسية والخيالية والوجودية (هذه الفلسفة التي كانت قد ألقت ظلالها على بعض الأقلام)، ولكنّ زوجته لم تكن كذلك، حدثني عن أنه يراها مستغرقة في قراءة الرواية المهداة، وعندما ترفع رأسها تقول له في توكيد إنها "تعرف هذه الأسرة شخصيًّا"!.

في البداية لم يخطر لي أن أستوضحه عمّا يقول نقلا عن زوجته المستمتعة بالقراءة، فلما كرر القول سألته؟ فأفاد بأنّ الأسرة التي تدور عليها حوادث الرواية "تعرفها زوجته، وهي تسكن قريبا من بيتهم!".

أعترف لكم، أصدقائي، بأني سعدت بهذا "التوهّم" الجميل، فهو دليل على أني أستلهم مجتمعي، شؤونَه وشجونه وكلّ ما يمور فيه من تفاصيل الحياة.

أجل، إنّ الرواية تأريخ للمجتمع، يتعرف عبره اللاحقون على ما كان يجري في أيامنا.

تصوروا لو أنّ الإبداع الروائي كان من الفنون التي يمارسها أهلُ الأندلس الغابرِ زمانُهم، فنرى كيف كان الناس يومذاك يتحرّكون في بيوتهم، يمشون في الأزقة، يعملون في الأسواق، يخرجون إلى النزهات الخَلَوية، وما يعتمل كذلك في أذهانهم تُجاه العامل (الوالي) الذي يحكمهم، والقاضي إن كان ظالما أو عادلًا، والأعداء المتربّصين على الحدود. دمشق الشام: ضحى الخميس ١٩-٧-٢٠١٨

مَؤونة الشهر، من بُنّ وسكّر وزيتون..

منزلي يقع بين "صرّافَين آليّين"، يمينًا ويسارًا، والمسافة ذاتها إلى كلٍّ منهما، فقسَّمت أن أذهب إلى صرّاف اليمين في أيام الشتاء، فالطريق إليه تغمرها شمس دافئة، وأمضي إلى الصرّاف

الذي على اليسار صيفًا، فالطريق إليه ظليلة.

وعلاقتي بهاتين الآلتَين اللتين تعطيان بصمت، هي قبض معاشي التقاعدي، الذي لا سرَّ أذيعه إن قلت إنّ مقداره -بعد خدمة الحكومة ربع قرن من الزمان (آخرها مديرا في وزارة التعليم العالي)- يعادل ستين من الدولارات الأمريكية البغيضة، جريت على أن أخصّصه لمؤونة الشهر، من بنّ وسكّر وحليب، وزيتون منزوع النوى، وتمر الخليج ثلاث حبّات لكلّ صباح... وباقي الرزق على الله.

ويقول لنا المستظلّون أشجار الزيزفون: نحن عايشين ومبسوطين... ليش قمتوا بدكُن تدبحوا الأقليّات!

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٢١-٧-٢٠١٨

ورفعت بالحق صوتي

عام ١٩٦٨ عَهِدتْ إليّ الوزارة التي أعمل فيها، بالإشراف على "برنامج الغذاء العالمي" (مواد غذائية تَرِدُ إلى قطرنا هدية من تلك المنظمة العالمية، التابعة لهيئة الأمم المتحدة، ونتولى نحن توزيعها على مؤسسات الإنتاج في الريف، كتلك التي تصنع السَّجاد البلدي بأنامل البنات اليافعات)، وكان من شروطهم أن يَتِم توزيع المواد كل ربع سنة دون تأخر وأن نقدم تقريرًا مفصلا بالأسماء والمقادير، ويكون تقصير منّا إن تأخرنا في التوزيع أو في موافاتهم بالتقارير الرُّبْعية.

الموظف الذي كان مكلفا قَبلي، تقاعس في إعداد هذا التقرير لخمسة أرباع سبقت، وأما عن التقصير في توزيع المواد الغذائية فلا تسل!

وكان المدير بحلب، الفظّ، الذي تركت بسببه مسقط رأسي قادمًا إلى العاصمة، قد لحق

بي إلى دمشق متقلّدًا وظيفة "أمين عام الوزارة" (سُمّيت فيما بعد "معاون وزير")، وهو كان من زملائي أيام البكالوريا وبينه وبيني حَزَازة[1] لم يستطع التخلص منها (مضحكة، أرويها فيما بعد)، فشاء أن يُحرجني ليخرجني من الوظيفة مُسَرَّحًا من قبل نظام يرفعه بمقدار ما يهمّشني، أنا المعارض الذي مُتّعت بموهبة اسمها الكتابة، فعَمِل على أن يُسلّمني هذا العمل المضطربَ أمرُه، ولا مجال لي لاعتذار أو لاحتجاج، وكانوا قد روّجوا لشعار "الراتب للموظف والوظيفة للدولة".

وباشرت العمل، وأنا موظف فرد وحيد.

هل أقول إنه طاب لي الرجوع إلى المصنفات أستخرج منها التقارير الواردة من مؤسسات الريف، أحصي المواد ومقاديرها، أرقامٌ أقوم بجمعها ليس بالحاسوب (الذي لم يَئِن له أن يظهر أو أن يصل إلينا)، لكن بآلة حاسبة يدوية تَصدُر منها عند الاستعمال ضجة صغيرة، فأنجزت التقارير الفائتة واحدا بعد آخر، وكنت أُحيلها إلى زميلي في دائرة الترجمة (محمد السلطي) يترجمها إلى الإنكليزية، فإلى "برنامج الغذاء العالمي" في روما... وذلك كله في استعجابٍ من زميلي في الغرفة (عبد الجليل ج. ر.).

ما لهذا أكتب تغريدة اليوم، لكن لأشكو من أنّ المواد الغذائية كانت موقوفة ومنذ أشهر بعيدة في ميناء اللاذقية، لا يرضى المسؤولون هناك نقلها وتوزيعها على مؤسساتنا في الأرياف! كتبت لهم غير مرة، بتوقيع الأمين العام، فما استجابوا ولا أجابوا. وإذا كنت أفلحت في تغطية التقارير فإنّ الأهم أن تصل المواد إلى بناتنا العاملات في إنتاج السجاد في الأرياف.

لما عِيل صبري، هتفت إلى المسؤول في الميناء هناك، فجرى بيني وبينه حوار ساخن،

---

(١) ضغينة أو عداوة.

عَرَّفت في بدايته أننا نحن الوزارة نقصّر في سِداد فواتير النقل والتوزيع، أيّدته في ذلك، ولكني سألته كيف يحتفظون بهذه المواد التي يجب توزيعها والاستفادة منها في مدة ملحوظة، "فأنتم ترتكبون مخالفة أكبر في حق بنات الريف اللواتي ينتظرن المواد، وتحرجوننا أمام منظمة دولية... " وكلام من هذا القبيل.

هل ارتفع صوتي في أثناء المكالمة؟

عرفت هذا لحظة رأيت الاستغراب يتبدّى في محيّا زميلي عبد الجليل (الذي لم يكن بعثيًّا)... وسألني كيف أرفع صوتي هكذا في وجه مسؤول في اللاذقية قد نزل منذ قريب من الجبل؟ فقلت: مبرري أني على حق!

مضت أيام... وإذا التقارير ترد من الأرياف بأن "الرزق" وصل عن كل الأرباع الفائتة!

هنا لم يستغرب زميلي عبد الجليل، ذو العينين الزرقاوين، فقد فسّرتْ له هذه الاستجابة السريعة من اللاذقية كلّ شيء... قال باسما: تعرف؟ أنت بحوارك الشديد مع ذلك المسؤول، ورفْع صوتك، ظنّ أنك بَعْثِيّ مهم، فأمر بتحريك الموادّ في الحال، ودون انتظار لِسِداد الفواتير قديمها والجديد!

تكملة هذه الحكاية أنّ مضايقات الأمين العام ألجأتني إلى ترك هذه الوزارة منتقلاً إلى... وإلى... حتى صرت في وزارة التعليم العالي.

وأما غريمي فقد علت مراتبه، من محافظ إلى وزير، إلى ما لا أستطيع بيانه... حتى لا ينكشف المستور، ولكني أقول إنه من فَرطِ الغِنى الذي أحرز (حتى لقّب بـ"ملك المطاحن")، واستفحالِ الغرور فيه والحُمْق والخُرْق، اتفق له أن نزل -وهو على طريق سفر- من سيارته الفارهة جدا، فتح بابها، ونزل دون أن يلحظ أنّ سيارة قادمة من خلف، فأطاحت به، وكانت هذه نهايته، يرحمه الله... وتركني لأروي.

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٢-٧-٢٠١٨

وطمر القصف لوحاته الفنية

التقيته في "طلعة العفيف"، وأنا نازل. سألني:

- عرفتَني؟

تعذّرت عليّ معرفته، حتى بعد أن سمحت لنفسي بأن أرفع القبعة عن رأسه. إنها السِّنون معجونةً بالحرب.

كنت زرته في بيته في "مخيم اليرموك"، بناه بيديه مِدْماكا فوق مدماك[1]، تساعده زوجته والأولاد. اليوم ذاك البيت أنقاض، وتحته طُمرت لوحاته الفنية نتاجُ العمر وكلُّ ما كانت رسمتْه أمّه المتفتّقةُ موهبتُها على كِبَر.

- أين تسكن اليوم، يا صديقي؟

- الأسرة في بيت استأجرناه بـ جَرَمانا، وأنا عدت إلى بيتي القديم الذي تعرف، مرسمي تحت الأرض في "باب مصلّى"، أرسم وأستعيد الذكريات!

إنه الفنان عبد الرحمن مهنّا.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٣-٧-٢٠١٨

مَيّ سكاف

حُرّة الحرائر والأحرار

---

(١) المِدماك: صَفٌّ الحجارةِ أو اللبِنِ من البناء.

أضناها حبُّ الوطن وأشواقُ الحنين

فرحلت عن دنيانا بأزمة قلبية أوجعت قلوبنا

سوف نظلّ نتذكّر مواقفك الواعية

وكلماتك المضيئة، يا ميّ

دمشق الشام: الأربعاء ٢٥-٧-٢٠١٨

القراصيّة.. لحلب

ممّا أذكره من عهد الطفولة أنّ أبي كان يوجِّه من المآكل في بعض أيام الصيف ما يسمّى "خُضرة بالفرن"[(١)]، أصنافٌ من خضرة الموسم، تُفرم وتضاف إليها اللحمة، يَذهب ولد منّا إلى فرن الحارة ويعود بمن يأخذ الصينية، تُدخَل بيتَ النار، يحرّكها "الريّس" بين وقت وآخر، ثمّ تُحمل إلينا، فنتحلق حول المائدة، تمتدّ إلى الصينية الأيدي، بضع عشرة يدًا، تَغْمِس وترتفع إلى الأفواه.

في بعض المرات يشتهي أبي "أبو السعود" -رحمه الله- أن يجعل في هذه الأكلة شيئًا من ذلك التفاح الصغير المُزّ[(٢)] المسمّى "القصيري"، وفي مَرّات أخرى يجعل "الجانرك" الأخضر المزّ أيضًا.

هل أقول لكم إني، ضحى أمس، فتحت الباب لطارق لطيف قدّم لي مِن صديق لا ينساني في المواسم منذ عدت إلى الوطن، من عُبوة من هذه الثمار أو تلك ممّا تجود به جنّتُه الصغيرة التي تُحيط بدارته في "الصَّبُّورة"... اليوم كان في العبوة حَبّ قُرمزيّ اللون صغير، مُزّ، يسمّى

(١) الصواب: لحمة بالفرن.

(٢) المُزّ: ما كان طعمُه بين حلاوة وحموضة.

"القراصية"، تلك التي استعان بها مطرب العرب صباح فخري في شكواه:

القراصيّة يا ربّي الفرقة حرقتْ لي قلبي!

قراصية صاحبي ذكّرتني بما كان أبي يُدخل في تلك الصينية من ثمارٍ مُزّة... قلت: أتفنّن، بدل التفاح القصيري والجانرك، القراصية!

عند العصر نزلت إلى "الجسر الأبيض"، أتسوّق. في عودتي هتفت لي جارتي "سَحَر" تريد تأخذ فنجان قهوة بجوار البركة سويعة الأصيل في حديقتي، تودّعني قبيل سفرها إلى أمريكا عند ابنها الطبيب.

في الليل أعددت كل شيء. مسألة أشكلت عليّ. هتفت إلى "أستاذتي" في الطبخ، "وفاء" بحلب ابنة شقيقتي. استغربتْ: "في هذه الساعة من الليل تقوم تطبخ، يا خالي؟ عشاء أم غداء؟ "، وأجابتني بأنّ اللحمة يجب أن تُقلى خفيفًا على حِدة، وفي منتصف الطبخ تضاف إلى الخضرة وهي في بداية نضْجها، ولكنها لم تتحمّل مسؤولية القراصية، فهذه لم تعرفها، ولا فعَلَها جدّها أبي! عند الأكل كنت أحاذر نَوى القراصية، فلست مستعدًا أن أزور طبيب الأسنان!

لم ينتهِ الحديث. إنّ للقراصية ميزة أنها "تجلو الصوت"، وذلك ما كان وصل إلى علم الموسيقار "محمد عبد الوهاب". في زيارته للشام قبل نحو أربعين عامًا، رأيته في تلفزيوننا، يُبيّن فوائد القراصية الحَلَبية في جِلاء الصوت، طلبها هنا فما وجدها، فكدت أرفع صوتي لأقول له: جئتنا في غير أوانها، يا مطرب الأجيال!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٥-٧-٢٠١٨

الغناء للحريّة.. الغناء للحزب..

مع إشراقة ذلك اليوم... صرنا نرى أقلامًا صحفيّة تأتي من قلب العتَمة، يعلو صوتُها ويزداد تألّقًا... ثمّ ما يلبث، الصوت والألَق، أن يَخْبُوَا ويغيبَ صاحبُهما وكأنه ما كان مشهورًا.

أذكر الشاعر "علي الجندي"، رفيقي في الدراسة بثانوية المأمون بحلب، القادمَ في أربعينيّات القرن الماضي من مدينته الوادعة على تخوم البادية "السَّلَمِيّة" والمقيمَ "داخليًّا" في مباني المدرسة (هو وابن عمّه عبد الكريم، القاهر المقهور)... جاء من منفاه الاختياري ببيروت ضحى الثامن إلى دمشق، برز صحفيّا مرموقًا خفيف الظلّ، وصعد نجمه خاصة بعد التصحيح الأول (يوم الثالث والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٦٦)، ثمّ خبا نجمه فلم نعد نقرأ له في الصحافة إلا قليلا... صار مثلي أنا!

ويختلف علي في ذا عن بلديّاته "محمد الماغوط"، الذي كان يُغنّي للحريّة بينما كان غناء علي للحزب.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٢٥-٧-٢٠١٨

وكانت "ميّ" طفلة تلعب على دراجتها..

وعمّا وقع بدمشق م الخميس ٢٩-٩-١٩٨١ من نزع الحجابات عن الرؤوس

في عصر ذلك اليوم، كنت قد فرغت من كتابة المسوّدة الثالثة من تلك الحكاية الأسطورية "بدر الزمان"، وكان عليّ أن أتوجّه إلى "حديقة ابن سينا" (حديقة المدفع) لأنضمّ إلى اثنين من أصدقائي الكتّاب.

لحظة تركت "نهر تورا" في سفح قاسيون وانعطفت يسارًا أنزل "أبو رمّانة"، رأيت على الرصيف الأيسر جماعة ممّن سُمِّينَ "المِظلّيّات" في لباسهنّ الرسمي يحاصِرْنَ امرأةً متحجبة

والأيدي منهنّ تمتدّ لتنزع حجابها، وهي تتوسّل إليهنّ دون دموع فقد جفّف الخوف مآقيَها.

في وقوفي على مقربة -والألم يعتصر قلبي على ما تقوم به بناتٌ، الظنُّ أنهنّ مهيّئاتٌ للدفاع عن الوطن- رأيت إحداهنّ تُعبّر عن إشفاقها على المرأة، التي ربما رأت فيها أمَّها التي تركتها في القرية هناك، فانتهرتها زميلتها: "القايد قال! "... وما تركنَ المرأة إلا حاسرة الرأس، ومضينَ يُلوّحن بالإشارب المنزوع منتصرات! ألمثل هذا اليوم كنت، أيها القائد رفعت، تُعِدّ بنات الوطن؟

كان ذلك عصر الثلاثاء، التاسع والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٨١ عند الساعة السادسة ولعلها السابعة.

هل كان لي أن أعلم أنّ طفلة من أطفال وطني الجميل، لها من العمر اثنا عشر ربيعا، كانت تلعب تلك الساعة على دراجتها في مكان آخر من العاصمة، استوقفها مثل ما رأيت أنا من نزع الأغطية عن رؤوس المتحجّبات... فتألّمت، وظلّ الألم يرافقها فوقّعت تلك الوثيقة التي أُطلق عليها "إعلان دمشق" (٢٠٠٥)، وفي الانتفاضة تكلمت فأحيلت إلى التحقيق، فهاجرت إلى لبنان، فالأردن، ثم باريس... حيث ودّعتنا بالأمس هناك!

لروحك السلام والسكينة، أيتها الحرة مي سكاف..

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٦-٧-٢٠١٨

مصَلّح كراسي الخيزران الستة

مصَلّح كراسي الخيزران الستة، أكدّ لي أنه لا يمكنه أخذها من عندي في عربته (الهوندا) الصغيرة لتجديدها... إلا إذا كانت مشفوعة بطلب بخط يدي وممهورًا بتوقيع "شيخ حارتنا" (العُمدة)، منعًا للظنّ بأنها "مُعَفّشة"!

وسيارات النقل الكبيرة، التي تتراكم فيها الغسالات والبرادات والتلفزيونات المنهوبة من قبل المعفّشين... تمرّ على الحواجز دون تواقيع وبأداء تحيّة أيضا!

ويقولون: ليش أنتو زعلانين؟

دمشق الشام: عصر السبت ٢٨-٧-٢٠١٨

لا تستكثروا مقدار الفرح

لا تستكثروا مقدار الفرح الذي عمّ القلوب في فلسطين وغيرها لإطلاق سراح الفتاة الصغيرة "عهد تميمي" من السجون الإسرائيلية،

إنه التَّوْق إلى الحرية عند المظلومين، يجعلنا نقتنص لحظات فرح...

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٩-٧-٢٠١٨

المعفّشون.. خْطَيْ!

قلت له:

- هل تتصوّر أنّ "المقاتلين" لم يُعفّشوا البيوت في المناطق التي سيطروا عليها!

قال:

- الذين تسمّيهم معفّشين، هم ناس فقراء، خدموا الحزب والنظام، خْطَيْ!

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٩-٧-٢٠١٨

ولست أدري..

ولست أدري كيف قادتني قدماي في يوم مضى (قبل نحو خمسة وعشرين عامًا) إلى مكتب رجل أعمال كبير جدًّا، في بناية تطلّ على ساحة من أجمل ساحات المدينة.

ورأيته يستحسن حديثي -بحضور الصديق (ز. م) وآخر أتعرف عليه (ح. م)- الذي استعرضت فيه شؤونًا في الأدب والسياسة والحياة...

لما وصلتُ إلى الشكوى من تفشّي وباء الرِّشْوة الفتّاك، رأيته يتكلم بعطف مستتار عن رجال الشرطة الذين كثيرا ما رآهم من مَطلّه يَقبِضون الرشاوى من أصحاب السيارات المارّة في الساحة، ويختم كلامه:

ـ خْطَيْ، معاشاتُن قليلة!

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٩-٧-٢٠١٨

التعفيش.. والتعفيس

"العَفْش"، وعربيُّها الأثاث، هو ما يؤثَّث به البيت من مفروشات ونحوها، و"التعفيش" مصطلح مستحدث نزل إلى الاستعمال في أيام الانتفاضة هذه، ويعني الاستيلاء على أثاث البيوت الغائبِ أصحابُها، نهبَها وتحميلها في وسائل نقل، تحت الأعين وفي وضَح النهار!

و"التعفيس" (بالسين المهملة)، مِن عَفَسه يَعفِسه، عربيّة، تعني الوَطْء، الدَّوْس بالأقدام أو المَرْث[1] باليدين. وهو استعمال حلبيّ لم أسمع به في دمشق. يقولون: بندورة معفَّسة (بدمشق: ممعوسة)، وهالشبّ عم يعفّس أي يتصرف بلا اتّزان، والناس في الزحمة عفّسوا بعضُن، وعَفَسَتْه سيارة، ويدعون تهكّمًا: ريتُه يروح عَفْس.

حدّثني أحد الأصحاب أنه شاهد بأمّ عينه في فيديو -وما رأيت هذا أنا- جنودًا من الروس "يُعَفِّسون" بالأقدام "معفّشين" ينتمون ظلمًا إلى وطننا. من ناحيتي عجبت، وأعجبت،

---

(١) كلمة فصيحة بمعنى المَرْس.

بهذه "النخوة" تصدر عن الروس الذين "يُعَفِّسون" بقذائفهم المنازل والحارات والمدن، ولكني قلت: لكلّ حالة استثناؤها.

أسأل أصدقائي: هل رأى أحدٌ منكم ما حدّثني به صاحبي؟

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٩-٧-٢٠١٨

تحرير الأقصى.. يبدأ من سورية؟ من حلب؟

كتب صديق لي في صفحته قبل قليل ينقل حكاية تقول: إنّ في هجوم المسلحين ليلة أمس واستيلائهم على منطقة الزهراء بحلب، حدث أن قرع باب منزل أحد السكان حوالي الساعة السادسة صباحا... يقول راوي الحادث:

وظهر أمامي رجل أربعيني، لحية طويلة كثّة حمراء وقنباز[١] باكستاني وكلاشينكوف، وقال حرفيًّا بِلَكْنَة غريب: "السلام عليك يا شام شريف"،

فأدخلته والرعب يهزني، وسألني: "أريد مشاهدة القبة؟ "، ظننت أنه يريد اتجاه القبلة للصلاة، فأشرت ووضعت له سجادة، لكنه قال: "لا لا، قبلة الأكسى (الأقصى)"، قلت: "لا أقصى هنا" واستوعبت ما يريد، وسألني: "هادااا مو كدس شريف؟ نريد تحريرووا؟ "، وعرفت فيما بعد أنهم جاؤوا بدعاية خليجية لتحرير القدس، وأحرقوا سوريا. ثورة الجهالة الأمية.

فعلّقتُ عند الصديق، الذي تهافتت هناك التعليقات:

مع وضوح "التأليف" في القصة، أسأل: كيف تمكّن هؤلاء الرعاع من دخول بلدنا بهذه السهولة والكثافة؟ سؤال جدير بأن يطرح.

---

(١) ثوب طويل فضفاض، وقد يُشَدّ عليه الزنّار في الوسط.

فردَّ بنَزَق مهذّب:

سأحترم صداقة عمّي (صباح) ووالدي (عدنان) معك. وهذه ليست تأليف، لست كاتب قصة مثلك، لك باع في الخيال، هذه قصة حقيقية، لو كنت موجودًا بحلب لحدثت معك، لكنّ سفرك لأميركا هربًا من الموت جعلك خارج المعرفة! الذي أدخلهم هم مجموعة حمير قبَضوا $$$، ولهم مصالح بتدمير البلد!!

فكتبت بغير نزق:

أين العين الساهرة على الحدود تحمينا؟

والذين جاؤوا من غرب ومن شرق ومن السماء!

أنا لم أسافر إلى أولادي في امريكا، المتجنّسين من زمن، هربًا من الموت أيها الشجاع، ولكن لأنه لم يبق أحد حولي بدمشق من أهلي وأنا في الثمانينيات من العمر، فلما توافر الوجود عدت.

ويوم نزلت من الطائرة هناك كتبت ونشرت:

"والله ما غادرتك يا وطني خوفًا من عيونهم المبثوثة ولا رهَبًا من سيوفهم المسلولة،

ولكن لأنّ الأسرة التي أنجبتها على مدى نصف قرن ويزيد، تفرّق أفرادها في كل اتجاه حتى لم يبق لي مَن إذا انتابني وجعٌ يمدّ يده إليّ بكأس ماء. "!

وما زلت أكرر نشر هذه التغريدة في كل حين.

جميل أن تعرف الوقائع حتى لا تسرح في الخيال.

ولم يبدُ لي احترام عندك لصداقة مع أب أو عم.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٣٠-٧-٢٠١٨

أمشي في الطريق دون عُكّاز

أمشي في الطريق دون عُكّاز

مترنّحًا

أُكابر

وأتذكّر طبيبًا، صديقًا منذ عقود، قال لي حين بالأمس رآني: والله ما بتلبق لك الخَتْيَرة!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٣١-٧-٢٠١٨

وأنا...

وأنا... حين كنت طالبًا بجامعة القاهرة في الخمسينيات الماضية، كنت في التحضير لامتحانات آخر العام، حين أملّ من الدراسة في البيت أذهب إلى حديقة الحيوان غير البعيدة عني، أدخل حديقة صغيرة فيها، أدرس نحو سبع ساعات متواصلة.

صور من الماضي... تراودني.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٣١-٧-٢٠١٨

منذ مدة وأنا أجتهد

منذ مدة وأنا أجتهد في أن "أُشَخْصِن" النبات وأكتب عنه بضمير المتكلم قصصًا وحكايات للصغار والكبار، فلم أفلح في هذا إلا قليلاً.

ذلك أنه عند الوصول إلى الخاتمة، فإمّا أن يكون أدركه الذبول إن كان زهرًا، وإمّا أن يؤكل إن كان ثمرًا...

نعم، ليس للنبات، في حياته وفي الأدب المستوحى منه، غد جميل!

وشكراً للصديقة "لمياء شكيب" التي أوحت كلمةٌ منها إليّ بهذه التغريدة.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٣١-٧-٢٠١٨

حكاية "مكدوسة" للأطفال

في محبّتي، محبّتنا، للمكدوس، هذه الأكلة الشاميّة بامتياز، رغبتُ قبل عام مضى في أن أكتب قصة مستوحاة منه:

زهرة في حقل، تروي كيف أصبحت باذنجانة على غصن وحولها شقيقات لها، قُطِفن، وإلى "سوق الهال" حُملنَ في عُبوة، أخذها بيّاع إلى دكانته، اشترتها وأخواتِها ربّةُ بيت، فَصلت رأسها (القِمع) بسكين، جاء السلق على نار تزاحمت الأكتاف في الماء يغلي، أُخرجت الباذنجانات، صُفّيت من مائها، شُقّت بطونها، حُشيت بالثوم والفليفلة الحمرا، كُدِّست (ومن هنا جاء الاسم) في وعاء بلوري جعلتُه أنيقًا، سُكب فوقها زيت الزيتون الشهيّ، أودع الوعاء في خزانة معتمة... بانتظار أن تؤخذ منه المكدوسات، يومًا بعد يوم، لتؤكل غَمْسًا!

وكان لحفيدي التشكيلي "ماجد هنانو" دورٌ في مجلة الأطفال، المنوي نشرُ هذه القصة على صفحاتها، يرسم لوحاتٍ للقصص وقبل ذلك يُرشِّح للنشر ما يراه منها مناسبًا.

أعترف بأني -بعد أن وصلتُ إلى هذه الخاتمة- وضعت يدي على قلبي خشية أن يردّ الحفيد قصة جدّه!

والذي كان أنه قال لأمّه التشكيلية خلود:

- قولي لجدّي إني أرى في قصته هذه "مجزرة" لا أحبّذ أن يقرأها الأطفال!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٣١-٧-٢٠١٨

خيرات العالم الثالث

قلت لصاحبي:

ـ حدّثني أحدهم بأنه في عَيشه هناك تَقدّم بمعروض إلى حاكم الولاية يُبيّن فيه قُصور دَخْله عن إعالة أسرته، فوجّه الوالي بمنحه شهريا مئة دولار لكلّ واحد من أفراد أسرته السبعة يقتصر صرفها على المواد الغذائية.

فأسرع صاحبي يقول:

ـ إنهم ينهبون خيرات بلادنا ويصرفونها على شعوبهم!

قلت:

ـ وفي العالم الثالث، الناهبون خيراتِ بلادهم... في أيّ المصارف يودعون؟

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١-٨-٢٠١٨

وأنا.. بأيام الصيف.. ما حدا نطرني!

يوم قامت ثورة الشعب في الثامن من آذار ٦٣،

أخذ شباب الحزب من حَمَلة الشهادات الجامعيّة، المناضلون في سبيل الوصول إلى الحكم، يتقدّمون بأن يدرسوا، يتخصّصوا في بلاد الله الواسعة، فانتشروا في عواصم الغرب، من فرنسا إلى بولندا، وما بينهما وحولها... وعادوا مؤهَّلين بعلوم تنفع المجتمع.

وتسلّم، أولئك المُفعمةُ قلوبهم بالاشتراكية، المعامل التي قام النظام بتأميمها، فمنهم من أحسن الإدارة قليلاً، ومنهم من أخفق كثيرًا، ومنهم من ملأ جيوبه فصُرف من الخدمة بأهون طريقة، فالحزب يتمتّع بقلب غفور حنون.

وحَمَلة الأقلام، جاؤوا من كل صوب، يريقون الحبر في أعمدة الصحف، وتُنشَر مؤلفاتهم

ما طاب منها وما خاب في المؤسسات العتيدة.

وشبابٌ منهم، كانوا في مطالع الثلاثينيات من أعمارهم مثلما كنت يومذاك، تسلّموا الإدارات والسفارات والوزارات...

وكان ما كان ممّا لست أذكره فظُنَّ خيرا ولا تسأل عن الخبر

وأنا... إنْ قدّمت مخطوطة كتاب إلى "وزارة الثقافة" تُرفض بكلّ أَرْيَحِيّة لعدم الجدارة (كتاب رُفض بتقرير من عبقريّ الرواية السورية "ح. م"، فظهر بعدئذ في "سلسلة اقرأ" بمصر)، وإنْ حملت مخطوطة إلى "اتحاد الكتّاب" يخبرني عبقريّ القصة القصيرة في سورية "ز. ت" بأنّ القصص فيه عن الحرية "متشابهة! "، وفاته أني "أقلّب" هذه القضية المؤرّقة على وجوهها (ويصدر الكتاب بأربع طبعات والخامسة في باريس باللغة الفرنسية(....

وفي الوظيفة... أتلقى الصدمات والكدمات، متنقّلاً أو منقولًا من وزارة إلى أخرى...

شبابهم... كانوا، بكلّ الحفاوة والودّ، يُستقبَلون...

وأنا... بأيام الصحو.. ما حدا نَطَرني!

دمشق الشام: عصر الخميس ٢-٨-٢٠١٨

في المقهى.. تذكرت البلاغ رقم واحد

دعَوني يومًا إلى المقهى الذي يجتمعون فيه مرة كلّ أسبوع، فلما وافيتهم ما كدنا نحكي كلمتين في الأوضاع الراهنة حتى أقبل علينا مِن هناك رجل، رأيتهم يتغامزون في شأنه، فكان عليّ أن أفهم أنّ القادم جاء "يّبُصّ" (البصّاص لغة: المُخبِر في مصطلح اليوم).

بدا لي أنّ الرجل كان يتوقع هذا الصمت فيهم، ولكنه رأى فيّ وجهًا جديدًا، طَلق المحيّا،

فقام يستدرجني بسؤالي عن الأوضاع؟ وما كنت في حاجة لاستدراج، فأنا موصوف بسرعة الاستجابة إلى ما لا يُطرح من الأسئلة! وما شككت في أن الخشية لامست قلوب الأصدقاء.

قلت، والرجل يتسمّع:

ـ لن أستفيض، يا صاحبي، سأروي لك قليلاً. حين كنت طالبًا "بجامعة فؤاد الأول" بالقاهرة في بداية خمسينيّات القرن الماضي، كنت أحمل في صدري تلك الكراهية الشائعة في مجتمعي للأنظمة المَلَكية، فلما سمعت في الراديو صبيحة الثالث والعشرين من يوليو ٥٢ "البلاغ رقم واحد"، غمرني الفرح من القِمة إلى الأخمص. وأما يوم أُعلن في عصر السادس والعشرين من ذلك الشهر عن رحيل الملك، فقد حملني الفرح إلى أن أخرج إلى شرفة بيتي أملاً في أن أتواصل مع الناس، فرأيت جيرانًا لي في "شارع سليمان جوهر" يخرجون مثلي إلى شرفات بيوتهم، فجعلنا نتبادل التحيات ملوّحين بالأيدي على غير معرفة، معبّرين عن ابتهاجنا بزوال عصر الملكية.

أقول: إننا، بعد مضيّ عام ونصف العام، خرجنا نحن طلاب الجامعة، التي تحوّل اسمها إلى "جامعة القاهرة"، نهتف بصوت غاضب: "يسقط حكم البكباشيّة".

فأخذ الرجل يتأمّلني ويُطيل، ولا أعرف إلى أيّ حد استوعب كلامي، ولا جاءني بعد ما يُزعج من تقرير قد يكون كتبه... ولكني قرأت الارتياح جليًّا في عيون الأصدقاء.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢-٨-٢٠١٨

أعرف أنّ مَن هم في مثل حالي

أعرف أنّ مَن هم في مثل حالي

لا يطؤون سَجادهم العجمي

دمشق الشام: ليل الجمعة ٣-٨-٢٠١٨

قالت محدّثتي:

قالت محدّثتي:

في باكر الصباح خرجنا من مدينتنا في البولمان المكيّف باتجاه العاصمة... حواجز وحواجز، لكنها أقلّ مما كان.

قبل أن نصل دمشق بخمسين كيلو، أو مئة، استوقفنا حاجز طيار: "انزلوا"، نزلنا... "نزّلوا أغراضكم! ".

وعلمنا أنهم يصادرون المركبة التي تُقلّنا للحاجة إليها في نقل سكان درعا إلى إدلب فالسيارات الخُضر لا تكفي، وتركونا في عَراء الوطن... لمصيرنا... تحت الشمس اللاهبة.

قالت:

ـ لو أنهم فعلوا هذا في وسط العاصمة!

دمشق الشام: فحر السبت ٤-٨-٢٠١٨

في يوم

في يوم

سوف يحتفل السوريون

بأن يحتضن ثرى الوطن جثمانَك

يا ميّ سكاف.

دمشق الشام: فجر الأحد ٥-٨-٢٠١٨

وقد يتفق لأحد اللاجئين

وقد يتفق لأحد اللاجئين

في أنحاء العالم، اليوم

أن يكون جالسًا في مقهى

أو عابرًا في طريق

فيلتقي بصديق كان قد تركه هناك

يتعانقان

ويجلسان يتحدثان عن الوطن...

دمشق الشام: ليل الإثنين ٥-٨-٢-٢٠١٨

من حسن حظ الإنسانية..

وأقول: إن من حسن حظ الإنسانية أنّ من يكتب التاريخ أفرادٌ لا الأنظمة الحاكمة.

وأنت حين تدرس حادثة ما مرت عبر التاريخ تستطيع الرجوع إلى كثير من المصادر، تتعمق النظر وتستجلي الحقيقة.

التاريخ لا يكتبه طرفٌ واحد، لكن تتجاذبه أطراف، وتظلّ تعاد كتابته...

دمشق الشام: ضحى الأحد ٥-٨-٢٠١٨

الأندلسيون هم أصحاب البلاد الأصليون

مقتطف من كتاب "مورا في مدريد" تأليف نوال السباعي تحكي عن حياتها في إسبانيا:

- - - - - - - - - -

قالت لي الطالبة الإسبانية التي تحضّر رسالة في العلوم السياسية: إنّ المسيحيين في سورية ليسوا "مهاجرين" إليها، ولكنهم هم "أصحاب البلاد الأصليون"!

فسألتها:

ـ ماذا تقصدين بمصطلح "سكان البلاد الأصليين"؟

ـ أقصد أنكم أنتم الدخلاء عليهم!

فقلت لها:

ـ دخلاء! هل تَعُدّين مسلمي سورية، أو مسلمي فلسطين، دخلاء على هذه البلاد؟ يا سيدتي يبدو أنّ التحضير للدكتوراه الذي تتّبعين يسير في اتجاه مغاير لكثير من الحقائق.. لتعلمي أن أهل هذه البلاد دخلوا في الإسلام، فالمسلمون والمسيحيون هم أهل البلاد.

بإيجاز، من كتاب "مورا في مدريد"، دار الورّاق، الرياض

- - - - - - - - - -

وأضيف:

وكان الأندلسيون في أكثريتهم الساحقة من أبناء البلاد الأصليين، دخلوا الإسلام وفي ظلّ ثقافته أبدعوا تلك الحضارة التي كان إخوانهم، في الممالك المسيحية بشبه الجزيرة الإيبيرية، عاجزين عن مجاراتهم في مضمارها، وهم هم الذين تولوا الدفاع عن الأندلس والإسلام حتى الرمق الأخير.

ومن هنا كان أسقف قرطبة المتشدّد "خمينيس سيسنروس" يقول لهم في أعقاب سقوط غَرناطة (١٤٩٢): عودوا إلى دين أجدادكم، ويضيف: حتى تدخلوا الجنة!

دمشق الشام: فجر الأحد ٥-٨-٢٠١٨

أمس قالت لي ابنتي:

أمس قالت لي ابنتي:

ـ عرفتُ من صديقاتي أنّ هناك رجلاً في مثل سنّك، يا أبي، يفضّل أن يعيش وحيدًا!

دمشق الشام: صباح الإثنين ٦-٨-٢٠١٨

وقال لي: نحن نحبّ الوطن!

كان زائري عند المساء قد سمع باسمي ولم يقرأ لي. أخذنا نتحدث في شؤون الأدب والحياة، فلما قارَبْنا ذلك الموضوعَ، الحسّاس، أسرع يقول:

ـ نحن نحبّ الوطن، ونرفض أن يتآمر علينا الخليج والغرب.

فسألته:

ـ أنْ تحبّ وطنك هذا من بدائه الأمور... ولكن ألم يخطر لك أن تعبّر عن حبّك، وإشفاقك على الملايين الستة الهائمة على وجوهها في عراء الوطن، والسبعة الأخرى الملتجئة إلى دول الجوار والعالم، هؤلاء الذين ينامون في بيوت لم يألفوها، ويتعلّمون لغة لم يطلبوها، ويتناولون لُقَيماتهم من غير عرق الجبين؟ إنّ كثيرا من ذرّيّة "أبي السعود السباعي"، أبي، قد تركوا منازلهم وتشرّدوا في الآفاق، رجالًا ونساء وأطفالًا، وهناك بدؤوا يموتون في صمت ويُدفنون في تراب ليس ترابهم، وتأتي أنت إليّ، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لتعلن لي عن حبّك للوطن! وهم، تظنّ، مجرّدون من حبّه والحنين إليه!!

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٦-٨-٢٠١٨

عندما أمّموا المعامل

عندما أمّموا المعامل وظنّوا أنهم يَشرعون في بناء عصر الاشتراكية الموعود، مستدعين لإدارتها أنصارَهم والمحاسيب، وبدأ الفساد الاقتصادي يطفو على السطوح... كنّا نقول لهم: الاشتراكيّة تحتاج إلى "اشتراكيين".

اليوم نقول لهم: العلمانيّة تحتاج إلى "علمانيين".

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٧-٨-٢٠١٨

اشتدّ القصف في تلك الليلة

اشتدّ القصف في تلك الليلة على ضاحيتهم، حتى اضطر أهله إلى أن يغادروا بيتهم الحميم. أشارت أمّه عليهم بألا يأخذوا معاطفهم على أيديهم فسوف يعودون غدا.

وها قد مرّت شهور وفصول وسنوات، وتهرّأت معاطف وبناطيل وقمصان وكنزات...

وأصبح، كلما لمح معطفا مشابها على كتفين في الطريق، تصوّر أنّ لابسه قد دخل بيته، وسرق معطفه من حيث رماه فوق السرير...

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٧-٨-٢٠١٨

في بداية مطالبتنا بالحريّة

في بداية مطالبتنا بالحريّة

تلبّث النظام قليلاً

قبل أن يتهمنا بأننا ننوي الفتك بالأقليات

مصوّرا نفسه علمانيّا وأنه يحمي حِماهم

ومع أنّ الغرب، المنافق، يعرف الحقيقة

فإنه تظاهر بالتصديق

وها نحن اليوم

ستّة ملايين من النازحين في أرجاء الوطن

وسبعة من المشردين في أنحاء العالم

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٨-٨-٢٠١٨

كان يجلس إلى جانب أمّه

كان يجلس إلى جانب أمّه، يَرقُبها وهي تُعمِل يدها في الفاصوليا الخضرا، تشرط الخيوط من الجانبين، ثمّ تفرمها قطعًا صغيرة... وهو يتفرّج.

عند الأكل خُيّل إليه أنّ فُرمة من هذه لم يتمّ سحب الخيط منها، ففتح فمه شاكيًا بالإيماء لأمّه، فمدّت إصبعًا وتناولت، وسحبت الخيط أو هي لم تسحب شيئًا، وأعادت.

فاستأنف الأكل سعيدًا، وأمّه سعيدة.

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٠-٨-٢٠١٨

صديقي الذي في سويسرا

مشينا أنا و"مروان" في الإعدادي والثانوي بالتجهيز الأولى بحلب معًا، ثمّ توجّه كلّ منّا، في خريف ١٩٥٠، إلى جامعة. وهو حملتْه رياح الطموح بعد تخرّجه إلى ديار الغرب، عمل، وتنقّل، واستقرّ في سويسرا... وأنا بقيت ههنا، موظفًا في الدولة، أستوحي من معاناتي شيئا

يصلح للقراءة.

عرفت بعد أنّ صديقي مروان كان ينتسب من أيام الدراسة إلى حزب البعث. رفاقه، بعد الثامن من آذار، دعَوه للقدوم. جاءهم متمهّلاً، وظّفوه، عيّنوه... اجتمعتُ به في بعض اللجان الرسمية، فرأيته معزّزا، وأنا على حالي.

لم يجد مروان في وطنه الأول "سويسرا الشرق" ما كان يأمل... فعاد إلى سويسرا الغرب.

وأنا... ما زلت في وطني، أكتب، وأرسل تغريداتي الشجيّة.

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٠-٨-٢٠١٨

وأذكر أنّ في التعليقات..

وأذكر أنّ في التعليقات، التي حظيتْ بها (قبل سنتين) الخاطرةُ أدناه: "... ومن الصبايا اليهوديات اللواتي استهوينَ المراهقين من سكان "حيّ الجميلية" بحلب.... "، أنّ إحداهن كتبت ما معناه: ليش ما فيه صبايا مسلمات؟!

فكتبت رداً عليها بأنّ الصبايا المسلمات في ذلك الزمن -أربعينيات القرن الماضي- كنّ في بيوتهنّ مُحْصنات محجّبات!

ولم أعثر اليوم على ذاك التعليق والردّ عليه!

دمشق الشام: ليل السبت ١١-٨-٢٠١٨

الرفيقة.. النائمة!

زارني، عصرَ أمس، صديقٌ عزيز وعلى ساعده طفلته "ريم"، بنت العام الواحد، التي يلذّ لي أن أداعبها وألثم أناملها الصغيرة، وبعد أن أبدت فرحها بالفرجة على البِركة. والنافورةُ

تسكب الماء على سطحها، دخلنا إلى حيث الحاسوب، لنُنجز عملا تقنيًّا ما. ملّت ريم من انشغالنا عنها، فعاقبتني بأن نامت على كتف أبيها، وظلت كذلك حتى بعد أن خرجنا إلى الحديقة نستجمّ.

نَوْمة الحبيبة الصغيرة هذه، ذكّرتني بنومة مماثلة، مع اختلاف الظروف، كنت عانيت منها قبل أربعين سنة وأنا في رحلة داخلية في فرنسا. ففي أيام إيفادي إلى هناك، في أطراف العامين ١٩٧٧ و٧٨، جريت على أن أشارك في كثير من الرحلات التي تنظّمها الهيئة الرسمية التي تتولّى رعايتنا نحن الموفدين الأجانب إلى بلدهم.

كانت رحلتنا هذه من باريس إلى مدينة دَنْكِرْك الواقعة قريبا جدا من الحدود البلجيكية، حيث تقام احتفالاتٌ كرنفالية تسبق عيد الفصح عادة، يُعنى بها سكان شمال البلاد، وهم في هذا سواء مع مَن يجاورهم شرقًا من أهل بلجيكا وهولندا. تعرّفت بين المشاركين في الرحلة على فتاة عربية، أعلَمَتْني أنها كانت قرأت لي شيئا ممّا أكتب في مجلة "العربي" الكويتية.

واتفق أن كانت عودتنا من هذه المدينة الشمالية ليلا عبر السواحل المطلة على بحر المانش، مع الوعد بأن تتوقف بنا الحافلة عند مدينة "كاليه"، ننزل، ونرسل النظر إلى الجزيرة البريطانية، فتتبدّى لنا لألاءُ أنوار على الشطآن هناك... ما يُزيِّن لنا القولَ بعدئذ بأنّا شاهدنا يوما إنكلترا عبر المانش ليلا ونحن فوق التراب الفرنسي!

تقصّدنا، أنا والفتاة المحبّة للمطالعة، أن نجلس في مقعدين متجاورين، متوقّعَين أن نتجاذب أطراف الحديث في الثقافة والأدب والحياة، ولكن ما كادت الحافلة تخرج بنا من دنْكِرْك وتُقلع في طريق السفر، حتى رأيت جارتي، اللطيفة جدًا، يغزوها النعاس فتنام... ولبثتُ وحدي أحدّق في عتمة الحافلة، التي خَفّفت أضواءها لراحة النائمين والمؤرَّقين أيضا!

ثمّ كان أن همست لها عند التوقّف على شاطئ كاليه، أن تنزل مع الركاب لتشاهد...

فرأيتها تعبّر عن بالغ أسفها لما دهمها من نعاس لم تستطع التغلّب عليه! وهنا بحثت عيناها عن صديقنا في الرحلة "الدكتور دوبولس" (طبيب موفد من اليونان)، لتسأله عن تلك "الحبّة" التي أعطاها إياها قبيل السفر عندما شكت له زكامًا ألمّ بها؟ فأجاب بأنها حبّة تجلب النوم لراحة مَن يتعرّض للزكام!

أُطَمئن أصدقائي أنّ رفيقة السفر... عادت لها يقظتُها كاملة، على مدى المسافة بين كاليه وباريس! دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٥-٨-٢٠١٨

عندما تحتضن طفلًا صغيرًا

عندما تحتضن طفلاً صغيرًا، تلثم أنامله حبًّا وتُغدق عليه حنانك، فلتتذكّر ما تبذله أمُّه من العناية به، سهرًا على غذائه وصحته ونظافته... حتى تجعل منه زهرة من زهرات الحياة.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٦-٨-٢٠١٨

مؤلمٌ

مؤلمٌ أن تستحضر لك ذاكرتُك صورًا من ماضٍ ولّى أنت لا تريدها

تَزجُرها... وهي لا تستجيب!

دمشق الشام: مساء الخميس ١٦-٨-٢٠١٨

على رصيف "ألموندو أليغَنْتي"

في مطلع العام ١٩٦٣ على وجه التحديد، صحبني صديق في بيروت (وأنا هناك أتولى التدقيق الطباعي لأحد أعمالي الأدبية) إلى "كورنيش المزرعة"، وعلى رصيف عريض يحاذي

محلاً كبيرًا أنيقًا، كان يجلس متأمّلاً شاعرٌ كنت قرأت له الرقيقَ من أشعاره الرومنسية في الخمسينيات التي تقضّت: إنه "فؤاد الخشن"

وتعارفنا، واسترسلنا في الحديث: قرأتُ أشعارَك... قرأتُ قصصا لك...

ولم تخنّي الذاكرة. كنت قرأت، في أخبار الأدب والأدباء قبل سنين، أنّ الشاعر الشاب فؤاد الخشن، الذي ألتقيه الآن، كان قد غادر لبنان إلى أمريكا الجنوبية، انطلاقةً شعريّة تُوسّع الأفق مثلما هي طلب للرزق... أجابني بنعم، وبأنه قد عاد منذ قريب وافتتح هذا المحل، واللافتة فوقنا تقول... ألموندو أليغنتي ALMONDO ALICANTE العالم الأنيق.

هل كان ما تبادلناه من حديث طَيّبْه الذكريات، هو ما وثّق بيننا، وقلوبُ الشعراء والكتّاب لا تعدو أن تكون قلوبَ أطفال؟ أمسينا صديقين، نجتمع والأسرتين في بيروت أو في حلب، حتى في "قُرْنايل"[١]، وما كففنا عن الجلوس في تلك الأرائك الوثيرة على رصيف ألموندو أليغنتي...

وسوف أظلّ أذكر من تجلّيات الإبداع عند صديقي، أنّا نكون في جلسة، فجأة يخطر له بيتُ شعر، أو شطرٌ من بيت، أو كلمتان اثنتان... فيتناول القلم يُسجّل ما تبدّى له، ليُضيفه إلى قصيدة هي قيد الإبداع، أو يكون مطلعًا لقصيدة خطرت على البال!

اليوم ذكرى رحيله الثانية عشرة... وماذا أقول عن وفاء الأبناء لآبائهم المبدعين؟ لقد رأيت "نهلة" ما تزال تذكُر وتتذكّر... وما أُحيلى الأبناء إن تغنّوا بإبداع الأب وما غادر ذكره الشفاه!

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٧-٨-٢٠١٨

---

(١) بلْدة لبنانية، في محافظة جبل لبنان. سكانها من الدروز.

.. وبماذا نسمّيها!

ظللت أقول إنها شيء آخر وليست "حربًا أهليّة". ولكني كتبت، في مخاطبتي الشاعرة اللبنانية الشابة في ذلك اليوم، كالمختصر نَزَقًا، إني تلقيت صوتها "عبر حربين أهليّتين، استمرّت الأولى أربعة عشر عاما، والأخرى بدأت ولمّا تزل.... ".

فتصدّى لي متتّبعٌ يقول: "الحاصل عندنا ليس بحرب أهلية. مع احترامي الشديد لمقامكم".

فقلت: "وبم أستبدل؟ ".

قال في أنيق لفظه: "أطال الله بعمرك. وهل مَن هو بمقامكم يسألنا نحن؟ أقترح ومِن بَعد إذنكم: حرب على مَن طالب بحريته ورفْعِ الظلم عنه وعن أهله".

وانتهى الحوار فيما جرينا على أن نسمّيه عالمًا افتراضيًّا. كان هذا قبل نحو عام.

دمشق الشام: ضحى السبت ١٨-٨-٢٠١٨

"حيّ الخالديّة" بحلب، سيرة ذاتية صغيرة!

في عام ١٩٤٨ قام "الشيخ محمد طه عنجريني" بنقل مدرسته الخاصة (المسماة "الخالدية"، مدرسة داخلية يتعلم فيها أولاد الريف) من مقرها وسط المدينة (حيث أقيمت لاحقًا "ساحة السبع بحرات") إلى أرض عَراء في الشمال الغربي من المدينة، اشترى المتر المربع الواحد بثمانين قرشًا سوريًّا لا غير.

عند وفاة الشيخ عام ١٩٦٠ أغلقت مدرسته، ولكن هذه "القرية" الصغيرة استَحسنت اسمها فاتخذت منه اسما لها، "حيّ الخالديّة"، وأصبح ابن الشيخ، "فاتح"، مختارا للحيّ وما

يزال.

بدأ الحيّ ينمو. أقيمت فيه بيوت سكنها أبناء المدينة ومن يأتي إليها من الريف القريب. كان يخدمها فرن واحد وصيدلية.

في هذا الحيّ الناشئ، وفي مطلع الثمانينيات، بدأت الحجّة "أم محمود" بتجهيز الخضرة في بيتها وتقديمها لمن يبيعها لربّات البيوت، كوسا محفورا وكل شيء! افتُتح فيه سوق للخضرة والفاكهة تجاوزت خدماته الحيّ فأخذ يرتاده القادمون من أنحاء المدينة.

تقول الدكتورة "ميّ": في الثمانينيّات كنت أول طبيبة تفتح عيادتها الصغيرة هناك، في شقة أم محمود (الطابق الأرضي خلف دكان لبيع الخضار)، ولم أكن أتقاضى منها أتعاب المعاينة فتهدي إليّ (٢ كيلو كوسى محفورا)، وأما المرضى الآخرون فكان الواحد منهم يقدّم لي (١٠ بيضات بلدي)... كان هذا بين العامين ١٩٨٤ و١٩٨٩... سقا الله تلك الأيام!

انتعشت "الخالدية" بعد إقرار مخطط التنظيم العمراني، وبدأ البناء (طابق أرضي تجاري وطابقين سكن). وكانت ذروة هذا في التسعينيات وبداية القرن الحالي، فتحرّك سوقها العقاري لقربها من مناطق التوسّع (الجمعيات السكنية) والعمران القديمة وامتدادها لشارع النيل.. وأنشئت فيها المطاعم والكافتريات والمكاتب والمولات... واليوم حالها كحال المناطق الواقعة على "خط التماس".

نسأل الله الفرج.

دمشق الشام: فجر الأحد ١٩-٨-٢٠١٨

السوريون.. يحملون جنسيات العالم

من إسطنبول حدّثتني بفرح زائد أنّ ابنها الوحيد وصل إليها قادمًا من الرياض، وسوف

يُزفّ خلال أيام هنا لفتاة سورية...

مازحتها: وهل تحمل العروس الجنسية التركية؟

قالت: لا، ولكنها تحمل الجنسية السودانية!

دمشق الشام: صباح الأربعاء ٢٢-٨-٢٠١٨

قال يحدّثني:

قال يحدّثني:

عندما سكن في حيّنا

كفّت الكهرباء عن الانقطاع،

والماء...

ولكنّ حركة المرور في الشارع

صارت تنقطع في بعض الأحيان

وتخفّ الحركة ساعة يزوره الرفاق.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٣-٨-٢٠١٨

كتبتْ لي قبل لحظة

كتبتْ لي قبل لحظة

أنها تُشفق عليّ أني أساهر الحرف حتى هذا الهزيع من الليل

فكتبتُ لها:

كأني أُودِّع بصري الذي يرحل

لم أتلقَّ منها

بدا أنها ذهبت للنوم!

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٣-٨-٢٠١٨ س ٣: ٤٩

أن تكون مؤرَّقًا بأوجاع الحرية!

يوم وقع انقلاب حسني الزعيم فجر ٣٠ آذار ١٩٤٩، كنت فتى أدرس بحلب، وكان ممّا بدا من تسلّط العسكر على الناس أنهم نزلوا إلى الشوارع يمارسون مهامّ "الشرطة المدنية". ومن حكاياتهم المقزّزة أنهم ألقَوا القبض على اثنين من العامة يتشاجران في "ساحة باب الفرج"، فاقتادوهما إلى ثكنتهم القريبة من "حيّ الفيض"، وهناك أتوا بـ"دِبْس العنب" دهنوا به اسْتَي الرجلين البائسين، وأمروا كلا منهما أن يلحس الطرف الآخر! الجهلة بيننا قالوا: خلّيهن يربّوا الشعب! والعارفون بحقائق الأمور أدركوا أنها "البداية" فتملّكتهم المخاوف.

توجّهتُ إلى مصر أدرس بجامعتها، وقد تعلّمنا في دراستنا "للثورة الفرنسية" المجيدة أن نمنح كراهيتنا للأنظمة المَلَكِيّة المستبدة. فكان أن صفقت مع المصفقين "لحركة الضباط الأحرار" في يومهم المشهود. وأذكر جيدًا، ساعة أعلن راديو "هنا القاهرة" (عصر السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢) عن ترحيل الملك من "قصر رأس التين" بالإسكندرية، أني انطلقت إلى شرفة بيتي في "شارع سليمان جوهر" بالدقّي، أريد "التواصل" مع الآخرين، فرأيت الناس قد خرجوا إلى شرفات منازلهم... وأخذنا من فرح نتبادل التلويح بالأيدي على غير معرفة بيننا.

ولم يمضِ إلا عام وآخر، حتى تبدّت نوايا العسكرتاريا[1]، كان أولها إزاحتهم لرئيسهم محمد نجيب بسبب إصراره على الأخذ بأسباب الديموقراطية الموعودة، ثمّ إدخاله السجن لسنوات طويلة... وقمنا، نحن طلاب جامعة القاهرة المعتصمون في باحاتها، نهتف بالصوت الواحد: "يسقط حكم البكباشيّة" (وبكباشي كانت رتبة عبد الناصر في الجيش، "مقّدم").

أجل، انطلت عليّ الخدعة عامًا وتسعة أشهر... ولبثتُ منذ ذلك الحين تؤرّقني أوجاعُ الحرية.

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢٤-٨-٢٠١٨

سيوفٌ مُصْلَتة.. وعتاوِلةٌ مُتَسلّطون

فذلكة في اللغة وفي السياسة

سألتني صباح اليوم صديقةٌ في الشابكة بتعليق لها تحت تغريدة "وُدَعاء رُحَماء"، عن الفرق في المعنى بين كلمتَي ""مصلت" و"مسلط".

الصَّلْت، لغةً، هو السيف الصقيل الماضي، وأصلتَهُ بالسيف: ضربه، وأَصْلَتَ السيفَ: جَرَّدَه من غمده، والرجل المِصْلات: الذي يمضي في قضاء الحوائج. وهناك الشاعر الجاهلي "أُميّة بن أبي الصلت" الذي كان في زمنه يوازي "ورقة بن نوفل".

ويبتعد بعضنا عن الصواب عندما يقول: "سيفٌ مُسْلَط" مستمدّين الصفة من تسلّط: تحكّم وتمكّن وسيطر، وسلّطه: أطلق له السلطان والمقدرة، والسَّلِط: طويل اللسان.

وفيما تنوء به حياتنا العربية اليوم ما يُمَكّن من استعمال هاتين المفردتين توصيفًا وتصنيفًا:

---

(١) مصطلح يُقصد به: هيمنة العسكر على حكم البلاد.

فالسيف مُصْلَتٌ على الرقاب البائسِ أصحابُها، وإن استَبدل الدواعشُ بالسيوف السكاكينَ يحتزّون بها الأيدي والأعناق، وتهمّم سفاحٌ يُدعى "معراج اورال" فذبح أبرياء صوّرهم وعَرَض، إرهابًا لنا، قبل أن يلقى مصيره بعد أدائه الدور [يحتاج هذا لتوثيق]... هذا إلى ما سُلّط علينا عدا السيوف والسكاكين، هنا وهناك، من "أشياء مؤذية" تنزل علينا من عل، ليست هي "طيراً أبابيل".

استرسلت لأنّ السائلة تنتمي إلى اليمن الذي كفّ عن أن يكون سعيدا، وقد بدت لي على صلة حميمة ببلاد الشام المشوَّهِ جمالُها، وكلا البلدين مُرَزّآن بسيوف مُصْلتة وعُتُلٍ متسلّطين.

ألم يَئِن لبلدينا، يا صديقة "كفاح إسحاق"، أن يفيئا إلى الأمن والسلام؟

دمشق الشام: عصر الجمعة ٢٤-٨-٢٠١٨

هل يريدون الشامَ أندلسًا جديدة؟

فجر السبت ٢٥-٨-٢٠١٨

الاغتراب في أسرتي الصغيرة

بدأ الاغتراب في أسرتي الصغيرة باتجاه أمريكا منذ العام ١٩٧٧، دعمه بعد عشرين سنة اغترابٌ ثان، فثالث، وكان الرابع مع بداية الانتفاضة.

- الذين وُلدوا هناك افتقدوا اللغة العربية إلا نطقًا مكسّرًا يخجلون من التعبير به،
- وهو نطقٌ سليم عند من درس وتربّى في الوطن، قراءةً وكتابة،
- وأما الذين اغتربوا صغارًا فإنّ كلّ ما عندهم هو عامية مأنوسة، سوف تصبح قريبا عاجزة عن الوفاء بالاحتياج!

اليوم، عندما يريدون أن يقرؤوا ما يكتبه الجدّ من خواطر، عنهم هم أنفسهم، فإنهم يلجؤون إلى الترجمة الآليّة... وا أسفاه!

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٢٧-٨-٢٠١٨

بعد أن غسلتُ هذا الصباح وجهي

بعد أن غسلت هذا الصباح وجهي

تناولت المِشط

وحمدت الله على أني ما زلت قادرًا على أن أمشط شعري بيدي...

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٨-٨-٢٠١٨

لَدْبَحْلَك طير الحمام

كان يحلو للطفلة، وهي في الوطن، أن تسمع أغنية فيروز تردّدها أمُّها لها ساعة النوم: ياللا تنام ياللا تنام، لَدْبَحْلَك طير الحمام...

لما أصبحت في المهجر، ودخلت المدرسة تتهجّى الحروف والكلمات وتتعلّم المعاني، طلبت من أمّها أن تكفّ عن ترديد هذه الأغنية على مسامعها، فهي لا تريد أن تنام على ذبح الحمام!

ولم تكن تعي ما يجري في وطنها البعيد، لغير الحمام واليمام.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٩-٨--٢٠١٨

صفحة من التاريخ الأندلسي

في استحضاري دراساتي الأدبية وبحوثي التاريخية ومنها المتعلق بالطب الأندلسي، تلك التي كنت أكتبها عبر العقود الزمنية الماضية وقد شاركت بكثير منها في المؤتمرات القطرية والندوات الدولية، والآن أصنّفها بعون من بُنيّات في عمر الورود، نجعلها في مخطوطات أتطلّع بكلّ لهفة إلى أن تكتحل بها عيناي في كتب أتمنى أن أراها وأنا أمشي على الأرض، فإن عزّ ذلك فلتبقّ للذرّية يتدبّرون أمرها إن كانوا يُقَدّرون...

أقول: كان ممّا وقفتُ عليه هذا اليوم، وأنا أدقق بنظري الكليل الكلمات والحروف، دراسةٌ أدبية تاريخية، كنت كتبتها ونشرتها في مجلة "التراث العربي" (عن اتحاد الكتاب العرب، العدد المزدوج ٣٩-٤٠ عام ١٩٩٠)، ووسمتها بعنوان مستطرف "مسابقة شعرية في الأندلس... "، من صفحاتها الثلاثين أقتطف هذا الجزء... سمّيته:

["مالَقَة" الأندلسية.. التي سقطتْ بشرف]

تقع مالَقَة جنوبيّ الأندلس، مطلة على البحر الشامي (الأبيض المتوسط)، على الجانب الشرقي منه المسمى "بحر الزقاق" مما يلي مضيق جبل طارق. وترجع المدينة إلى أصول رومانية وفينيقية. وقد كانت في أيام الدولة الإسلامية من أهم الثغور الأندلسية، واستطاعت أن تحتفظ بطابعها الإسلامي الخالص حتى نهاية مملكة غَرناطة، وما سقطت في يد نصارى إسبانيا إلا مع سقوط آخر المعاقل الأندلسية، بعد دفاع مجيد سجّلته صحفُ ذلك العصر.

أوجز ياقوت الحموي القول في مالَقة في معجمه. إلا أن ابن عبد المنعم الحِمْيَري، المغربي (ت ٧٢٧هـ)[1]، أطال الوقوف عندها في كتابه "الروض المِعطار في خبر الأقطار"، فقال إنها

---

(١) في كشف الظنون وغيره أن وفاة ابن عبد المنعم الحميري سنة ٩٠٠ هـ. وهناك خلاف على وفاته بين المعاصرين.

"حسنة، عامرة، آهلة، كثيرة الديار"، ووصف قصبتَها، التي تقع شرقيّ المدينة، بأنها في غاية الحصانة والمنعة، مردُّ ذلك إلى أن عليها سورَ صخر، والبحر في قِبليِّها.

وللمدينة -يقول الحِميري- خمسة أبواب، وربَضان كبيران[1]، وفيها مبانٍ فخمة، وحمّاماتٌ حسنة، وأسواق جامعة كثيرة في الرَّبَض والمدينة. وجامعها، بالمدينة، من خمس بلاطات. وشُرْبُ أهلها من الآبار. ولها وادٍ يجري في زمان الشتاء، وليس بدائم الجري.

وعن تينها يقول: "وفيها استدار بها من جميع جهاتها، شجرُ التين المنسوب إليها، وهو يُحمل إلى مصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند. وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة".

ويطيب لنا أن نستكمل التعريف بمالقة بما كتبه لنا ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)[2]... يقول عن تينها ولَوزها:

"ولمالقة، مما فُضِّلَت به، ما حفَّها من شجر اللوز وشجر التين، إذ هو بها طوفان لا تزال تَحمل منه الرِكابُ والسَّفين، وهو مفضّل على سائر تين الأندلس، إلا "شَعْريَّ إشبيلية"[3]، فإن بعضهم يفضِّله، ولا سيما في دخوله الأدوية ومنفعته. ويكفيها عن الإطناب ما يتضمّن شرح

والذي ذكره السباعي هو اجتهاد من بعض الباحثين المعاصرين، وليس من كتب التراجم.

(١) الرَّبَض: الفضاء حول المدينة عند سُورها، وقد تكون فيه أسواق ومساكن.

(٢) من كتابه: المُغرب في حلى المَغرب. وهو مشهور بابن سعيد المغربي لا الأندلسي.

(٣) نوعٌ من التين لذيذ يسمّى التين الشّعري، كان يدخل في صناعة الأدوية قديماً. واشتُهرت إشبيلية بنوعين من التين: هما القُوطيّ والشَّعريّ. قال المَقّري نفح الطيب: وهذان الصنفان أجمع المتجولون في أقطار الأرض أن ليس في غير إشبيلية مِثل لهما.

اسمها، إذ معنى "ريَّه"[١] عند النصارى: سلطانة، فهي سلطانة البلاد[٢]... ".

ويقول: "دخلت مدينة مالَقة وأقمت فيها إقامة أرْضَت الشباب، وأمتعت مجالس الآداب. وكان والدي يفضِّلها ويُعجب بها، ولا سيما في أيام فرحهم وخروجهم إلى كروم العنب والتين. ولقد خرجنا إلى كرْم أقمنا فيه مدةَ منفعته، فعددْنا ذلك من أيام النعيم... وفيها من ضروب الوشْي العجائب، ويُصنع بها الفخّار المذهّب والزجاج".

وقد استظلَّت مالقة عهد الأمويين بقُرطبة إلى حين سقوط دولتهم، فانتزى على مالقة بعض الطامحين في عصر ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري/ ١١ الميلادي)، إلى أن دخلت مع حواضر الأندلس كلها في حمى دولة المرابطين، فالموحّدين، ثم كانت ثغراً للمملكة الغَرناطية في عهد بني نصر.

ولم يكن سهلاً سقوطها على يد القَشْتاليين، الذين زحفوا عليها في جمادى الثانية ٨٩٢ (حزيران ١٤٨٧)، وطوّقوها من البرّ والبحر بقوات كثيفة. فقد امتنع المسلمون داخل مدينتهم، التي كانت تَمُوج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة ممتازة من أكابر الفرسان، ومعهم بعض الأنفاط والعُدد الثقيلة، وقائدهم حامد الثغري. وأبدَوا، في الدفاع عن ثغرهم، أروع ضروب البسالة والجَلَد، وحاولوا غير مرة كسر أطواق الحصار المضروب عليهم، وفتكوا بالنصارى في بعض مواقع محلية.. إلى أن استنفدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأقوات، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر، ومات كثير من أنجاد فرسانهم، فاضطروا، بعد دفاع استطال ثلاثة أشهر، إلى التسليم على أن يؤمَّنوا في أنفسهم وأموالهم. ولكن الملك الكاثوليكي فرناندو الخامس، لم يحافظ على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال، وأصدر مرسوماً ملكياً

---

(١) لأن ريّة هو الاسم القديم لمالقة.

(٢) وحتى اسمها مالقة، بمعنى السلطانة، إذ أصله ملكة فينيقيّة كما يقول المؤرخون. والله أعلم.

باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يتعين عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم.

ومالقة اليوم MÀLAGA هي عاصمة الولاية الإسبانية المسماة بهذا الاسم. وهي أهم ثغور إسبانيا الجنوبية. ويبلغ سكانها ثلاثمئة ألف نسمة. ومما تُصدِّره من محاصيلها الزراعية: التين، واللوز، والعنب... ولم تزل تشتهر بمنتجاتها الجميلة من الفخّار والخزف الملوَّن، الصناعة التي ازدهرت في العصر الإسلامي.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٩-٨-٢٠١٨

وكنّا نجتمع..

وكنّا نجتمع، أنا وأسرتي الصغيرة، حول مائدة الإفطار في حديقة بيتي، ونستمع إلى المذيع يقدّم لنا بصوته الشجيّ حكايات الصالحين والطيبين في الزمن الماضي، تلك التي كثيرًا ما كانت تنتهي بأنّ الرجل فيها يبكي من فرط التأثّر...

ومرة قالت ابنتي الصغيرة: قدّيش أجدادنا القدماء كانت قلوبهم حنونة ودمعتهم سريعة!

أقول: ولكنّ أحفادهم اليوم ليسوا كذلك، يا ابنتي المقيمة في فلوريدا!

دمشق الشام: عصر الأحد ٢-٩-٢٠١٨

وأنا أتابع تصنيف أوراقي

وأنا أتابع تصنيف أوراقي

المضمّخةَ بالحزن أكثر ممّا يُعطّرها الفرح

هذه التي تركت الدنيا الجديدة عائدًا من أجلها للوطن

أدرك مدى قصوري في أن أجعلها ترى النور

تمنعني عينُ الرقيب الضيّقة

وضيقُ ذاتِ اليد

ولا يُقعدني هذا

فإني أشتغل فيما تبقّى لي من نور العين.

فإن لم أفعل.. متّ قهرًا.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٣-٩-٢٠١٨

لو أنّ النظام كان تبحبح...!

يوم بُحَّت حناجرنا في "ساحة الحريقة" (شباط ٢٠١١) ونحن نهتف: "الشعب السوري ما بينذلّ"، ثمّ يوم خَطّ أطفالنا على جدران درعا (آذار ٢٠١١): "الشعب يريد إصلاح النظام" وما كان أحد منّا يفكر في امتشاق السيف عليه...

لو أنّ النظام "تبحبح"[1] لنا يومئذ بقدر من الحريّة...

أما كان مشي الحال؟

ولم تتحوّل المطالبة إلى انتفاضة، فإلى قتال، دخل فيه غرباء من غرب وشرق وشمال، وأُطلِق في ذلك سراح معتقلين تقليديين، وتسلّل إلى البلاد شُذّاذ آفاق، وظهرت فجأة "داعش" التي لا نعرف، أو بتنا نعرف أباها وأمّها والأعمام والأخوال، ولَمّا دُمّرت البلاد وهجرها أهلوها؟

أم أنّ ذلك كلّه كان مخططا له من قِبل الغرب، أو من مجهولين، أو مسطورًا في لوح القدر؟

---

(١) تبحبحَ: فصيحة بمعنى اتّسعَ ومنه بحبوحة عيش: أي سعته. قريبة من معنى "بَحبَحَ" العامية.

أرجوك، لا تزعل منّي، يا سيدي النظام!

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٣-٩-٢٠١٨

الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زُهْر

تجديدٌ في الطب، وانتشارٌ في الغرب قبل أن يبلغ أسماع العرب

وقفتُ اللحظة، في عالم النت، مصادفة على مقالة لي عن الطبيب الأندلسي "عبد الملك بن زُهْر" (من أبناء القرن السادس للهجرة/ ١٢م)، وهو الطبيب الذي أغراني -لدى قراءتي كتابه "التيسير في المداواة والتدبير"- بالدخول إلى عالم الطب العربي القديم، مُطلاًّ أولًا ثم باحثًا أقدّم أعلاق الطب الثمينة عبر المؤتمرات القطرية والندوات الدولية، وهي مما يحتويه كتاب ضخم ما تزال تجتمع فيه بحوثي المؤصّلة.

هذه المقالة الموجزة كتبتها على عجالة لمجلة متميّزة تصدر بدمشق، كانت قد استكتبتني أسبوعيًّا قبل أن تُقصيَني عندما تنامى إليها أني من المعارضين... اللطفاء... أقول: كم ذا يتجنَّون على حقائق العلم والأدب والسياسة إذ يُشْهرون في الوجوه سيوف التحيّز!

كتبتُ:

من الأعلام النابهين الذين حفَلت بهم صفحات تراثنا المخطوط، ومنهم من احتفلنا به كثيراً، ومنهم من غاب في زوايا النسيان، ومنهم من صحونا فأخذنا ننفُض عنهم غبار السنين.. من هؤلاء جميعاً: الطبيب "عبد الملك بن زُهر" الأندلسي الإشبيلي.

- ثالث طبيب في أشهر الأسر الطبية في التاريخ:

فمن هو عبد الملك بن زهر، الذي ينتمي إلى قبيلة إياد العدنانية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام؟ أول ما يتميز به هذا الطبيب أُسرياً، أنه كان "الثالث" في أسرة طِبّية أنجبت

ستة أطباء في ستة أجيال متعاقبة، فهي -دون أي جدال- أشهر الأسر الطبية في التاريخ، قلت: هو الثالث، وقد سبقه جده، سَمِيّه، الطبيب "عبد الملك بن زُهر"، وأبوه "زهر بن عبد الملك"، وتبعهم الرابع "أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر"، وبعده الابن "عبد الله بن محمد"، وآخر هذا العِقد النضيد "محمد بن عبد الله بن زهر".

وميزة ثانية يتمتع بها طبيبنا عبد الملك بن زهر، المُكنى "أبا مروان"، أنه كان الأكثر تفوقاً في تاريخ الطب في الأندلس، لأسباب، منها: انقطاعه إلى الطب دون غيره من العلوم، وتجرده من قيود التقليد التي تمسك بها سواه من أطباء عصره، واعتماده في طبه على دقة الملاحظة السريرية في تشخيص الأمراض ومداواتها.

ويحلو لي أن أضيف: إن عبد الملك، إن كان قد انقطع إلى الطب لم يمارس غيره من العلوم والفنون، فإن ابنه، الطبيب "أبو بكر محمد بن زهر"، كان شاعراً، بل انقادت إليه في زمنه إمامة شِعر الموشحات، وهذا الشعر من ابتداع الأندلسيين ومن موشحاته الشهيرة:

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمعِ

• في خدمة "المرابطين"، ثم "الموحّدين":

عاش أبو مروان عبد الملك بن زهر في ظل دولة المرابطين المغربية، هذه التي قدر لها أن تنقل جيوشها إلى الأندلس زمن ملوك الطوائف لنصرتها في مواجهة الممالك المسيحية، مرة ثم مرة (في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر الميلادي) وانتهت إلى أن ضمت الأندلس، في المرة الثالثة، إلى دولتها الفَتيّة، فكان أن خدم عبد الملك وقبله أبوه زهر هذه الدولة، أطباء ووزراء، فلما دالت على يد دولة مغربية أخرى، هي دولة الموحدين، خدمها عبد الملك وسلالته من الأطباء.

لم تحدد لنا المصادر التاريخية عام مولد عبد الملك، وقد قدروه ما بين ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م)

إلى ٤٨٤، وكانت وفاته في مدينته إشبيلية عام٥٥٧ هـ، فيكون قد عاش- حسب التقديرين- ما بين ٧٣ سنة إلى ٩٣، كان فيها طبيباً للملوك والسلاطين مثلما ظل طبيباً وفياً للفقراء والمساكين.

وأما "كتاب التيسير في المداواة والتدبير" الذي ألفه قبيل رحيله بسنوات قليلة، فإنه يعد واحداً من أمهات الكتب الطبية في الحضارة العربية الإسلامية، ينضاف إلى كتب كثيرة مثل، كتاب "الحاوي في الطب" للطبيب الرازي، وكتاب "القانون في الطب" لابن سينا، وكتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" للطبيب الأندلسي أبي القاسم الزهراوي، وإلى كثير كثير غيرها..

• الكتاب مترجماً، ثم -في عصر الطباعة- يظهر مطبوعاً:

قلنا: إن ابن زُهر توفي في العام ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م)، ولما تكن قد مضت على تأليفه كتابه إلا سنوات قليلة. وكانت النُخب من مثقفي أوروبا القرون الوسطى يتابعون منجزات الحضارة العربية في الأندلس. ولم يطل الوقت حتى ظهرت في العام ١٢٠٦م، ترجمة الكتاب باللغة العبرية أولاً، وذلك أن اليهود كانوا -حسب ويل ديورانت في موسوعته.. قصة الحضارة"- يتمتعون من الوعي الثقافي والحريات الاجتماعية في ظل دولة الإسلام في الأندلس ما يجعلهم يبادرون إلى قطاف ثمار الإبداع العلمي، وسمي الكتاب في ترجمته العبرية "منوره هارافوآه" أي "مصباح الشفاء"، ثم إن الكتاب ترجم إلى اللغة اللاتينية مرة ومرات، إما عن العربية مباشرة وإما عن الترجمة العبرية أيضاً، وحُرّف اسم ابن زُهر عند الأوروبيين إلى "أفانزووار Avenzoar".

وفي عصر الطباعة ظهر الكتاب مطبوعاً باللاتينية. وأول طبعة له كانت في مدينة "البندقية" الإيطالية عام ١٤٩٠، ثم طُبع في مدينة "ليون" الفرنسية عام ١٥٣١، وفي العام ذاته

طُبع في مدينة "ليدن" الهولندية. وتوالت الطبعات مرات كثيرة. وكان يُطبع غالباً مرافَقاً بترجمة كتاب طبي آخر هو "الكليات في الطب" للفيلسوف ابن رشد الأندلسي، على اعتبار أن الكتابين متكاملان. ولفرط اهتمام القوم هناك بالكتاب، كانوا يَسْتَلّون فصولاً منه، يلخصونها، لتنزل في مواضعها المخصوصة من كتب العلم الطبي.

وقيل في أوروبا إنه كان لهذا الكتاب الأثر البليغ في الطب الأوروبي حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وهذا يسير مما تضمنته أطروحة المستعرب الفرنسي الطبيب غبريال كولان Gabriel Colin، الذي عرف –بعناية بالغة– بالطب العربي وتاريخه، وخاصة في أطروحته الأساسية لنيل مؤهل الدكتوراة بعنوان "ابن زهر، حياته وآثاره" تلك التي طُبعت فيما بعد بباريس العام ١٩١١.

• التجربة أكبر برهان:

وما يُحسب لابن زُهر أنه ألف كتابه هذا بعد أن نضِج علمُه واتسعت تجاربه في كل اتجاه، وقد كان فيه يُحارب الخرافات والأباطيل، ويُكافح الدجّالين والمنجمين، ويُحكم العقل، ويعنى بالتجربة العناية كل العناية..

ولنستمع إليه يقول مصرِّحاً، أو رافعاً صوته صارخاً في وجوه مخالفيه المتوقعين، في غيرته على العلم الذي يؤمن به:

"أنا أحاكمهم، كنت حياً أو ميتاً، إلى التجربة، فإن الكلام يداخله الصدق والكذب. والحجج منها ما هو برهان ومنها ما هو اقتناع ومنها ما هو سفسطة ومنها ما هو تخيل، والبرهان هو ميزان حق في الحجج.. وليس يفرق بين الأقوال إلّا البصير، وخاصة إن كان بصيراً بعلم الطب، فحينئذ يمكن أن يَميز الحق من الباطل فيما يكون له بالطب مَعلق.. والتجربة وحدها

هي التي تثبت الحقائق وتذهب البواطل.. " (التيسير، ص٣٢٦).

ابن زُهر أول من فصل بين الطب الباطني، والجراحة، والصيدلة:

ومما يحسب له أيضاً أنه فرق، أي فصل- فيما سمّاه العرب "صناعة الطب"- بين ممارسات في الطب رأى أنها تخرج عن عمل الطبيب الذي يُعالج مرضاه سريرياً.

فهو، من ناحية، كان "يأنف" من أن يُجري الجراحات بنفسه لمرضاه، وكان يعهد بها إلى معاونيه المتمرسين على كل حال، فإن "فعلها" فللضروة الماسّة، وهو في هذا يكون أول من فصل بين عمل الطبيب بالطب الباطني وبين عمل الطبيب الجراح، وإلى ذلك انتهى الأمر في العصر الحديث!

وهو، من ناحية ثانية، لم يكن يُعنى بتحضير الأدوية للمرضى، ففصل بذلك، مرة أخرى، بين عمل الطبيب وبين عمل الصيدلاني!

وفي ذلك قيل: إن عبد الملك بن زُهر كان طبيباً "أرستقراطياً"! وصدَقوا، فتلك كانت من سماته البارزة.

• في "أسبوع العلم" الثالث عشر بدمشق:

أوقع طبيبنا عبد الملك بن زهر، الإشبيلي، تأثيره في الطب الأوروبي الصاعد منذ ما قبل عصر النهضة، وظل كتابه "التيسير.. "يدرس في أوروبا، بجامعتي "لوفان" و"مونبيلييه" حتى القرن السابع عشر الميلادي.

ثم إن العرب استيقظوا في القرن العشرين، على ما تركه الأجداد من تراث محفوظ، في العلوم الإنسانية وفي سائر العلوم، نظروا، وعرفوا هذا الطبيب الأندلسي غير المنسي على كل حال.

وقد تهممت وزارة التعليم العالي في القطر العربي السوري، ممثَّلة بالمجلس الأعلى للعلوم، لأن تحتفي بهذا الطبيب، بمناسبة الذكرى "التسعمئة" لمولده "حسب أحد التقديرين: ١٠٧٢م"، فجعلت منه محوراً لبحوث تُلقى حوله في "أسبوع العلم الثالث عشر"، الذي أقيم بجامعة حلب في شهر تشرين الثاني ١٩٧٢، وأعَدّت لهذا "الأسبوع" كتاباً حوى ما كتب عن الرجل قديماً وحديثاً، بالعربية وغيرها، بذلته للمشاركين في ذلك الاحتفال ولكل من يطلبه، ثم أخرجت للناس بعد انقضاء الأسبوع، البحوثَ في مجلدات، ضم أولها خمسة البحوث التي تناولت هذا الطبيب، وقد حضرها كل من: د. أحمد شوكت الشطي، ود. عبد الكريم اليافي، ود. ميشيل الخوري، والأستاذ عمر رضا كحالة، والمستعرب الإسباني سلفادور غوميث نوغاليث.

وقد استحضرت بعد ذلك صور عن مخطوطات الكتاب حيثما وجدت في المكتبات العالمية، وأكبّ عليها الدكتور ميشيل الخوري (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق) دارساً محققاً، وتعهدت "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" (تونس) إخراج الكتاب للناس مطبوعاً: "كتاب التيسير في المداواة والتدبير"، تولت طباعته "دار الفكر" بدمشق، وخرج بِحُلة قشيبة في العام ١٩٨٢، بعد طويل انتظار، في خمسمئة وستين صفحة، وضع له الفهارس بالمصطلحات الطبية، باللغتين العربية والفرنسية، الدكتور مختار هاشم "عضو مجمع اللغة العربية بدمشق".

وشاع الكتاب بين المعنيين بالتراث الطبي العربي العريق. ولعلني استطعت تقريب الكتاب ومؤلفه، في مقالتي هذه، إلى أذهان غير المعنيين!

ولن يفوتني، استكمالاً للقول، أن أضيف أن "أكاديمية المملكة المغربية" بالرباط، أصدرت هذا الكتاب بتحقيق محمد بن عبد الله الروداني في مجلد حسن عام ١٩٩١.

• لا جديد دون قديم:

وبعدُ،

فلا يقولن أحد: إن ذلك "طب قديم" قد عفى عليه الزمن!

فإني أجيب عن مثل هذا القول، بمثل ما كان قاله عميد الأدب العربي طه حسين في محاضرة له بجامعة دمشق في خمسينيات القرن الماضي، من أن من طبيعة الأشياء أن يعرف المحدَثون ما لم يعرفه السابقون، وأضيف: خاصة في مجال العلوم، وأولها علم الطب، هذا الذي يقفِز القفَزات الهائلة، عاماً بعد عام، بل يوماً بعد يوم!

وأقول أيضاً: إن الحضارة الإنسانية تبنى لَبِنة لبنة، ومِدْماكاً فوق مدماك، ولولا علوم الأوائل، التي اتكأ عليها اللاحقون، لما كان لهم أن يسرعوا في الاختراع والابتداع.. فمن كان يصدق، في أوائل القرن العشرين الذي مضى، أن عيناً لا تبصر يمكن أن تكتحل بالنور، بجراحة سميت "ترقيع القرنية"؟ وأن صاحب القلب العليل يمكن أن يستبدلوا بقلبه قلب إنسان آخر، فينهض به، وينبِض في صدره، ويَخفق شوقاً إلى الحبيب الذي كان يخفق له القلب المنزوع؟!

مجلة "الأزمنة"، العدد ١٩٣ الصادر في ٣١-١-٢٠١٠

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٤-٩-٢٠١٨

أيّ شعورٍ، أيّ ازدهاء

أيّ شعورٍ، أيّ ازدهاء، ينتاب ذلك المسؤول الذي يقول لمن حوله: "ما دمتُ على رأس هذه المؤسسة فلن أدع اسم السباعي يمرّ! ".

ألا يتصور موقعَه في التاريخ غدًا، وموقعي؟

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٥-٩-٢٠١٨

حملَتْه رياح الحرب إلى نيوزيلاندا

حملَتْه رياحُ الحرب إلى "نيوزيلاندا" في أقصى الشرق يعمل ويتابع دراسته العالية.

سافر يزور شقيقه في هنغاريا وشقيقاته في ألمانيا.

يصل إليه أمس خبر أنّ أباه، الذي بات يعمل في أقصى الغرب بروفسور في جامعة بلوس أنجلوس، قد وافته المنية.

أيُّ شتات، أيها السوريون! أي رحيل!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٥-٩-٢٠١٨

الذين يختلسون أموال الدولة

الذين يختلسون أموال الدولة

يفرّون بها، أو يقعون في القبضة

ألم يكن على الحكومة

أن تكتشفهم قبل وقوع الفعل

أو... ألا تمنحهم الثقة ابتداءً

لو أنّ عين النظام الساهرة

تستدير نحو هؤلاء أيضا...

دمشق الشام: عصر الخميس ٦-٩-٢٠١٨

وبدا المستشفى مستنفرًا

وبدا المستشفى مستنفرًا منذ باكر الصباح

الأطباء والممرضات وكلّ العاملين

والغرف المحجوزة

ويصل البولمان

منه ينزل مَن يسير على قدمين، ومن يتوكّأ، ومن أسرعوا إليه بالكرسي المُدَولب

يتوزّعون

قراءات لملفّات محمولة بالأيدي أو مسبقة الإرسال

معاينات، وتحاليل، وضجة آلات التصوير

ويَشرع الأطباء من التخصصات كافةً بالعمل

المستشفى في دمشق

والقادمون جاؤونا من لبنان

بالإبداع ننعم

حتى ونحن في زمن الاحتراب

وبالقناعة أيضا

دمشق الشام: مساء الخميس ٦-٩-٢٠١٨

في عهد الاستقلال

في عهد الاستقلال لم تكن في مجتمعنا عُقد طائفية؛ وعلى هذا أيضا كنا في سنوات الانتداب الفرنسي. وكنت أسمع هتافات الجماهير في الثلاثينيات: "بدنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحية"؛ وفي ظلّ العثمانية كان ثمّة في القاع مظاهر خطأ لغير المسلمين، على حين أنهم كانوا يحظون بالتقدير والنفوذ في مجلس "المبعوثان" (البرلمان العثماني في إسطنبول).

بعد الثامن من آذار اتجه حكم البعث إلى العناية الزائدة بالأقليّات، ليس تحقيقا لعدالة مدّعاة، لكن لكسب ودّهم في ظلّ احتكار السلطة بمواجهة أكثرية يُراد تحجيمها، وهي ملتزمة بالصمت الملتبس. وقد قَبل بهذه الحالة نفرٌ من الطائفيين، فتولّوا وتملّكوا وسادوا... وبلغ الأمر أنّ فريقا جاء العاصمة في الثمانينيات يلتمس من رئيس البلاد أن يمنع تشييد جامع عظيم بجوار كاتدرائية عظيمة[1]، وكان من فطنة الرئيس أن رفض الالتماس.

وعندما قام الناس بالأمس يطالبون بالحرية، أسرع النظام إلى اتهامهم بنيّتهم الفتكَ بالأقليات، قاصدًا أن يبدو أمام العالم حاميًا لها، رافق ذلك إطلاقُ سراح العُتاة من أهل اللِّحى السوداء، وظهورُ داعش المريب، فضاعت البوصلة عند بعض الطيبين. وأذكر أنّ فتاة ذات خبرة بأعمال السكرتارية قالت لي ونحن في جلسة نتفاهم فيها على العمل: "هم يريدون قتلي، أنا أترك البلد!"... إلّا أنّ الحقيقة لم تكن خافية على جمهور العارفين.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٧-٩-٢٠١٨

---

(١) يقصد، على الأغلب، جامع التوحيد في وسط مدينة حلب، في حي العزيزية ذي الأغلبية المسيحية، إذ يقع الجامع بين كنيستين هما كنيسة الصليب المقدس وكنيسة الكلدان، وافتتح عام ١٩٨١م.

وأحببتُ الطرب طفلًا

ما زلت أذكر، يوم كنت في الخامسة من عمري، تلك السهرات تنعقد في بيتنا بـ"زقاق الزهراوي" بحلب.

عمّتي "محاسن"، في مقتبل العمر، الطروب، تَعزِف على العُود بحضور صبايا الحيّ، ولحظة يستبدّ بها الطرب تتخلّى عنه، وتأخذ منديلا أبيض وتغنّي: "ياالله ياالله، ياالله هيييييه".

لقد لقّنتْني -وأنا لا أدري ولا هي- كيف على الإنسان أن يكون طَروبًا. ويوم آنست بي "حلاوة الصوت" علّمتني أول ما ذاع من أغاني فريد الأطرش يومذاك: "يا ريتني طير لطير حواليك".

سوف أظلّ أذكر تلك الليالي...

وأذكر كذلك أني لما كبرت قليلاً أخرجَتْني الصبايا من "جنّتهنّ"، فليس يجوز أن يستمع صبيّ لما يدور بينهنّ من أحاديث... وإنْ ظللت أذكر من ذلك نُتَفًا!

وأما الإحساس الطربيّ فلم يُزايلني.. يلازمني حتى... الغد!

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٧-٩-٢٠١٨

نقطة فوق حرف

عندما كَلّ البصر عندي، أيها الأصدقاء، عوّدت نفسي أن "أكتب" على الشاشة مباشرة. مشكلة تعترضني: أن تمتدّ يدي إلى حرف يجاور الحرف الذي أريد (م تجاورها ن، الباء والياء، ة و، س ش...)، ما يدعوني إلى التشدّد في مراجعة ما أكتب قبل الإرسال، وأحاذر الوقوع في الخطأ بين الأحرف الثلاثة المتآخية (ج ح خ)، وخصوصا عندما أقول "الله يرحمه "!

ومن الحديث عن تبديل الحروف كتابة، إلى تبديل الحروف لفظًا:

في زيارتي لموسكو عام ١٩٨٣ ضيفًا على "اتحاد الكتّاب السوفيات"، رأيت من يتعلمون العربية هناك يتحوّل حرف (الحاء) على ألسنتهم إلى الحرف المجاور له منقوطًا من فوق. ورأيت مرافقتنا اللطيفة -التي التمستْ منّا أن نناديها "أُوْلا" (تصغيرًا لاسمها "أولغا")- تشكو لنا بخجل صعوبةَ نُطقها كلمة عربية معينة تتوضّع فوقها هذه النقطةُ فينتقل المعنى من حال إلى حال!

دمشق الشام: مساء السبت ٨-٩-٢٠١٨

إنّ قوميةً ما

إنّ قوميةً ما، إثْنِيّة

تعيش في ظلال مجتمع قد امتزج كيانُها بكيانه عبر قرون من سنين

حتى تسنّم كثيرٌ من نُخبهم المناصب والرئاسات...

لا يُقبَل منها السماعُ في آخر الزمان:

هذه أرضي،

و... سُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ!

دمشق الشام: فجر الأحد ٩-٩-٢٠١٨

قريبًا من بيتي كان

قريبًا من بيتي كان -أو ما يزال- بيتٌ للثقافة صغير، أذهب إليه أحيانا أستمع إلى محاضرة، ومرة واحدة وقفت على منبره وما تزال المناقشة التي أعقبت المحاضرة تتخذ في ذاكرتي لها ركنا

دافئا. ولكن ما لهذا أكتب لكم أيها الأصدقاء، بل لأقول: إني جريت على أن أدخل فِناء هذا البيت الثقافي في رياضتي المسائية، مساحةً رحيبة تخيّم عليها العرائش وتعبق فيها رائحة الأزاهير، أستمتع بالنظر وأستمع إلى غناء العصافير، جاعلاً من هذا المنعطف محطة تتوسّط تجوالي اليومي.

دخلته اليوم...

وبصحبتي -يا للمفاجأة! - حفيدتي، التي كانت في طفولتها تَشْغَب في زياراتها لبيتي، بأن تدنو من رفوف الكتب، تمدّ سبّابتها الصغيرة، تدفع هذا الكتاب وذاك إلى ما وراء فتُخرّب انتظامها، وهي تنظر في ذلك إليّ كالمتشفيّة... لماذا يا حبيبتي "زين"؟ وكانت أحلى اللحظات عندي أن أُعيد تصفيف الكتب وأنا أستحضر في خاطري فنون شغبها وأترنّم به!

فوجئت، بدخولي الفِناء الآن، بوجود رجال ونساء من معارفي القدامى يملؤون المكان. ما أنا على يقين منه أني لم أحدِّث أحدا بأنّ حفيدتي باتت طالبة تدرس الطبّ في تلك القارة البعيدة، وإنْ كانوا يعرفون أنّ رياح الحرب حملتها إلى بلاد "فلوريدا"، حيث تقيم ذرّيّتي التي تَتابَع سفرُ أفرادها إلى هناك... حتى أوشك ألا يبقى حولي بدمشق منهم أحد.

استوقفوني، وأخذوا يسألون الحفيدة عن دراستها، التي بدا أنهم يعرفون ما قدّمتْه لها الجهات المحليّة هناك من منحة دراسية تقديرًا لمعدّلاتها العلمية العالية... وأكثر من هذا رأيتهم يشيرون إلى ما كانت تفعله بكتب جدّها، المتراصّة على رفوف المكتبات ويتندّرون... بدوا لي أنهم يعرفون كل تفاصيل حياتنا، حتى خامرني الظنّ بأني أحلم!

كان حلما، أيها الأصدقاء، تراءى لي في قيلولة اليوم.

شتّتونا في أنحاء الكرة الأرضية، ولكنهم عاجزون عن أن يمنعونا من ممارسة الأحلام.

دمشق الشام: ليل الأحد ٩-٩-٢٠١٨

اجتزت الحدود بمشقّة...

اجتزت الحدود بمشقّة حتى وصلت. وضعت "المخطوطة" أمام المعلم، وجلست أتأمّله وهو يتصفّحها وبجواره مَن سمّاه لي "كبير المحررين".

أخذت أرقبه، لاحظت الدهشة تتبدّى في عينيه مقلّبًا أوراقي. قلت وسوف تتزايد دهشته كلما أمعن في الاطلاع، ومنّيت النفس بأن ينشر لي كتبا ما تزال ثاوية في عتمة أدراجي.

فجأة يدخل المكان رجل. بلمح البصر يسحب جرزة من الأوراق ويمضي بها.

اشتعلتُ غضبًا. سألت عن هذا الرجل، وكيف؟ أجابني المعلم بكلام لم أفهم منه إلا إشارته إلى المحلّ المجاور له. لحقت به. دخل. تبعته.

- لماذا أخذت أوراقي؟

- مثل هذا الكلام... لا يعجبنا!

- هذا ليس كلاما، إنه فكر. هل قرأته؟ من أنت؟

جاءني صوتٌ من مكان ما:

- دون أن نقرأ نعرف!

بحثت عن صاحب الصوت... وجدته -يا للعجب! - قزمًا، مجرد رأس مركّب على رقبة، والجذع غائب، فكأنّ الرأس موضوع على الأرض! ولاحظت أنّ الآخر ينظر إليه باحترام.

قلت بحدّة:

- كيف تسمحون لأنفسكم بأن تأخذوا أوراقًا لا تخصُّكم؟

قال "الرجل-الرأس":

ـبل تخصّنا. نحن لا نريد مماحكات. إنّ ما تظنّونه مسألة عظيمة وتُديرون عليها حواراتكم هي موضوع شائك، له وجوه مختلفة.

رفعت صوتي أقول: لأنّ لها وجوها فإنّ من حقنا أن نضعها على بساط البحث... هي عبر التاريخ... كانت... صارت... يجب... الدماء... الـ...

أصاب لساني العياء، وكذلك دماغي... أغمغم بكلمات غير مفهومة... أردت انتزاع أوراقي خانتني قواي... هممت بالصراخ احتبس الصوت في حلقي...

....

ورأيت شمس الصباح، تطلّ عليّ، تعانقني...

أخذت أقبّل أشعّتها بحبّ ملأ شغاف قلبي.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١٠-٩-٢٠١٨

رأيتُني في حاجة ماسّة إليهم

رأيتُني في حاجة ماسة إليهم. أهَّلوا بي ورحّبوا. جعلوني في قطار، وذهبوا بي إلى حيث المنجاة.

سار بنا القطار يقطع المسافات، وهم يَروون لي الأحاديث المسلّية.

ولكني لاحظت أنهم، في كلّ محطة، ينزل واحد منهم. وتقاربت المحطات والنزلات.

قال لي آخرهم:

ـ سوف ينعطف القطار بك هناك، وبعده تصل إلى الغاية.

وتركني وحيدا.

ويتابع القطار مسيره دون سائق.

وعند المنعطف توقف.

ولبثت أنتظر.

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ١١-٩-٢٠١٨

من يحمل الإرث

علّق على مناشدتي للمثقفين العرب، اليوم، صديق حميم قال:

تتكلم وكأنك مقطوع من شجرة يا أستاذ فاضل. أعتقد أن بناتك وأبناءك وأحفادك لن يتركوا هذا الإرث الأدبي يضيع سدى بل عليهم واجب تجاهك في حفظه وهم لن يتخلوا عن ذلك. أتمنى أن نسمع تعليقا منهم، ولا نشعر بأنك خارج دائرة اهتمامهم.

أمنياتنا لك بطول العمر والصحة والعافية. وندعوك للتفاؤل والإقبال على الحياة.

[عصر الخميس ١٣-٩-٢٠١٨]

فكتبت له:

نعم، أجدني وكأنني مقطوع من شجرة، يا صديقي! فالأبناء والأحفاد والأسباط، لكلّ منهم ما يشغله في هذه الحياة التي باتت تحكمها الهجرة والتهجير، منهمكا في عمله اليومي، أو الإبداعي، أو الدراسي.

أجيبك بلسان ذرّيّتي المبعثرة في أرجاء المعمورة، وأضيف: إنّ مَن يحمل إرثي هو أنا نفسي، أُفضي بمواضعه وموضوعاته وأسراره لفريق عمل مجتهد وأمين، قبل أن أفقد قليلاً أو كثيرًا من ذاكرة الأيام.

وهل أحدثك عن مشروعين فقط من العشرين الثاوية في أعماق الأدراج:

• أولها كتاب عن الفنان لؤي كيالي، أجمع فيه ما كتبت عنه عبر أربعة عقود، ورسائل متبادلة... وأشياء وأشياء.

• الثاني وعنوانه "الأندلس في الذاكرة العربية" مجموعة من الدراسات والبحوث الأندلسية مما قدمت في المؤتمرات والندوات، قد تزيد صفحاته على الخمسمئة.

من يجمعُ هذا من مظانّه، ينضّد ويدقق ويُصنّف؟ هذا فوق طاقة الأسرة وخارج معرفتها.

وإنّ قدرا من التفاؤل والإقبال على الحياة متوافر عندي، ولكن ما زال يؤثر فيّ ضعف في البصر وفي السمع وما تتوقعه يحلّ برجل يلامس التسعين.

دمشق الشام: مساء الخميس ١٣-٩-٢٠١٨

"بدر الزمان".. والتعطّش للكلمة الموعودة

في إشارتي أمس، بالتغريدة الملوّنة (ويفاجئني رئيس التحرير...)، إلى ظروف نشر هذه القصة في مجلةٍ قبل نحو ثلاثين عاما، قرأت في التعليقات:

- - - - - - - - - -

وبعد عقود من السنين كانت "بدر الزمان" قصة يَدرسها طلابُنا في قسم اللغة العربية بـ"جامعة إدلب الحرة". وقد ذُهلوا لجرأة الكاتب وشجاعته الأدبية النادرة، وسَعِدوا أنه بَشّر [بانتفاضة تطالب بالإصلاح].

محمود تركي الداود – مساء الجمعة ١٤-٩-٢٠١٨

- - - - - - - - - -

فذيّلت التعليق:

الآن أعلم هذا، يا صديقي.

والشكر لرئيس تحرير مجلة "المعرفة" (عن وزارة الثقافة، عدد كانون أول ١٩٩٠) عبد الكريم ناصيف، الذي تجرّأ ونشر، ما جعل مسؤول الرقابة في اتحاد الكتّاب (فايز خضور) يوافق على النشر في كتاب، تمدّدت فيه القصة (مع صور أبدعتها التشكيلية ريما بطرس) عبر مئة وخمسين صفحة (عام ١٩٩٢)... ثمّ كانت "إسبانيا" ممّا وصل إليه الكتاب من الأقطار، فاختار الطالب العربي (عبد الله خلف) هذه القصة يترجمها إلى الإسبانية وينال على عمله مؤهِّل الدكتوراه، وتصدر في كتاب جمع نصّيها بالإسبانية والعربية عن دار نشر في مدينة برشلونة (١٩٩٩).

للجميع الشكر موصولًا، والرحمة لروح الفنانة ريما بطرس.

دمشق الشام: السبت ١٥-٩-٢٠١٨

قبل مدة سألتني ابنتي...

قبل مدة سألتني ابنتي سهير (من فلوريدا) لو تكون لها "الأجندات" التي أدوّن فيها وقائعي اليومية منذ عهد الفتوة

ورأيتها تسعد بموافقتي.

[رقابة مطبوعات.. في مطار لوس أنجلوس!]

ممّا ضمّت ربّةُ الأسرة إلى متاعها في سفرها إلى ابنتنا "سهير" في لوس انجلوس أوائل العام ١٩٩١، نسخٌ من بواكير ما نشرتُ في داري المحدثة بدمشق "إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع"، وهي:

• الطبعة الثانية من "ثم أزهر الحزن"،

• الثانية من "الألم على نار هادئة"،

• الأولى من "اعترافات ناس طيبين".

وكانت نسخًا ضاقت بها الحقيبة على سعتها، بقدر ما فَرِحنا بأنّ أصدقاء ابنتنا من الناطقين بالعربية سوف يطالعون روايات أبيها، الجديد منها والمعاد... وتتباهى!

هل أقول إنّ الفرحة لم تتمّ!

ذلك أنّ رجل الجمارك في مطار لوس أنجلوس لاحظ وفرة هذه المطبوعات وتماثلها، فملكته الخشية. استدعى رجل الإعلام، هذا الذي استأذن السيدة بأن يحتفظ بالكتب لعرضها على "الرقابة"، وهم بعد الإجازة سوف يحملونها على رؤوسهم إلى العنوان الذي تريد!

اتجهت السيدة السورية، المستلَب منها حقُّها بأن يتمتّع الأصدقاء هنا بمطالعة كتب "ربّ الأسرة"، إلى الهاتف العمومي (فلم يكن قد عُرف في ذلك الحين الموبايل)، تحكي لابنتها ما يجري، فتملّك سهير الغضب، وطلبت رجل الإعلام "غير المتحضّر" تكلمه، وتوعّدته بالشكوى حالًا لرئيس الجمهورية "جورج بوش" (الأب، فلم يكن الابن قد ظهر)، وأعلمته أنها تحمِل الجنسية الأمريكية مثله، إن كانت أصوله تعود إلى القارة الأوروبية أو كان من المكسيك أو من القارة السمراء، وأنّ لها من الحقوق ما لكلّ الأمريكيين والأمريكيات، وأنها تُحضّر للدكتوراه بالفنون التشكيلية بمنحة من الولاية...

وألوَت عليه بالتقريع:

ـ كيف تحجزون، وتَعرضون، ووو...؟

قال الرقيب بأدب:

ـ سيدتي، أحترم مواطَنتَك الأمريكية ومؤهلاتك العلمية، ولكني أودّ أن أسألك: أليس

في بلدك-الأمّ رقابة؟ فنحن نعاملكم بالمثل!

عند هذا الحدّ لم أعد أعرف ما قالت ابنتي، وما تصرّفت في غضبتها المثارة... فقد رأيت شمس الصباح تتسلّل إليّ وتغمرني وأنا في سريري؛ فمثل هذه الرقابة لا تكون إلّا تحت شمس العرب، فالأنظمة تراقب، وتتشدّد في الرقابة، حماية لنا من فساد الآراء.....

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٨-٩-٢٠١٨

".. وما شافوا شو صار بهالبلد"!

بالأمس رحلت عن عالمنا الناشطة الاجتماعية الكبيرة "لميس الحفار" (ابنة السياسي المخضرم لطفي الحفار وشقيقة الكاتبة الكبيرة سلمى الحفار الكزبري) وهي التي أسست عام ١٩٨٥ المشروع الناجح "دار السعادة" لرعاية المسنين... وقد كانت مثلُ هذه المؤسسات الاجتماعية موضع عناية من قبل والدها والزعيم فخري البارودي...

صحفي كان قد أجرى حوارا معها، آخر ما وجّه فيه إليها من الأسئلة لو أن الوالد لطفي بيك وصديقه فخري بيك اليوم على قيد الحياة، ما تظنين يقولان عن مشروع دار السعادة؟

فأغمضت عينيها بحزن وأجابت: "منيح ما عاشوا، وما شافوا شو صار بهالبلد".

دمشق الشام: عصر الخميس ٢٠-٩-٢٠١٨

حفنة ياسمين.. على طاولة "القُنْصُلة" السمراء

يوم رشّحني للإيفاد إلى فرنسا رئيسُ جامعة دمشق "الشهيد الدكتور محمد الفاضل"، كان سهلاً عليّ أن أستوفي "تأشيرة السفر" من القنصلية الفرنسية، فإني موفدٌ إلى بلدهم بموجب الاتفاقية الثقافية بين الدولتين.

وكنت أنوي زيارة ابنتي "سهير" التي أصبحت حينذاك في نيويورك، فتوجّهتُ، في يوم خريفي، إلى القنصلية الأمريكية (في ساحة الروضة بأعلى أبو رمّانة). لمّا تبيّنت الموظفة هناك أني "كاتب"، غابت لحظة وعادت لتفتح أمامي الباب المحكَمَ الإغلاق وتدعوني للدخول. وجاء "القنصل"، الذي لم يكن إلا سيدة سمراء جميلة وأنيقة، استقبلتني بترحاب، وأجلسوني على مقعد وثير، وتولَّوا جميعًا الإجراءات على وجه السرعة.

وكان من عادتي أن أقطف قبل توجّهي إلى عملي صباحًا من ياسمين الدار ما أجعله في منديل ورقي أعقد زواياه وأضعه فوق الأوراق في محفظتي أنشره على مكتبي فتملأ رائحته المكان طوال ساعات الدوام. تراءى لي، هذه اللحظة، أن أخرج ياسميناتي اليومية، فما وجدت أجدرَ بها من هذه السيدة اللطيفة. ابتسمت "القنصلة"، وتناولت زهرة رفعتها، شمّتها، وعبّرت عن امتنانها.

أخذت جواز السفر "مؤشَّرًا"، واستأذنت "القنصلة" السمراء الجميلة بأن أترك لها الياسمين، فزاد سرورها، وودّعتني حتى باب القنصلية.

كان ذلك في خريف العام ١٩٧٧، أيها السادة.

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢١-٩-٢٠١٨

في ذكرى رحيل الفنان فتحي محمد (١٩١٧-١٩٥٨)

زوّدتني الصديقة السورية "محاسن سبع العرب" (في دبي)، بلائحة استمدّتها من الإنترنت أدرجت فيها أسماء بعض المواقع الالكترونية، تتضمّن نصوصًا لي منشورة في أوقات وأزمان مختلفة.

وقد توقفتُ عند مقالة كنت نشرتها في مجلة "الثقافة" الدمشقية عام ١٩٥٨، متحدثا فيها

عن المثّال السوري "فتحي محمد" الذي كان قد رحل قبيل مدة عن عالمنا، تولّت السيدة محاسن تنضيدها مشكورة، فزيّن لي ذلك نشرَها اليوم، وقد مضى على رحيل الفنان النابغ ستون من الأعوام المديدة. اقترن نشر اليوم بصورة للتمثال المتفرّد الذي أبدعه الفنان الراحل لحكيم المعرة.

- - - - - - - - - -

فنانون وألوان: فتحي محمد(١)

مجلة الثقافة، عدد حزيران/ يونيو ١٩٥٨

يطالعك وأنت داخلٌ إلى دار الكتب الوطنية بحلب في صدر البهو، الفيلسوف العربي أبو العلاء المعري بوجهه المجدور وعينيه الغائرتين ووقفته الممعنة في صبرها، النافذة إلى أعماق النفس البشرية.. فلا نملك إزاء هذا التمثال إلا أن نبارك اليد والمطرقة والإزميل. إنه من إبداع الفنان "فتحي محمد".

وللتمثال قصة..

فعندما تَنادى رجال الفكر في البلاد العربية إلى إقامة مِهْرَجان في حلب صيف العام ١٩٤٤ بمناسبة مرور ألف عام على ولادة حكيم المعرة، انبرى فتى مغمور يسكن في حي شعبي من أحياء حلب يسمى حي "المشارقة" ينحت تمثالاً للشاعر العبقري، وكان لا يجد المكان الذي يترضّى فيه آلهة الفن والإبداع؛ إلا أن جاراً كريما أسلمه مفتاح دكان له مهجورة بجوار البيت يتّخذ منها "استوديو" إلى حين.

واختلى الفتى في المكان شهرين، يساهر إزميله الغضّ، وكان يلقى من صبيان الحي عَنَتاً

---

(١) يتحدث السباعي عن الفنان مغفِلاً ذكر كنيته، وهو النحّات الحلبي الشهير: فتحي محمد قباوة. وجدير بالذكر أن وزارة الثقافة السورية أصدرت كتاباً عن حياته من تأليف الدكتور سلمان قطاية.

كلما أطلوا عليه في مَعْزِله فرأوه يقيم بين يديه شيئاً على هيئة إنسان، وكانوا في بعض المرات يَحصُبونه ويُوَلّون هاربين، إنه يتمادى ويخلق بشراً؛ ألن يُطالب غداً في الآخرة بأن ينفخ فيه الروح وما هو بقادر؟

واستوى التمثال إبداعاً رائقاً من فتى ما لُقّن الفن ولا دَرَس أصوله في المعاهد.

وكذلك فقد قُدّر لأبي العلاء أن يَحضر تمثالٌ له (ألفيّته) منصتاً إلى الخطباء يتعاقبون مقدّرين إنسانيّته وشاعريته وحكمته بعد مئات من السنين.

وما كتم رجال الفكر يومذاك إعجابهم بالتمثال وبصانعه وتوسّموا فيه الخير[١].

على أنّ الفتى الموهوب ما لبث أن شدّ الرحال إلى القاهرة يدرس في (معهد الفنون العليا) بعد أن باع أسهماً له في إحدى الشركات ورهن الغرفة التي كان قد ورثها عن أمّه.

وعاد بعد حين ليعهدوا إليه بعمل تمثال للفقيد سعد الله الجابري، فأظهر براعة حَفَزت بلديةَ حلب على رعايته وتبنّيه، فأوفَدَتْه في العام ١٩٤٨ ببعثة إلى إيطاليا حيث دخل (أكاديمية الفنون الجميلة) يدرس فن النحت ثلاث سنوات.. ولمّا أتمّها ثنّى بدراسة "فنّ صبّ المعادن" لسنتين أُخريين درس خلالهما أيضاً فن الرسم وفن (الميدايون) في (معهد صبّ النقود) في روما، وعاد إلى الوطن في العام ١٩٥٣ موظفاً في الدائرة الفنية ببلدية حلب.

واستُدعي بعد مصرع العقيد رياض المالكي إلى دمشق ليصنع له تمثالًا، لقاء عشرة آلاف ليرة سورية هي المكافأة والتكاليف معًا. وأقام في دمشق سنة وبعض السنة منصرفًا إلى صنع التمثال، وانقطع عنه خلال ذلك مرتبه من البلدية. واستنفدت المكافأة تكاليف التمثال ولقمة العيش... وهنا ظهرت بوادر العلة الرهيبة في جسد الفنان الذي كانت روحه تتفتّح نبوغًا

---

(١) كان ممن أبدى إعجابه بالتمثال طه حسين وأحمد أمين وخليل مردم بك، ممّن ساهموا في الاحتفال بألفية المعري.

واعدًا مبشرًا. وثقلت العلّة، وما رحمت شبابه الريّان ونبوغه المتفجر، فقضى في السادس عشر من نيسان من عام١٩٥٨م.

يتّسم فن فتحي محمد في تماثيله بالانطباعية التي تأثر فيها بأستاذه "سيفيرو" الإيطالي. إلا أن ملامح الكلاسيكية تظلّل فنّه على كل حال، ذلك أن أكاديمية الفنون الجميلة التي قضى فيها سنين سبعًا تتّخذ من الكلاسيكية مذهبًا لها ومنهجًا في فروعها المختلفة.

صنع الفقيد تماثيل كثيرة، بعضها محفوظ في المتحف والمعاهد الفنية في ايطاليا، وبعضها يقبع في عتمة الصناديق الخشبية في أقبية المفوضية السورية في روما، في انتظار أن يُرزق الفقيد مالًا يتيح له أن يشحنها إلى أرض الوطن.

ولعل من أبرز أعماله الفنية تمثاله المرسوم بـ"اليافع"[١]، الذي يمثّل ولدًا في يده تفاحة.. إنه الحقيقة الكاملة الخالية من كل أثر للصنعة والتكلف، حاز به الدرجة الأولى على طلاب المعاهد الفنية في إيطاليا بلد الفن والجمال.

ذلك موجز لحياة الفنان النابغ فتحي محمد.

إنه شهاب... ومضى في سمائنا، فما وعته الأبصار، فخبا.. حزينًا. إنه لم يلقَ التقدير في حياته المعذبة البائسة.

فتحي محمد... لم يلق التقدير في حياته... أتراه يلقاه بعد أن رحل؟.

ما أكرم الأمة التي تقدر أبناءها النابهين في الحياة وبعد الموت!

حلب، ١٩٥٨

– – – – – – – – – –

---

(١) محفوظ في متحف فلورنسا للفن الحديث.

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٣-٩-٢٠١٨

لا تَغمِزوني.. أمسى الرجل مُلكًا للتاريخ!

كنّا، نحن مَن أسمَينا أنفسنا "أصدقاء التجهيز" (ثانوية المأمون بحلب) الذين اتفق وجودهم بدمشق، نجتمع كلّ شهر مرة في "نادي الصحفيين" بطلعة العفيف. كان منّا عبد الله واثق شهيد وعثمان كنعان ومحمد خير فارس وحسين ديري وبشير الموصلي وإياد حديدي وطارق شهابي ووفيق طريفي ومظفر شاكر... ومنّا سالم توما وعاكف باكير ورياض القادري وشاهر غريواتي (الأربعة الأخيرون على قيد الحياة عافاهم الله. (

ثلاثون أربعون، يحضر منهم في كلّ سهرة عشرة أو حول ذلك، فإن زاد العدد اختلطت الأصوات ولم يكد أحد يفهم على أحد. نأكل نشرب، ونقتسم الفاتورة، أحيانا يدفعها أحد "المقتدرين".

من كلّ الانتماءات كنّا، وبيننا ابنٌ لمن كان قَلَب وحَكَم ثمّ قُلِب. مرة استطرد الحديث، فانتقدتُ رئيسَ الجمهورية أباه، فتلقّيت من الأصدقاء "غمَزات" تعني أن أُراعي مشاعر الابن، فقلت بملء الصوت: "أنا أتكلم عن الرجل بصفته رئيسًا حكم البلاد، لا تغمِزوني، الرجل أمسى مُلكًا للتاريخ"، والجميل أنّ الابن "إحسان ش. " أقَرّ بأريحيّة وجهة نظري.

حدّث صديقُنا عاكف في البيت ابنَه "الدكتور أسامة"، فجاءنا يستمع إليّ ويمعن النظر. هو الآن معارض لطيف يعمل طبيبا في الدوحة.

معظمهم اليوم تحت الثرى... وبدا أنّ الدهر أبقاني إلى حين لأروي.

دمشق الشام: عصر الخميس ٢٧-٩-٢٠١٨

وحكموا عليّ.. بالحبس عشرة أيام

في العام ١٩٨١ فرغت من كتابة قصة مطوّلة عنوانها "بدر الزمان" (كنت استوحيتها وأنا في المعتقل)، تعرّضت فيها لمسألة التأميم وذيوله. بعد أن قرأ مخطوطتها رئيس تحرير "الموقف الأدبي"، وكان يتهمّم لنشرها عبّر لي عن غضبه لأني ندّدت في هذا العمل بركن من أركان الحكم في البلاد (نُشرت القصة فيما بعد بكتاب وتُرجمت إلى الإسبانية ونشرت هناك باللغتين).

ويوم قدَّمت في العام نفسه لرئيس تحرير "الأسبوع الأدبي" قصتي "كاتب الخُطب" تنتقد تصرفاً منافيا للسلوك الإداري المعتاد يأتيه مسؤول، قرأها بحذر، وناولها لزميل كان في زيارة له (يرأس تنظيما سياسيا منضمّا للجبهة)، فقال بأن القصة تنال من هيبة كبار المسؤولين.

أقول: كيف يمكننا أن نصلح الخلل إذا مُنع الكتّاب من نقد التجاوزات التي يقترفها المسؤولون في آداب الإدارة وسلوكيات الحكم؟

ذات ليلة حضر القيصر عرضًا لمسرحية الكاتب الروسي الكبير "غوغول"، هي "المفتش العام"، وكانت مَحشدًا لصور فساد الموظفين المرتشين، فأخذ القيصر يضحك ويقول: لقد سخر المؤلف ولكنه قال الحقيقة (أو قولًا من هذا القبيل).

وأذكر قصة لي ساخرة سمّيتها "ذقون في الهواء"، ألقيتها من إذاعة حلب، انتقدت فيها الموظفين المرتشين في دواوين القضاء، فطُلبتُ في اليوم التالي للتحقيق والمحاكمة، ونلت عقوبة الحبس عشرة أيام... لا تقلقوا، مع وقف التنفيذ! كان ذلك في ربيع ١٩٥٨. والقصة نشرت في مجلة "الشهر" المصرية (١٩٦٠)، وفي كتابي "حياة جديدة".

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٧-٩-٢٠١٨

في يوم من أيام العام ١٩٩٣

في يوم من أيام العام ١٩٩٣ (على الأرجح) كنت في زيارة للعالم الأديب الدكتور عبد الكريم اليافي في مقرّ "معجم العماد" (المشروع الذي كان، قبل أن يتوحّد مع مشروع مماثل)، لأضع بين يديه بحثًا يُنشر في المجلة التي كان يديرها باقتدار "التراث العربي" (عن اتحاد الكتّاب العرب).

وقد اتفق أن وصلت إليه ساعتها مادة للمعجم حررها الدكتور الشيخ عبد اللطيف الفرفور، فرأيت الأستاذ اليافي يُثني ثناء عاطرًا على كاتبها، الذي يُوافي المعجم بكثير من المواد الموسوعية الموثّقة، ويُبدي استحسانه لاسمه أيضًا.

رحم الله العالِمَيْنِ.

دمشق الشام: فجر السبت ٢٩-٩-٢٠١٨

ما أنجزته في هذا اليوم!

راجعت اليوم وعدّلت، في قصة سمّيتها "سيدات شارع الروضة"، فانتازيا تروي حكاية "بزور" زهر مزدرى به، ناضلت البزور حتى حققت النجاح. بعثت بالقصة إلى "صديقة" تقيم في القطب الشمالي، فالتبس عليها فهم المغزى (ربما بسبب البرد)، فلما أعادت قراءتها عبّرت عن إعجابها، أنها كُتبت بلسان تلك "البزرة" المناضلة وأن القصة مفعمة بالمرح. أفكر في إرسالها للنشر في إحدى المجلات الثقافية التي تصدر في الخليج.

نشرت اليوم ثلاث تغريدات، فيها كثير من الألم وكثير من الصمود.

وأعدت نشر تغريدة كنت قدمتها لكم في مثل هذا اليوم قبل خمسة أعوام: "بيتٌ.. يرفُل

بنعيم الكلمات"، استعارها موقع "بلا رتوش" فنشرها مصحوبة بصورة لي في حديقة بيتي أشرب القهوة الصباحية، في إخراج بديع. له الشكر.

في الليل جلست في الحديقة، وحفرت عشرين باذنجانة، استغرق مني ذلك أربعين دقيقة. تزورني غدا ابنةٌ بارّة تطبخها لي على نار هادئة!

تصبحون على خير.

دمشق الشام: ليل الأحد ٣٠-٩-٢٠١٨

أنا المواطن السوري فاضل السباعي

أرفض رفضًا قاطعًا أي مشروع لتحويل سورية إلى دولة دينية، كما أرفض أي مشروع للسيطرة على المجتمع السوري عبر المؤسسات الدينية أيًّا كانت دوافعها،

وأعلن رفضي القاطع لمشروع قانون وزارة الأوقاف الجديد،

كما أعلن أنني أؤمن بسوريا ديموقراطية علمانية مدنية، وسوف أناضل بكل ما أستطيع للوصول إلى هذا الهدف النبيل.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١-١٠-٢٠١٨

انت منين[1]؟

كنت أمشي في طريق سفر، أَقْطَعه سيرًا على الأقدام، أُشير للسيارات العابرة فلا تتوقّف لي.

ولحظة عطفت عليّ سيارة وتوقّفت، سألني سائقها وأنا أهمّ بالصعود: "انت منين؟"، ولم

---

(١) من أين أنت؟

أكد أجيبه حتى استأنف السير، وقد عَلِقَ ذِراعي في الباب...

وشحطتني السيارة مسافة قبل أن تتحرّر يدي، فأسقط على الأرض...

هذا ليس حلمًا، أيها الأصدقاء، إنه حلم يقظة.

دمشق الشام: الثلاثاء ٢-١٠-٢٠١٨، س ٣: ١٠ م

شقيقات

كنّ في الأسرة شقيقاتٍ ثلاثًا:

• كبراهنّ تزوجت بسرعة سريعة،

• الوسطى قام تفاهمٌ بينها وبين زميل لها في الجامعة على الخطبة والزواج،

• والصغرى في جامعتها... تنتظر.

الذي ساقته الأقدار:

• أنّ الأولى طُلّقت لغياب شرط التكافؤ في الزواج،

• وأنّ الثانية تركها الصديقُ الصّدُوق لاعتزامه مغادرة البلاد هربًا من خدمة العَلم في هذه الظروف،

• وأمّا الثالثة فقد تقدّم لها، بمعرفة الصديقات وعبر شبكة التواصل، مَن ارتاحت له والتحقت به زوجةً إلى ما وراء الحدود... وهي هناك تحزن لمعاناة شقيقتيها.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢-١٠-٢٠١٨

في الثمانينيّات

في الثمانينيّات، وكنت "المقرِّر" لجمعية القصة والرواية في اتحاد الكتّاب لأربع دورات متتالية (بالانتخاب وليس بالتعيين)، اتفق أن دعونا القاصّ (ع. ب) لدمشق ليقرأ علينا في اجتماعنا الشهري قصة ممّا يكتب.

حدّثني شقيقي الكاتب الروائي والناشر "نادر"، أنه اجتمع بأحد أعضاء الجمعية (ح. ح) على الغداء قبيل هذا الاجتماع، فرآه يتوعّد -وهو من الموالين- بأنه سوف يهاجم هذا الكاتب هجوما مرّا لأنه لا يروق له أسلوبه في القصّ، فحاسَنَه أخي القول: ولماذا تتّخذ من الناس خصومًا لك؟

عند المساء ألقى الزميل قصة... فامتدحها الرجل امتداحًا!

رحل الكاتب، ورحل بعده أخي... وهأنذا أروي، وأتساءل عن "أصالة" المواقف!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢-١٠-٢٠١٨

يطاردونني وأنا أجري

يطاردونني وأنا أجري

بدوتُ أسرع منهم

ألمِسُ بقدمي الأرض فأزداد سرعة.

ومن عجبٍ أني رأيتني أرتفع عن سطح الأرض،

أخفق في الهواء فأزداد ارتفاعًا،

أرى البيوت تحتي

المدن

الحقول

الجبال والأودية والأنهار

أحلّق عاليًا جدًا

لكن...

إلى أين أذهب!

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٣-١٠-٢٠١٨

وعملتُ "ترجمان محلّف" في باريس!

لست أدري كيف التقيت بها، ولا لماذا جاءت هي إلى باريس، تلك الفتاة السورية من أصول أرمنية، ما أتاح لها أن تنزل في "البيت الأرمني" أحد مباني المدينة الجامعية في عاصمة النور.

حدّثني صديقي "محمود" أنها دأبت على النزول إلى حديقة صغيرة قريبة من سكنها الجامعي، وزعم، مازحًا على مسمع منها، أنها ترغب في أن "تتصيّد" عريسا فرنسيا واضعةً حدًّا لعزوبتها. كانت فيها سُمرة الشرق، عربًا أو أرمينيّين، لطيفة الملامح والشمائل.. وبالفعل تقرّب منها شاب فرنسي اسمه "بيير"، ومن السلام إلى الكلام، فالتودّد... إنها حَوّاء التي تُحسن التصرّف بالغريزة!

كانت أسرة الشاب من البروفانس (الريف الفرنسي) القاطنين في باريس، وحيدًا لأمّه ولا أب له. لم توافق الأمّ على هذا الزواج، فهي تريد لابنها فتاة باريسية... ولكنّ الحبّ كان قد

وصل!

في بداية "العلاقة" عرّفتنا الفتاة عليه. واتفق أن ذهبنا -نحن الأربعة معًا- إلى مطعم عشية عيد الميلاد في ذلك العام (١٩٧٧)، وبصعوبة عثرنا على مطعم يفتح بابه لنا، فقد بدا أنّ معظمهم يُغلقون في تلك الليلة. وممّا أذكر أنه كان، في ذلك المطعم المتواضع، راقصة من أمريكا الجنوبية، إسبانية اللغة، تمرّ في الفواصل على الطاعمين، وتُغدق على أفواههم إن هم فتحوها، بحركة منها رشيقة، من وعاء بلّوري في يدها، شيئًا من... "الماء القراح"، ولا يتعدّى الإغداقُ حُلوقهم!

وتبيّنّا ونحن حول المائدة أنّ ليس في نيّة بيير أن يدفع فاتورة فتاته، وذلك حسب العادة الغربيّة، فرأينا -أنا ومحمود- أن نقتسم فاتورتها، إلا أنه لـمّا حان وقت الحساب شاركَنا في أداء الثلث.

كان بيير شابا وسيما ولطيفا، وقد تحوّل بعد ذلك اليوم وبالتدريج إلى محب ولهان. ما أعجبه فيها سُمرتُها الشرقية، ولكن ما أدهشه -حدثتْنا- أنها ما زالت... عذراء!

في تحضيره "الأوراق الثبوتيّة" لعقد الزواج في الكنيسة، كان يلزمه ترجمة وثيقة "القيد المدني السوري" إلى لغة بلاده. سأل، يأخذ الترجمان المحلّف على الوثيقة مبلغ كذا، استكثره، وعرف منهم أنه إن جاءهم بوثيقة مترجمة خالصة طجّوا الختم وتقاضَوا منه نصف الأتعاب، فسألَنا أن نتعاون -هو وأنا ومحمود- في الترجمة.

في البيت الأرمني، في غرفة الصبيّة، اجتمعْنا. بين أيدينا معجم "عربي-فرنسي". وبدأنا: الكلمة الفلانية بالعربية، نفتح، وإن كان للكلمة أكثر من مقابل بالفرنسية اختار هو المفردة المطلوبة، وفتاتنا السورية تُصَفِّق فرَحًا لمستقبل قادم.

في مطلع صيف ١٩٧٨ استأجر بيير بيتا في ضاحية Cachan التي أقيم فيها في سكن

حكومي (وأنا موفَد حسب الاتفاقية الثقافية ما بين بلدينا). دعانا لوليمة عشاء وليس لحفلة زفاف، يبدو أنه تعذّر عليه إقامتها. وبعد حين قريب غادرتُ عائدًا إلى الوطن، ولم أعرف شيئا عن الزوجين.

اسم الفتاة "هيلدا"، من مدينة "دير الزور" أو ما حولها، وصديقي هو "محمود موعد" الأديب الذي كان يحضّر للدكتوراه حول جانب من أدب نجيب محفوظ.

دمشق الشام: فجر الأحد ٧-١٠-٢٠١٨

حديث عن "فتح الأندلس".. في ليلة سمَر!

كاتبٌ، محتضَنٌ، جرى على الإساءة إليّ بمكتوباته النقدية وفي مجالس السَّمر التي يرتادها أيضا. هو في ملكوت حُظوَته، وأنا المطرود من جنّتهم، ولكني كنت أكيل له الردود المناسبة كلما أساء، حتى إنّ بعض أصحابي يقولون لي: أما تسكت على واحدة! وأدّعي أني رددتُه إلى شيء من آداب الكتابة، فقد اضطر يوما إلى أن يسألني المصالحة عبر وسيطين من تلامذته الكتّاب، مزكّاةً بدعوتي إلى وليمة يقيمها في بيته أصحب إليها مَن أحبّ من الأدباء، فاشترطت أن يأتي إليّ أولا يعتذر، كبُر عليه الأمر، فسكت ولكني ما استطعت السكوت على إساءاته الفكرية الجارحة. وبعد بلوغه السنّ أخذ يَذرَع أطراف الجزيرة العربية وقلبَها أيضا.

هل أطلت التعريف قبل أن أقدّم هذه السالفة عنه؟

في عاصمة خليجية اتفق اجتماعُ هذا "الأكاديميّ" في ليلة بلفيف من المثقفين، من بلدنا ومن الأشقاء العرب. جاء ذكر الأندلس، وإذا به يُزري بفتح الأجداد للأندلس، فهم دخلاء قد أُجْلوا بعدئذ عن إسبانيا، وكلام من هذا القبيل!

من سوء حظّه أنه كان بين السامرين قريبٌ لي (أحد أبناء أخوتي)، طبيب في العاصمة

هناك، قد أخذ بأطراف من الثقافة والأدب والتاريخ. راعَهُ أن يسمع هذا من أستاذ جامعي عربي قد بلغ الشيخوخة! فقام يتصدّى، مبيّنًا الفارق بين "احتلال" شعب لشعب وبين "الفتح الحضاري"، وتحدّث عما أنجزه الفاتحون من فنون المدنية والحضارة، بأيادٍ عربية ومغربية وكثيرٍ من أبناء البلاد الأصليين الذين دخلوا الإسلام وتجمّلوا بقيمه، قد يكون أشهرَهم أديبُ الأندلس الكبير وفقيهها "ابن حزم"، ودافعوا عن أندلسهم في مواجهة الممالك المسيحية في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)... وأخفق الأكاديمي في الدفاع عن وجهة نظره أو التنصّل منها.

لم تنته السالفة.

انفضّ في آخر الليل الاجتماع. وكأنّ بعضهم همس في أذنه بأنّ المتصدّي له يكون "ابن شقيقة السباعي!"، فأُسقط في يده، وتعرّف على رقم هاتف الطبيب، وما نام في ليلته إلا بعد أن هتف إليه معتذرا عن رأيه... في فتح الأندلس!

رواها لي، في حينه (قبل نحو عشرة أعوام)، ابن شقيقتي الطبيب الناجح في تلك العاصمة، ولم يكن يعرف ما تلقّى خالُه من إغارة هذا الأكاديمي على عملين روائيين له هما "الظمأ والينبوع" و"ثم أزهر الحزن".

دمشق الشام: ليل الاثنين ٨-٢٠-٢٠١٨

سَلَطة من يدي.. وسَلَطة "ألزاسيّة"!

لا أشكّ في أني أوجعت قلوبكم، أصدقائي، بما قدّمت هذا المساء من شؤون الوطن وشجونه. فاسمحوا لي أن أُسرّي عنكم قليلا بالحديث عن العشاء التي أتيت منه الآن وهو من صنع يدي.

سلطة تتكوّن من: حبّة بندورة، وخيارة صغيرة، ومفروم الملفوف، ونعنع أخضر، وبصلة، وفليفلة حارة ناعمة، وحبّات من زيتون منزوعة النوى، وعصْرة ليمونة مع يسير من خلّ، وشيء من الجبنة البيضاء أفرمها.. أرشّ على ذلك قليلا من زيت الزيتون الإدلبي (وإدلب اليوم وضعها ما تعلمون)... ويكون التناول غمسًا بالخبزة!

حديثي عن سلطة العشاء هذه الليلة ذكّرني بصديقنا في سهرة "أصدقاء التجهيز" الشهرية (في مطعم نادي الصحفيين بطلعة العفيف بدمشق) الذي كان يتولى فيه صديقنا "بشير" العناية بالمائدة، ما يُطلب وما يؤتى به. وقد لاحظت مدى عنايته بأمر السَّلَطة، يوصيهم بأن تكون مفرومة هذه الساعة لا قبلَ وقت وإن قصُر، ويَفحص، فإن خالفوا شَيّلهم ما وضعوا. وكان صديقنا "بشير الموصلي" المحامي (الحمصي الأصل) هو مَن يتولى قسمة الفاتورة على الطاعمين. غادرَنا عام ٢٠١٣، وقد بدأت الحرب تفرّقنا، رحمه الله.

الحديث عن هاتين السَّلَطتين يذكّرني بسَلَطة ثالثة. في ربيع ٢٠٠٩ كنت في المملكة المغربية للمشاركة في مؤتمر تاريخي بمدينة "الحُسَيمة" (في بلاد الريف شماليّ المملكة). دُعينا قبل الحسيمة ونحن في مدينة "تطْوان" (بلاد العُرب أوطاني... ومن مصر لتطوانِ!) لعشاء في مطعم، فقدّموا لنا أولا كميات من السلطة الشهيّة، ما لاحظته أنّ من بين مكوّناتها الفاكهة (قطعاً من البرتقال والموز...)، وقد وجدتها -مع جِدّتها عندنا- سائغة.

وهناك في الذاكرة تقبع سَلَطة رابعة. في شتاء ١٩٧٨ وأنا في باريس، كنا نتناول نحن الموفدين غداءنا في أيام الدوام في "الكانتين" التابع للمؤسسة التي نعمل فيها، نأتيه على ورديّتين، عند الساعة الثانية عشرة تليها الأخرى عند الساعة الواحدة. مرة أعلمتنا كبيرة العاملات في المطعم أنه سوف يَتْبع وجبةَ اليوم "سَلَطةٌ ألزاسيّة" (نسبة لمقاطعة "الألزاس" التي كان قد طال النزاع عليها هي و"اللورين" بين فرنسا وجارتها ألمانيا)، وظللتُ أثناء الطعام

أتخيّل هذه السَّلَطة، إلى أن دارت النادلة علينا بأن تضع في طبق كلّ منّا شيئا من سَلَطة الخضرة، فضحكت في سرّي: إنّ أيّ واحد في بلدي يأكل في وقعة واحدة خمسة أمثال هذا القدر المسكوب في طبقي. نعم، بلادنا للخضرة الوفيرة، وبلادهم للحم.

ويجدر بي، وقد استرسلت في الحديث عن السَلَطة، أن أشير إلى أصل هذه المفردة. هي من التركية، التي استمدّتها من الإيطالية salata، ومعناها هناك "المُملّح" من sel، وكان الرومان يحفظون الخضراوات بالخلّ والملح ويسمّونها salad. وتلفظ السلطة عندنا بالصاد "صَلَطة. ويقول الأسدي في موسوعته إنهم في شمال المغرب يسمّونها: الشُّلاض. وهي بالفرنسية salade.

أظنّ أنّ بعض الأصدقاء الذين يقرؤون هذا الآن، قد يقوم يعمل سلطة على طريقتي، فإن كان تناول عشاءه أبقى التجربة لمساء غد.

وكونوا، أصدقائي، بخير.

دمشق الشام: ليل السبت ١٣-١٠-٢٠١٨

قد جاء الخريف، يا أحبّتي!

أمس، وأنا أَقِيل، أحسست بماء يَرُذّ من فوقي. ظننت للوهلة الأولى أنّ المطر الغزير الذي بالأمس داهم دمشق وغنّت له الميازيب، قد بلغ غرفتي.

نهضت. رأيت الرَّذاذ يتحوّل إلى هطول، بلّلَ سريري والوسائد واللحاف، مرتشقًا على اللوحات الزيتية (من عمل ابنتيّ) المعلَّقة على الجدار. فلما رأيته يطول أوراقي الشخصية في صناديق كرتونية تضمّ أدبا كتبتُه ورسائل تلقيت وأرسلت، قمت متحاملا على نفسي أنقل أولّها خارج المكان، وإذ عدت لأتابع وجدت الهطول قد توقف. ولكن ما لم يتوقف هو تفكيري من

أين يأتيني البلل وأنا في غرفة نومي!

عند المساء استنجدت بأحد الجيران ليساعدني في النظر بهذه المشكلة. وإذ حددت له الساعة التي كان فيها ما كان، بيّن أنّ الجيران في المبنى المجاور كان عندهم في تلك الساعة من يغسل الدرج، وانتهينا إلى أنّ في موضع ما من درجهم الملاصق لغرفة نومي لا بد تشقّقًا تسرّبت منه المياه!

كان في الطابق الأول من المبنى مدرسة، يعلوها طابقان من أربعة بيوت، تسكنها أسرٌ بيني وبينها ودٌّ جميل أو حياد هادئ، إن سألتهم غدًا أن يصلحوا الخلل، استجابوا مع تلكّؤ قد يبدر من بعضهم فتعود المياه تتسرّب. ففضّلت أن ألتجئ إلى "البلدية" الفرعية في "الجسر الأبيض" عندنا، ألتمس الكشف والتأكد واقتراحهم المبادرة إلى الإصلاح، وإن كان الجيران يجهلون القيمة التي أمحضها لأوراقي الغالية.

وهناك عرفت أنّ مَن يدير تلك المؤسسة سيدةٌ من مهندسات الوطن. قدّمت لها نفسي، كاتبًا وشيخًا في التسعين ربيعًا يعيش وحيدًا في بيته بعد أن تفرّقت الذرية في الآفاق. فكان جوابها أن أوعزت بأن يرافقني إلى المكان مهندس يقوم بوصف الحالة الراهنة.

واتفق أن كان مَن رافقتُه إلى البيت مهندسةً أخرى من بلادي. دخلنا البيت، عاينت، رأت البلل في اللحاف والوسائد، والصناديق الناجية. وبقي عليها أن تقوم بالكشف على الموضع المُسرّب للماء.

هل استرعى انتباهَها المدخلُ إلى بيتي بدرجاته العشر، واللبلابُ المتعرّش والمتدلّي، والبابُ العتيق، وأوراقُ الخريف التي ألقى بها المطر؟ استأذنتْ في أن تصور! فتلك صورة استحسنتها الشابة في رهافة حسّها. فأطمعني ذلك بأن أطلب منها صورة وأنا أقتعد درج

الخريف.

أعرف أني بدأت بالرذاذ في غرفة النوم... وانتهيت عند هذه الصورة التي تنادي: قد جاء الخريف، يا أحبّتي!

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ٢٣-١٠-٢٠١٨

مونة المكدوس

اعتذرت الأسرة الصديقة عن أن تُعِدّ لي مؤونة "المكدوس" لهذا العام، و"بيت بلا مكدوس لا مؤونة فيه! "، فاضطررت إلى أن "أوصي" أسرة ثانية وثالثة، وما حلّ هذا الشهر (تشرين الأول) حتى أخذت مقادير من المكدوس تتوارد إليّ فأوشكت أن أستنفد ما عندي من الأوعية، فعمَدتُ في آخر ما تلقّيت إلى أن أكدّس تلك الباذنجانات الصغيرة، التي سُلقت وحُشيت بالفليفلة الحمرا والتوم والجوز، في الوعاء تكديسا كنت فيه أكبسها قصد الاستيعاب، ثمّ بزيت الزيتون أغرقت، وأغلقت، وفي الخزانة أودعت.

بعد أيام استفقدت ذلك القطرميز، وإذا المكدوسات المضغوطة فيه قد استمدّت من الزيت الشامي ما جعلها تزداد حجما... فطفح الزيت من فم الوعاء منساحا.

جاءني ليلة أمس صديق من المحامين، ما زال يُطلّ عليّ في هزيع من الليالي، فشكوت له أمري، فتهمم الشاب وتولى إخراج الوعاء الملتاث وإنقاصَ ما فيه، والمسح والتلييف وغسل البلاط... وهو يحدثني عما كتبتُ في نهاري من زيارة تلك الصديقة وابنتها "لَيان"، مبديًا استحسانه لهذه التغريدات التي تدخل صميم الحياة اليومية. وسألني عند انصرافه، عن الوقت الذي نحن فيه، فأجبت بأنها الثانية بعد منتصف الليل، فأشار عليّ بأنّ أُؤخّر ساعتي ستين دقيقة!

أقول لكم: إنه قبل أن يمضي مال عليّ يهمس: "إذا بدّك تكتب في صفحتك عن زيارتي هذه.. فلا تذكر اسمي"!

وغادرني وقد أعاد إليّ إحساسي بالنفي وأنا في قلب الوطن.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٢٦-١٠-٢٠١٨

شارع ذو أشجار وارفة الظلال

ظلّت "التوصيلة" بالتكسي زمنًا طويلا بليرة سورية واحدة، في دمشق وحلب، للمشاوير المعتدلة، وكان تماديًا منهم أن زادوا عليها في الستينيات ربع ليرة. ومن طرائفهم أنك إن ركبت وبرفقتك أحدُهم والتمستَ من السائق أن يتوقف على الطريق لينزل صديقك، حاسبك على أنّ المشوار أصبح مشوارين.

وفي أواخر أيام الوحدة أُخِذ بالعدّاد كما هو الأمر في مصر قبل ذلك بزمن، فتضايق سائقونا، فلما انفرط عقد الوحدة تمرّدوا، وغضّت الحكومة النظر... إلى أن عاد العمل بالعداد في السبعينيات.

رأيت موضع العداد في مصر خارج السيارة إلى اليمين، وعندنا في داخلها أمام السائق الذي قد ينزل به إلى ما تحت. حدثني صحفي خفيف الظلّ له مع السائقين مواقف نادرة، أنه دخل مرة سيارة فلم يجد عدادها، فسأل ليتأكد من "تصفيره"، فأشار السائق إلى منخفض أمامه ونزع بشكيرا ذا اتساخ فظهر العداد وكأنه خجلان، فسأله صاحبي: هل هو "عورة" تسترها؟ قال: حتى لا يتغبّر!

مع اندلاع الحرب في بلدي توقف العمل بالعداد، وعدنا إلى "المفاصلة". وحكايتي الطريفة معهم أنّ الشارع الذي أسكنه يتميّز بأشجار على الطرفين وارفة الظلال... وعندما

أنزل يطلب السائق مني مبلغًا أكبر!

في فلوريدا حيث كنت، التوصيلة بدعوة عبر الهاتف (٣٥$)، ولكن الناس معظمهم يركبون سياراتهم الخاصة.

دمشق الشام: ليل الأحد ٢٨-١٠-٢٠١٨

كانت وهي طفلة

كانت وهي طفلة ترى أباها يلبَس اللباس الواقي من لَسَعات النحل ويتعامل مع المناحل في مزرعته. ولكنه لم يستطع أن يتفادى "لسعات" القصف الجوي.. فاختفى لا يعرفون له أثرا..

مرّت في العاصمة من أمام محل يبيع تلك الملابس الواقية، أقبلت تعانق النموذج المنصوب على الباب، بحرارة، لعل أباها الغائب كامن فيه!

أيها السوريون.. إلى أين يَشُطّ بكم الخيال في أيام الشام الحزينة؟

دمشق الشام: عصر الأربعاء ٣١-١٠-٢٠١٨

ولم أقرأ عليهم محاضرتي!

حلمت صباح هذا اليوم أني جالس بين جماعة من المثقفين قد جاؤوا ليستمعوا إليّ أحدّثهم عن رحلة العودة إلى الوطن قادمًا من منفاي الاختياري. وكنت محوطًا بالمحبّين الذين يعبّرون عن فرحتهم بعودتي وسرورهم بسلامتي.

ما استرعى انتباهي أنّ بعض الشباب والشابات كانوا يُقبِلون عليّ مصافحين بحرارة، وبعضهم يُقبّل رأسي ووجهي وكتفي وينحني بعضٌ على يدي، وأنا خجلان، ومَن حولي يقولون: "إنهم يحبونك، وقد طال انتظارهم لرؤيتك وسماع صوتك! "، أسمع هذا وأتذكر أنّ

السُّلطة لا تُبدي أيّ ارتياح لي... وهل قلت إنّ الشباب كانوا يلتقطون الصور وهم ملتصقون بي؟

لحظة صَعِدت إلى المنبر تفقّدت نفسي فتبيّنت أني نسيت نظارتي، وسرعان ما أحضروها لي! ولما وضعوا أمامي أوراق المحاضرة رأيت الحرف صغيرًا تصعب عليّ قراءته، فأسرعوا يعيدون طباعة الورق بحرف أكبر، يأتون إليّ بالتجارب ويسألونني: كويّس هيك؟ هنا خطر لي أن أكون في حلم!

قدّمتني للجمهور أديبة حلبية، فقالت بحقي كلامًا طيّبًا، ولكنها أشارت -وهي التي عاشت طفولتها في أحياء حلب العريقة- أنها لا يرضيها مني أن أردّد أحيانا أن جدّي قد جاء من حمص إلى حلب أيام السفر برلك، تريدني أن أكون حلبيًّا خالصًا!

لما بدأت الكلام، شكرت الزميلة على تقديمها، مؤكدًا أنّ جدّي الأقرب جاء من حمص وبرفقته أولادُه وبينهم أبي الذي كان في الثامنة من العمر، واستدركت أني أنا حلبي، وُلدت في "زقاق الزهراوي"، الذي كان قد سكنه في الماضي البعيد عاملُ حلب "سليمان بن عبد الملك"، وقد تهمّم لبناء الجامع الكبير متأسّيا بأخيه "الخليفة الوليد" في بنائه الجامع الأموي بدمشق... فرأيت الحاضرين يَطرَبون لهذه النبذة التاريخية.

بعدئذ أخذت أعتذر عن أنّ صوتي لم يعد يَسرّ السامعين، وحدّثتهم عن أنّ الرجل في شيخوخته يعتري صوتَه ميلٌ لأن يكون أشبه بصوت العجائز وأن العجوزات تصبح أصواتهنّ أقرب إلى الرجال الطاعنين، فرأيت علامات الاستفهام تظهر على الوجوه، ثمّ رويت لهم نكتة أعرفها منذ كنت صغيرًا: سيدة شابة كان صوتها خشنا مثل صوت الرجال، فكانت لهوايتها للمرح تستفيد من ذلك، النكتة أنها تعرّفت مرة على سيدة شابة، واستدعى الأمر أن تهتف لها

في اليوم التالي، فطلع لها ابنُها الفتى، سألها: من أنتَ؟ وهو يظنّها رجلا، فأجابته: "أنا عشيق أمّك! "، فطار عقل الولد، وذهب إلى أمه، التي ابتسمت وأعلمته أنها سيدة، وأنها مرحة قد تعرّفت عليها يوم أمس!

ولحظة تناولت الأوراق، ذات الحروف المكبّرة، لأبتدئ بالقراءة... استيقظت.

ويؤسفني أني أسمعتهم هذه النكتة البايخة، وحرمتهم من سماع محاضرتي عن رحلة العودة إلى الوطن.

دمشق الشام: ضحى السبت ٣-١١-٢٠١٨

لغتنا-الأمّ.. على أمواج الاغتراب

في شتاء ١٩٥٧-٥٨ زرت بيروت، ورافقت أديب حلب الكبير خليل الهنداوي في زيارة "للشاعر جورج صيدح" في بيته.

سمعت شكوى جرت على لسان الكاتب المَهْجَرِيّ الكبير: أنّ ابنته -وأظنّها الوحيدة له- التي تربّت في المغترب، غير معنيّة باللغة العربية... عبّر عن هذا عرضًا وهو يشير إلى طاولة صغيرة تعلوها مجلات شتى، تصل إليه بالبريد ولا يُرحّلها من هذا الموضع إلا بعد تصفّحها واحدة واحدة كما قال! ولم تكن هذه المشكلة تأخذ حيّزا في بالي وأنا أعيش بحلب وادعًا مع صغاري.

وما أذكره أني تشرّفت بأن أبعث إلى هذا الرجل الكبير بمجموعتي القصصية الأولى "الشوق واللقاء" (التي طبعتها عامئذ في مدينتي)، وكان أن أتحفني بنسخة من كتابه الجليل "أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية". رحم الله شاعرنا الغيور على لغته العربية، (من مواليد ١٨٩٣- ١٩٧٨).

بعد ذلك، وفي خريف ١٩٦١ وأنا بالقاهرة، قرأت في جريدة "الأهرام" أنّ "الدكتور أحمد زكي" جاء بلده في إجازة قادمًا من الكويت حيث كان قد أسّس وأدار مجلة "العربي" الزاهرة، فأحببت أن ألتقي به، حملني على ذلك أني كنت كتبت له يوم اطلعت على العدد الأول من هذه المجلة، أعرض أن أُعدّ لها "استطلاعًا" عن مدينتي حلب على غرار ما رأيت فيها من استطلاعات متميّزة، فكتب لي -ولم يكن قد وصل إلى سمعه اسمي وأنا في مطالع الشباب- بالموافقة، مستدركا أنّ المجلة لا تتحمّل تبعةً فيما لو اعتذرت عن النشر! ومع ثقتي بالنفس والتطلّع إلى أمام أقبلت على الكتابة، فلما تلقى منى لم يُبدِ رضًا بما بعثت وحسب بل أوفد "فريق عمل" (كبير المحررين ومصور المجلة) إلى حلب ليصورا بالملوّن -حديث العهد- كثيرًا من العناصر التي أتى الاستطلاع على بيانها، وأذكر أني صحبت الرجلين إلى بيت ذرّية عبد الرحمن الكواكبي، وإلى متحف حلب حيث كبير الخبراء في الآثار يومذاك صبحي الصواف، والتُقطت كذلك صور لفرقة مدرسية وهي تؤدي رقصة السماح.... فكان إنجازٌ لثلاثة موضوعات تتعلق بحلب نُشرت مع استطلاعي تباعًا.

أقول بعد هذا الاسترسال: إني توجّهت في ضحى ذلك اليوم إلى عنوان الدكتور زكي في "ضاحية المعادي"، بعد اعتمادي موعدا بالهاتف، وكان تعارفٌ شخصي بيني شابّا وبين الأديب- العالم الذي كان تولى رئاسة جامعة القاهرة وأنا فيها بكلية الحقوق (العام الدراسي ١٩٥٣-٥٤)... وأيضًا سمعته -وهذا هو المقصود من روايتي هذه- يشكو من أنّ ابنته، الوحيدة، غير معنيّة بالعربية التي يجلّها كاتبنا الكبير. رحمه الله تعالى (من مواليد ١٨٩٤-١٩٧٦).

وتمرّ الأيام والسنون، أيها الأصدقاء...

وإذا بالسوريين المهجّرين من وطنهم اليوم، الموزعين في أنحاء العالم، باتت ذراريهم

مهدّدة بلغتهم القومية، بلغة-الأمّ، ابتعادًا وهجرانا... ولا أستثني من ذلك نفسي: أحفادي في القارّات يَرطُنون بالعربية، آخرهم حفيدي "فاضل الصغير"، ابن السنوات العشر، تخاطبه أمّه بالعربية، يفهم ويستوعب، ولكنه لا يستطيع الإجابة إلا بالإنكليزية!

فماذا فعلتَ بأهل بلدي، أيها النظام!

دمشق الشام: مساء الأحد ٤-١١-٢٠١٨

عند تشييد مباني كلية الآداب

في صيف ١٩٧٢ (وكنت حينئذ موظفا منقولا من المكتب المركزي للإحصاء إلى الإدارة المركزية بجامعة دمشق) تناقل موظفو الجامعة خبرًا عجيبًا: أنّ سيارة نقل اقتحمت المباني حيث كانت تُشيّد كلية الآداب الجديدة (إلى يمين الداخل أول أُوتستراد المزة)، ونزل رجال أشِدّاء بلباس عسكري حملوا ما تيسّر من حُزَم الحديد وأكياس الإسمنت، على مرأى من الحارس الذي لم يفعل إزاء ذلك إلا أن نقل الخبر إلى رؤسائه في الصباح وشاع بيننا.

وعلمنا أنّ رئيس الجامعة (وكان الدكتور شاكر الفحام)، قد وَجَم قليلاً عند تلقيه الخبر، ثمّ -قالوا- أخذ سماعة الهاتف وتكلم مع جهة مهمّة... وما لبثت المنهوبات أن عادت.

ثمّ قيل: إنّ كبيرًا في سرايا الدفاع احتاج إلى هذه المواد، فأرسل من جاء بها، ثم بعد المراجعة استحيا وأعاد.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٥-١١-٢٠١٨

ومن عجبٍ أنّ الخائف يَبطِش ويُبيد.. والمُخيف يتشرّد!

أمس كتبت التغريدة: "وتعيش الأقليات مع الأكثرية الافتراضية منذ ١٤ قرنًا من عمر

الزمان.. فكيف تَفتّق الذهن عن أننا نريد الفتك بهم في مطالع القرن الـ٢١! "

فعلّق صديق حميم، بأنّ الشعور بالخوف لدى شرائح من مجتمعنا نتج بفضل "الفكر الوهابي" وتنظيماته المسلحة، وأخذ يعدّد: "تنظيم الدولة الإسلامية/ داعش"، "جبهة النصرة"، "جيش الإسلام"، "جيش السنّة"، "فيلق الرحمن"، "استقم كما أمرت".... والقائمة تطول...

فكتبت: لكن اتهامنا، يا صديقي، جاء قبل ظهور هذه الفئات التي عددتَ، وهي التي أطلَق النظامُ سراح قادتها من سجونه ليفعلوا، وليقول، ولتصدّق أنت حتى إنك تكتب هذا وأنت الواعي كما أعرفك!

فقال: أنا لا أدافع عن النظام وطريقة مواجهته للتحرك، وانما صَبْغ التحرك الشعبي بصبغة دينية متشددة زرعَ الرعب عند بعضنا -لا أستخدم أقليات وأكثرية لأننا شعب واحد والدين علاقة بين الإنسان وربّه لا شأن له بالسياسة. العلويون في معظمهم فقراء وكانوا ناقمين، ولكن لما رأوا طبيعة هذه الثورة وشعاراتها التفّوا حول النظام، ومثل هذا مع الطوائف الأخرى. ولعلك تعلم أكثر مني أن "الاستبداد الديني" أسوأ بكثير من "الاستبداد العسكري". كنت أتمنى أو أحلم بتحرك شعبي ديمقراطي علماني مع الحريات وضد الفساد، ولكن للأسف ما عرضوه علينا كان بضاعة فاسدة ممولة من أمريكا وخَونة العرب.

فقلت: منذ البداية كان هتافنا للحرية، تحمَّلَنا النظام نحو عام، القمة لنا كانت في التجمع بحماة (٨٠٠ ألف نسمة سلميّا).. إلى أن عمد النظام إلى أن "يُؤسلم" الانتفاضة بأن يطلق سراح المتأسلمين من سجونه ويطلقوا "داعش" -التي تعاونت على إنشائها مخابرات دولية وساهمت فيها مخابرات في المنطقة (حتى هذه تحسبها علينا!)- وأُخْرِجنا نحن من المعادلة، وصرنا نسمع

أننا "ننوي الفتك بالأقليات" وأننا "وهابيون"، وذلك ما لم نسمع به أو نعرفه من قبل، وكانت الحصيلة، يا صديقي، مليون ضحية (ما بين شهيد في السجون ومعتقل ومعوّق ومَن ينتظر).. على حين أن الأقليات لم يمسسها سوء. وانظر إلى الأحياء والمدن التي أبيدت، وإلى الملايين السبعة النازحين من بيوتهم والملايين الستة اللاجئين وراء الحدود.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٠-١١-٢٠١٨

في القيلولة

وجدتني أقف في الباب المطلّ على حديقة بيتي الصغيرة، وفيها انتشر رجال ونساء أَمْنِيّون جاؤوا لاعتقالي. قاومت وحيدًا، وقد لاحظت أنهم لم يكونوا جادّين في اقتلاعي من مكاني، فقط أن يُخيفوني فأمتنع عن القول.

عَمَدوا إلى أن يُقدّموا نحوي النساء الأَمنيّات، والأطفال فهم يعرفون أني أحبّ زهرات الوطن الذين عليهم الاعتماد. كانوا في هجَماتهم المتوالية حريصين على ألا أموت بين أيديهم فأتحوّلَ إلى "شهيد رأي"، ينجذب إليه الناس ويزداد عدد القراء يتأثرون بأقوالي.

ظللت في الباب أتحدّاهم، يحاولون بثّ الرعب في نفسي. أنظر إليهم في صمود ويرسلون إليّ النظر في تخويف.

دخلت مكتبي.

يلاحقونني حتى في قيلولتي الشَّتوية. تمنّيت من القهر لو أبكي طلبًا للراحة النفسية، ولكنّ الدمع عصى.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٠-١١-٢٠١٨

عصفور.. تحت المطر

في شتاء ١٩٤٣-٤٤، ونحن طلاب في القسم الإعدادي في ثانوية المأمون بحلب، أذكر أنّ أستاذ العربية وقتئذ "عبد الحنّان حلوة"، أعطانا وظيفة إنشاء (تعبير) أنْ نَصِف عصفورا وهو تحت المطر.

بعد أيام جاءنا أستاذنا بنصّ كتبه تلميذ في الشعبة الأولى ونحن في الثانية، اسمه "شاوول" (بيته يطلّ على مبنى المدرسة من الناحية الشمالية، ولم يكن يداوم يوم السبت لأنه من أبناء الطائفة اليهودية)، يَقْرَؤه علينا لنتعرّف على موضوع مكتوب بشكل جيد، وقد أعجبَنا بما كتب زميلنا، وتمنّينا نحن التلاميذ الصغار لو نبلغ هذا المستوى من حسن التعبير.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢٠-١١-٢٠١٨

التطميسة.. في يوم بارد

في أيام بعيدة كانت أيدينا تتزاحم فوق "المنقل" في دارنا العربية الطراز في "زقاق الزهراوي"، ونختلف نحن الصغار مَن تكون يداه أكثر استمدادًا للدفء. لم نكن نعرف، في ثلاثينيّات القرن الماضي، المدفأة من حطب أو من وقود سائل. وكانت الأقدام أيضًا تتزاحم وتتعانق وهي في "الطشت النحاسي" يملؤه الماء في أيام الشتاء، تَصبّ فيه أمُّنا من إبريق قد سُخِّن ماؤه على "موقد الكاز"، فلم نكن نعرف موقد الغاز. تكرر ذلك كلّه في عمر أولادي وهم صغار.

أمس أحسست وعكة برد، فأتى ابني بعدّة التطميس، طشت بلاستيكي، تحته مَدّة، وإلى جواره إبريق صيني يُسخَّن ماؤه بالكهرباء. ثمّ شاء أن يفرك القدمين بليفة نباتية، فأحسست

كأنه يدغدغني وأنا أقول: بس يا ولدي! ويجيبني: حتى يتحرّك الدم في العروق! ثمّ بمنشفة جَفّف... فاستدفأ الجسد كله.

أنا الآن في طريقي إلى النوم مُدفّأً. تصبحون على خير. قد كتبت اليوم لكم وافيًا، أيها الأصدقاء.

دمشق الشام: منصف ليل الثلاثاء ٢٠-١١-٢٠١٨

حوار على باب جزّار في القاهرة

في طفولتي أعرف أنّ أسرتي والمحيطين بنا يأكلون "لحم الضاني" (الضأن، الخراف) يشتريه أبي من "السقَطِيّة" في "سوق المدينة"، وأعرف أنّ مسيحيّي حلب يُزاوجون في طعامهم بين لحم الضاني والعجل، على حين يأكل بعض الشعبيين في البلد لحم الجمل؟

وعندما نزلت القاهرة في العام ١٩٥٠ طالبًا في جامعتها كنت أسال عن "الضاني"، الذي بدا أنه قليل في "حيّ الدُّقي" الذي أسكن. وكنت أذهب من بيتي في "شارع عبد العظيم باشا راشد" قاطعًا "شارع نوال" وأدخل "شارع سليمان جوهر"، وبعد الساحة التي تتوسط هذا الشارع تعرفت على "جَزّار"، أشتري منه الضاني مع ما أرى من "لحم البتلّو" (العجل) المعلق في مدخل محلّه. وأذكر أني سألته أول مرة: "عندك لحم ضاني؟"، فأدرَكَ من سؤالي ومن هيئتي أني غريب، فقال: ايوه! وأخرج قطعة لحم جيدة كانت مخبّأة قريبا من يده وقدّمها لي على أنها لحم ضاني، وصدّقت، وجريت على أن أشتري منه الضاني ممّا يخبّئ عنده. بعض الأصدقاء من المصريين نبّهني إلى أنّ الجزار الذي يبيع البتلّو لا يكون عنده ضاني، وما كان لي أن أعلم هذا، للغربة ولحداثة العهد بأن أكون رب بيت.

وسألت بوّاب العمارة التي أسكن، الصعيدي اللطيف "العمّ سْليم" في ذلك، واتفقنا على

أن أُطلعه على ما أشتريه في المرة القادمة، وكان أوقيةَ قِطَعًا ومثلها مفرومة. لما وقعت عينه عليها أسرع يقول: "ده بتلو يا بيه! "، فعدت إلى الجزار غاضبًا.

أذكر أنه كانت عنده، تلك الساعة، عجوز تشتري. لمّا سمعت الحوار بدا أنها أشفقت على هذا الشاب "الشامي" الغاضب، فسألتني: انت عايز تطبخ باللحمة ايه؟

قلت: من هذه الناعمة محشي بادنجان!

فأسرعت تقول ناصحة بطيبة بنت البلد: الضاني بدوب في المحشي يا ابني، خد البتلو أحسن!

من يومئذ تعرّفت على لحم العجل الذي كنت أجهل، واستسغته في كثير من المآكل، ولم أعد أطلب الضاني إلا لبعضها، مثلاً اللحمة المشويّة على نار هادئة مع البصل والبندورة... تلك التي تقدمها لنا مطاعم اليوم لحمًا أحمر تبدو للعين قطَعُه مكعّباتٍ متساوية في الحجم، فكأن كتلة الهبرة الحمراء تقطعها آلةٌ صمّاء!

دمشق الشام: عصر السبت ٢٤-١١-٢٠١٨

قلت لهم: لماذا تتقاتلون وأنتم الأسرى!

رأيت أني في معتقل، وقد خرجنا من زنزاناتنا للتنفّس وقفت في الساحة جانبًا، كان بجواري حوارٌ بين جماعة، ومن عجبٍ أني أسمعه باللهجة الفلسطينية.

ارتفعت أصوات المتحاورين تبيّنت أنهم ما بين "يمين" و"يسار". احتدم الحوار حتى رأيتهم يوشكون أن يتماسكوا بالأيدي، بل إنهم تشابكوا... فوجدتُ نفسي وصوتي يرتفع بقوة:

ـ بااااااس! [1]

وإذا الأصواتُ تَنْقطع، ويلتفت الجميع نحوي.

أخذت أقول بصوت باك:

ـ لماذا تتقاتلون وأنتم الأسرى؟ أما يكفي أنّ السجن يجمعكم، يجمعنا؟ ألسنا كلنا مضطهدين، مهانين، مسروقاً منا الوطنُ والحبّ والحياة؟

وتهاطلت دموعي مدرارًا، وانهار الجسد، فأسرع اثنان يمسكان بساعديّ فأتوكّأ عليهما ثمّ أتهاوى على الأرض.

تَحَلَّقوا حولي، وسمعتهم يتساءلون كيف يكون هذا "السوري" بينهم في معتقل إسرائيلي!

فرفعت وجهي إليهم أقول:

ـ كلّنا في الاعتقال!

واستيقظت...

وتوجّهت إلى حيث أتزوّد بنظرات جديدة من محيّا ذلك الأسير في صورتَيه، يوم اعتقله الأعداء وهو ابن تسعة عشر، وصورته اليوم وهو في الثانية والستين..

دمشق الشام: صباح الإثنين ٢٦-١١-٢٠١٨

ذات يوم أَحرقت قذيفةُ كتبي!

كتبت قبل قليل أردّ على تعليقه:

كنت قرأت من أربع سنوات أو خمس، بيانا لعارف بالأمور يروي أن أصحاب المعامل

---

(١) بَسْ: كَفَى. وهي موجودة في معاجم اللغة بمعنى: حسبُ.

بحلب فكّكوها ونقلوها إلى الساحل وأقلعت بالعمل هناك. سمّى المعامل بالاسم.

تماما كما فعل أصحاب الدكاكين في سوق العطارين بحلب وكل "سوق المدينة"، قاموا في ليلة ما فيها ضو قمر ونقلوا كل شيء.

أصحاب المال لا يتركونه داشر[1]، يا صديق!

بيوت داريا ظلت غير منهوبة إلى أن انسحب المقاتلون، فدخل الشَّبِّيحة يملؤون سيارات النقل، ومنهم الحلاق الذي بكى عَلَنًا واستبكى الناس ليؤيّدوه.

الغوطة الشرقية ظلت بيد المقاتلين زمنا. نزلتْ يوما قذيفة على معمل فأحرقته، وإني مودِعٌ فيه مجموعات نفيسة من مجلات ثقافية كاملة، مجلدة ومذهّبة ومعبّأة في كراتين نظامية، وكذلك نسخًا كثيرة من كتب ممّا نشرتُه في دار إشبيلية الخاصة بي، احترقت وهي كلّ ما أملك من مال! وليس لنا أن نظن أنّ المقاتلين أطلقوا تلك القذيفة على ما هو تحت أياديهم!

وما كنت لأبرئ المقاتلين مما يفعلون. إنها الحرب المدمّرة.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٨-١١-٢٠١٨ س ٧:٣٠ م

وكان زكي الأرسوزي...

وكان زكي الأرسوزي (من ١٨٩٩-١٩٦٨)، القادمُ من لواء الإسكندرون إلى وطنه الأم، يتّخذ، في ستينيّات القرن الماضي، بيتًا له متواضعًا في منطقة "الشَّعلان" بدمشق (قبل أن يقتحمها شارعُ الحمراء)، وقد نأى بنفسه عن الإسهام في الحكم، يرتاد المقهى أو يفتح بيته للزوّار من شباب الحزب والطلبة والأدباء، يأتون إليه -كما حَدَّثني إحدى الكاتبات الشابّات

---

(١) داشر: متروك بلا حماية

يومذاك- ليستمعوا إلى أحاديثه القومية الشائقة ويستمتعوا بما يرسله من نكت على رموز النظام في تلك المرحلة من حكم البعث (شباط ١٩٦٦- تشرين الثاني ١٩٧٠)، من صلاح جديد معاون الأمين العام للحزب ويوسف زُعَيِّن رئيس مجلس الوزراء...

والشباب يستقبلون بمرح حديث "المعلم"، خريج السوربون، والذي استلهم البعثُ من أفكاره وخاصة مؤسّسُه ميشيل عفلق... قبل أن يتفرقوا ويُشيعوا النكات اللطيفة بين شباب الحزب.

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٣٠-١١-٢٠١٨

حوار مع فاضل السباعي في مجلة "كل العرب" (القسم الأول)

من دمشق يفتح الأديب السوري فاضل السباعي بوّابات ذاكرته لـ"كل العرب" في باريس:

كم هو عدد الجبهات التي على الكاتب أن يخوضها؟!

\- - - - - - - - - -

تقديم بقلمي:

مجلة "كل العرب"، التي صدر عددها الأول في باريس بالعربية مطلع تشرين الأول ٢٠١٨، صدر أمس عددها الثالث وفيه حوار كانت أجرته معي الأديبة المرهفة "ماجدولين الرفاعي" عبر "المسنجر" في مطالع الشهر الماضي ولأنّ الإجابة على الأسئلة الخمسة عشر جاءت مستفيضة، فقد عمدت المجلة إلى تقديم الحوار لتنشر البقية في العدد القادم.

والآن أقدّم لكم، أصدقائي الأعزاء، الإجابتين الأوليَين، اللتين شغلهما بالمصادفة الحديث عن "اتحاد الكتّاب العرب"، آملاً أن أقدّم ما تلاهما من الأجوبة المنشورة يوم غد

واليوم الذي بعده.

الشكر لأديبتنا الإعلامية ماجدولين الرفاعي، التي حملها الاغتراب إلى شمال أوربا، ولرئيس تحرير المجلة في باريس "الأستاذ علي المرعبي".

- - - - - - - - - - -

١- للذكريات متعتُها الخاصة، لذلك دعني أدخل تعاريج ذاكرتك وأسألْك عن فكرة اتحاد الكتاب عام ١٩٦٧ وأنت أحد المؤسسين.. كيف اختمرت الفكرة في أذهانكم؟ وهل كان عدد الكتّاب يستوجب جمعهم في اتحاد في ذلك الزمن؟

ـ جميل منك الظنّ بأننا نحن الكتّاب قد "اختمرت الفكرة في أذهاننا" لنؤسس اتحادًا لنا!

والواقع أنّ مَن فكّر في هذا وقام بتحقيقه هو الحكومة، بل الحزب الحاكم. دعانا في صيف ١٩٦٨ وزير التربية في ذلك الحين "سليمان الخش"، نحن ثلاثين كاتبًا الذين وقع الاختيار عليهم. أخذنا نجتمع في مبنى المركز الثقافي بأبو رمّانة، في شرفة شمالية منه وسيعة (قبل أن تُضمّ إلى ما أصبح صالة لمعارض الفنّ التشكيلي). وكان مَن يحضر منّا هم نصف هذا العدد أو دونه، وكنت بين المواظبين.

وُزّع علينا مشروع نظام مُعَدّ، ناقشناه خلال أيام وأدخلنا عليه تعديلات، أهمّها أننا حصرنا الانتساب إليه في الكتّاب (الذين يُنتجون أدبا) واستُبعد المثقفون عموما كما كان المشروع ينصّ، ولكن بقي فيه ما يسمح للكتّاب من غير السوريين أن ينتسبوا، ومن هنا حمل اتحادنا كلمة "اتحاد الكتّاب العرب" غيرَ مقتصِر على الكتّاب السورين.

وانفضّ سامرُنا وغاب بعضنا عن بعض مدة عام كامل، إلى أن فوجئنا (صيف ١٩٦٩) بمرسوم يصدر بالتأسيس، ودعانا الحزب لاجتماع جرى فيه انتخاب المكتب التنفيذي الأول

بأسماء اتُّفق عليها في اجتماع تمهيدي خاص بالطابق العلوي من مبنى المركز الثقافي، وبعدها إلى غداء في مطعم بالربوة كان فيه أعضاء من الحزب (أذكر منهم المقدّم أحمد المير، الذي حلّ عليه فيما بعد غضب!). ولا بأس في أن أروي نهفة ونحن على المائدة: كانت أدوات الطعام تبدو فاخرة، من ذلك الملاعقُ اللامعة، قال أحدنا مازحًا: "والله هالمعالق خرْج نسرقن! "، فقالت مِن بيننا أديبة متأففة: "ليش ما في عنّا ببيوتنا منّن! "، قال لها: "لا! ". [هو الشاعر "م.ع" وهي الروائية "ق. ك"][1]

للعلم "أوراق التأسيس" كلّها فُقدت من مكاتب الاتحاد، في زمن رئيسه (الذي طالت "ولاياته" المتتالية إلى ٢٦ عاما وقبلها سنتان نائبا). حدّثني بهذا الفقدان الرئيس التالي عليه، فكان أن قدّمت نسخين من ذلك المشروع الابتدائي وعليه بخط يدي التعديلات (تصوير بالماسح الضوئي/ الفوتوكوبي)، نسخة لأرشيف الاتحاد والأخرى له.

على أنّ تجمّع الكتّاب في "حاضنةٍ" تلمّ شملهم، كان قد وقع شيء من هذا في سورية بخمسينيات القرن الماضي فيما سمّاه الكتّاب الشيوعيون واليساريون "رابطة الكتّاب السوريين" ثمّ وسّعوا التجمّع بأن ضمّوا إليها كُتّابًا لبنانيين، فأصبح الاسم "رابطة الكتّاب العرب"، وقد كان -في علمي- تجمُّعًا دون إشهار قانوني. ثم ّتحرك الكتّاب السوريون في عام الوحدة الأول بين سورية ومصر، فدُعينا إلى اجتماع في صيف ١٩٥٨ عُقد في مقر "النادي العربي" بدمشق، تكلم فينا الدكتور عبد الله عبد الدايم، ومات المشروع في مهده.

لكِ أن تسأليني، يا ماجدولين، كيف أدرِج اسمي بين المؤسسين وأنا لست من قبيلهم! للإجابة أذكر أني قدّمت للوزير الخشّ، قبل ذلك التاريخ بعام، روايتي "ثم أزهر الحزن"، وأُرجّح أنه قرأها أو قرأتها زوجته أستاذة العربية "خديجة الصوفي"، فحَسُن الرأي في كاتبها

(١) الشاعر ممدوح عدوان، والروائية قمر كيلاني.

وتمّ تجاوز المحظورات!

٢- ما هي الأسباب التي منعتك من أن تكون رئيساً لاتحاد الكتاب إما في دمشق وإما في محافظتك؟

ـ هل أعترف لك بأن ضحكة ترقرقت في صدري؟ أأكون أنا رئيساً للاتحاد؟ أو رئيساً لفرع له بدمشق أو في حلب؟ إنّ ذلك منذور "للعتاوْلة" (على قولة إخواننا المصريين)، الذين يقفون بالدور، لهم اللقمة "الطيّبة" ولنا المغمَّسة.

هل تعرفين أنّ الاتحاد لم ينشر أيّا من المخطوطات التي قدّمتها له في أعوام السبعينيات؟ ولم يكن لمثلي أن يتلقى المضايقات من البعثيين وحدهم، بل من المشمولين برعايتهم أولئك الذين رأيناهم مَلَكيّين أكثر من الملك. وهل أشير إلى إصرار (ذلك الذي أمسى اليوم من المعارضين) للحيلولة دون إصدار كتاب لي ضمن منشورات الاتحاد، وظلّ يماطل عامين وبعض العام، إلى أن جعلني يأسي أذهب به إلى بيروت، حيث نُشر بثلاث طبعات متتاليات.. ثمّ كان إصدارٌ له بالفرنسية في باريس!

واليوم.. أخذ الاتحاد على نفسه، أو أن يفعل ذلك رئيسُه، أن يمنع نزول اسمي في دوريّات الاتحاد، كاتبًا أو مكتوبًا عنّي!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأحد ٢-١٢-٢٠١٨

حوار مع فاضل السباعي في مجلة "كل العرب" (القسم الثاني)

ماجدولين الرفاعي، الأسئلة ٣، ٤، ٥

٣- درستَ القانون بجامعة القاهرة وعملت في المحاماة مدة.. لماذا لم تستمر في عملك

القانوني وتوجّهت إلى الوظيفة؟

ـ رأيت العمل في المحاماة يقتضي التنقّل بين المحاكم نهارًا، والحضور إلى "المكتب" مساء.. فأين الوقت الذي أَعكُف فيه على الكتابة، تلك التي تشرّبت مسامّي بها، منذ كنت فتى ألبَسُ الشورت (١٩٤٦)، أقرأ مجلة "الكِتاب" (شهرية ثقافية عن دار المعارف بمصر) محاولًا تفهّم معاني مكتوبها!

أذكر أني يوم غدوت محاميًا وأنا أسكن في بيت الأسرة، كنت أتغيّب عن مكتب "الأستاذ" الذي أتدرّب عنده، لأقبَع في غرفتي أكتب ما كانت امتلأت به مخيّلتي في أثناء النهار. ولحظة يعود أبي (والد التسعة عشر من البنين والبنات) من عمله إلى البيت متعبًا، ويعلم أنّ ابنه في غرفته يكتب، كان يفتح الباب عليّ ويقول لي بثقافة أهل مهنته: "حاجْتَك قصص ودواوين.. روح شفلك شغلة تاكل منها! ". فكان مقدار الألم الذي تحدثه هذه العبارة في نفسي لا يعادله إلا عشقي للإبداع! فقولي لي، يا ماجدولين الرفاعي، كم هي الجبهات التي على الكاتب أن يخوض!

ومن ههنا كان ارتمائي في أحضان الوظيفة، التي توالى على الحكم في وطني، منذ دخلتها، أقوام يرحّبون بالمرائي ويُقَصْقصون أجنحة الطيور التي ترسل أناشيدها خارج السِّرب.

٤- بعض مسلسلات الدراما السورية والتي استقطبت الجمهور العربي من المحيط إلى الخليج (باب الحارة)، أظهرت المرأة السورية امرأة بسيطة همّها الطبخ والاستقبالات والحفلات والحمل والولادة وما إلى ذلك.. فهل استطاعت تلك المسلسلات إعطاء صورة حقيقية للمرأة السورية وللمجتمع السوري؟

ـ ليكن في العلم أنّ المرأة السورية إن كانت تقوم بمهمّات على الصورة التي بيّنتِ، من طبخ ونفخ وحمل وولادة وكذلك إقامة الاستقبالات في البيوت، فإنّ أولئك الجدّات هُنّ مَن أنجبنَ

للمجتمع النُّخَب، من رجال وطنيين وأبطال أشاوس ومثقفين ومبدعين. وعلى هذا يصبح إلقاء الضوء على ذلك الجانب من حياة أمهاتنا وجَدّاتنا على هذه الصورة أمرًا بعيدًا عن النزاهة.

في أسرتي، التي نشأتُ فيها "بزقاق الزهراوي" بحلب، الجدُّ من حِمص والجدّة حَمَويّة والكنائن من حلب، كنّ يَقمن بالطبخ والنفخ وتحضير المونة في مواسمها، وكانت تقام في البيت، في "الليوان" المتوجّه عادة إلى الشمال، حفَلاتُ استقبال، وكانت العمّة (الوحيدة على ثلاثة أشقاء) تعزف على العود ورقصٌ وفقش. في هذا الوسط، يا ابنتي ماجدولين، ظهر في الأسرة أطباء ومهندسون وصُنّاع وتُجّار وكُتّاب وأكاديميون. هل أقول: إنّ حفلات الاستقبال كانت ضرورةً استدْعَتْها حياتُهنّ بين جدران كتيمة ومناديلَ تُسدَل على الوجه سميكة؟ واجبات يؤدّينَها في النهار.... ولهنّ، بدل الأندية الليلية يرتادها "المتحضرون"، استقبالاتُهنّ الدورية في البيوت، وللرجال سَهَراتهم.

وأما الإسراف في إلقاء الضوء على هذه الجوانب في مسلسلات تلفزيونية، فذلك من سوء القصد، أو من غفلة الكاتب والمنتج، يحسَبُ أنّ الاستغراق في تقديم ذلك ممتع للمشاهدين، وهم يدركون أنّ فنّهم يتجاوز اليوم في الفضائيات الحدودَ إلى حيث يظنّ الناس هناك أنّ جدّاتنا كنّ ولا همَّ لهنّ إلا هذا!

وحقّا، إنّ القلم، إنّ الريشة للرسم والعزف، إنّ ضروب الإبداع كلّها... تتطلّب الوعي والاستشفاف جنبًا إلى جنب مع حُسن الأداء.

٥- حظيتْ بعضُ مؤلفاتك بالترجمة إلى عدة لغات، الفرنسية، الإنكليزية، الإسبانية، الروسية، الفارسية وغيرها.. ما أهمية الترجمة للكاتب من وجهة نظرك؟

ـ أقول أولاً عنّ أهمية الترجمة: إنّ القارئ يطّلع على نمط حياة شعب آخر، وعلى القِيَم التي

يتبنّاها. وسوف أظل أذكر ما عرفناه من "أنماط حياة" ونحن نقرأ أدب "تشيخوف" الروسي الطافح بالمشاعر الإنسانية، وأدب الفرنسي "غي دو موباسّان" الممتلئ بالمفارقات، وقصص الأمريكي "ادغار آلان بو" بشطحاته الغريبة. وأذكر ما قدّمته "دار اليقظة العربية بدمشق" من كثير من أعمال الكتّاب الروس العمالقة في زمن مبكّر نسبيّاً، بداية خمسينيات القرن الماضي، حتى إنّ الكاتب المصري يوسف السباعي حدثني -وأنا في سنّ الطلب بجامعة القاهرة- عن استعجاب ناشره "مكتبة الخانجي" بمصر (وأصول أصحاب هذه الدار تنتمي إلى حلب)، كيف يتأتّى لناشر عربي أن يدفع إلى المطابع بتلك الكثافة من الكتب المترجمة!

هذا التعرّف على نمط حياة الشعوب، هو ما يطيب للكاتب -العربي هنا- أن يحظى به يوم يتولى بعضهم ترجمة نصوص له إلى لغات. وإنّ في حياة كل شعوب الأرض عناصرَ تستحق الترجمة إمّا توافَرَ لها فكرٌ نَيّر وأناملُ مبدعة. وأؤيّد كل التأييد ما كنت قرأته وأنا فتى للكاتب الفرنسي "فرنسوا مورياك"، من أنّ "الموضوعات" الملهِمة للكتابة منثورة في كلّ مكان، وما على الكاتب إلا أن يلتقطها التقاطَ العصافير لقوتها اليومي (أو كلامًا من هذا القبيل).

عندما أراد "معهد الدراسات الاستشراقية بموسكو" أن يُصدر كتابا يضمّ مختارات من القصة السورية، اتفق أن وقف "البروفسور فلاديمير شاغال" كبيرُ مَن عَمِل في هذا الكتاب، على قصة لي في مجلة "الآداب" اللبنانية (١٩٧٣) عنوانها "الصمت والموت"، تتحدث عن طالب جامعي قُبض عليه في عصر يوم بتهمة أنه ألقى قبل ساعة قنبلة على جريدة الحزب الحاكم، فكان في أثناء التحقيق، والتعذيب، كلما جرى على لسانه اسمٌ سارعوا إلى الإتيان بصاحبه وعذّبوه، فالتزم الصمت اتّقاءً... حتى فاضت روحه في منتصف الليل. وساعةَ الفجر تعرّفوا على الفاعل الحقيقي، فحملوا الجثمان إلى الأب يعتذرون!

هل أقول: إنّ القصة راقت لهم من بين القصص الأربع عشرة المختارة، حتى إنهم أسمَوا

كتابهم بالروسية باسم القصة معدّلا "الصمت الذي لا يُقهر"، وأنّ لوحة غلاف الكتاب كانت تصور الأب بلباس عربي تخيّلوه، تُلامس كفُّه وجهَ ابنه؟ أجل، إنّ في حياة كلّ شعب ما يستحقّ الاستيحاء، والكتابة والترجمة!

الأهمية؟ أشعر أني أدّيت أمانة الأدب والتاريخ لشعبي، ووُفّقت في أن أرسل إشارة في ذلك، ولو صغيرة، إلى قرّاء آخرين متوقَّعين.

- - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الإثنين ٣-١٢-٢٠١٨

يوم ألقَوا القبض عليّ وأنا خارج من جامعة حلب

يوم ألقوا القبض عليّ وأنا خارج من جامعة حلب عقب لقاء أدبي بين وبين الطلاب، ذهب "صديقي الأديب"، الذي لم تطاوعه نفسه لحضور الأمسيّة التي امتدّت ساعتين في مدرّج المتنبي بكلية الآداب، إلى متنفِّذ في البلد ليقول له:

ـ طيب، لو افترضنا أنّ هذا الكاتب سخيف وأنّ القصة التي ألقاها في آخر اللقاء سخيفة، فهل يُبَرِّر هذا إلقاء القبض عليه؟!

ومنذ تلك الواقعة (كانون الأول ١٩٨٠ حتى كانون الأول ٢٠١٨) لم يستطع أحد من "العارفين" باللغة، فهم هذه العبارة: هل تعني شفاعة لإطلاق السراح، أم تمكينًا للاعتقال!

ولكن كان مفهومًا معنى ما قام به هذا "الصديق اللدود" لحظة سمع بإطلاق سراحي من "كراكول[1] الشيخ حسن" السيّئ السمعة بدمشق، مِن رفعِه كفَّه يضرب بها جبهته، ويقول،

---

(١) كلمة تركية تعني المخفر.

وهو في مقعده المختار في "مقهى السياحي" المطلّ على ساحة سعد الله الجابري:

ـ بكره بيقول: ناضلت وناضلت!

لما بلغني ذلك قلت: حتى في هذه يحسُدني!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٣-١٢-٢٠١٨

القسم ٣- حوار مع فاضل السباعي في مجلة "كل العرب"، باريس

ماجدولين الرفاعي، الأسئلة ٦ و٧

٦- يحظى المبدع بالتكريم في كل العالم ماعدا بلادَه.. ما أهمية تكريم الكاتب أو الأديب في بلده؟ وهل احتفت سوريا بك بعد كل إنجازاتك المتميّزة ومؤلفاتك وما تُرجم منها؟

ما يَعنيه تكريمُ الكاتب في بلده أنه أعطى، أرّخ أدبيًّا واجتماعيا وتاريخيا ما سوف يبقى للأجيال ونال على ذلك ما يستحقّ.

والكاتب، بعض الكتّاب، يحظَون، وغالبًا ما يكونون من "جسد النظام" الذي يوزّع الخيرات والهبات على أنصاره ومؤيّديه، فإن وقَعَ تجاوزٌ إلى غير هؤلاء فلعلّة ما.

وأسمح لنفسي بالزعم بأني قمت في وقت ما بالتكريم، نعم، في السنوات التي كنت فيها على رأس "جمعية القصة والرواية" (داخل اتحاد الكتّاب العرب)، اقترحت على الزملاء (نجتمع مرة في الشهر بمقر الاتحاد) أن نولي اهتمامًا بالنتاج الأدبي لبعض أعضاء الجمعية المتميّزين، قدّمت لهذا "المشروع" بالقول إن المؤسسات الثقافية قد تُبدي اهتمامًا بالأديب عند رحيله، فما يمنع من أن نُفرِح نفسه بإسماعه طيبَ الكلام وهو يمشى على قدميه؟ ولم نُسمِّ عملنا "تكريما" بل "قراءة في أدب" هذا الكاتب أو ذاك. بدأنا بالأديب الصحفي اللامع "وليد

معماري" (في العام ١٩٨٥ على ما أذكر)، بأن يُعِدّ مَن يَندُب نفسه للمشاركة مقالةً، هي انطباعات عن أدب المحتفى به من زوايا. ودَرَجْنا على ذلك في كلّ الأعوام التي تولّيت فيها ما يسمّى "مقرر الجمعية" (وذلك يكون بالانتخاب من أعضاء الجمعية وليس بالتعيين)، ووصلنا في ذلك إلى الاحتفاء بأعلام مثل "ألفة الإدلبي" حبيبتنا ستّ الشام، وأديب نحوي، ووداد سكاكيني (وفي احتفائنا بها شاركتنا الأستاذة الجامعية "الدكتورة بثينة شعبان" أول طلعتها بدراسة عنها مستفيضة)... ويوم عزمنا على تكريم رائد الرواية السورية المعاصرة "الدكتور شكيب الجابري" استبعد ذلك رئيس الاتحاد علي عقلة عرسان! وقد استثنيت نفسي من الاحتفاء، إلا أنه بعد سنوات من تركي إدارة الجمعية أقام اللاحقون أمسية لي.

أقول: إني حظيت بما هو أثمن من التكريم، أني -في تعبيري عن شخوصي القصصية والروائية، التي استمددتُها تارة من قاع المجتمع المعذّب بلقمته المغمّسة وأخرى من النُّخَب المعذبة لمواقفها الفكرية المضرّجة- حظيت بإعجاب قرائي، وأزعم بمحبّتهم أيضا، في بلادي الشامية وفي بلاد كلّ العرب، وعند قراء مقيمين بعيدًا.

٧- عدتَ من فلوريدا الأمريكية للاستقرار في سوريا، في الوقت الذي نشطت فيها حركة الخروج من الوطن نزوحًا ولجوءًا.. ما السبب في عودتك في هذا التوقيت إلى دمشق؟

-في مغادرتي للوطن وعودتي إليه قصةٌ تُروى. إنني ابتداءً أنتمي إلى أسرة من حلب، والدي (المولود في حمص والقادم إلى حلب مع أبيه طفلاً أيام "السفر برلك")، أنجب في حلب الشهباء تسعة عشر من البنين والبنات (قارب عدد أولادهم اليوم المئة!). في ١٩٦٦ انتقلت بوظيفتي الحكومية إلى دمشق وفيها كان استقراري. بعض أبنائي خرجوا إلى الاغتراب قبل هذه الحرب المُبِيرة التي زادتهم اغترابا، فكُتب عليّ أن أبقى بدمشق في بيتي وحيدًا وأنا في ثمانينيّات العمر، يا ماجدولين. طلب أبنائي في أمريكا أن أذهب إليهم، ومع الإلحاح سافرت. وجدت الحياة

هناك هنيئة (عشرون شخصا من ذرّيتي، أبناء وأحفاد وأبناء لهؤلاء، وكناين وأصهار وحموات!)، إلّا أنّ الأشواق للوطن الكبير (سورية) وللوطن الصغير (بيتي)، كانت تؤرّقني... ماذا يَربِطني بهذه الدنيا الغريبة! وأضيفُ إلى هذا أمرين: الأول أنّ في أدراج مكتبتي هناك في "شارع نوري باشا"، مشاريع كتب، مخطوطات، إن لم أعمل على استخراجها من مظانّها وتنضيدها ضوئيًا وتصنيفها في كتب، ضاعت، وليس يَعرف أيٌّ من أفراد أسرتي الموزَّعين في العالم عنها شيئًا، وأمر آخر أنّ "الفَسْفَسة" كانت ممّا حمل القوم معهم إلى المهجر! فقررت العودة.

بعض الشانئين من الطرف الآخر، ظنّوا أني غادرت الوطن هربًا من القهر، وأني في المهجر أعيش "خمسة نجوم"، وأعمَلوا ألسنتهم... هل قطعتُها بعودةٍ ما كانوا يتوقعونها؟

الحكاية أنّ ابنتي الفنانة التشكيلية "خلود" كانت وابنها التشكيلي "ماجد" هما آخر من تركني بدمشق إلى القاهرة، تُشارك في ورشات فنية وتحقق ازدهارا، إلى أن تغيّر الوضع هناك، بالنسبة للمصريين تغيير الحاكم وبالنسبة للسوريين تغيير التعامل، فعادا وأقاما في بيتي وطني الصغير، فتوافرت لي فرصة العودة... ويا لها من نصائح انهالت عليّ من كلّ حدَب وصوب: إيّاك أن تعود! لا أمان لهم! إنهم.....! ولكني اجتزت بكل الثقة الحدود نحو وطني، بيتي، أَيْكةً من كتب وزهر ياسمين!

بالنسبة للانتقاد، الذي جريت على ممارسته منذ ستينيّات القرن الماضي للقهر وللفساد، متابعًا إيّاه عند قيام انتفاضة الحرية (٢٠١١)، وكذلك وأنا مقيم الأشهر العشرين في ذلك المغترب المريح وغير المريح معًا، ثمّ بعد العودة... لم تتغيّر وتيرة الانتقاد في شيء، لا تصعيدًا ولا تخفيفًا!

ولأذكر أني وأنا فوق المحيط الأطلسي متوجّهًا إلى هناك (ظهيرة الإثنين ٧-١٠-٢٠١٣)، كتبت ونشرت:

واللهِ

ما فارقتُك، يا وطني

خوفًا من عيونِهِمُ المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفِهِمُ المسلولة

ولكنْ

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد تفرّق أفرادُها في كلّ اتجاه

حتى لم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّدُ يدَه إليّ بكأس ماء!

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الإثنين ٤-١٢-٢٠١٨

صديق حميم

قُرع عليّ الباب، وفي سمّاعة الإنترفون أجابني مَن لم أفهم منه إلّا أنه صديق لابني، فكبست الرز أفتح له.

أقبل عليّ وأنا في الحديقة... ومن عجَبٍ أن أراه يرتدي "المُرقَّش"، قلت في نفسي: قد عزموا أخيرًا على القبض عليّ بهذه الطريقة غير المبتكرة!

صافحني الشاب بحرارة، وذكر لي اسمه مرتين حتى -مع ضعف السمع- استوعبت. صديق لابني حميم. سألته: وهذا الخاكي؟ فبيّن أنهم على الحاجز أمسكوه، وبالسلاسل مع غيره اقتادوه، فهو يؤدّي "خدمة الاحتياط" منذ ستة أشهر ولا يعرف المنتهى، ومما قال إنه من "أصدقائي" في التواصل، قلت: لا أذكر أنّ اسمك مرّ بي، قال: وهل أستطيع مشيرًا إلى البدلة.... فكان لا بدّ من أن أمنحه عطفي ومحبّتي.

في حديثنا، في الخاص عن شؤون الحياة، علمت أنّ شُغله توقّف، وأنّ أسرته استهلكت ما كانوا ادّخروه وهم اليوم يستدينون. لكن في أثناء استرسالنا في العام عن شؤون البلد، رأيته يجول بعينيه فيما حولنا، ظننته يستمتع بمنظر الكبّاد الذي يتابع نُموّه واصفراره في أيام الخريف هذا، فليس في الثُّكْنة التي يخدم فيها شجر وثمر، ثمّ رفع نظره إلى السماء، قلت يسبّح بحمد الله... ولكنه ما لبث أن استأذنني في أن ندخل البيت!

جاء ابني، تعانقا بحرارة أشدّ ممّا كان بيني وبينه من المصافحة.

دخلتُ غرفتي أتواصل معكم.

ودخل الحميمان المطبخ، سخّنا وأكلا.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٥-١٢-٢٠١٨

ليلة "السَّفَرْجَليّة"

ما زلت منذ خمسة أيام أنظر إلى السفرجلات، التي تلقّيتها من يدِ كريم، أتمنى لو أنّ حلبيّاً أو حلبيّة تدخل بيتي تتولّى إعداد أكلة "السفرجليّة" على أصولها، وإن كانت دون أقراص من كُبّة!

طرقت بابي اليوم "صبيّتان"، يقلّ العمر عندهما عني قليلاً، حلبيتان، سألتُهما فأجابتا

بالاستعداد لطبخ السفرجليّة.

وصل الرمّان، ولأنهم في الأسواق لا يبيعون حامضَه (إلا في عبوة كبيرة يعمل منها شاريها مونة العام)، فإنّا رضينا بحُلوه نُحمّضه بملح الليمون. كسرنا رمانتين كبيرتين، وفرطنا حبّهما وبالخلاط اعتصرناه، والسفرجلات الثلاث قطّعتُها بسكين منشاريّ.

طبّقتْ متولّيةُ الطبخ الأديبةُ "ضياء" المكوّنات، من السفرجل ومن لحم وثوم مدقوق ونعنع يابس وبهار وملح وكلّ ما هنالك، "تطبيقًا" هكذا تعوّدت في بيتها بحلب. سألتها، وهي تهمّ برفع ذلك كلّه على النار، ما إذا كان يتأتّى للّحمة أن تنضَج مع السفرجل، أم أنّ علينا أن نُقدِّم بسَلْقها أوّلًا ثمّ نضيفها وهي في قليل من نُضج، فأخذت على عاتقها أنهما ينضجان معا. ولم تنسَ أن تضيف ملعقتين من السكر.

وكنا نتحرّك، نحن "الختايرة" الثلاثة، في المكان ولا "نتصادم" فالمطبخ ذو اتساع.

الرز الطويل غسلناه ثم بالماء نقعناه، واقترحتُ الإكثار من الشعيريّة، وأن تصبح بعد التحميص "شقراء"، فضحكت "الصبيتان"، وعلى نار هادئة رفَعْنا القِدر. أطلّتا عليه قبل النضج ورشَّتاه بقليل من ماء، وإذا هو في الأخير وكأنه حبّات صنوبر.

وأما مكوّنات السفرجليّة، الطبخة-الأمّ، فقد احتضنتها "طنجرة الضغط"، منتظرين أن تعلن "صفيرَها"، فلما آن لها أن تفعل تبيّنّا أنّ النضج في أحسن حالاته.

سكبنا من النوعين معًا جنبًا إلى جنب في صحن واحد لكلّ منّا، والفليفلة الخضرا، وبلا خبز أكلنا. كانت أكلة حلبيّة بامتياز. تناولنا بعدها القهوة، والتقطنا صورًا في الحديقة مع الكبّاد. إنها ليلة جديرة بالتدوين. اشتهيناكم.

ولا بأس في فذلكة عِلمية عن السفرجل: الكلمة عربية، وفي السريانية "سْفَرْجَلو" (تلفظ

الجيم على الطريقة المصرية). موطنه الأصلي غربي آسيا. له رائحة عطرة، ولكن قلّما يؤكل نِيْئًا، وفي حلب يتهكّمون: "ايش بتترجّى من السفرجل، كل عضّة بغصّة! ". و"السفرجليّة" من مآكل حلب المتميّزة، خاصة إن طُبخت معها دعابيل[1] الكبّة، وهي ليست شائعة بدمشق.

دمشق الشام: ليل الخميس ٦-١٢-٢٠١٨

صديقة.. حَذِرة جدًّا!

وضعتْ لايك الآن، فتذكرتُ، كتبتُ لها:

من عامين وعدتِ بزيارة، وأنت جارتي في "نوري باشا".

قالت: والله يا أستاذ.. كل ما شفت صورتك وصورة الكبّاد على أمّه تمنّيت أن أزورك.. بس ما بقدر.. أنا حَذِرة كتير وبخاف.. سامحني الله يسعدك!

قلت: ومن مَكْمَنِهِ يُؤتى الحَذِر.

قالت: والله إنك غالي عليّ فعلاً ومن كل قلبي بتمنى زيارتك.. سامحني!

قلت أمازحها: طيب، إن جئتِ لكِ كبّادتان وأكثر تقطفينها من الشجرة بيدك!!

قالت: ولو عشرين كبّادة!!!

قلت: سأستوحي من هذا الحوار اللطيف "تغريدة".. مع عدم ذكر الاسم طبعًا.. إلّا إذا شئت!

قالت: من دون الاسم، أرجوك.. الله يكرمني بزيارتك مستقبلاً.

رفعت صوتي وأنا أمام الشاشة لا يسمعني أحد: أيها النظام، كم ذا أَضعفتَ النفوس

---

(١) جمع دَعبولة. وهي ما تجعله على شكل كرة، من عجين ونحوه.

وغيّرت الطباع!

دمشق الشام: السبت ٨-١٢-٢٠١٨

من هم "الشوايا"؟

أمس نشر الباحث المهندس "مهنّد الكاطع" في صفحته مقالة قيمة للباحث "محمد الحاج صالح" بعنوان "من هم الشوايا؟ "، فكتبت اليوم تعليقًا عليه ضمّنته شهادات صغيرة كنت عرفتها في حياتي، أنشره هنا وأُتبعه بالمقالة القيمة عن أصل الشوايا يقرؤها من يحب الاستزادة من المعرفة عن أصول سكان بلاد الشام.

بالنسبة لكلمة "شوايا"، أميل إلى الأخذ بوجهات النظر التي تنسِبها - لحداثتها- إلى أيام الانتداب الفرنسي. وأحبّ أن أبيّن معنى الكلمة في الجزائر، كما سمعته من الكاتب الروائي المعروف "الطاهر وطّار" في إذاعة الـBBC اللندنية، من نحو عشرين سنة، يقول -وهو يشجب ما بدأ يظهر في بلده من "نزعة بربرية"- إن سكان بلاده هم ثلاث فئات: مَن هم من أصول عربية، وبربرية، وممن سمّاهم "شوايا"، وفسّر الكلمة بأنها تعني "البربر" الذين تعرّبوا بالكامل وهو واحد منهم. وكان لي يومذاك أن أربِط ما بين تلك التسمية هناك وما أعرفه في وطني من مدلول غامض لكلمة "شوايا".

ولم أسمع هذا المصطلح يُتداول في المغرب العربي، فهم ما بين منتسبين إلى العروبة أو إلى "الأمازيغ" (فإنّ أبناء البلاد الأصليين في شمال إفريقيا يَضيقون جدا بكلمة "بربر" التي أخذها الكتّاب العرب عن المؤرخين اللاتينيين). وقد التقيت وأنا في بلاد الريف (شمال المغرب)، مع الانفراج في المسألة الأمازيغية، معلم مدرسة من سكان الريف يحدثني عن أن "الأَمْزَغة" بدأت

في منطقته بأن يتعلم التلاميذ اللغة الأمازيغية في المدارس.

وأذكر أيضاً، وأنا طفل في ثلاثينيات القرن الماضي، ما كنت أراه رأي العين مما يقع في "سوق المدينة" بحلب حيث كان لأبي دكان في "سوق العبي"[1]، من تصادم واقتتال بين من أسمع أنهم شوايا وبين أعراب من قبيلة أخرى (ربما العنزة(!.

وهنا أذكر ما كان قاله لي، في الثمانينيات من القرن الماضي، صديقي وجاري الكاتب "سعد صائب" ونحن في الحديث عن سوء المعاملة يتلقاها المعتقَلون في سجون بلدي منسوبة إلى "رجال أمن" أُشيع يومئذ أنهم في غالبيتهم من "دير الزور" (وصديقي من أبنائها لكن المقيمين في العاصمة)، فقد أفاد بأنّ هؤلاء ليسوا من أبناء الدير بل من "الشوايا"، مفسِّرًا لي أنهم ممن يعيشون في ريف دير الزور أو في ضواحيها. الآن تبيّنت المعنى الأدق.

في شأن النعرات "الانتمائية" وما ينجم عنها من استعلاء بعضهم على بعضهم الآخر، هذا يشيع في كل مكان، فأهل المدن يتعالون على أهل الريف، وفي الريف يتعالى الأغنياء والأقوياء على أبناء منطقتهم الأضعف، كما في داخل المدينة، اليوم ساكن "حي المالكي: أو "فيلات قرى الأسد" على سكان الأحياء الشعبية، وفي حلب ابن "الجميلية" (واليوم ساكن حيّ الشهباء) على ابن "باب النيرب"، "نيربي" أو "مشارقجي"، ذلك مؤسف ولكنه منتشر في كل أنحاء الدنيا. في فرنسا يتعالى الفرنسيون على شعوب الأرض (فهم أصحاب الثورة الفرنسية)، ويتعالى ابن باريس على من يعيشون في سائر أنحاء فرنسا، جنوبها الممتد حتى الأبيض المتوسط، فهم "بروفانس" (Provinces)! وكم عانى الزنوج في الولايات المتحدة من الاستعلاء إلى أن جاءهم في الخمسين السنة الماضية انفراج ما، وعلى استحياء!

لن أغفل القول هنا بأني سعدت بالقراءة الممعنة لمقالة "محمد الحاج صالح"، ففيها

---

(١) أي العباءات. وهو سوق أثري قديم، تُباع فيه ألبسة البدو، ومنها العباءات.

معلومات جديرة بالاطلاع، مكتوبة بروح موضوعية وبتواضع، ويظل الحكم الأخير عليها للمتخصصين.

وأما التعليقات فهي مناقشات هادئة تتضمّن معلومات إضافية وتساؤلات مشروعة. وسوف أظل أشير عليك، يا ابني يا مهند، الباحث الشاب الذي استطاع أن يصل درجة "العالم"، أن تضمّ مقالاتك (التغريدات) وكذلك المنتقى من التعليقات عليها إلى كتابك الكبير عن أكراد سورية، فهذه وتلك تزيد موضوعاتك ثراء.

دمشق الشام: ليل الأحد ٩-١٢-٢٠١٨

عندما يُزري ناقدٌ بالأدب الجميل!

د. حسام الخطيب يعقد مقارنة تعسّفية بين "بداية ونهاية" و"ثم أزهر الحزن"

من ألوان التعسّف والإجحاف والتجنّي، التي تعرّض لها أدبي الذي أكتب منذ بدايتي في خمسينيّات القرن الماضي، ما تناوله الناقدُ حسام الخطيب (الذي أوفدته ثورة البعث إلى الخارج ليعود ويترأس قسم اللغة العربية في كلية آداب دمشق)، لبعض أعمالي الروائية بالنقد المتجنّي الذي بلغ حدّ السفاهة، وهو محاضرة ألقاها على طلاب "معهد الدراسات العربية العليا" بالقاهرة عام ١٩٧٥، ثمّ نشرها في مجلة "الثقافة العربية" (بنغازي، ليبيا، عدد أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، تجاوز عدد كلماتها العشرة آلاف).

وأبيّن للأصدقاء أني بادرت إلى الردّ بما تُمليه عليّ الموضوعية العلمية والمنطق الرصين... أحببت اليوم أن أجتزئ مقطعا منه، وقد نشرت المجلة الردّ (على طوله، أربعة آلاف كلمة) في عددها الممتاز الذي صدر في مطلع العام التالي ١٩٧٦.

وأحسب أنّ الأصدقاء لن يحتاجوا إلى تطلّب الصبر الجميل لإتمام قراءة هذا المقطع، فإني

أزعم أنه من "الجاذبية الأدبية" على نحو يُغري بالقراءة، التي تثير الشوق لمطالعة الردّ كاملاً، وذلك ما سوف يصدر مع كثير من الدراسات الأدبية النزيهة في كتاب أعمل في إعداده!

وللعلم إنّ "ثم أزهر الحزن" قدّمها التلفزيون السوري مسلسلاً من نحو ثلاثين حلقة، ما زال يعرض في الفضائيات العربية، وقد تجنّى عليّ مخرجوه بأن استبدلوا بالعنوان الجميل عنوانًا آخر: "البيوت أسرار"

كم كان عليّ أن أخوض من جبهات أدافع فيها عن نفسي، وعن الأدب الذي أسهر في إنجازه الليالي الطويلات!

- - - - - - - - - - -

جاء في ردّي:

..... على أنّ أعجبَ ما ورد في دراسة الدكتور حسام الخطيب، هو تلك المقارنة التي أجراها بين روايتي "ثمّ أزهر الحزن" وبين رواية نجيب محفوظ "بداية ونهاية"، مستهِلاً ذلك بقوله الذي أراده أن يكون أشبه بضربة قاضية:

"إنّ مقارنة الوسط الاجتماعي في "ثمّ أزهر الحزن" بما يوازيه في رواية مثل "بداية ونهاية"، تكشف الكُساح الذي تعانيه رواية فاضل السباعي في ذلك المجال، وإنّ مقارنة مماثلة في مجال الشخصيات لا بدّ أن تقودنا إلى الإحساس بأنّ شخصيات فاضل كانت شخصيات من ورق!
"

من ناحيتي لست أعرف باعثًا جِدّيًا يُغري بعقد مثل هذه المقارنة بين عملين روائيين يختلفان: في أسلوب القصّ والرواية، وفي نمط الشخصيات، وفي مزاج الكاتبين! وهل تصحّ مقارنة يُجريها ناقد -مهما يكن حصيفًا- بين أعمال كلّ من تشيخوف الهادئ الوديع وغوركي الثائر العاصف وادغار ألن بو المغرم بالتهاويل؟!

إنّ ثمّ أزهر الحزن" رواية رومنسيةُ الأسلوب والمعالجة رغم "واقعية المادة" المقتبسة من صميم حياة المجتمع العربي السوري، بخلاف "بداية ونهاية" التي كانت "واقعية" في مادتها وفي أسلوب معالجتها معًا. وهذا الاختلاف وحده كفيلٌ -لو أنصف الناقد- بأن يجعل المقارنة منتفيةً شكلاً قبل انتفائها موضوعًا، حسب مصطلح الحقوقيين.

وممّا يُباعد ما بين الروايتين أنّ رواية نجيب محفوظ، ذات شخصيات رئيسية متعددة، وأنّ مؤلفها لم يَعهد إلى إحداها بأن تروي الأحداث، بل ترك لنفسه هو -بوصفه مؤلِّفًا- مهمّةَ الرصد، فكان يتنقّل -وهو يروي القصة بضمير الغائب- بين شخصياته الرئيسة المتعددة، يرسم ملمحًا في هذه، ثمّ يمضي إلى تلك فيضع لمسة هنا، ويُعرّج على الثالثة ليضيف خطًّا هناك... وهكذا.

وأما عندي فثمة شخصية رئيسية واحدة توفّرتُ عليها بالدرجة الأولى، فرسمتها ولوّنتها وسبرت أغوارها، ولعلني نجحت في ذلك بدليل ما انتزعت من فم ناقدي الصعب، من رأي جيد فيها، وإن كان سها عنه بعد لحظات!

لاحظ الناقد "التباين الكامل" بين شخصيات الإخوة: "حسن" و"حسين" و"حسنين" في "بداية ونهاية"، وواقعية الرواية "وترابيّتها وحرارة التحدّي الذي صوّرته".

ولكن ألا يرى أنّ ذلك التباين في الشخصيات، وتلك الحرارة في التحدّي، كانا من مؤدّى الموضوع الذي عالجه نجيب محفوظ ومن مقتضى الأسلوب الفني الذي اتَّبع في المعالجة؟ لقد سلّ محفوظ نماذجه من طبقة في مجتمع القاهرة، قد أرهقها الفقر، طبقة تفسّخت فيها الأسرة فانحرفت البنات وانحدر الشباب. فالحرارة التي لفحت الناقد وأذهلته عن نفسه، ربما كان مردّها إلى هذا الانحراف والانحدار والصخب في مجتمع القاهرة المعقّد، الذي لا يماثله مجتمعُ

حلب الصغير البسيط في الأربعينيات والخمسينيات الماضية.

الأسرة في المجتمع الحلبي -والسوري عامة- لا تزال متماسكة، لم تنل منها بعدُ الحضارةَ الحديثة. فلماذا يستغرب الناقد إذا رأى "أنّ الحياة لم تغيّر إلا قليلاً من نفسيات فتيات الأسرة الحلبية"، وعُمق ارتباطهنّ ببعضهن البعض، ومتانة ولائهنّ للأسرة، وقوة تعلّقهنّ بالأخلاق بمفهومها التقليدي؟.

أإذا أراد الروائي المصري للأسرة -التي يصوّرها في "بداية ونهاية- أن تتفسّخ وتنحلّ، تعيّن عليّ، أنا الروائي السوري، أن أجعل الأسرة السورية في "ثمّ أزهر الحزن" تتفسّخ وتنحلّ أيضًا؟! ما العلاقة بين الأمرين؟

لقد أخذ نجيب محفوظ "شريحة" سلبية من مجتمعه القاهري وألقى عليها الأضواء وبالغ في إظهار سلبيّتها، فجاءت رواية "بداية ونهاية" وَفْق ما أملتْه عليه تجربتُه الشخصية ومزاجه الخاص؛ وأخذتُ أنا من مجتمعي الحلبي شريحة أقلّ سلبية وألقيت عليها أضواء، وناصرت العمل والكفاح والفضيلة، فجاءت "ثمّ أزهر الحزن" وفق ما أملتْه عليّ تجربتي ومزاجي... فأية مقارنة؟!

كان محفوظ سوداوي النظرة في روايته، وكان أشدّ تشاؤمًا عندما دفع الفتاة إلى أن تصبح مومسًا ثمّ تنتحر.

ولم أكن، في روايتي هذه، كذلك: مات الأب عندي في البداية، فيَسّرتُ للأسرة سبيلاً للخلاص هو العمل الصابر الجادّ الشريف، وذلك ما يقع في مجتمعي وفي مجتمع مصر وفي مجتمعات الدنيا... فما معنى هذا الانتقاد الذي يُوجَّه إليّ؟

هل ينبغي على الروائيين أن يصوّروا دائمًا التردّي الأخلاقي حتى يتمتّع أدبهم بالاحترام؟! أكان يَسُرُّ ناقدي لو أني جعلت الأمّ تنحرف عن الشرف فتصبح -مثّلا- "قوّادة" (ومحفوظ

يهتمّ كثيرًا بهذه الفئات في رواياته)، ومكّنتُها من أن تستثمر بناتها في طريق الرذيلة؟ وعندئذ يكفّ الناقد عن القول بأنّ سلّم القيم الأخلاقية التقليدي كان "مقبولا تماما لدى الكاتب دون أدنى مناقشة حتى في مفهوم الحبّ الذي يُعتبر خطيئة قاتلة إذا لم يؤدِّ إلى زواج".

إني لأوشك أن أجيب: أجل، إنّ القيم الأخلاقية -التي يسمّيها "التقليدية" تحقيرًا لها! - مقبولة عندي، ولكن بعد مناقشة ومراجعة، فأنا -مثلاً- لم أعتبر الحبّ "خطيئة قاتلة إذا لم يؤدِّ إلى الزواج"، كما يزعم الناقد، بدليل أني سمحت للعاشقين، "هالة" و"سمير"، أن يناما معًا في فراش واحد! فلماذا يصوّرني في صورة المتزمّت، ثمّ يرميني بسهم انتقاده متشفيًّا؟ أسوءُ فهم هذا، أم أنها "شعارات" في الأخلاق "جديدة" يريد أن يرفعها بالحقّ وبالباطل؟

من مجلة "الثقافة العربية"، يناير/ كانون الثاني ١٩٧٦

دمشق الشام: فجر السبت ١٥-١٢-٢٠١٨

مما أعرف أنّ مُفتيًا في حلب توفي

مما أعرف أنّ مُفتيًا في حلب توفي، ذلك قبل ستين سبعين سنة. وكانت له مكتبة فيها ما فيها من الكتب الفقهية والأدبية، اقتسمها أبناؤه الأربعة وكانوا من أهل التخصصات المعاصرة.

في اعتزاز الأبناء بإرث أبيهم خصّص كلّ في منزله مكتبة ضمّت حصته من هذه الكتب. خلال ما تلا من سنين لم تمتدّ يدٌ إلى أيّ من هذه الكتب. بعضهم رفعها إلى سقيفة في بيته وبعض أودعها القبو. أكلتها الرطوبة... وانتهت بذلك حياة هذا الإرث.

ترى ما يحصل لمكتبتي غدا، وفيها أضعاف أضعاف ما كان في مكتبة المفتي... وذرّيتي كلّهم في الشتات؟!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٨-١٢-٢٠١٨

اتفق لي يومًا

اتفق لي يوما، وأنا أ سير على رصيف سور "التكيّة السليمانية"، أن سمعت أحد باعة الكتب القديمة هناك يناديني ليقدّم لي نسخة من كتابي "الظمأ والينبوع" (ط ٢ بيروت ١٩٦٤)، وجدت صفحته الأولى ممهورة بإهداء مني (عام ١٩٦٦) إلى قاض للأحداث صديق لي، وكان قد توفي قبل حين رحمه الله.

كنت في حاجة إلى نسخة من هذا الكتاب. وقد سرّني ما لاحظته من أن "المَلازم" فيه "مفتوحة" من أعلاها بسكين، فالكتاب قرئ إذن!

لما هممت بأن أنقد البائع الثمن قال: هدية! فالبائع يتّصف بالكياسة والرهافة.

لا غضاضة، أصدقائي، في أن نرى بعض كتبنا المهداة مطروحة على الأرصفة تنتظر من يشتريها.. إلّا إذا كان المهدى إليه على قيد الحياة!

يسعد صباحكم.

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ١٨-١٢-٢٠١٨

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر..

هاجر بعض مسيحيّي بلاد الشام (غربيّها)، تحت وطأة الاضطهاد العثماني، إلى الأمريكتَين، وبعد سنين من الهجرة بدأ يطلع منهم كتّاب وشعراء، ومن نوابغهم: جبران، ونعيمة، والشاعر القروي، وإلياس فرحات، وجورج صيدح وزكي قنصل وغيرهم كُثر...

وسُمّي نتاجهم "الأدب المهجري" دارت عليه أطروحات ومؤلفات.

اليوم، ونحن في مطالع القرن الحادي والعشرين..

هاجر، من كلّ أنحاء الشام، الملايينُ، أقول: للنزهة، للسياحة، لا غير هذا.. وانتشروا في كلّ أصقاع المعمورة، في الغرب البعيد، وفي الشمال القطبيّ، والجنوب الدافئ... حتى وصلوا شرقًا إلى ماليزيا وتايوان واليابان..

تُرى ما نوع الإبداع، الذي سوف يقدّمونه لنا، في الغد القريب أو البعيد؟

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٨-١٢-٢٠١٨

بدنا الخبزة جوعانين!

قبل الحرب العالمية الثانية لم أكن أعرف، وأنا طفل صغير، الجوعَ للخبزةِ تؤكل، ففي بيتنا مؤونة من الحنطة، يُحمل منها كلّ حين كيسٌ إلى المطحنة، تَعجِن نساء الدار عجنة منه، و... "يا ولد، روح لفرن أواديس خلّي يبعت حدا ياخد العجنة! ".

لكن... ذات يوم في بداية تلك الحرب، وأنا في سويقة حارتنا، فوجئ الطفل في إهابي برؤية مظاهرة لا تهتف برحيل المستعمر الفرنسي، لكنها تنادي: "بدْنا الخبزة جوعانين! "، فريق منهم ينادي بدنا الخبزة ويتردد الفريق الآخر جوعانين. وقفت أشاهد، وكان في التظاهرة نساء أيضا، هذه امرأة أعرفها، يهودية من فقراء "بندرة اليهود" المجاورة لحارتنا "زقاق الزهراوي".

في البيت تحدّثت أمام جدّتي عمّا شاهدت، فرأيتها تذرف دمعًا. استغربتُ. ثمّ في حديث الأسرة ليلاً، سمعت أحاديث عن الجوع في "حرب السفربرلك"، عاصرتْها الجدّة، سيدة الدار وما كان لها أن تنسى. وفي الليل أخذت أتصور البيت بلا خبز.

ولكن الناس لم يجوعوا. ظهرت في البلد مؤسسة سمّيت "الميرة"، توزّع الطحين بـ"البونات" (القسائم) على من يطلب من فقراء الناس... ذلك حتى نهاية الحرب.

استمرت تلك الحرب ستّ سنين، ما أصاب شعبنا من شواظها إلّا دخول الإنكليز بلدنا مصحوبين بفيلق من الفرنسيين التابعين لحكومة "الجنرال ديغول" في منفاه، وكان من عندنا من الفرنسيين يتبعون "حكومة فيشي" بقيادة الجنرال بيتان.

تلك من الذكريات.

وحربنا "الوطنية السورية" اليوم توشك أن تُتمّ عامها الثامن. وبعد انتقاص الحريات العامة، وبعد البراميل تهاطلت على الرؤوس والمنازل، وبعد هجرة نصف سكان البلد، وإحكام النظام قبضته... ما زلنا نعاني أكثر مما عانى أهلونا في الحربين الكونيتين.

اليوم طوابير من شعبي غير المنتصر، تنتظم في صفوف بجوار جرار الغاز الفارغة... أعرف أنه الحصار الدولي علينا.

ذلّ... قبله ذلّ، وبعده ذلّ.

أليس في العالم من يشفق فيضع حدّا لعذاباتنا أرواحنا وجراحات قلوبنا!

إذا كان هذا التخلّي واقعًا... فهل يتخلّى بارئنا عنّا أيضًا؟

دمشق الشام: فجر السبت ٢٢-١٢-٢٠١٨

أبو المَيّ

حتى منتصف ثلاثينيات القرن الماضي لم تكن الكهرباء قد دخلت بيتنا في "زقاق الزهراوي" (شمالي الجامع الأموي الكبير بحلب)، وكنّا سمعنا عن البرّاد (الثلاجة) الذي يوضع فيه الطعام حتى لا يفسد، يعمل على الكهرباء، وفي الشَّعْرية (النَّملية) كنّا نودع ما يزيد

بعد تناول الأسرة طعامها.

والماء كنا نضخّه بـ"الطُّرُمْبة"[1] من جبّ في المطبخ التحتاني، ونصعد بسطول التوتياء الثقيلة نحن الأطفال، للاستعمال اليومي ولسقي الزرعات ترعاها سيدة الدار، وأما الماء للشرب، فكان يأتينا به السقّاء "أبو محمد"، يحمل لنا كل يوم صفيحتين، فإن مسّت الحاجة يوما إلى مزيد حمّلني أهلي إبريقًا أذهب به إلى "العين" (بدمشق: الكبّاس)، لأعود به ملآن.

أبو محمد، هذا الرجل الصبور الصامت، (الذي كنت أراه مسنًّا، ولا أظنّ اليوم أنه كان يعدو الأربعين أو الخمسين)، كنّا نسمّيه "أبو المَي". وعودة للحديث عن البراد، كانت جدتي تُحمّلنا في بعض الأمسيات ما يفيض من الطعام نذهب به إلى بيته، في "حارة السوّاسين" (تصنع الأسر الساكنة فيه شراب السوس/ العرقسوس، ويسوّقونه)، الواقعة في ظهر زقاقنا. وكان يطيب لنا أن نرى البِشر يملأ وجه زوجته لحظة تتلقى منّا.

ما تزال ملامح أبو محمد في مخيلتي بعد مضي ثمانين عامًا ويزيد، وأتذكر عندما كنا نفتح له الباب، يدخل ويقول "يالله" لتتنحّى الحريم، وأراه يسكب الماء في الخابيتّين، في أرض الحوش والأخرى في المطبخ الفوقاني.

دخلت بيتَنا الكهرباء و"ماء الشركة"، وظللنا نتردّد على بيته في بعض الأمسيات.

سقى الله تلك الأيام.

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٣-١٢-٢٠١٨

---

(١) المِضخّة.

"الماردلّيّة" الجميلة

كان من بين النازحين (أو المهاجرين) إلى حلب عام ١٩١٥ طائفة من الناس، فقراء حتى الإدقاع، سمّوهم في حلب "ماردلّ" (والنسبة ماردلّي، وينتسبون إلى ريف "ماردين" وراء حدودنا مع تركيا)، وكان الأولاد منهم يعلّقون على الأكتاف صناديق صغيرة يمتهنون مسح الأحذية، والنساء يدقّون الأبواب مساء يتسوّلون وقد يشتغل بعضهن في البيوت إن أتيح، وقد وعيتُ، وأنا طفل في ثلاثينيات القرن الماضي، جماعة منهم كانوا يسكنون في بيت خَرِب غير بعيد عن حارتنا، في حيّ "بَحْسِيتا".

تعرّفنا مرة على واحدة منهنّ دقّت الباب، فدعتها جدتي للدخول وحادثتها حتى اطمأنت لها، وكلفتها غسل الصحون في المطبخ التحتاني في بعض الأماسي، وكنت أنزل إليها أحيانًا فأراها تجلو الصحون والطناجر بخرقة تغمسها بـ"الصفية" (الرماد)، فلم تكن شاعت المواد الكيماوية بعد، وتنهض تضخّ الماء من الطرمبة وتغسل. كان اسمها "نورية"، وهي مسلمة، وكانت أمينة ونظيفة، وتلبس المزركش الذي يغلب عليه اللون الأحمر أو القرمزي. ومكافأتها المعتادة ما زاد من الطعام (لكن يظلّ لـ"أبو المَيّ" نصيبه!)، وتضع جدتي في يدها مبلغًا. وقد ألفناها نحن أفراد العيلة، وكنت تزورنا في الأعياد أيضًا.

وحدث أن انتقلنا في صيف ١٩٤٢ إلى حي الجميلية، فبعدت المسافة، ولا أذكر ما إذا كانت تأتي للعمل عندنا.

لكنني أذكر أنها زارتنا في ضحى أول الأعياد ونحن في مسكننا الجديد، ففرحنا بها كثيرًا، وكان في صحبتها صبية، قالت إنها ابنة أخيها، جميلة ومرحة، تلبس المزركش الجميل الفضفاض، وتُحلّي جيدها وجبينها بذهبيات برّاقة.

وأذكر أنّ الأسرة ومن كان في زيارتنا تلك الساعة سُرّوا بالتعرّف عليها، والشباب

والفتيان... شَقْرَقوا!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٤-١٢-٢٠١٨

حكاية شغّيل فُصل من عمله

قبل نحو خمسين ستين سنة، وكنت أعمل في الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب، جاءتنا شكوى من أحدهم بأنّ صاحب المحلّ صَرَفه من الخدمة "لأسباب تعسّفيّة"، فذهب أحد الموظفين لينظر في المسألة وعاد مخيّبًا. وكان صاحب المحل تاجر "قرطاسيّة" مرموقًا في البلد، أعرفه وأشتري حاجاتي الصغيرة من محله الأنيق، وهذا الشغّيل هو مَن يتولى التعامل معي.

فقلت: أذهب بنفسي.

وجرى بيني وبينه بحضور العامل حوار، أصرّ فيه القويّ على صرف الضعيف، مقدّمًا أعذارًا لم أجدها مبررة. وكان من شأن ذلك أن نُلزم رب العمل عبر إجراء قانوني بأن يدفع ٨٠٪ من الأجرة للعامل وهو في بيته لا يعمل.

استوقفني في أثناء الحوار أن صاحب العمل وكأنه أراد أن يستميلني، نطق لسانه بعبارة: "هادا ماردلّي، ماردلّي! "، فجعلني ذلك أقول له وأفيض بأنّ أهل هذا الشاب إن كانوا جاؤوا إلى بلدنا يوما مهاجرين، ثمّ أصبح ابنهم بائعًا مؤهّلاً لأن يعمل في محلك الأنيق، فأهلاً ومرحبًا به مواطنًا بيننا، بعبارتك هذه زدتني تقديرًا له... وكلامًا من هذا القبيل، وأذكر أنّ الرجل، الذي بدا لي بتلك الكلمة ساذجًا جدًّا، اتّسعت عيناه دهشة!

وقد وُفّقت في أن أُحِلّ وئامًا بين الطرفين، وصافح العامل معلمه وغمغم بالاعتذار، وعاد إلى عمله، فكنت كلما دخلت إليهم أشتري، أتلقى من "صديقي" الماردلّي نظرات "العرفان"، وهو لا يدري أني مارست في مسألته حقيقتين اثنتين: كوني موظفًا في الدولة وقبل ذلك إنسانًا.

وللعلم كان الاثنان من مسيحيّي البلد، الذين يُسهمون مثل الجميع في بناء المجتمع كلّ بما يقدر عليه. اسم الأول (غ. ش)، ولم أعد أذكر اسم الثاني وكان من مواليد مدينة القامشلي.

ليرحمنا الله تعالى.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٢٤-١٢-٢٠١٨

ويصل الحُلم بالمهاجر السوري

ويصل الحُلم بالمهاجر السوري

أن يتساءل

وهو يرى صور الكبّاد في وطنه متدلّيًا من أغصان الشجر

ما إذا كان يُقدَّر له أن يعود

فيملأ في الربيع صدرَه من عبير زهره

ويلمس في الشتاء بيديه قشر ثمره المتجعّد!

ويستدرك:

هل يتذكّرني الوطن إن تأخّرت في المجيء

أم أنّ النسيان يطويني!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ٢٥-١٢-٢٠١٨

الجزء الثامن

٢٠١٩

عام على الرحيل

زعيم تُعوزه الاستراتيجية

عندما قام الضباط (الأحرار بين قوسين) بانقلابهم يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لم تكن تدور في أذهانهم قضية "القومية العربية". كان الشعب المصري إسلامي الاتجاه، وقلة قليلة تتباهى بالحضارة الفرعونية العظيمة بحق، ولا تتعدّى "عروبتهم" أسوار "جامعة الدول العربية" التي وُلدت في ربوع القاهرة في العهد الملَكي.

لكن تأميم القنال (وإني مع الذين رأوا فيه عملاً متسرعًا)، وكذلك ما عبّرت عنه الجماهير العربية من الخليج إلى المحيط من تأييد كاسح.. لفت نظر الزعيم الأسمر، وزاد في التأييد والاستلفات "العدوانُ الثلاثي".. فتحول ناصر من يومئذ عروبيًّا. وكان ذلك جديدًا على ضباط الحركة وعلى الشعب المصري بوجه عام، إلا قلةً كانت تتبنّى القومية العربية ممتزجة بالإسلام.

لم يكن عبد الناصر يحمل فكراً استراتيجياً قط، وكان إلى ذلك مصاباً بمرض "السكر البرونزي" (الذي يجعل صاحبه متسرعًا في إصدار القرارات)، وكان نرجسيًّا يعبد ذاته.

نحّى وأذلّ رئيسَه اللواء محمد نجيب، وأدخله الإقامة الجبرية في "عِزبة زينب الوكيل"[٤١] المصادَرة، طيلة حياته (حياة ناصر)، لأنه طالب رفاقَ السلاح بإنجاز وعدهم بالديمقراطية، وأخذ يصرف ضباط الثورة واحدًا بعد آخر، واستبدّ وطاش حتى إنه بعث عمالًا إلى "مجلس الدولة" ليضربوا، أو يقتلوا، رئيسه عبد الرزاق السنهوري أكبر "ذهنية قانونية" في الوطن العربي، ونُقل إلى المستشفى، وأمعن في الجعجعة بأنه سوف يرمي اليهود في البحر، فازداد التصفيق له من الجماهير العربية الطيبة.. ودخل حرب اليمن السخيفة وفيها ضحّى بثلاثة

---

(٤١) زوجة النحاس باشا

وعشرين ألفًا من الجنود المصريين. ولما جاءت نكسة حزيران/ يونيو بكى أمام الناس في التلفزيون واستبكى.

وقد بلغ الغرور بهؤلاء الضباط الفاقدين لآداب السياسة والكياسة، أن أحدهم ذهب يومًا إلى بيت مطلقة الملك فاروق "فريدة"، للحجز على ما كانت تلقَّت من مَصاغ من الملك في حياتها الزوجية، فهو ملك للشعب، فقدمت السيدة الأبيّة له كل ما هنالك، فسوّلت له نفسه أن "يطلب يدها"، فطردته من بيتها، هو البكباشي "جمال سالم"، وليس صلاح سالم، فهذا الآخر ضيَّعَ الوحدة مع السودان، الشعب الذي كان متوجهًا للاتحاد مع الشقيقة الكبرى مصر.

في ربيع ١٩٥٤ خرجنا نحن طلاب جامعة القاهرة ومن جاء إلينا من طلاب جامعة عين شمس، نهتف بصوت واحد: "يسقط حكم البكباشية"، بعد أن كنا خدعنا فرحنا وصفقنا!

كان جمال عبد الناصر وبالًا على الأمة، قد خرّج فيها القذافي والنميري[٤٢] وبتوع اليمن وقبلهم "بن بلّه" الذي زيّن ناصر له أن يحكم الجزائر حكمًا فرديًّا وينفي عنها النهج الديمقراطي الذي كان الثوار قد أعدّوا له.

ما كنت، أصدقائي، أريد أن أكرر هنا ما سلف، ولكن الأصدقاء نادوني، فاستجبت موجَع القلب. دمشق الشام: ليل الخميس ٣-١-٢٠١٩

هل في بلدكم أفران؟

في أيلول ١٩٦١ اتفق أن أُوفدت وزميل لي في الوظيفة إلى مصر في دورة اطّلاعية، اقتضت منا السفر إلى بعض المدن في الدلتا.

---

(٤٢). جعفر النميري: ضابط سوداني قام بانقلاب استولى فيه على السلطة عام ١٩٦٩، وظل رئيساً للسودان حتى عام ١٩٨٥.

في دمياط ذهبنا ومرافقنا المصري صباحًا إلى محافظ المدينة للتعارف حسب العادة، ومنها إلى بعض المؤسسات للاطلاع. وكان من لطف المحافظ أن دعانا للغداء في نادي الموظفين. وهناك حضر الطعام وفيه الخبز الذي يسمّونه "العيش الشامي" أبيض معجونًا ومخبوزًا بعناية، منتفخ الوجنة موردًا.

من إعجاب مرافقنا، وازدهائه بهذا الخبز الذي أظن أنه لا يأكله إلا في المناسبات، قال وعلى المائدة بيننا ممثلٌ عن المحافظ: هوّه في سورية عندكو أفران؟

وتذكرت نكتة "عندكم شوارع"، فقلت: لا!

فاستغرب: امّال بجيلكم الخبز منين؟

قلت: نبعت بالعَجْنة إلى لبنان فتأتينا خبزًا (وسألته:) العيش الفاخر اللي قدامك اسمه ايه؟

قال: "عيش شامي"!

فقلت: هو من عندنا، وبتسأل عندكو أفران؟

فكان خجلُ ممثل المحافظ أشدّ من خجل مرافقنا الهمام.

في انصرافنا هنّأني زميلي في الإيفاد على "سرعة البديهة"، ويومذاك وقع، ونحن هناك، انقلاب ٢٨ أيلول، الذي فكّ الوحدة بين القطرين. ثم جاء يوم آذار، فأصبح زميلي هذا سفيرًا أو دون ذلك بقليل، لأنه كان من "المناضلين البعثيين" القدامى، وظللت أنا أتنقّل بين المحافظات السورية موظفًا لا يرتاح له النظام!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٤-١-٢٠١٩

اتحاد الكتّاب وأهل حارتي

كان يُتوقع من النظام أن تُملي "تقدّميتُه" على اتحاد الكتّاب، أن يبعث كلّ حين إلى الكاتب ابن التسعين أعضاءً منه محبّين ودودين يسألون عن الصحة.

ولكن الواقع أنّ كبيرهم، اليوم، يَمنع نشر مقالاتي في مجلات الاتحاد ويَمنع أيضًا أن يُذكر اسمي في أي مقالة تُنشر.. لأني معارِض بالكلمة الحقّ: للظلم والقهر، ولكلِّ أشكال الفساد الذي منه هذا التصرف غير المسؤول.

وأهل حارتي عندما يرونني عائدًا إلى البيت، يأخذون عني كيس المشتريات.

يقولون: كنّا عايشين!

أقول: لسّه عايشين!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٦-١-٢٠١٩

في يوم بعيد

في يوم بعيد روى لي صديق العمر "عاكف باكير" هذه السالفة وما كنت أعرفها: أن "لينين" كان مرة يقف على قارعة طريق يحاور صديقًا في أيديولوجيتهما المشتركة، فمرّ متسوّل، همّ الصديق بأن يعطيه، فقال له لينين: "لا تؤجّل الثورة"!.

طيّب، المرأة (موضوع التغريدة السابقة "طوبى للحاكمين! ")... التي سقف بيتها من أغطية بالية، ونوافذه من رقائق النايلون، وتقضي ليلة ماطرة وهي تنزح الماء من أرض غرفتها، بيتها، وفي جيوب آخرين المليارات... ألا يُحرِّض هذا على "الثورة"؟

لكن... ثورة ممّن، وضدّ مَن!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٨-١-٢٠١٩

يوم افتتاح "دار الكتب الوطنية"

يوم افتتاح "دار الكتب الوطنية" في مدينتي الحبيبة حلب، وأنا طفل يتهجّى القراءة، مررت برفقة أبي من أمام هذا المبنى البهيّ... وحاولت أن أقرأ اللافتة وفيها الاسم، وتحت تأثير الحراك الوطني يومذاك وترداد كلمة "الكتلة الوطنية" قرأت اللافتة هكذا: دار الكتلة الوطنية، فصحّح لي أبي، الذي ما كان يخطر في باله أنّ هذا الطفل المتشبّت بيده سوف يغدو كاتبًا، وتودع مؤلفاته في خزائنه، ويقف في هذا الصرح محاضرًا!

دمشق الشام: فجر الجمعة ١١-١-٢٠١٩

لك أعزف على نايي، يا وطني

صدر مطلع هذا الشهر في باريس العدد الرابع من المجلة الشهرية "كل العرب" يرأسها الناشط السياسي "علي المرعبي" وفيه القسم الثاني من حوار كانت أجرته معي الأديبة الإعلامية "ماجدولين الرفاعي".. أقدم لكم هنا إجابتي عن (السؤال الثامن)، وسوف تليه البقية.

\- - - - - - - - - - -

س٨- يقول الروائي عبد الرحمن منيف[٤٣]: إن التاريخ يعلّم الإنسان الدروس، ويجعله أكثر وعياً وأقدر على اتخاذ الخطوات المناسبة.. فماذا علّمك التاريخ؟ وهل غيّر من اتجاه خطواتك؟

ـ لا أرى البشر يعتبرون بحوادث التاريخ وأحداثه، بل أحسب أنهم يستفيدون منه بأن

---

(٤٣) كاتب وروائي سعودي، عد واحدا من أبرز الروائيين العرب في القرن العشرين.

يُدخلوا "تعديلات" على السلبيات التي يمارسون ويتابعون.

ولأضرب لذلك مثلا: قبل خمسمئة سنة عمّت العالمَ ظاهرةُ أن يحتلّ شعبٌ شعبًا آخر بهدف نهب ثرواته، وليس بدافع اعتقادهم أنهم يقدّمون حضارة (فتوحات الإسكندر المقدوني، الفتوحات الإسلامية...).

واعتزّت انكلترا بأنّ ممتلكاتها وراء البحار لا تغرب عنها الشمس، وكذلك إسبانيا والبرتغال وفرنسا وروسيا... ولما قُيّض، في منتصف القرن العشرين، للاستعمار أن ينتهي أجلُه، قامت أممٌ أخرى طالعة، بأن عدّلت وكيّفت، واتخذت من اقتصاد الدول الأخرى هدفًا لها ترميه من بُعد، ومن قُرب تقبض على العنق وتعتصر، أعني تلك الدولة التي باتت تحكم العالم وتزدهي، وتهابها حتى دول القارة العريقة، وفي ذلك تُذلّ دول العالم التي لا طاقة لها بالدفاع عن النفس.

وإذا كان هناك دولٌ قد أخذت بأسلوب الديمقراطية -الذي ليس هو حكمَ المدينة الفاضلة إذ يحكمون بالحديد والنار وبالدم المسفوح في الأقبية المعتمة وفي وَضَح النهار، بل هو "أحسن الموجود"- فإنّ أمماً أخرى ما زال يسيطر عليها المُنْتَزون من أبنائها، غير مبالين بعِبَر التاريخ.

وأما أنا، يا صديقتي، صاحبَ القلم النازف المستمِدِّ حبرَه من دم القلب، فإني ما زلت منذ وعيت أغنّي للحرية، مثل غجريّ تائه، قصائد تُطربه، وإن عرف أنّ عدد المُتَطرّبين قليل.

وإليك كلمات افتتحتُ بها كتابي "تقول الحكاية" (دمشق ٢٠٠٦(:

لكِ أغنّي

أعزف على نايي

أروي الحكايات

أقول وأقول...

تُصفَق في وجهي الأبواب

توصد عليّ الأبواب

أنطلق إلى عَراء الوطن

أغنّي وأغنّي

والعينان في الأفق

أيتها الحرية الجميلة

آمنت بأنّ فيك الترياق

الذي يَشفي من كلّ فاسد وقبيح

ويُعيد إلى الحياة جمالها ورُواءها

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ١١-١-٢٠١٩

كُتُبٌ.. وخيام

صديق لي على الفيس.. اتصل بي، من مُقامه في أوروبا، يسألني إن كان في وسعي أن أزوّده بكتب معيَّنة صادرة عن وزارة الثقافة؟ ومن المركز الثقافي بأبو رمانة جاء بهذه الكتب ابني فراس، ثمّ أودعها طردًا في البريد.

جلست أحدّث النفس عما وصلت إليه المدنيّة الحديثة من مخترعات تقرّب البعيد وتيسّر

أمور البشر، حتى للقابعين داخل حصار من اقتصاد وثقافة!

وتساءلت:

ونحن؟ نحن يغادر مواطنونا البيت والوطن إلى العيش تحت الخيام، وتلقّي اللقمة من أيدي مغيثين أمميّين!

واعجباه!

دمشق الشام: ليل الجمعة ١١-١-٢٠١٩

هل نُعيد كتابة التاريخ مزوّرًا؟

في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س١٠- قال تشرشل: التاريخ يكتبه الأقوياء.. إلى أي حدّ تجعلنا نشكك بالتاريخ وبأبطاله؟

ـ لم يكن "عصر التدوين" قد حلّ في زمن بني أميّة وهم في دمشق، كانوا في "عصر الفتوحات". وبعد أن دالت دولتهم ابتدأ التدوين في غضون ما تبقّى من المئة الثانية للهجرة (ق٨م) والأمرُ يومئذ بيد العباسيين، فكتب المتزلّفون للأقوياء والمُنصفون معاً ما كتبوا من تاريخ الأمويين. أقول للاستطراف: ويوم كتب "أبو الفرج الأصفهاني" الأمويُّ الهوى والنسب، موسوعته "الأغاني"، تلقى من أمويّي الأندلس أنهم يطلبون نسخة من الكتاب بالثمن العزيز.

أقول: ليس هناك تاريخ صحيح بتمامه، ولست أراها مشكلة عصيّة، فإنّ الباحث المعنيّ بالحقيقة يستطيع أن يتلمّسها بالتدقيق في أوراق التاريخ المتباينة، فيستخلص، بالمعارضة والمقارنة، مقادير منها، يَدخلها أيضا الهوى. واستطرادًا أقول: حمدًا لله أن كتابة التاريخ ليست

"مقنّنة"، بمعنى أن يكتبها "كتّاب سلطة" يأتي ما يكتبون في غاية التزوير ثمّ تُفرض السلطة ذلك على العقول. مثل هذا المشروع قام في بلدي وأطلقوا عليه "إعادة كتابة التاريخ"، وأُنشئت له مجلة سمّوها "دراسات تاريخية" تصدر عن جامعة دمشق. وليس لمصطلح "إعادة كتابة التاريخ"، في نظري، من معنى إلا تقديم نسخة للتاريخ مزوّرة. وللعلم، ذهب المشروع وبقيت المجلة.

وغنيّ عن البيان أنّ هناك من يكتب التاريخ بعيدًا عن الأعين، يَشيع فيه قليل أو كثير من دفء الحقيقة، يبقى في العتمة إلى يوم يكتشفه الناس فينشرونه. أذكر على سبيل الطرافة ذلك المكتوب بالعامية تأليفَ المؤرخ الدمشقي الشعبي "البُدَيري الحلاق" (من أهل القرن الثاني عشر للهجرة)، نُشر في النصف الثاني من القرن العشرين بعنوان "حوادث دمشق اليومية"، فيه من بَوح الأسرار الصغيرة ما يُبهج النفس، ولا عيب فيه إلا أنّ يدًا مرّت عليه شاءت أن تخفّف من غُلواء عاميّته فما أحسنت صنعًا[٤٤].

دمشق الشام: ليل الجمعة ١١-١-٢٠١٩

وأتابع حلمي.. بالحرية

في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س٩- تتميز منشوراتك في الفيسبوك بالجرأة والنقد المباشر لنظام الحكم في سوريا. ألا تخشى على نفسك من الاعتقال؟

ـ الاعتقال لم يُخْطئني، وقد طالني لسبب أدبيّ يتماهى مع السياسة. وإذا كنت قد كرهت

(٤٤) يقصد تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي لكتاب البديري.

الخاكي من يوم أن قام ذاك العسكري بانقلابه عام ١٩٤٩، فإنّ كراهيتي هذه تعمّقت -مِن بَعد وهْمِ الفرح- منذ خرجتُ مع طلبة جامعة القاهرة في ربيع ١٩٥٤ نهتف بحناجر غير مبحوحة: "يسقط حكم البكباشيّة".

تلك الأيام كنا نحلم بديمقراطية استمدّها شعبُنا وهو تحت "نير الانتداب الفرنسي"، ولكن الطامحين الثوريين المترجّحين بين الانتهازيّة وبهاء الأحلام، لم يريدوا لهذه الديمقراطية الوليدة أن تقف على قدميها، فأجهزوا عليها دَوْسًا ببساطير العسكر. واستيقظ في داخلي ما كنا هتفنا به قبل عقد من سنين وراء أبواب جامعة القاهرة، ولأني لم أجد هنا من يشارك في مثل ذاك الهتاف، انزويت منذ الستينيات في بيتي الوادع، أتابع الحلم بالحرية وأغنّي لها المواويل.

وإذا كنت كتبت عن لقيمات المكدودين المغمّسة بعرق الجبين فقد استغرقني كذلك التعبير عن القهر الذي يخضع له ذوو الفكر الحرّ والثقافة والإبداع، وهل هناك أمرّ من أن يُضطرّ العالِم إلى اختراعٍ يمكّنه من أن يُغيّر "ملامح" وجهه ولونَ العينين والبشرة والطول والعرض، ليقول لهم ساعة الوقوع في قبضتهم: أنا لست أنا!.. وأن أصوّر المثقف يرضى في لحظة ذلّ أن يُقبّل بُسطار جَلاده أملاً في الخلاص، وبُعيد إطلاقه يدرك أيّ مهانة اقترف فيذهب بعيدًا إلى الصحراء، يبكي طول الليل وعيناه إلى الأفق الشرقي! ذلك ممّا ورد من قصص في كتابي "حزن حتى الموت".

ومع أني كنت أغلّف هذه القصص بكثير من الشفافيّة، فقد كان عسيرًا عليّ أن أنشرها في دوريات الوطن العتيدة، ومع الامتناع -إلا نادرًا- كان الموالون ينظرون إليّ على أني "مارق"، وأني لا أومن بتجلّيات التطوّر الذي به يتغنَّون.

وأعترف بأنّ النظام من فوقُ ما كان يأبَهُ بمثل هذا الصوت الخافت، ثقةً منه بالنفس تملأ أعطافه، ولكنّ الذين يمارسون "الثقافة" علينا كانوا يتولّون تأديبنا... فحرموني من كثير من

حقوقي الأدبية.

تسألين، يا ماجدولين، عن الخشية!

بدأت التعبير عن القهر، منذ الستينيات، في قصص تتخذ من "الفانتازيا" أسلوبًا في الشكل وفي المضمون. وفي "شبكة التواصل" المستحدَثة أخذت أرسل "التغريدات" المسربلة بالشفافيّة. وفي إقامتي بعيدًا لم أتوقف عن ذاك لا ولم أزد فيه... وإنّ النظام ليعرف أن لا تواصل بيني وبين أي طيف من الأطياف "فمَوّالي من رأسي". أجل، كنت على ثقة من أنهم لن يمسّوني عند عودتي بأذى، لتلك الأسباب، التي أصبح أولها السنّ، حدّثني صديق من "العارفين": "إنهم لا يريدون أن يجعلوا منك "شهيد رأي"، ولعلهم ينتظرون حلول الأجل أو موتَ الذاكرة!

دمشق الشام: ليل الجمعة ١١-١-٢٠١٩

السؤال.. عن نزاهة المؤسسات الثقافية!

مقابلة في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س١٣- يعيب البعض على الجوائز الأدبية مشككين بنزاهتها.. فما رأيك؟

- يا أختاه، أوليست النزاهة غائبة عن كثير من مناحي الحياة؟

شكوى ما زلت أرسلها من المؤسستين الثقافيتين الأكبر في وطني الحبيب، أحجَمَتا عن نشر كتبي، في الوقت الذي نَشرت الجيّد من الكتب والمتوسّط والرديء الغثّ. وقد علمت أنّ سيارات شحن جاءت يومًا تنقل من مستودعات اتحادنا ما يزن ستين طنًّا من كتب تأكلها الرطوبة والجرذان.. إلى معامل الكرتون!

أريد أن أروي أنّ جائزة في الخليج، بدا أنّ صاحبها محبّ لسورية ولنظامها، ما زال يمنحها -بالحق حينا وبغيره حينا آخر- لكتّاب من المَرضيّ عنهم من النظام. مرة حملوا إلى هناك كاتبا مُذْنَفًا، فنالها، وفي عودته انتقل إلى رحمة الله "مجازًا" سعيدا بها حظي، ولم يتحدث بذلك أحد!

ولكنّ الأمر ليس كذلك دائما. وأسمح لنفسي بأن أروي -للطرافة- حكايةَ تقدّمي إلى جائزة ما، ثمّ -بعد إرسالي النصّ- راودتني فكرة ما إذا حاز نصّي الدرجة الثانية وكان الأول بالمصادفة من الشباب الطالعين. فكتبت لهم: إنْ لم يفز نصي بالأولى فاحجبوه! والذي كان أني حزت الأولى، وسافرت إليهم. زارتنا في فندق الشيرتون هناك أمينة هيئة المسابقة (السيدة... جركس)، واجتمعت بالفائزين، وكان للمسابقة فروعُ إبداعٍ عدة ولكلّ فرع ثلاثة أوائل... وتحدثتْ، وهي حصيفة وفصيحة، بأنّ السباعي بعد أن بعث نصه ألحقه بذلك الاستدراك. وبيّنت أنهم يبعثون النصوص مُغْفَلةً من الأسماء إلى محكّمين في عواصم عربية شتى. بالنسبة لنص السباعي -قالت- جاءت النتيجة من كلّ المحكّمين في العواصم والسباعي يحوز في كلها ١٠٠ على ١٠٠، وهي، وهُم أنزلوا المئة إلى ٩٩ حسب تقاليدهم.

في تلك اللحظة نظرت إلى زملائي الفائزين حولي وهم في عميق إصغائهم، وقلت في نفسي: والله ما أظنّ أحدا منهم يروي هذه السالفة غدًا!

عنوان النص: الطبيب عبد الملك بن زَهْر الأندلسي. وكان ذلك في عام ٢٠٠٤، في إمارة أبو ظبي

أروي هذه السالفة دلالةً على نزاهة في المسابقات أيضًا.

دمشق الشام: السبت ١٢-١-٢٠١٩

اقرأ بصوت تسمعه أذناك!

في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س١٢- ماهي النصيحة التي يمكنك أن تقدّمها لجيل الشباب من الكتاب حتى يتمكّنوا من أدواتهم الكتابية؟

.في شبابي الأول كان لي دفتر أكتب فيه ملخصًا صغيرًا لكلّ فصل من فصول هذه الرواية التي استأثرت بإعجابي، فأضع بذلك يدي على "الجزئيات" التي شكّل منها الكاتب هذا الفصل من روايته وذاك. كان هذا في خمسينيّات القرن الماضي. والدفتر ما زال في حوزتي.

وكنت أعيد قراءة بعض القصص القصيرة، متعرفًا: كيف عبّر الكاتب هنا، وكيف استرسل أو أوجز هناك، وكيف بنى حواره واستدعى مقولاته؟

اليوم أنصح بأن يكتب الأديب الشاب، بخطّ يده، شيئا يسيرا من القصص التي تستهويه، فذلك يمكّنه من الدخول إلى عمق العمل واكتشاف أسرار الإبداع فيه.

وأنصح كل مَعنيّ بالثقافة أن يقرأ، بين الحين والآخر، بعض الصفحات المتميّزة، بصوت تسمعه أذناه، قصدَ أن يُفعّل "قواعد اللغة" التي درسها في الإعدادي وأوشكت أن تغيب في عالم النسيان.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٢-١-٢٠١٩

و"يكذب" الشعراء في الحبّ كثيرًا

في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س١٤- عندما يكتب الأديب أو الشاعر عن الحب يُتّهم بتعدّد علاقاته النسائية.. فهل

من الضروري الوقوع في الحبّ لأجل الكتابة عنه؟

ـ بعيدًا عن السؤال، يجدر بالكاتب الأديب أن يتحلّى بالحبّ بشتّى صوره، ابتداءً من حبّ الأمّ، مرورًا بحبّ المرأة، وليس انتهاءً بحبّ الوطن... فذلك يؤجّج مشاعره عند الكتابة ويُثري عاطفته ويجعله أقدر على الدخول إلى قلب المتلقّي.

عن حبّ الرجل للمرأة (وحبّ المرأة للرجل) معروفٌ عند كتّاب الرواية أنّ أولى أعمال الكاتب تكون أكثر قربًا واستلهامًا من حياته الشخصية. وسوف يتضاءل ذلك في أعماله اللاحقة مع تمرّسه في الحياة والكتابة والإبداع، فيُمسي أكثر اقتدارًا على خلق حالة، أو حالات من الحبّ وغير ذلك من المواضعات البشرية.

وقد يستغرق الكاتب، أو الشاعر، في وصف حالة حبّ، حتى ليحسب القارئ أنّ كاتب النص وكأنه ينقل من إحدى صفحات حياته الغرامية. وقع لي في روايتي "الظمأ والينبوع" مثلُ ذلك، حتى إني قرأت لكاتب مصري في مجلة "الأديب" يقول: إنّ المؤلف يروي ما وقع له! وفي تلك الرواية آخَذني الكاتب الكبير "ميخائل نعيمة" في مقالة له عنها، أني بالغت في التعبير عن تلك الحالة استدرارًا لعواطف القراء، على حين أشاد الشاعر اللبناني "الشاعر القروي" بما هدفتْ إليه الرواية من تعزيز للعفّة في زمن طغت فيه الاستباحة. كان ذلك على صفحات مجلة "الأديب" اللبنانية عام ١٩٦٥ (على الأرجح).

يمكنني القول: إنّ معيار نجاح الروائي، مثلاً، يتجلّى في مقدرته على أن "يتمثّل" كلّ الأحوال التي يريد أن يُضْفيها على شخوص رواياته، فإن هو أخفق سقط العمل.

في مسألة الحبّ... لن تفوتني الإشارة إلى شاعرنا نزار قباني، شاعر المرأة الأسمى، بتغلغله في أعماق الأنثى بشعر يبقى على الزمن... أقول: إنه كان يطيب له، على سبيل الدعاية، أن يقول إنّ قصائده العاطفية الفريدة يستوحيها من علاقاته مع من يصادقهنّ من النساء. وليس هذا

صحيحا. ولو قال إنها متخيّلة لكان أصحَّ وأدعى لبلوغه غاية الإبداع. ومن مبالغاته الزائدة عن الحدّ ما استمعت إليه، قبل نحو ثلاثين عاما في حوار له في إذاعة الكويت، يقول للمذيعة إنه "يحبّ كل يوم" (أو أنّ له في كلّ يوم حبيبة!)، فأدهش المرأة الطيّبة حتى هتفت: معقول!

أخيرا أزعم أنّ من تكاثرت حوله النساء يُبادلهُنّ الحبّ والغرام، يكون أعجز عن وصف عواطف المحبّ الصحيحة.

دمشق الشام: عصر السبت ١٢-١-٢٠١٩

هل أسرفت في الاستطراد؟

في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩

س١٥- دعنا يا سيدي نختتم الحوار بحكمة منك تبقى كمعلّقة فوق جدران الحياة.

ـ ما ظننت نفسي يومًا حكيمًا، يا سيدتي. ولأنني أحببت الأدب، والحياة، والحرية... أنقل هنا كلمة أنسُلها من إحدى قصصي:

"عندما يُضطهَد المواطنُ في وطنه الحبيب

يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبا

يصبح بلدًا من البلدان ليس إلا".

أخيرا... ليس سؤالًا مني لك، يا ماجدولين الرفاعي، ولكنه ما يُشبه الاعتذار عمّا إذا كنت في إجاباتي أسرفت في المثاقفة والاستطراد!

و.. سلام.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٣-١-٢٠١٩

البكاء على الوطن

بعد أن عادت الطفلة إلى البيت، من مدرستها التي أصبحت أنقاضا، أخذت تقصّ على أمِّها أنهنّ رأينَ اليوم دموعا تسيل من عينَي المعلم، وهو يحدّثهنّ عن الوطن.. فصعدت من بعضهنّ أصوات بكاء

فرأت أمَّها تنهض وتغادر المكان.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١٥-١-٢٠١٩

كان "صديقي"

كان "صديقي"، الذي هو من شمال إفريقية، مُشبعًا بحبّه لسورية الجميلة.

فلما قامت الانتفاضة تُطالب بالإصلاح، بدا لي عاجزًا عن أن يُفرّق بين حبّه للشعب وحبّه للحاكمين.. وجعل يقول إنه حرام أن يقوم الناس بهذه الانتفاضة، أو الثورة، والنظامُ هو الأمل الباقي لتحرير فلسطين.

ورأيته شغوفا بتلك الجريدة وراء الحدود، المتموِّلة، حتى إنه كان يشارك في صفحته بالافتتاحيات التي تُكتب من "تحت الطاولة"، ويُترجم بعضها للغة الفرنسية سعيدًا. ولم أعد أتابعه بعد أن اندثرت تلك الجريدة لتوقف الإمداد.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ١٥-١-٢٠١٩

عندما كان ذلك الزعيم

عندما كان ذلك الزعيم يجترح بطولاته في الجنوب، كنت أعبّر عن شكّي في نواياه بين أهل حارتي... فيرشُقونني بنظرات الإشفاق، وأقرأ في أحداقهم أنّ "الأستاذ" ناجح في الأدب

ولكنه فاشل في السياسة. ولا أستبعد أنّ بعضهم كانوا يرمونني فيما بينهم بالكبائر... فأتوارى عن أعينهم غيرَ خجلان!

بعد أن اجتاحت جحافله بلادنا، تقتّل آباءهم وإخوتهم وأبناءهم، معلنًا أنّ تحرير القدس يبدأ من ههنا... تَغيّروا، حتى إنّ واحدا منهم وقف في وسط الشارع يرفع صوتًا جَهْوريًّا:

ـ والله ما طلع في الحارة حدا فهمان إلا "الأستاذ".

لـمّا سمعت أذناي هذا دخلت بيتي أتوارى، تواضعًا وخجلاً!

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٢٢-١-٢٠١٩

كذب هِيكل عندما..

كذب هيكل عندما كتب أن القوتلي قال لناصر: ٢٥٪ من شعبي يعتقدون أنهم أنبياء و١٠٪ آلهة!

كتب الصحفي المصري محمد حسنين هيكل، إعلامي عبد الناصر، في الجريدة التي يرأسها "الأهرام" يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٦١ (أي بعد انفصام الوحدة بين سورية ومصر)، مدّعيًا أنه ينقل حرفيًّا ما قاله الرئيس شكري القوتلي للرئيس جمال عبد الناصر بعد التوقيع على اتفاقية الوحدة عام ١٩٥٨:

شكري القوتلي:

"هيه.. أنت لا تعرف ماذا أخذتَ يا سيادة الرئيس؟ أنت أخذتَ شعبًا يعتقد كل من فيه أنه سياسي، ويعتقد خمسون في المائة من ناسه أنهم زعماء، ويعتقد ٢٥ في المائة منهم أنهم أنبياء، بينما يعتقد عشرة في المائة على الأقل أنهم آلهة".

أقول: ليس في الدنيا شعب على هذه الصورة التي رسمها الكَذوب هيكل. إنه يفتري على الشعب السوري بلسان رئيسنا، تغطيةً على فشل سيده في التعامل مع الوحدة.

هذه الأوصاف السخيفة، لا يمكن أن يتقوّلها زعيم ديمقراطي نبيل، يحترم شعبَه الذي انتخبه برلمانُه بنزاهة.

أوصاف تهريجيّة، لا تنطبق على الشعب الحيوي المنتج مبدع الصناعات. ولو أنّ يد التأميم لم تطُله لكانت منتجاتنا تصل إلى أقاصي الدنيا.. وقد وصلت أقمشتنا ونسيجنا لبلده مصر أيام الوحدة. والصناعيون السوريون كانوا قد أسهموا في تأسيس الصناعات المصرية منذ مطالع القرن العشرين.

ولنعلم أنّ هيكل هو الذي كتب خطبة عبد الناصر "العاطفية" عقب نكسة حزيران/ يونيو، وهو من أعدّ "المسرحية" بتجميع طلاب مدارس في مكان في "مصر الجديدة"، ومنه انطلقوا في شوارع القاهرة بعد بكاء رئيسهم وإعلانه اعتزامه التنحّي.. يبكون ويستبكون الناس الطيبين.

آن للمخدوعين بهيكل أن يعرفوا حجمه ومقداره، هذا الذي نصّب نفسَه نجماً في امبراطورية الصحافة المصرية!

دمشق الشام: مساء السبت ٢٦-١-٢٠١٩

سيارة فاخرة، هدية لصحفيّ، من شاه إيران!

في يوم من أيام العام الدراسي ٥٢-١٩٥٣ (إن لم تخنّي الذاكرة) وأنا طالب في حقوق جامعة القاهرة، كنت في زيارة لسفارتنا في الزمالك عند صديقنا "فؤاد جوبي".

استرعى انتباهي شابٌّ في زيارته، يشبه السوريين كثيرًا ولكنه يتكلم اللهجة المصرية، جاء

كما بدا ليتحدث في أمر غريب:

أنّ صحفيًّا -وذكر اسمه- يعمل، كما قال، في مجلة "آخر ساعة" الأسبوعية (التي كان أسّسها بنجاح الصحفي المخضرم محمد التابعي ثمّ باعها للأخوين مصطفى وعلي أمين صاحبَي دار "أخبار اليوم" مع احتفاظه برئاستها)، قد تقاضى بالأمس (يعني الصحفي المشار إليه) "رشوة" من شاه إيران، هي سيارة فاخرة، من طرازٍ ذَكَره وأنا لا أُعنى بالسيارات!

ومع إدراكي أنّ هذا الشاب ما جاء سفارتنا إلا "ليُسرّب" هذه المعلومة -التي ما أدري مدى صحتها- فإني أخذت أفكر كيف يمكن لصحفيّ أن يمارس عمله بنزاهة إذا كان يتقاضى الرشاوي؟

فأما متلقّي الرشوة -كما زعم ذلك الشاب- فهو "محمد حسنين هيكل" وقد كان في أول طلعته. وأما الآخر فإني أحجم عن ذكر اسمه ولكن أشير إلى أنه أمسى كاتبًا معروفًا.

دمشق الشام: ليل السبت ٢٦-١-٢٠١٩

قليل من "كَرَز الوَشْنة"

أخرجت اليوم من البرّاد كيس "الكَرَز" (مما كان أهدى إليّ الصديق الوديع "أبو بديع"، مفقَّشًا[٤٥] مغليًّا قبل الادّخار فَورةً واحدة، أدخلته المُسخّن الكهربائي ليحُلّ تجمّده، ثمّ رفعته على نار هادئة.

وأما اللحمة الناعمة فتبّلتُها، وأعملتُ فيها يدي عجنًا، ثم كوّرتُها كرات بقدر حجم الجوزة بل أصغر قليلاً، وقليتُها على النار "نصف قلية" مع إحكام تقليب كلّ واحدة بالشوكة.

---

(٤٥) منزوع النوى.

بالنسبة لعصير الكرز على النار، أضفت إليه شيئا من ملح الليمون وملعقة سكر -على نحو لم يعهده أحبابُنا الدماشقة- و"ذقت"، فكذلك لقّنوني على الهاتف من حلب، أضفت وسوّيت.

في أثناء ذلك كنت أهيّئ الخبز بتقطيعه على شكل "مثلّثات" (فهكذا يفضّل الحلبيون لهذه الأكلة)، صففتها بعناية في طبق مُسَطّح، قواعدها للداخل والرؤوس نحو الخارج. وأعددت قليلاً من البقدونس، وفليفلة خضرا ولم يكن عندي منها باللون الأحمر انسجامًا مع لون "الكرزيّة".

رميت كرات اللحمة في القِدر لتتابع استواءها متشرّبةً من مرق الكرز.

ثم بالمِغرفة أخذت أُغرّق الخبزات بالمرق وأدحرج الكرات، ورششت فوق ذلك كله مدقوق القرفة ومفروم البقدونس الأخضر.

تلك هي "الكرزيّة" (أو اللحمة بِكَرز)، أيها الأصدقاء، أعددتها اليوم، وقد برع فيها أهلي الحلبيون فهي من مآكلهم المتميّزة.

أقول لكم: تفضلوا!

دمشق الشام: ليل الأحد ٢٧-١-٢٠١٩

هل يَعُدّونه نصرًا للنظام

هل يَعُدّونه نصرًا للنظام:

- أن يُحرّموا نزول اسمي، كاتبًا أو مكتوبًا عنه، في مجلات اتحاد الكتّاب وأنا من أعضائه المؤسّسين؟

- وأن يُقصوني عن زاوية أسبوعية صغيرة في جريدة كبيرة، والمكافأة لا تفي بثمن وجبة

بروستد؟

• وأن ترقد مخطوطةُ كتاب لي في عتَمات مؤسستهم النشرية عامين، ما أزال أنتظر صدورها وأنا في سنّ التسعين؟

وهم سعداء

لأنهم يُضيّقون على معارضٍ.. لا يملك من حطام الدنيا

إلا أناملَ مرتعشة يُسيّرها في بصر كليل على حروف الفيس؟

وإلا أطروحاتِ ماجستير ودكتوراه عن أدبه تعبُر العالم العربي والإسلامي وقارّة أوربا!

ألا... ما "أعظمَ" انتصاراتهم!

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٧-١-٢٠١٩

في العيادة السنّية

ذهبت قبل أيام إلى عيادة الدكتورة هيفاء، وقد كانت صنعت لي قبل مدة "جسراً" ممتدًا في الفك العلوي من طرف إلى طرف، وقالت لي إني مع ذهاب الورم من اللِّثَة بعد خلع الأضراس، سوف أجد الجسر يتخلخل شيئا فشيئا، فأعود لإجراء عملية تسوية، وقد صبرت حتى أحسست بالجسر فضفاضًا فتوجّهت إلى عيادتها بموعد -هو الساعة الواحدة ظهرًا- متأبطا بعض كتبي أقدمها هدية أدبية!

وكنت قد تعرّفت على مساعدتها في العمل السيدة "باسمة" التي لا تقلّ عنها لطفًا، ولكني الآن أجد في عيادتها -التي تجاورها عياداتٌ أخرى- غيرَ قليل من "المساعدات والمساعدين"، فسألتها شَغوبًا كعادتي، وأنا أجلس على الكرسي ما إذا كان عددُهم قد زاد لكثرة الشغل؟

فأجابتني وهي تسحب الجسر من فمي: "لا والله يا أديبنا الكبير، سمعوا بأنك آت.. فجاؤوا".

وأخذت أضحك والجسر مسحوب من فمي، وأنا أنقّل بصري بين هؤلاء الشابات والشباب، ورأيتهم يرسلون إليّ نظراتهم ثم يَغُضّون الطرف استحياء. وكان هناك طفل في نحو الثانية عشرة يقتعد الكرسي وراء المكتب يقرأ.

نشرت باسمة اللطيفة الكتب (وعددها ثمانية) على المكتب، فرنت إلى الكتب الأبصار، لكنّ أحدًا من الشباب لم تمتدّ يده إليها، عدا الطفل الجالس، سلّ من بينها واحدًا، المصوّر بالألوان، وجعل يقلّب صفحاته.

أقول: أعجبني إقبالُهم، ونظراتهم، وتأدّبهم... ويوم ذهبت لأتسلّم الجسر معالَجًا، سألت الدكتورة هيفاء إن كان بعضهم يودّ أن أكتب له كلمة للذكرى! فقالت إني ما كدت أخرج من العيادة حتى هجموا على الكتب وتوزّعوها. وباسمة قالت إنّ ابنها، وقد كان من نصيبه ذلك الكتاب الملوّن "العصافير تستحمّ بماء البِركة"، لم ينم حتى أتى على قصصه كلها.

فمضيت وأنا أحسّ أنّ جسر الأسنان متحسّنٌ جدًا!

دمشق الشام: مساء الخميس ٣١-١-٢٠١٩

لمّا ارتفعت أصواتنا بالضحك العريض

تعرفون ما قاله لي صديقي، "العارفُ بالأمور"، ونحن في حديقة بيتي أمس، نستمتع بدفء الشمس وحنانها، وبالنظر إلى ثمار الكبّاد المتدليّة، وفي اليد فناجينُ القهوة، وفي الأذن شدوُ العصافير وغناءُ الماء في تساقط حبّاته على سطح البِركة، والقطط تنظر إلينا بغير وجل؟...

قال، مفسّرًا صمتَ النظام إزاء ما أكتب من تغريدات رآها تجمع بين الشفافيّة المرحة وبين النقد خفيف الوجع... قال إنّ لسان حالهم يقول:

لن ندعوه للتحقيق، فإنّا نخشى، إن صرخنا به صرخة وهو في سنّه أن يسقط ميتًا، وعندئذ يرى فيه بعض المثقفين المُغشّى على أبصارهم "شهيدَ رأي"! نحن ننتظر أن يموت طبيعيًّا أو تموت ذاكرته بالزهايمر!

فأخذنا نضحك ونضحك ونضحك... حتى أفزعنا العصافير فطارت، وهربت القططُ إلى الشارع مذعورة، ونافورة الماء كفّت عن الغناء، والكبّادات اهتزّت لا ندري أمِن عجبٍ أم من غضبٍ أم من طرب... وأما الفناجين فقد سقطت على الأرض وتحطّمت...

وما توقفنا عن الضحك إلا لحظة أطلّ علينا الجار يسأل.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٣١-١-٢٠١٩

مطر وفطور

جاءه مَن يتولّى شَطْف الحديقة، وسأله أن يؤجّل العمل إلى غد، فالسماء تبشّر بغيث، قال: بل اعمل الآن، أريد أن أستمتع برؤيتها نظيفة!

استيقظَ عند الفجر، أطلّ، فرأى المطر يُجدّد غسل الأرض والشجر.

في ضَحوة النهار نهض. جلس أمام الشاشة يكتب. من عجبٍ أنّ الكهرباء لم تنقطع في موعدها!

دخل يُعِدّ الفَطور، لبنًا مصفّى دَهَن به قلب الشطيرة، رشّ شيئًا من ملح ونعنع. صحنٌ اختلط فيه الزيتون الأخضر بالعطّون الأسود، وكأسُ شاي محلّى كفاية، وحبّةً من فاكهة.

لما حمل صينيّته رأى الشمس تسطع في الحديقة!

وبعد أن تناول طعامه... رأى السماء تَغيم، والكهرباء تنقطع.

فدخل يستأنف النوم.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٩-٢-٢٠١٩

في النصف الثاني من القرن الماضي

في النصف الثاني من القرن الماضي تمّ اكتشاف غرف مغلقة في بعض الأديرة بإسبانيا تحتوي على جثث مسلمين ماتوا غدرًا على أيدي كهنة الأديرة، وهي رميم.

وللعلم إنّ الأندلسيين المدافعين عن بلدهم ودينهم في مواجهة الممالك المسيحية في الشمال، كانوا في أغلبيتهم الساحقة من أصول إسبانية، وكان أسقف قرطبة "خمينيس سيسنيروس"، ذو الدالّة الروحية على المَلِكين الكاثوليكيين "فرناندو وإيزابيلا"، يقول لهم: عودوا إلى ديانة أجدادكم، ليس من أجل شيء سوى أن تدخلوا الجنة.

والفاتحون الذين كانوا قد دخلوا إسبانيا ما أَرغموا أحدا على دخول الإسلام!

دمشق الشام: عصر الاثنين ١٨-٢-٢٠١٩

حدّثني صاحبي..

حدّثني صاحبي.. قال:

استحقّ لي مبلغٌ في إحدى العواصم الأوربية، فأمسكت بالهاتف مساء يوم وطلبت أن يُحوّلوا المستحَقّ إلى صديق لي في عاصمة أخرى. بعد دقائق كان الصديق يهتف لي بأنّ المبلغ قد أصبح عند مَن أسأله هنا فيأتي به إليّ!

ولم أشأ أن أنغّص عليه فرحته فأذكّره بأنّ المواطن عندنا يحمل جرّة الغاز إلى حيث يقف في صفّ طويل، يزحف بها خطوة خطوة، ليُبدّلها ويعود بها إلى بيته متعَبًا!

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٢٠-٢-٢٠١٩

الفرزدق.. ونزار

تعتادني في بعض الأيام كلماتُ أغنية "تلاحقني" في يومي، قد تكون الأغنية من الأحلى أو طريفة كتلك التي سكنت خاطري منذ يومين تقول مازجة بالكلمات العربية شيئا من التركية:

تشوقْ بحبَّك تشوقْ[٤٦] خبرْ منّك يوقْ[٤٧]

يعني تحبه كثيرا ولا خبر منه!

وأظلّ أذكر قولًا لطيفًا من المطربة اللبنانية ذات الصوت المتميّز "ميشلين خليفة"، أن نتجنّب في الصباح سماع الأغنيات الهابطة لأنّ كلماتها ولحنها سوف يصاحبنا طوال النهار!

لكن خطر على بالي، فجر اليوم، مطلعُ قصيدة -لا أغنية- كان شرحَها لنا في الأربعينيات ونحن على مقاعد الدرس، أستاذُنا المتخرّج حينذاك في جامعة "فؤاد الأول"، يقول فيه للفرزدق:

وأطلسَ عسّالٍ وما كان صاحبًا دعوتُ بناري مَوهِنًا فأتاني

مفردات تقلق تلميذ صفّ الكفاءة، وإعرابُها: "أطلسَ" مجرورٌة بـ"رُبّ" المقدّرة مبنية على الفتح لأنها اسم عَلَم[٤٨]! ولكنّ "عسّال" يظهر عليها الجر... ونذكر نحن التلاميذ أنّ طالبًا بيننا، خفيف الظلّ، وقف يقول شبه محتجّ: "يعني شعراء الجاهلية الواحد منهم تلزمه كلمة يسدّ

---

(٤٦) تشوقْ كلمة تركية: çok، تعني: كثير

(٤٧) هي yok أداة النفي باللغة التركية.

(٤٨) أطلس ليست علَماً كما قال السباعي، بل صفة من صفات الذئب: وهو الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبث الذئاب. وإعراب الكلمة غير دقيق.

بها بيت شعر فيخترعها، ثم يكون على الأجيال أن تحفظها لأبد الآبدين"!

وضحكنا نحن الطلاب للنكتة، فهمّنا التعلّم والشغب المرح، خاصة إذا وازَنّا اليوم بين هذا البيت "الحجري" وبين قصيدة لشاعرنا نزار، كنت أستمع إليها، في مطلع العام ٢٠٠٠ أيام المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة، مُغنّاةً ونحن في سيارة ابني ذات المسجلة عالية التقنيّة:

قولي أحبّكَ كي تزيد وسامتي فبغيرِ حُبِّكِ لا أكونُ جميلاً

فنطرب للقول الرقيق الذي ما كان ليخطر على بال ثُلاثيّ البلاط الأموي، يرسله صوتُ كاظم الساهر المُتْرَعُ فنّاً وأناقةً!

ولكنّ مسألة جديرة بالذكر أنّ أستاذنا شارحَ تلك القصيدة ومُعربَها قام، في أواخر الستينيات من القرن الماضي، يؤسّس "كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة حلب، وأمسى فيها أولَ عمدائها، إنه الأستاذ الجليل الدكتور صبري الأشتر.

ومسألة أخرى أنّ ذلك التلميذ الشغوب، تبيّن لنا فيما بعد أنه كان منتسبًا إلى حزب البعث، فغدا بعد آذار وزيرا للثقافة، هو صديقنا السفير الوزير "زهير عقاد" شقيق المخرج السينمائي العالمي مصطفى العقاد.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٣-٢-٢٠١٩

درجة الإبصار عندي.. اليوم!

مرّ بي أمس صديقي طبيبُ العيون يَصْحَبني إلى عيادته، وبعد جلوسي أمام أجهزته الفاحصة والكاشفة... أبلغني!

والواقع، يا أصدقائي، أنّ لي مع هذه المسألة قصة. ذلك أني، قبل بضعة عشر عامًا، أحسست ضعفًا في بصري يتزايد، وبالفحص تبيّن أني مصاب بما يسمّى في المصطلح الطبي:

اعتلال اللطخة الصفراء الشَّيخيّ، بالعينين الاثنتين، إحداهما أشدّ من الأخرى... والنتيجة أمس أنّ درجة الإبصار عندي تدنّت إلى (واحد ونصف على عشرة).

أعترف لكم بأني لم أجزع ولم أحزن كثيرا، فأنا أعرف منذ الفحص الأول (عام٢٠٠٩) أنّ بصري ذاهب مع الأيام إلى حيث لا يعود. وأؤكد لكم من ناحية أخرى أنّ بلوغ الضعف هذا المقدار يجعلني أكثر حرصًا على أن أعتمد على "فريق عمل" ذا كفاءة وأمانة، لاستخلاص مؤلفاتي القابعة في ظلام الخزائن، تنضيدًا ضوئيًّا لعشرات الآلاف من الصفحات، وتدقيقا طباعيًّا، وتصنيفًا في كتب... تمهيدًا لنشرها إلكترونيًّا (وليس ورقيًّا)، مدركاً تمام الإدراك أني إن لم أستنقذها فيما تبقى من أيام العمر ومن عُمر البصر، ضاعت في زحمة أحداث الحياة.

أكتب لكم ببرنامج "وورد"، على شاشة تُكبّر الكلمات فأستطيع أن أرى ما أكتب.

أحلم بألا أدع الخذلان يغلبني.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٢٦-٢-٢٠١٩

عامل نظافة.. وشرطي مرور

في عام بعيد وأنا زائر في ألمانيا (الغربية)، وقفت في طرف ضاحية تسمى "بورنهايم" أنتظر قدوم القطار لِيُقِلّني إلى العاصمة "بون". كان كل ما حولي جميلاً، من أشجار يداعب أغصانها النسيم ومن منشآت صغيرة لطيفة مقامة هنا وهناك... وكان ممّا رأيت عامل نظافة، أسمر، يلبس قفازين يغطيان ساعديه، يحمل في يمناه ملقطا طويلا يجنّبه الانحناء وفي يده اليسرى حاوية ذات يد طويلة، أراه يلتقط أعقاب السكاير من بين الحجارة المرصوفة ما بين سكّتَي القطار.

في عودتي إلى الوطن الحبيب كنت يوما أسير على الرصيف المقابل لفندق سميراميس،

فاستوقفني أن أرى شرطيّ مرور، طويلاً عريضا، ينهال بالضرب المبرّح، لكمًا ورفسًا، على سائق سيارة أجرة بدا لي ضئيل الجسم، كان يتلقى ويحاول الاتقاء باليدين، وبالتراجع حتى تمكن من أن يتسرّب إلى داخل سيارته، وينطلق بعيدا، ليمسح جراحه وربما دموعه!

وكم شعرتُ بالخذلان لأنني أنا وقلمي، كنا عاجِزَين عن أن نفعل إزاء هذا أي شيء!

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٢٧-٢-٢٠١٩

ويقول لي: "هذا شعبك"!

كتب لي أحدهم الآن مشيرًا إلى ما رويت عن شرطي المرور.. يقول كالشامت: "هذا شعبك! ".

أقول له: هذا الرجل يكون من شعبي لو أنه أُهِّلَ مَسْلكيّا، بأن يُعَلّموه كيف يتعامل مع المواطنين بغير الأذى والاحتقار، قصّر النظام في تأهيله فتربّى على ما ساد من ظلم وفساد.

عندما كنت أتقدّم من شرطي المرور وأنا في باريس لأسأله، كان يبادر -إذ يراني أمامه- إلى أداء التحية لي، ثمّ يُصغي ويُدلي، هو لم يتعلم هذا في بيته، بل تلقّاه في المؤسّسة التي أهّلته.

إنّ مَن أجد نفسي وإياه في خندق واحد هو ذاك الذي رأيته بعيني يُضرب ويُهان، ثمّ يرضى بالهرب ليمسح الجرح بعيدًا ويرعف بالألم.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٢٧-٢-٢٠١٩

تسوّقت اليوم

تسوّقت اليوم مقداراً من ثمار الكوسى، وجلست عند المساء في الحديقة أُقوّرها بالمِقْوَرتين البلديّة والصينية.

وأذكر أنّا كنا ونحن صغار نحب أكلة "المتوّمة" المصنوعة من لبّ الكوسى، وقد رأيت أنّ ما تخلّف منها أمامي يُتيح لي أن أطبخ منه ما يذكّرني بأيام الطفولة.

فقمت إلى الهاتف أسأل، فأشاروا عليّ بأن أَقلي مفروم البصل بالزيت، ثم أَدلقَ فوقه اللبّ وما قد يكون تكسّر في أثناء التقوير من حبّات الكوسى، وشيئًا من الكُزْبَرة، وغير قليل من الثوم (ولهذا سمّيت "متوّمة")، ولم أنس الملح، وأما النعناع فأرشّ منه شيئًا قبيل الاستواء... والمقادير من كلٍّ فمن وحي الإلهام!

في الحديقة، والبرد يُحتمل.. وجدت أنّ ما صنعت الليلة سائغ يؤكل، وجدير بأن أرويه لكم، أصدقائي!

ومن تعليقات الأصدقاء:

أن يُعتصر اللبّ قبل رميه في القدر، ويُقلى مع البصل.

لا حاجة للنعناع، بدِّله الفليفلةَ الحمرا الناعمة!

بعد هذا الكم من اللايكات والتعليقات أحسست جوعا، فقمت أتعشى من المتومة ثانية بُعيد منتصف الليل!

دمشق الشام: ليل الأحد ٣-٣-٢٠١٩

دعيني أَقْضي بقية أيامي.. بهدوء!

كتبتْ لي، ولم أقرَأه إلا الساعة.. تقول:

- - - - - - - - - - -

أتساءل أحيانًا وأنا أتابع الفضائيات، لماذا لا أرى الأديب الكبير فاضل السباعي، ضيفًا

في أحد البرامج التي تستقبل ألاف الكتّاب؟

لن أكون مبالِغة إن قلت: إن بعضهم لا يملك إلا قليلاً من الأدب والثقافة وإلا أعدادًا قد تكون كبيرة من المتابعين على مواقع التواصل الاجتماعي، وربّ كاتب منهم كتب بعض الروايات وتجد شهرته قد بلغت عَنان السماء.

لماذا لا أُفاجأ يوما بانبهار بأن أرى كاتبي المفضّل، الذي لم أقرأ له سوى مقالاته وخواطره اليومية ينشرها على صفحته الخاصة في العالم الأزرق، وتعليقاتٍ من قُراء اتفق لهم أن طالعوا "ثم أزهر الحزن"!

يقاسمنا الأستاذ فاضل السباعي ذكرياته، يومياته، صوره حتى غدا وكأنه فرد من أفراد عائلتي، أعرفه حق المعرفة، صار جزءًا من هذا العالم الذي يكتمل به، فلماذا يمتنع الإعلام العربي عن تسليط الضوء على قامة أدبية، صاحبُها واحد من كتّاب عصرنا الذي نعيش؟

مارية الزروالي – فاس (المغرب)، صباح الجمعة ١-٣-٢٠١٩

- - - - - - - - - - -

شكرا يا مارية على تساؤلك المشروع، الذي يتمتّع بقدر كبير من الودّ والحميميّة.

أقول: مع أن مَن تُقدمهم الفضائيات من كتّاب وأدباء فيهم كثير من المرموقين وإن تخلّلهم مَن هم ليسوا كذلك، فإنه من الصعب أن يظهر كاتب سوري معارض قد حرص على أن يعيش تحت سقف الوطن، في فضائيات بلده.

ومن ناحيتي، أيتها الأديبة الشابة المغربية، دأبت على أن أكتب انتقاداتي للنظام بكثير من الحيطة والحذر واللطف.. ومع ذلك أغضبت "الموالين" حتى إنهم سدّوا الطرقات أمامي وأغلقوا الأبواب، فلا ينزل اسمي في مجلاتهم، والزاوية التي كنت أزاولها في جريدةٍ "صَرَفوني"

منها بالحسنى، والمخطوطة التي اعتزموا نشرها بحفاوة استردّوا عاطر كلماتهم في تقييمها، وهم يطالبونني الآن بأن أردّ إليهم ما تسلمت من "مكافأة" (ما يعادل ١٢٠$).

ومن نهفات الزمان أن مقدِّم برنامج إذاعي اتصل بي يوما هاتفيًّا على استعجال، يريد أن يحاورني على الهواء، فأشفقت عليه من "التورّط" وسألته أن يدخل صفحتي أولا.. ثم لم أسمع صوته بعد ذلك اليوم أبدًا.

عن الفضائيات العربية.. يوما اتصل بي إعلاميٌّ مرموق في المنفى، يسألني لقاء يسجله تلفزيونيًّا، فأشفقتُ على نفسي من "غدرات اللسان" إذا ما استرسلت، فاشترطتُ ألا يتجاوز الحوار "الثقافة" وهو يريده في صميم السياسة.

دعيني، يا مارية، أَقضي بقية أيامي بهدوء نسبي.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٥-٣-٢٠١٩

عجوز صغيرة

بعد أن خرج من المتجر يحمل كيسا ضمّ شيئًا من بهار ونعناع وزجاجة خلّ أحمر وعُبوة حليب.. مال إلى ساحة الجسر حيث باعة الخضرة على الرصيف، يشتري "كريفون" يضيف إلى عصيره شيئًا من عصير البرتقال. أكثرَ البائعُ ممّا وضع في الميزان وهو يقول: "حجّي، ما بقي غير هدول، أراعيك".

سأل عمّن يحمل عنه هذين الكيسين إلى بيته القريب فما وجد. في أول الشارع ناء بحملهما، حطّهما على الأرض، ووقف يستريح.

مرّت به عجوز لطيفة الجسم منتصبة القامة، سألته إن كان يحتاج إلى مساعدة؟ صمتَ مستغربًا، وإذا هي تنحني وتأخذ في كلّ يد كيسًا!

حدّثْته بأنهم جيران، كانوا يسكنون الشارع الموازي صعودًا "شارع عطا الأيوبي"، ثمّ انتقلوا إلى "المالكي"، وعادوا ليسكنوا بيتا في "دخلة الأبرش".

اجتازت الباب. صعدت الدرجات العشر ودخلت الحديقة. وضعت الكيسين.. بهرها ما رأت من ثمار الكبّاد المتدلّية تهتزّ مع مداعبة النسيم، عبّرت: "ما شاء الله! "، سألها أن يقطف لها؟ أجابت: "منظرها على الشجر أحلى"!.

وذهبت. دمشق الشام: عصر السبت ٩-٣-٢٠١٩

يومًا.. كنت المسؤول

يومًا.. كنت المسؤول في "معهد سيف الدولة لإصلاح الأحداث الجانحين بحلب"..

قلت لأحد الموظفين:

ـ اذهب وارفع تلك الوريقات التي أسقطها الأحداث في باحة المعهد على الأرض.. ليتعلّموا النظافة!

استكبر أن يفعل، وله عذره.. فذهبت أنا.

منذ أن رأى الأحداث المدير ينحني ويرفع.. لم يعد أحد يلمح وسخة في الباحة.

كان ذلك في شتاء٦٣-١٩٦٤.

وما أدري اليوم ما حلّ بالمعهد.

دمشق الشام: عصر الأحد ١٠-٣-٢٠١٩

عن حيّ "الصالحيّة"

أخذت اليوم التكسي من قرب مبنى البريد (بعد أن أودعت طرد كتب لتركيا) إلى البيت.

طلب السائق أكثر ثم رضي بأقلّ. وعلى الطريق سألته -وأنا أحبّ محادثة الشعبيين، فمنهم أتعرّف على بعض ما يجري في قاع المجتمع- لم لا يشغّلون العدّاد ويُنهون مشكلة المفاصلة؟ فأجابني بحماسة:

-يا أخي، إذا كانت هناك "عجقة سير" وتوقُّف عند الإشارات، فإنّ "الراكب" يخسر، وإذا كان الطريق مفتوحا وأسرعنا يخسر السائق! المفاصلة أحسن!

وسألته من أين هو؟ أجاب من "الصالحية"

قلت: هل تعرف شيئا عن هذه الضاحية، المدينة، وكيف أنشئت؟

قال: لا والله.

فأخذت أبيّن له أنه حين احتلّ الفرنجة (الصليبيون) القدس وما جاورها، قبل ٨٠٠ أو ٩٠٠ سنة، هاجر أناس من فلسطين إلى دمشق، سكنوا أولًا قرب "الباب الشرقي"، ولكن حدث يومًا أن خرج كبيرُهم (وهو الشيخ أحمد بن قدامة وكان من أهل العلم والفضل)، في نزهة إلى مرتفع في سفح جبل قاسيون، فأعجبته المناظر والماء يجري في "نهر يزيد"، ورأى أن ينتقل وربعه إلى هذه المنطقة، ولحقه قومه من نواحي نابلس وبيت المقدس. عمّروا وبنَوا المدارس والبيوت الجميلة، واتّسع الحي، حتى امتدّ إلى ما يسمّى اليوم "بوّابة الصالحية" و"طريق الصالحية"، وكانت هذه المناطق خارج أسوار دمشق القديمة... سمّيت "الصالحية" لأنهم كانوا أهل صلاح وتقوى...

كان يستدير بوجهه نحوي بين اللحظة والأخرى وأنا أتكلم. هل أعجبه حديثي؟

لما مددت يدي إليه اعتذر عن تناول الأجرة، قال إكرامًا لما سمع من حديث عن الحيّ الذي يسكنه.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٠-٣-٢٠١٩

مَن يشتري "مربّى الكبّاد" منّي؟

تعلمت صنع المربّى من كبّاد حديقتي وأتقنت.

أَبشُر قِشرة الكبّادة بالمِبْشرة جزئيًّا، ثمّ أفتحها بالسكين وأنزع لبّها وأجعلها حزوزًا، أَنقَعها بالماء يومين وأُغَيّر، ثم أعصِر الحزوز باليد عصرا لتفريغها ممّا يَكمُن فيها من طعم المَرارة. أَسلُقها بعد ذلك سَلْقًا هيّنًا، أعصِرها ثانية، ثمّ أرميها في قِدر يكون فيه القَطْر يَغلي (الحلاوة باللهجة المصرية)، وأدعها تتشَرَّب منه على نار هادئة.

وقد أُضائل من السلق فيبقى في الحُزوز شيء من قسوة، وهذا نوعٌ ثانٍ غير الأول الليّن.

ونوع ثالث.. أن أضع بعد السلق أجزاء الكبادة في "الخلاّط" فتُفرَم ناعمة، ويسمى هذا النوع "مَرْمَلاد"، يؤكل بالخبز والزبدة فطورًا مع الشاي!

أمس.. أخذت أقطِف لجاري، بأن أنكُز الكبّادةَ على غُصنها البعيد برأس عصا طويلة فيتلقاها، وهو يُفضي إليّ بأنّ "حماته" سوف تتولّى صنع هذه الكبّادات مربّى عال العال، تُقاسِمه إياه. ويسألني مازحًا إن كان يخطر لي أن آتي بمَن يجني هذا الكثير من الكبّاد، ويأخذه بالثمن؟ وضحكنا.

لكن قولة صديقي هذه جعلتني أحلم بأن أقطِف من كبّادي، وأصنع منه أنواع المربى الثلاثة تلك، وأعرضها للبيع! وكنت رأيت في وسائل الإعلام يومًا أنّ مزارعًا في قرية أوروبية، نحّالًا، يضع عبوات من عسله أمام باب بيته، ويكتب السعر، والمارّون يختارون، يأخذون ويضعون الثمن ويمضون.

فخطر لي أني أفعل هذا!

على الرصيف أمام الباب صففتُ فوق طاولة صغيرة العبوات المختلفات النوع والحجم والسعر، وكتبت أرشد المارّين إلى فتحة البريد في الباب يُسقطون منها الثمن.

ماذا تتوقعون أيها الأصدقاء، أن يكون... مع أنّ هذا حلم يقظة؟

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ١٩-٣-٢٠١٩

آه، يا هالة كوراني[٤٩]!

آه، يا هالة كوراني!

لو أنك عشت في سورية لكان مصيرك كمصيري: يمنعون وسائل الإعلام من أن تنشر لي أو أن يذكر فيها اسمي.

قرأت كتاب والدك أسعد الكوراني[٥٠]: "ذكريات وخواطر، مما سمعت ورأيت وفعلت"، موضوعي إنساني على مستوى رفيع.

أنت ابنة رجل عظيم، وعيشك بعيدًا مكّنك من أن تمارسي عظمتك الذاتية.

نحبّك ونجلّك، يا بنة حلب الشهباء.

وجزيل الشكر ليمان الناشد. دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٩-٣-٢٠١٩

قال يعاتبني:

قال يعاتبني: أعرف أنك معارض، وقد رأيتك تَعيب على مَن انتقد صلاح الدين وتقول إنه شيعي.. فأدخلتَ نفسَك في خانة الطائفيين!

---

(٤٩) إعلامية بارزة في أمريكا. ولدتْ في واشنطن، لأبوين سوريين من حلب

(٥٠) هو جدُّها وليس أباها.

فصرخت به: صرت طائفيًّا لأني أشرت إلى هذا؟ فما قولك في المواكب التي تطوف بالشوارع وفيها تُلطم الوجوه والصدور!

الحقيقة لم أصرخ لا ولم أقل.. ومع ذلك رفض أوراقي، وأصبحت السكرتيرة تقول لي على الهاتف: عنده اجتماع!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ٢٢-٣-٢٠١٩

الواقع أني في مشيي الهوينى

الواقع أني في مشيي الهوينى أمس كنت متوجّهًا إلى محلّ الخضريّ (غانم) في ذلك الشارع الفرعي لأشتري شيئا من الفول الأخضر.

سألته عن الفول، فاستمهلني أياما حتى ينزل الفول الجيد، فتحوّلت، من "أكلة الفوليّة"، طبقة رزّ في قعر صحن يعلوها الفول المطبوخ باللحم، أُغشّيها معًا بلبن (زبادي) مملّحًا ومتوّمًا، إلى الفاصوليا الخضرا، وكلاهما من فصيلة واحدة. هل أقول لكم إنّ الكيل (الكيلو) بألف وأربعمئة ليرة؟

أحدّثكم أيضًا –ولا أَمَلُّ– عن أني قبل يومين فوجئت بكبّادة على بلاط حديقتي، بدا أنها شاءت أن تفارق رفيقاتها، بأن تسقط طوعًا وليس بذلك "المقطاف" الذي يجول رأسُه بين الأغصان وأنا أشير على ضيفي المتلهّف أن يتلقّى الكبّادّة بيديه فلا تسقط على البلاط تنفزر. بَشَرتُها خفيفًا، وأخذت لبّها حمضًا ذا نكهة، وسلقتها حزوزًا، ثمّ عصرتها تخليصًا لها من المرارة، ورميتها في قَطْر من سكر على نار هادئة.

بعد أكلة الفاصوليا بسُويعات، مددت حزًّا في صحن...

شهّيتكم... تفضلوا!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٤-٣-٢٠١٩

بكت أمام العالم

بكت أمام العالم على الضحايا

توشّحتْ بالحجاب

تكلمت ببعض المفردات العربية

قالت إنها لا تريد أن يجري اسم منفذ المجزرة على لسانها

أنت، يا "جاسيندا أردين[٥١]"

امرأة العالم لهذا العام، ولأعوام قادمة...

دمشق الشام: ليل الاثنين ٢٥-٣-٢٠١٩

في ترجمة كتاب عن الإسبانية، يوم وقف جحا يخطب في الناس!

قبل نحو عشرين سنة..

كان صديق يُترجم كتابا عن الإسبانية إلى العربية لأنشره في الدار الخاصة بي (إشبيلية للدراسات والنشر) بعون من وزارة الثقافة الإسبانية.. فجاء يحدّثني عن أنّ نصّاً فيه صغيراً منقولا ابتداءً من العربية، قد أشكل عليه استيعاب مضمونه لما فيه من "الضمائر"، ولأنّ فيه لَعِبًا بالمعنى والألفاظ. وتكرارا، فكيف يُعيده إلى العربية فتكون ثمّة "خيانتان"، إشارة إلى

---

(٥١) رئيسة وزراء نيوزلندا. وفي فترة رئاستها، عام ٢٠١٩، هاجم إرهابيٌّ مسلَّح مسجدين في نيوزلندا، فقدّمت جاسيندا التعازي لعائلات الضحايا على التلفاز، وقالت إنه هجوم من متطرف ولا مكان للتطرف في نيوزلندا... والسباعي في هذا المنشور يشير إلى هذه القصة.

العبارة الرائجة "الترجمة خيانة".

فلما حدّثني عن فحوى النص تذكرت ما كنا نتناقله نحن الصغار من النكت عن شيخ الظرفاء "جحا"، وأسعفتني الذاكرة بالنكتة التي يتحدّث بها صديقي:

وقف جحا يوما يخطُب في الناس، فقال لهم: هل تعرفون ما سأقول؟ قالوا: لا! فقال: إذا كنتم لا تعرفون فلماذا أقول لمن لا يعرفون!

في الأسبوع التالي وقف فيهم وسألهم: هل تعرفون ما سأقول؟ وكانوا قد اتفقوا على أن يقولوا: نعم، فقال: إذا كنتم تعرفون فلماذا أقول لكم ما تعرفون!

في المرة الثالثة اتفقوا على أن يقول بعضهم نعم وبعضهم لا، فقال: ليُعلّمْ الذين يعرفون الذين لا يعرفون!

كان ذلك في الكتاب الذي ألّفه المستشرق الإسباني الكبير خوان بيرنيت (١٩٢٣-٢٠١١)، يُعرّف فيه الناطقين بلغته بما جاد به "أسلافُهم" الذين بنوا الحضارة الأندلسية، من عمارة وأدب وعلم، وفكاهة أيضًا. عنوان الكتاب "الثقافة الإسبانية - العربية في الشرق والغرب"، وقد سمحت لنفسي ناشرًا بأن أجعل العنوان أكثر دلالة ووضوحًا: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" مشيرًا إلى ذلك في أولى صفحات الكتاب الذي صدر بدمشق في العام ١٩٩٧.

دمشق الشام: مساء الاثنين ٢٥-٣-٢٠١٩

ماذا كان "تَيْم" يقول في نفسه!

عندما التقيت في فلوريدا بالطفل "تيم سعود" (ابن مازن ودارين) ربيع ٢٠١٥، وعبّرت عن إعجابي به وحبّي له، أتصوّر أنه كان يقول في نفسه:

هذا الرجل الختيار هو جدّ أبي. كانوا يتحدّثون عنه ونحن في السعودية. ألتقي به الآن لأول مرة. يحبّني كثيرا. ويُسمّيني "الولد الجغرافي" لأني أعرف عواصم العالم، هذا بسيط. ويقول إني سأكون أستاذ جغرافيا بالجامعة! ما معنى هذا؟ يقبّلني كثيرا وأنا أعطيه. أحببته. عرفت أنه سيعود لدمشق، ونحن نعود للسعودية. يقول إنّ هذا أول وآخر لقاء بيننا.. لماذا؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٦-٣-٢٠١٩

أحلم بأن

أحلم بأن يصوّرني أحدهم فيديو، في غفلة مني، متلبّسًا بالكتابة

لأرى كيف تبدو حالتي وأنا في غيبوبة الإبداع.

دمشق الشام: ٢٩-٣-٢٠١٩

من أفضل العسكريين الذين غيّروا وما استأثروا:

السوري العميد سامي الحناوي، ١٩٤٩

المصري اللواء محمد نجيب ١٩٥٢

السوري العقيد عبد الكريم النحلاوي ١٩٦١

السوداني المشير عبد الرحمن سوار الذهب ١٩٨٥

الموريتاني اللواء علي ولد فال ٢٠٠٥

وقد ساء مصير الأول بأن اغتاله المتعصبون عائليًّا

واعتقل الثاني طيلة حياته من قبل من هو دونه

وتشرد الثالث في الأقطار

ولعل أسوأ الانقلابيين في تاريخنا المعاصر: اليمني علي عبدالله صالح

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٣-٤-٢٠١٩

أحمد الله أني ما زلت حيًّا لأروي!

في تغريدة أمس بعنوان "مِن أفضل العسكريين الذين غيّروا وما استأثروا"، قلت: إنّ اللواء محمد نجيب أولَ رئيس جمهورية لمصر، قد اعتقله طيلة حياته ممّن هو دونه مرتبة (وأعني رئيس وزرائه جمال عبد الناصر)، هبّ "ناصريّ الهوى" في بلدي يعلق ويقول ويقول... فكتبت هناك ردًّا أعيد نشره هنا تغريدةً بذاتها:

في كلامك مغالطات، أقف عند واحدة منها.

من التجنّي قولك عن اللواء محمد نجيب "وُضع على رأس النظام"! كان نجيب أبرز ضابط في الجيش قبيل قيام "حركة الضباط الأحرار" بانقلابهم يوم ٢٣ يوليو، وكان رئيسا لنادي الضباط بالانتخابات، دخل معهم في الانقلاب.. أقول: ولو أنّ الانقلاب كان فشل لعُلّق رأسه في الحبل مثل غيره.

أحبّ الشعب رئيس الجمهورية محمد نجيب، ورأوا فيه رمزا للاعتدال وأملا في الديمقراطية الموعودة. ثمّ كان اختلافه معهم أنه طالب بتنفيذ الوعود: السماح بتشكيل أحزاب وأن ينسحب العسكر إلى ثكناتهم، ومن أراد منهم "العمل السياسي" فليخلع بدلته العسكرية وينزل إلى الانتخابات الحرة. وهذه المطالبة لم تُرضِ الطامعين بالحكم الراغبين في الاستئثار به.

عزلوه أول مرة وندّدوا به في إذاعتهم، قالوا: "نحنا جبناه!" كلام سوقي، عيب!

قامت مظاهرات في الخرطوم (وليس بالقاهرة الصامتة، فقد كان نجيب ضابطًا في القوات المصرية هناك مدة ومحبوبًا) تحتجّ. اضطر العسكر إلى إعادته اتقاءً لعدول السودانيين عن الاتحاد

مع مصر (وكان حزب الوفد بأغلبية في البرلمان عام ١٩٥٠ قد عدّل وسمّى عاهل مصر "ملك مصر والسودان"). صبروا على نجيب رئيسًا مدة ثمّ أدخَلوه المعتقَلَ في عِزبة زينب الوكيل، (زوجة النحاس باشا)[٥٢] المصادَرة إلى أن أطلقه السادات.

وأنا طالب في جامعة فؤاد الأول من ١٩٥٠-٥٤، كنت شاهدًا على هذه الوقائع. خرجنا في يوم سبت من ربيع ١٩٥٤ نحتج معتصمين في الحرم الجامعي على الحكم العسكري بالإبعاد الأول لمحمد نجيب المحبوب شعبيا، وقد أدركنا ما سوف يحل بالنظام، نهتف "يسقط حكم البكباشيّة" فأغلقوا الجامعة أسبوعا كاملا، خرجنا نهتف في السبت التالي وأغلقوا، أربعة أسابيع... كسرَنا العسكر والامتحانات قربت، ثم اعتقل نجيب ثانية... والبقية...

أتكلم عن علم، ويتكلم الرجل وفي قوله ثغرات، يؤيّد الديكتاتور، الذي لم يكن يجيد من الحكم إلا مطاردة معارضيه، وهو الذي أضاع بخرقه ثلاث وحدات (السودان وسورية واليمن)، وجلب الكوارث للأمة، ومات راضياً بمبادرة روجرز الأمريكية، كما كان بدأ أمريكيا وإلى جواره يوم وداع الملك في قصر رأس التين بالإسكندرية يوم ٢٦ يوليو، السفير الأمريكي مستر كافيري!

أحمد الله أني ما زلت حيًّا لأروي.

دمشق الشام: ليل الخميس ٤-٤-٢٠١٩

---

(٥٢) هو مصطفى النحاس، شخصية سياسية شهيرة في مصر، قبل عبد الناصر. ترأس حزب الوفد عقب وفاة سعد زغلول، وتولى منصب رئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس الأمة في عهد الملك.

إلى الشعب الجزائري.. في انتفاضته السلمية المثالية

لقد ظللت أعجب كيف أنّ الشعب الجزائري ظلّ يعاني من القهر والفساد، من حكوماته "الوطنية" المتعاقبة، وهو الذي انتزع حريته من القوات الاستعمارية الاستيطانية التي كان يقودها الجنرال سالان، بثورة غير مهادِنة عبر ثمانية من الأعوام.

وفي الشعب الثقافة والعلم وكل التخصصات المؤهّلة، وبلدهم يمتلك مقومات التقدم والتطور والنجاح.

في الثقافة والتطلع إلى المعرفة أذكر أني يوم زرت الجزائر في ١٩٨٢، لاحظت مدى اندفاعهم للمطالعة، فإن مؤسساتهم النشرية تقدّم من كل كتاب مطبوع عشرة آلاف نسخة، وعندما يعلم مثقفوهم أن باخرة محمّلة بالكتب سوف ترسو في مينائهم فإنهم يتهيؤون لاقتناء ما تأتي به من زاد معرفي، يقفون أحيانًا أمام المكتبات صفوفا ليتزوّدوا.

كيف.. ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي إن كانت السلطات الفرنسية تمنع تعليم العربية في المدارس فإنه علّمها لأجيال علمت أجيالًا في المساجد، فتنوّروا، وطلبوا الحرية مصيرا لهم، وقاموا بثورتهم التي لا تضاهيها ثورة في زمننا (ألّفتُ كتابا عنه للفتيان ١٩٧٥).

واليوم تحقق، يا شعب الجزائر الذي نحب ونُكبر، وبانتفاضتك السلمية، ستة أسابيع نموذجية، هبّ فيها الشعب بكل أطيافه يطالب، فتنحّى من ظل في السدّة عشرين من السنين، وانفتحت لكم النوافذ والأبواب.

حُييت يا شعب الجزائر، وأنت تشمّر عن السواعد المفتولة وتستلهم الأفكار النيّرة المختزنة في الصدور والعقول.

دمشق الشام" س ١: ١٥ فجر الخميس ٤-٤-٢٠١٩

بدء الحكم العسكري.. في الجزائر

في صبيحة استقلال الجزائر صيف ١٩٦٢، كان الثوار الذين انتزعوا بالدم استقلال بلادهم، قد أعدّوا في عاصمتهم كل المؤسسات لما أرادوه من حكم ديمقراطي على غرار ما هو في أوربا التي نهلوا من ثقافتها.

الزعيم الأسمر، الذي تقُضّ مضجعه البرلمانات والانتخابات الصحيحة، أشار على سجين الثورة الكبير "أحمد بن بلّة" أن يجعل الحكم لنفسه، فاستجاب.. ودخل -هو الثائر الذي كان قضى السنين في المعتقلات الفرنسية- بلاده "دخول الفاتحين"، والرفاق الحالمون بالديمقراطية تفرّقوا في كل مكان.. وهو راح بغير الحنكة يحكم، حتى انقلب عليه بعد ثلاث سنوات، واعتقله، ساعدُه الأيمن العسكري "هواري بومدين"، مستخلصًا الحكم لنفسه إلى أن وافته المنية عام ١٩٧٨[٥٣].

من تلك "المشورة" تبتدئ مأساة الجزائر.

أكتبُ للتاريخ شهادتي هذه التي ظلت تؤرّقني مدى عمري.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٥-٤-٢٠١٩

وكان اللقاء الأول في مبنى البريد

التقى بها مصادفة هناك، تُرسل لبلدتها على الساحل رزمة، طردًا.. شهامتُه -وربما شيء آخر- حبّبا إليه أن يساعدها في إعداد ما هنالك.. وكان كلام.. ودعوةٌ لأن يزورها.. رسمت

---

(٥٣) هذا تاريخ وفاة هواري بومدين، أما بن بلّه فقد عاش حتى عام **٢٠١٢**.

له "خارطة الطريق".. وأن يكون وصوله سويعة الفجر.

حمل ابن الفرات أحلام الشباب وذهب..

ماذا كان؟

قصة بقلمي جديدة، عنوانها "في انتظار السندباد"..

لحظة تلقى نصّها الإعلاميُّ السياسي المخضرم "علي المرعبي" رئيس تحرير مجلة "كل العرب" الورقية في باريس، التي نشرت لي قبل مدة مقابلة أدبية في عددين، كتب لي، في ذلك الهزيع من الليل، مسرفًا في قوله جدا: "إحدى روائعك الأدبية! "

نُشرت في عدد هذا الشهر (نيسان/ أبريل)، أقدّمها لكم في مطلع هذا النهار..

دمشق الشام: فجر السبت ٦-٤-٢٠١٩

مدرسة الدموع المبدعة

في عام مضى، وقف زعيمٌ جزائري أمام وزير ينتمي إلى أعتى قوة استعمارية في زمنه، يتلقّى منه تهديدًا بأنّ لدى فرنسا مدافعَ طويلة! فردّ عليه الجزائري الذي يترأس وفد بلاده إلى باريس: "وإن لدينا مدافع أطول! "، فتساءل وزير الحربية عن هذه المدافع التي يجهلها؟ فأجاب الجزائري المؤمن: "إنها مدافع الله! "

وقع هذا في يوم من أيام العام ١٩٣٦ في باريس.

ولسنا ندري ما إذا كان وزير الحربية ذاك قد ضحك في سرِّه أو في العلن، من هذا الجواب، الذي أرسله عفويّا رجلٌ قد أُنجز بتخطيطٍ منه وإعداد أعظمُ ثورة تحريرية في القرن العشرين، عبد الحميد بن باديس. ولكنّ "المدرسة الجهادية"، التي كان الشيخ قد شرع في تأسيسها قبل ذلك اليوم في مساجد الجزائر في طول البلاد وعرضها، كانت قد آتت ثمارها، وذلك بعد أن

أتقن الجزائريون اللغة العربية، وفهموا معاني القرآن الكريم، وعملوا بها حضّت عليه آيات الجهاد، وخاضوا حربًا لا هوادة فيها، كلّفتهم مليونًا ونصف المليون من الشهداء، حرّروا فيها البشر والحجر. ذلك ما لم يخطر في بال وزير الحربية الفرنسي آنذاك، "مسيو دلادييه"، يوم سمع من بن باديس جوابه.

واليوم يُستعاد التاريخ، لكن بصورة أخرى.

فبدلًا من تعليم العربية في المساجد لتخريج المجاهدين (فليس ينقصهم تعلّمُها وتدبُّر معاني الآيات القرآنية)... إنهم يتخرّجون في مدرسة قد استحدثها وأذكى شُعلَتَها الإسرائيليون أنفسهم... كيف؟

إنّ العدو، في استعماله آلة الحرب الأمريكية، التي يقتل بها البشر، ويدكّ الحجر، ويُجرِّف الشجر، ويقضم الأرض، ويمارس التجويع والترويع، يجهل أنه بذلك يُسهم في استحداث مدرسة لتخريج مقاتلين، مناضلين من طراز ممتاز، هم المجاهدون.

إنّ دموع النساء اللواتي فقدن الأحبّة، وإنّ الأجساد التي نراها تتمزّق وتتناثر، وإنّ الإسعاف الذي يُمنَع من الوصول قصد النزف حتى الموت، وإنّ التظاهر في الشوارع العريضة والأزقّة الضيّقة، وكذلك التجمهر وراء الجدران العالية وأمام الحيطان الواطئة... إنّ ذلك كلّه يشكّل مدرسة، يتخرّج فيها الصغار والكبار، مناضلين أشدّاء.

بالأمس كان الآباء المهاجرون يَروون لأبنائهم قصة النزوح، فيوقدون العزم ويستثيرون الأشواق للعودة. ولكن بدا أنّ الآباء الذين أصبحوا جدودًا لم تعد بهم اليوم حاجة لأن يَرْوُوا، وقد نابت عنهم الشاشة الصغيرة في القصّ والرواية، وفاقتهم، بلا تزويق ولا تنميق... إنها مدرسة... هل أسمّيها "مدرسة الدموع المبدعة"؟ فإن لم نرَ دموعًا تنهمر، فإننا نرى امرأة

ورضيعُها على زندها تقذف حجرًا نحو دبّابة جاءت لتدوس الأجساد، ونرى ونستمع إلى طفلة قد سرقوا الابتسامة من وجهها المنير، تعبّر بفصاحة مدهشة عن أنهم حرموها من السوار والحَلَق.

إنّ ما نشاهده يُلهب النفوس في كل مكان في العالم، ما ملَك المشاهِدُ قلبًا ينبض بالحياة والحياء. ولكن تلك المَشاهد تفعل في نفوس شجعانِ الأرض المحتلّة شيئا آخر: تفجّر فيهم الطاقة الروحية، تجعل كل واحد منهم قنبلة موقوتة، وأراها "عنقوديّة"، تفعل فعلها حتى يؤون الأوان.

أمام تلك المشاعر نشعر، نحن الذين نجلس في غرفة مدفّأة مكيّفة، ونأكل الطازج الذي يأتينا بالهاتف، ونلبَس الجديد المُنتقى، وننام على ريش نعام... إننا لا نفعل سوى أن نتأثّر، وتتفطّر قلوبنا، ونكتفي بإرسال الدمعات السخيّات والدعوات الصالحات.

ماذا يفعل مِداد القلم أمام مداد الدم، في تدفّقه من شرايين قد مزّقها صاروخ من طائرة لا يقودها طيّار؟ إنها أسلحة أمريكا "الذكية"!

تركناكم، أيها الفلسطينيون، تناضلون باسم العروبة، وباسم الإسلام، وباسمنا أيضًا، ولا تتوقّفون عن النضال، وعن تلقِّي ردود الفعل، لأنكم قرأتم جيّدًا أبجدية النصر الآتي: أن لا سكوت، ولا سكون، وإلا كانت "السكتة"، كان الموت في صمت. أنتم تتحركون، فأنتم أحياء، أنتم مناضلون، أنتم منتصرون في آخر المطاف.

في آخر المطاف، أجل.

أعود: في ذلك العام استعجب وزير الحربية الفرنسي من قولة الشيخ بن باديس، ولكن جنرالًا فرنسيًّا آخر، أتى بعده بعشرين سنة أو ثلاثين، نظر إلى الثورة الجزائرية نظرة أخرى، وأدرك ما لم يَجُل في خاطر سلَفِه دلاديه. لقد قال الجنرال ديغول مخاطبًا جيش بلاده الذي يَقتُل

ويُقتَل في الجزائر: إنّ مجد فرنسا يقضي أن يكون جيشها في أرض الوطن.

ليس من شكّ في أنّ رفض الفلسطينيين اليوم الصمت، سوف يجعل الأعداء، الذين تُمطرهم صواريخ القسّام، يغيّرون مواقفهم ويفعلون شيئًا كما فعل ديغول

إنه النضال طويل الأمد، نظير المدافع التي صُوِّرت مجازًا بأنها طويلة المدى.

نشرت في مجلة "فارس العرب" بدمشق، العدد المزدوج ١٤٧و١٤٨ تموز-آب ٢٠٠٨

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأحد ٧-٤-٢٠١٩

سألَته: هل توقفتَ عن تناول الأدوية؟

سألته: هل توقفت عن تناول الأدوية؟

قال: نعم، ومنذ ثلاثة أيام.

قالت: معك سكّر؟

قال: لا.

قالت: معك ضغط؟

قال: الضغط عندي ٦-١٣

قالت: والقلب؟

قال: سليم، ولكنه.. مليء بالحب!

اتسعت عيناها، وأَغْضَت.

قال: بِحبّ الشعب دون النظام!

لم تبتسم. وأدخلته غرفة العمليات.

دمشق الشام: ليل الاثنين ٨-٤-٢٠١٩

الكتابة مهمة صعبة

إجابة عن سؤال من بضعة عشر سؤالًا كانت وجهتها إليّ الصحفية "عفراء ميهوب" في حوار نشرته بجريدة "تشرين" على حلقتين في نيسان ٢٠٠٢.. وهنا الإجابة عن أحد تلك الأسئلة:

س: الكتابة مهمّة صعبة، كانت كذلك في البدء وما زالت في ظلّ الثورة الثالثة (المعلوماتية بعد الثورتين الزراعية والصناعية)... كيف تنظر إلى فعل الكتابة في إطار هذه الثورة التي نشهد فيها حالة متطورة من عولمة الإعلام؟ كيف يمكن للكتابة أن تواجه ذلك كله؟

ـ الكتابة رسالة.

قد تبدأ الكتابة أول أمرها تسلية أو ممارسة لمهارات أو تحقيقا لذاتٍ طفولية، إلا أنها يتعيّن عليها أن تحمل آخر الأمر رسالة، ورسالة قيّمة. عندما يفرُغ الروائيّ من روايته متنفِّساً الصعداء، فإنه ينبغي أن يكون على يقين -وهو مستيقن من ذلك حتمًا- من أنه قد قال في عمله هذا شيئًا نافعًا للفنّ، للمجتمع، للوطن، وللإنسانية... بالاختصار: ليس هناك كلمة مجّانية.

وأرى الكاتب الحرّ ناقدًا للمجتمع. ينقد الخطأ ويكشف عن الخلل ويفضح التحيّز والقهر والفساد، بأسلوب فنيّ كلما شفّ كان أدخلَ إلى القلب وأفعلَ في النفس. من ناحيتي لا أظنّ أني كتبت قصة مجانية، كنت في كل عمل أنجزه أحرص على أن أقول شيئا نافعاً ومقروناً بالجمال.

وحقّا، ليست الكتابة بالأمر السهل. ربما خطرت لي الفكرة مساء يوم، فشرعت في كتابتها

قصةً فجر اليوم التالي (قصتي الأخيرة "أحلام العاشقين")، ذلك نادرا ما يقع لي. لقد تلبّثتْ فكرةٌ في خاطري سنين، قبل أن يتأتّى لي أن أكتبها ("صغير على الهمّ"، ظلّت تؤرّقني أربعين عامًا قبل أن أكتبها في صيف ١٩٨٠).

وأما "العولمة"، التي نشهد مقدماتها منذ سنوات، فإنها ترمي إلى أن تجعل من العالم قرية صغيرة، تطغى فيها قبضةٌ مجتمعة من الدول الغنية على المتناثر من الدول الأصغر والأفقر، تمحو ثقافتها وتشتّت خصوصيتها، سعيًا لاحتوائها وابتلاعها... إنها شكل جديد للاستعمار.

كيف يمكن للكتابة أن تواجه هذا؟ قبل المواجهة بالقلم، يجب أن تتمتّع الشعوب بالديمقراطية، وأن يتحرّر الحكّام، في الوطن العربي وفي العالم، من الضغوط التي تمارس عليهم، اقتصاديًّا ونفسيًّا، من قبل الدول المهيمنة وعلى رأسها تلك الدول المتغطرسة، التي داست كلّ القيم وتجاوزت المعايير الأخلاقية. إنّ الإعداد للمجابهة يحتاج إلى المصالحة بين الحاكم والمحكومين، بقدر حاجته إلى الإرادة السياسية عند الحكّام.

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: مساء الإثنين ٨-٤-٢٠١٩

في الصفّ.. أمام الكازيّة

في الليل قال "عبد الرحمن" لزوجته إنه سينزل غداً لتعبئة بنزين للسيارة. وفي باكر الصباح ذهب واشترى الخضرة فولًا أخضر لتطبخه أم الأولاد "فول مقلّى بالزيت"، وفي الساعة الحادية عشرة أخذ سيارته الصغيرة وتوجه لكازيّة الضاحية.

رأى أمامه رتلا من سيارات سبقته، تساءل عن العدد، فأجابه مَن سيكونون "أصدقاء الانتظار" بأنها مئة. ولم يكن الرتل يتحرّك، فالكازية في حالة انتظار لوصول المدد.

تعارف عبد الرحمن مع "الشباب". كانوا موظفين وعمالًا وحرفيين وفتيانًا جاؤوا بسيارات آبائهم. تحدثوا عن أزمة البنزين، منهم مَن قال إنها "حصار" آخر من العالم ضدّنا، ومَن قال إنها "مفتعلة" قبل أن ترفع الحكومة السعر، فعَلا صوت: خلّيها ترفع وتخلّصنا! فأجابه مَرِحٌ من بينهم: لكن نحن مبسوطين!

خاضوا في الأحاديث العامة والخاصة، ورَوَوا النكت، وتبادلوا أرقام الهواتف. نزل مطر، خافوا أن يشتدّ فيفسد عليهم متعتهم ولكنه كان رذاذًا عابرًا.

مضى وقت. أخرجوا القناني من سياراتهم "يُزَرْنِقون"[٥٤]. أحسوا بالجوع. بيوتهم قريبة، اتصلوا يطلبون الطعام.

هتف عبد الرحمن لزوجته، فسألَتْه: مْطَوّل؟ قال: أمامي مئة سيارة وخلفي مئتان والبنزين لسّه ما وصل! قالت: آتيك بالفول المقلّى، طلع بشهّي! قال: وعدّة الشاي كمان مع بَبّور الغاز[٥٥]!

وتواردت السُّكَب. نصبوا موائد مرتجلة على المرج، وتبادلوا الطعام، وكلّ يذوق من طعام غيره. والماء على موقد الغاز يغلي. شربوا الشاي آخر رواق!

جاء البنزين للكازية، فرحوا، وبدأ الرتل يزحف.

وعندما وصل الدور لعبد الرحمن عند منتصف الليل.. أعطوه حصته تنكة (صفيحة).. وبات عليه أن يعود إلى هنا بعد أسبوع!

---

(٥٤) في الفصحى: الزُّرْنوق: خشبة أو ظرف على حافة البئر يُسقى به. فكأنهم من هذا المعنى أخذوا المعنى العامّي للزرنقة وهو الشرب من الإبريق أو القنينة سكباً للماء في الفم دون أن تلامس الشفاه، من باب الحفاظ على نظافة الإناء.

(٥٥) موقد غاز صغير.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٧-٤-٢٠١٩

وكنت شديدًا في كتاباتي النقدية مطلعَ الشباب

بعد أن أطلقتُ يد أصدقاء لي في "تنضيد" نتاجي الأدبي الذي كتبته وأنا في منتصف العشرينيّات من العمر، أتبيّن -اليوم- أني في مراجعاتي للكتب ودراساتي النقدية تلك، كنت شديد الرأي، أتوقف عند محاسن الكِتَاب قليلا، إلّا أنّ وقفتي إزاء ما يتراءى لي أنه تقصيرٌ في التأليف أو قصورٌ في الإبداع، كانت طويلة... مردّ ذلك -كما أحكم اليوم- إلى اعتداد الشباب بنفسه والرغبة في إثبات الذات!

اليوم تلقيت نصّا فرغتْ من تنضيده حالا أناملُ خبيرة، فاسترعى انتباهي وأنا أقرؤه بعد مُضيّ اثنين وستين من الأعوام على كتابته، ما فيه من شديد النقد وصريحه وإن كان في رأيي صحيحا. أقتطف أسطرًا منه أولى أقدّمها للأصدقاء، متوقّعًا أن يُبدي بعضُهم، المعنيّون بأدب النقد خاصة، رأيًا في صحة النقد، وفي مدى الإسراف به... وإنّ عندي من هذه الدراسات النقدية مئات الصفحات أو ألوفَها.

- - - - - - - - - - - -

"أنّات الساقية".. والفنّ الروائي

تأليف: حسن عبد الله االقرشي

سلسلة "اقرأ"، العدد ١٦٧، نوفمبر ١٩٥٦، دار المعارف بمصر

- - - - -

إنّ فنّ القصة اليوم هو الأكثر رواجًا واستهواءً للكاتب والقارئ معًا من بين فنون الأدب جميعًا. ولا أدلّ على ذلك من أنّ القصة -بنوعيها: المطوّل والقصير- تحتلّ في نتاج الأدب العربي

المعاصر الصدارةَ من غير مِراء. وإنّ "دار المعارف بمصر" لا تني تُغْني المكتبة العربية بهذا المورد الثرّ، وفي سلسلتها الشهرية "اقرأ" بخاصة؛ وإنها في ذلك لتسهم في دفع عجلة الفن القصصي العربي إلى الأمام.

ولقد أصدرت الدار، في عدد "اقرأ" السابع والستين بعد المائة، شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٦، مجموعة يَسترعي عنوانُها، "أنّات الساقية"، النظر ويصافح الفؤاد، لأديب حجازي هو الأستاذ "حسن عبد الله القرشي". وإنّا قد استوعبنا ما في المجموعة من أقاصيص، فرأيناها لا تخلو من محاسن ومزايا. إنّ المؤلف يمتلك -في الحق- قلماً سخيًّا يعطي في غير ضنّ، على حين يُعوزه الفن السويّ الذي يتمثّل هذا السخاءَ ليسكب منه أدبا يُمتع ويفيد.

وأول ما نلاحظ في أقاصيص المجموعة افتقارُها إلى الطابع الإنساني. إنها كالماء لا لون ولا رائحة. أنت تقرأ القصة منها، فلا تكاد تعرف أهي تعرض مشكلة من مشكلات الحجاز، أم مصر، أم بلد آخر؟ وإنه -لكي تتّصل القصة بروافدها الإنسانية- ينبغي أن تكون بنتَ مكان معيّن محدّد تستقي منه مادتها الأولية والعناصر الأخرى المتمّمة. وإننا -إذ ندعو إلى "محليّة" القصة- لا نعني أن يحمل شخوصُها أسماء محلية، أو تجري الأحداث في أماكن محلية، أو ما سوى ذلك من النافلة، فذلك وحده لا يُكسب القصة الصفات التي نقصد، وإنما نعني أن تعرض القصة مشكلة محلية وتعالجها على مستوى إنساني.. وبذلك يكون الكاتب الفنان قد أسهم -بحق- في صنع الأدب الذي نسميه إنسانيًّا.

وفي "أنّات الساقية" بعض العناصر المحلية: فـ"حميد" فتى من فتيان البادية قد "صقلته الخمسة والعشرون ربيعا فسوّت فيه الرجولة الواضحة والشمم والإباء، وهذبت غرائزه بيئتُه العربية الخالصة... " (الصفحة ١٢)، وإنه يطلب في يوم يدَ ابنة عمّه "ناجية"، الفتاة التي يهوى، فيستمهله العمّ أيامًا، فيَفرَق الفتى لهذا الاستمهال ويحسب له كل حساب.. ثم يعود إلى عمّه

"يذكر حاجته في ذلّة الواله وضراعة الأسير" (ص ١٤)، فيدرك أنّ "القدر" قد أعدّ له كارثة؛ ذلك أنّ مالك الضيعة، فتى الحضر الشاب الثريّ السريّ، "غالب"، قد طلب يد الفتاة من العمّ وتهدَّدَه بأن يُذيق العشيرة ذلّ التشرّد إن هو رفض، فما كان إلا أن "رضخ لإرادة القدر".. أما حميد، فقد جُنّ، وإنه "يعيش الآن في مصحّ الأمراض العقلية شيخًا أشيب... " (ص ١٧).

إننا لنتساءل عن "المُعطى" الذي نخرج به من هذه القصة ذات العنوان الشاعري؟ فتى أحبّ ابنة عمّه، فسبقه إليها مَن هو أغنى وأقدر، فاستجاب الفتى للقدر دون أن يقاوم، وكان من نصيبه -المسكين- أن عاش عمره في مستشفى المجانين. المُعطى، بإيجاز وبصراحة، انهزاميٌّ صارخ. أكذلك نكون، نحن كتّاب القصة، دعاةَ هزيمة واستسلام؟! أما كان الأَولى بفتى البادية، الذي استوت فيه الرجولة والشمم والإباء، أن يتجلّد بإزاء "القدر" ويتماسك فلا يفقد قواه العقلية! ذلك إذا لم يشأ أن يثور على هذا القدر الغاشم ويتمرّد، فيقاوم الدخيل الثريّ، لينتصر أو يقضي دون ذلك، كما يحتّم عليه خُلقُه العربي الأصيل وما يتّسم به من رجولة وشمم وإباء؟! ولو قد نفخ المؤلف التمرّدَ في روح بطله، إذن لأصبح للقصة طابعُها المحلي، العربي، الذي يقفز بها إلى المستوى الإنساني. ولكن شاء المؤلف أن يغرقنا في رومانسيّة تنأى بنا عن الصدق الروائي!

النشر: في مجلة "الأدب"، القاهرة، عدد يناير ١٩٥٧

تعريف بالمؤلف:

كان حسن عبد الله القرشي (من مواليد مكة المكرمة عام ١٩٣٤ م) في بداية حياته العملية

موظفًا في وزارات الدولة في المملكة العربية السعودية. ينظم الشعر ويكتب النثر. وقد شغل فيما بعد منصب سفير في بعض الدول العربية. وافته المنية وهو في السبعين من العمر.

اليوم أكتشف أنه كان في الثانية والعشرين من عمره يوم نشرت له دار المعارف بمصر أقاصيصه في كتاب "أنّات الساقية".

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: ليل الأحد ٢١-٤-٢٠١٩

إلى أيّ مدى نحن أمة لا ترحّب بمواطنيها

صديقي السوري المهندس "فهد عتر" استوطن السويد منذ ثلاثين عامًا، تجنّس، وغدا عضوًا فاعلاً في بلدية مدينة "غوتنبورغ" وبلدية "هاريدا"، يُسهم في بناء المجتمع السويدي.

وأنا.. من الأعضاء المؤسسين في اتحاد الكتّاب في وطني عام ٦٨ - ١٩٦٩ اليوم يمتنع الاتحاد عن أن يَنشر لي كتابًا، أو أن يَرِد اسمي في مجلاته الخمس!

دمشق الشام: فجر الاثنين ٢٩-٤-٢٠١٩

لم أكن من المعجبين بالمكيدة

لم أكن من المعجبين بالمكيدة التي أَحكَمها "عيسى بن هشام" في ضحيته، السَّوادِيّ (المزارع) الذي نزل بغداد مبهورا، حين قاده "بطلُ" مقامات بديع الزمان الهمذاني إلى مطعم فيه الشِّوَاء والحَلواء. أكَلا وأكثَرا حتى ادّعى "الكائد" أنّ الأمر بات يحتاج إلى ماء مشعشع بالثلج يطوف على ما التهما من طعام... وغاب... تاركًا السواديّ يتعرّض للعسف والإهانة، ويدفع! وقد أشفقت، في ذاك اليوم من منتصف أربعينيّات القرن العشرين، على الضحيّة

وأسبغتُ عليه مشاركتي الوجدانيّة!

وأنا في فلوريدا الأمريكيّة بعد مرور سبعة عقود من زماني، ظهرت لي في غوغل "المقامات". قَلَبت حتى وصلت إلى "المقامة البغداديّة"، مستعيدًا قراءة ما كتب الهمذاني قبل ألف من السنين المَواضي، مسترجعًا إشفاقي على السواديّ... لكني اليوم أملك وسيلة تُمكّنني من أن أثأر له!

هممت بالكتابة لولا أن صرَفَتْني عنها ظروف. ولكني شمّرت عن ساعد الجِدّ أخيرًا وتهمّمت للكتابة. لم أُشرِع قلمًا به أكتب وقد لامستُ التسعين عمرًا، لكن انعطفت على الحروف أنقر هنا وهناك بأناملي التي ما زال فيها الروح يسري.

لما خرج السواديّ من عند الشَّوّاء مضروبًا مقهورًا ومرغمًا على أداء ثمن ما أكل هو وغريمُه ابن هشام، تقدّم نحوه "مُخْبِرٌ إنسانيّ"(وهل يكون "المخبر" كذلك!)، كان قد شاهد ما كان بأمّ عينه، يعلمه أنّ صاحبه خرج وتوارى في ذلك الخلاء، يتفرّج فرِحًا على ما يتلقى من الشَّوّاء، بائع الحلواء، من بلواء! هنا انتعش السواديُّ وانتفش[٥٦]، واقتحم المكان، وكان ما كان.. ممّا أسعفتني به البداهة، المقرونة بغريب الفكاهة، لجبر الخاطر المكسور، والقلب المقهور!

المقامة وملحقها نُشرا في نصّ معًا تحت عنوان "عودة إلى المقامة البغداديّة، السواديُّ الهُمام يظفر بـ عيسى بن هشام". ظهر النصّ هذا الشهرَ في وَضَح النهار، في المجلة الفصليّة المسمّاة "فَنار"، التي كلّ ما في صفحاتها للناس مَنار.

تقرؤونها هنا بعد قليل.

---

(٥٦) انتصب بتكبر.

دمشق الشام: ضحى الاثنين ٢٩-٤-٢٠١٩

رأيت فيما يرى النائم

رأيت فيما يرى النائم سويعة هذا الفجر، أنّ بابي دُقّ في باكر الصباح، ودخل عليّ صديق حميم هو الشاعر (......) يعانقني بشوق.

وصديقي هو من المعارضين مثل حالتي، لكننا نختلف في أنه أخذ على نفسه أن يُهادن ويُساير، فهو منذ حين أحد العاملين في "اتحاد الكتّاب"، وقد أوشكت مدته فيه أن تنتهي، ويريد أن يقترح عليهم أن أحلّ محله فيما كان يتولى من أمر في إدارة الاتحاد. وسألني ما إذا كنت أستطيع أن أمسك النفس فـ"أخفّف الوطء"؟ فسألته بدوري إن كان قرأ آخر ما كتبت في منتصف الليل الذي فات؟

فلما قرأ إشارتي، أو تنديدي، بأن الاتحاد -وأنا من مؤسّسيه قبل خمسين عاما- يمنع أن يصدر لي كتابٌ في منشوراته أو أن يرد اسمي في مجلاته.. نهض يودّعني بعناق أكثر حرارة، ويمضي صامتًا.

دمشق الشام: صباح الاثنين ٢٩-٤-٢٠١٩

ذات يوم جاءني صديقي، الموالي

ذات يوم جاءني صديقي، المُوالي، بعد إحالته على التقاعد، يقول لي كالمعتذر إنه يشجب تصرفات النظام الـ... ظالمة!

فقلت له بملء فمي:

يوم كنتَ تتمتّع بنِعَمه، من مناصب تطوف بك في عواصم العالم موفَدًا أو سفيرًا.. كان

نظامك يُنقّلني بوظيفتي من مدينة إلى أخرى مثل حجر الشِّطرنج.. وعندما كنت في الستينيات أرغب في السفر إلى بيروت لمتابعة نشر كتبي، كان عليّ أن أقف في صفّ طويل أمام جهة الأمن لأحظى بالموافقة على اجتياز الحدود، فيرفضني الضابط أحيانًا لأنه يتذكّر أني كنت سافرت إلى لبنان قبل حين، فيخشى على أمن الدولة مني، أن أكون في عداد من يتآمرون على الوطن، الذي كُتب لهذا الرجل أن يكون واحدًا من حرّاسه الأوفياء!

دمشق الشام: عصر الاثنين ٢٩-٤-٢٠١٩

أصدقائي الأعزاء

أصدقائي الأعزاء، وردني الآن من مجلة "فنار" الجميلة:

"قرأت على صفحتك إشارة إلى "المقامة البغدادية"، وهي مُدْرَجة للنشر في "فنار" في العدد الذي يصدر خلال أيام. سأرسلها إليك مصمّمة على صفحة المجلة.. أرجو أن تُرجئ نشرها حتى أرسلها لك مع صدور العدد المطبوع".

فهل تصبرون؟

دمشق الشام: ظهيرة الاثنين ٢٩-٤-٢٠١٩

من شارع الحمرا.. لساحة الشهبندر

بعيدًا عن "المقامة البغدادية" وما أثارته فيّ من حرص على الدفاع عن "السَّواديّ" المظلوم.. أقدّم لكم، أصدقائي الأعزاء، مقالة من الأدب الوجداني ظهرت في العدد الصادر اليوم في باريس من مجلة "كل العرب".

\- - - - - - - - - -

في اشتغالي بالشؤون الأندلسية، أدبًا وتاريخًا وتاريخَ طبّ (وإنّ عندي في الإعداد كتابا جمّ الصفحات يضمّ ما كنت كتبت في ذلك من دراسات وبحوث اخترت له عنوانا "الأندلس في الذاكرة العربية").. وقفت في تضاعيف كتب الطبّ القديمة على أنّ أطباءنا الأجداد، الأمجاد، كانوا يَعِفّون عن أن يتناولوا "الأتعاب" من المريض المُعْسر، مُكتفين بما يتلقّون من المرضى الميسورين بعد البُرء والشفاء.

أقول: بعد زيارتي لطبيبي المداوي في عيادته، أَحبّ هذا الصديق تربطني به مودة صافية، أن يُقلّني إلى بيتي بسيارته، التي لم تكن مركونةً قريبًا من عيادته (في "شارع الحمرا"، جنوبيّه)، بل تركها قرب أمام المستشفى الذي يُجري فيه العمليات، في الشارع ما بين "ساحة الشهبندر" و"الميسات".. توفيرًا للوَقود الذي يعاني من ندرته المواطنون في هذه الأيام.

مشينا، وأنا أتّكئ بيميني على ساعده الأيسر، أستمع إليه أكثر ممّا أحكي، فقد ناب عنّي ما أرويه من ذكريات على صفحتي، التي يخصّص صديقي في لياليه ربع ساعة للفيس بوك، يقول: ثمانيَ دقائق منها للسباعي وسبعًا لغيره! وكان أن ابتسمت لتلطّفه، وشكرت.

ورأيته ينصحني، طبيبًا: بأنّ عليّ وأنا في التسعين أن أمارس الرياضة بحركاتها الآتية من "السويد"، البلد التي باتت تهفو إليها قلوبُ مواطنينا مَن استطاع منهم (ناجيًا بنفسه من القهر والفقر والضياع إلى حالة من الشتات يضطرّ إليها، وهذا التوصيف مني، لم يَنطِقه لسانُه!). وحدثني عن أنّ شقيقًا له ولدته أمّه يقيم في بيروت، يناهزني أنا سنًّا، ما زال يؤدّي الحركات السويدية خمس عشرة دقيقة كل يوم، فسألته: وعمره تسعون؟ قال: بل ستة وتسعون! ووعدته بأن أزيد ما أؤدّيه من هذه الحركات، من دقيقتين يوميًّا إلى خمس.. وضحكنا.

هذا ما كان ونحن نمشي الهوينى على رصيف الحمرا المتاخم للشعلان.

فلمّا اقتربنا من الفُسْحة المسمّاة "ساحة عرنوس"، التي يزعم باحث في تاريخ الحضارات،

أنّ اسم عرنوس هو لأحد القادة الفرنسيين، في الحروب التي تسمّيها مصادرنا التاريخية "حروب الفرنجة" على حين يترنّم الفرنجة بتسميتها "الحروب الصليبية، المقدّسة"، اسمه "Arnousse"، كان قد احتكّ كثيرًا بأبناء شعبنا المحتلّ وأحبّ الإسلام دينًا واعتنقه، وزاد في الإيمان حتى أمسى بين أهلينا "وليًّا" من أولياء الله، ومات ودُفن في هذا الموضع، فسمّي باسمه.. وما كان لهذا الباحث أن يدلّني على مصدر هذه المعلومة النادرة لأرجع إليه مستوثقًا، فهي عنده سرّ اكتشفه يحرص على كتمان مصدره!

لما رويت هذه السالفة لصديقي، مستجيبًا لشهوة الكلام، وأنا ما أزال أتّكئ على ساعده، رأيته يرسل إلى هذه الساحة نظرة خُيّل إليّ أنها "جديدة"، وأطرى الذاكرة والبديهة، ثمّ.. رأيته يلتفت إلى ما وراءنا، ويتقدّم بي نحو محل يبيع العصائر، تُزيِّن مَدخَله أصنافٌ من فاكهة الموسم، ومن العنب كذلك الذي لمّا يئن موسمه لكن تدلّت من أعلى عناقيدُ له مصنوعة، وسألني: ما رأيك في كأس؟ قلت: من يد لا أعدمها. فكان كلّ منّا يمسك بيده كأسا ذاتَ حجم، مغطاة، ومن ثَقْبٍ فيها نرتشف بماسورة، ونحن نحاول العبور إلى الشارع المنشود.

في هذا الشارع المفضي إلى ساحة الشهبندر، كنا نمشي ونحتسي، قلت له: مثل مراهِقي أبو رمانة! وضحكنا بمرح، وما أكثر ما ضحكنا هذا اليوم!

فرغ الكأس في يده فرماه في حاوية صادفناها على الطريق، ولم أكن قد فرغت وقد طاب لي الاسترسال "الجاحظيّ" في الحديث. ثم كان أن وضعت كأسي بعناية فوق جدار واطئ تطلّ من خلفه أغصان غار، وقلت أبرّر "مخالفتي" هذه، فأروي أنه في أيام الانتداب لم يكن في جامعتنا السورية إلا كليّتان، للطبّ والحقوق، أُنشئتا في "العهد الفيصلي"، فكانت السلطات الفرنسية توفد المتفوّقين من أبنائنا للدراسة الجامعية في عاصمتها، وهكذا عاد عفلق والبيطار

والأرسوزي، متأثّرين ليس بالديمقراطية الفرنسية بل بالنزعة الدكتاتورية المستفحلة في الجوار هناك. وعن تلك الإيفادات -قلت- حدّثني يومًا، ونحن في "حديقة المدفع" (حديقة ابن سينا) صديقي المعجميّ "عمر رضا كحّالة"، أنّ موفدًا مِن غير مَن ذكرت، قام هو وصديق له في باريس، بزيارة لسويسرا المجاورة. وبينما كانا يمشيان في شارع بالعاصمة جنيف، رأيا ذلك التفاح الأحمر الذي لم تكن قد شاعت زراعته في حقول الزبداني ورنكوس، فاشتريا منه، وأَشرَع كلّ منهما مُوسه من جيبه، حسب المألوف عند "الزُّكُرتاويّة" في ذلك الزمان، يُقشّران ويرميان على الأرض ويأكلان هنيئًا، وقبل أن ينتهي ما بين أيديهما، قرَعَ أسماعَهما صوتُ شرطي غَيور، يطلب منهما أن يلمّا من الأرض القشور!

وضحكنا.. حتى وصولنا إلى حيث سيارتُه الهاجعة ههنا في أمان الله.

ودعستَيْ بنزين كنّا في شارع هو سقف مسقوف لقسم من "نهر تورا" العتيد، وانعطافة صغيرة كنت أمام بيتي.

بدأت بالحديث عن "الأتعاب" التي يتقاضاها الطبيب الأندلسي.

أودّ أن أقول إني رأيت لافتة صغيرة معلقة على جدار غرفة الانتظار في عيادة صديقي، تخاطب المرضى القادمين إليه، بأنهم "في حالة عدم التمكّن من دفع أجرة المعاينة يرجى إخبار الممرضة"، أكبرتُ هذا منه، فسألته عن الحين الذي علق فيه هذه اللافتة؟ فأجاب: منذ بداية الأحداث.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١-٥-٢٠١٩

تزوجت عمّتي

تزوجت عمّتي (وهي الأخت الوحيدة بين ثلاثة أشقاء) من رجل يأخذ بأطراف من الثقافة والأدب، ويمكنني القول: إني على يديه -بعد معلّمَي الابتدائي "نديم الفرّا" و"سامي الرزّ"- بدأت أفهم معاني اللغة والأدب.

في سنة الشهادة الابتدائية -التي كنا نسمّيها: "السرتفيكا"- دخلت البيت يوما في مطلع عام دراسي وقد حصلت على كتاب القراءة وعنوانه "الطُّرَف" من جزأين، فأخذ زوج عمّتي يشرح لي معنى كلمة "الطُّرفة وجمعها طُرَف"، ومرة روى لي حكاية "العصاميّة":

نفسُ عصامٍ سَوَّدت عصاما وعلَّمَـــتْه البِرَّ والإقداما

لما وُلدت له ابنته الأولى، وكنت في سنّ العاشرة، اتّجهت أنظار العائلة -كما يحدث في الأُسر- إليّ، أنا أكبر صبيان العائلة، يتوقّعون أن أكون لها "الزوج" المحتمل! وكان يُطربني من زوج العمّة أن يُغنّي لي، أو يُنشِد، بإيقاع جميل، أبياتا من الشعر، ما زال في الخاطر منها:

أزُفُّها لشجاعٍ ذي نخوةٍ وحَمِيّهْ

وكان كلما زارنا يسألني بمرح: "بتاخد البنت؟" ويُغني لي وأطرب.

ويشاء القدر أن أتزوج من فتاة هي شقيقةٌ كبرى لفتى أمسى فيما بعد أعظم فنان تشكيلي في سورية: "لؤي كيالي". وأما العمّة "محاسن" وزوجها "عطاء الله العياشي" فكان ممّن أنجبا: الأكاديمي "الدكتور منذر" وشقيقُه الأصغر "الدكتور بسام" الذي يُعدّ من أكبر الدعاة الإسلاميين في غرب أوربة.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١-٥-٢٠١٩

لا ألوم الصبيّة

لا ألوم الصبيّة إن هي جاءها العريس الأكبر سنًّا يُغدق ويُغَشّي العيون.. حتى إذا توالت الأيام وشعرت بالغَبن بدأت بالاحتجاج والتمرّد

لكني ألومه هو، وألوم أهلَها الذين أصابهم عَمى الألوان!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٥-٥-٢٠١٩

وأنت تسير في الشوارع السكنية

وأنت تسير في الشوارع السكنية غربيّ المدينة، ترى أعقاب السكاير متناثرة على الرصيف وما يليه.. ذلك أنّ أصحاب السيارات اعتادوا أن يدلقوا على الأرض "مَنافِضَهم" قبل أن يُقلِعوا.

هم ملكوا ما مكّنهم من اقتناء السيارات الفارهة، لكنهم افتقدوا من الكياسة ما يُزيّن لهم أن يضعوا هذه الأوساخ في كيس صغير يودعونه أولَ حاوية تصادفهم.. فيوَفّروا على عامل النظافة أن يَلمّ الأعقاب التي يدحرجها النسيم العليل!

دمشق الشام: الثلاثاء الأول من رمضان ١٤٤٠ و٦-٥-٢٠١٩

عندما يبدأ الحكّامُ الجُدد

عندما يبدأ الحكّامُ الجُدد بتشييد البيوت الأنيقة والفيلات الباذخة، في الضواحي الغربية من المدن وفوق المرتفعات المطلّة، تتخلّلها القاعاتُ الفسيحة ذات السقوف العالية، وتحيط بها الحدائقُ الغنّاء والمسابحُ والمرائب[٥٧] والإسْطبلات...

---

(٥٧) جمع مَرْأَب. وأصلها اسم مكان من رأبَ أي أصلح. استُعمِلت لمكان إصلاح السيارات، ثم تطوَّرت لمعنى مكان

فاعلموا أنهم يعتزمون البقاء وتوريث ذلك كلّه لذَراريهم.

دمشق الشام: فجر الاثنين ٦-٥-٢٠١٩

مطارَدٌ في مكان.. ومرحَّبٌ به في مكان آخر

يذكر الحلبيون حكاية ذلك الشاب، طالب سنة أولى هندسة، الرياضي.. أنه كان يومًا يسير في الطريق، فرأى شابًّا يعتدي بالضرب على ولد، فدفعَتْه شهامته للتدخل وتخليص الولد وتأنيب المعتدي.. الذي تبيّن أنه من الشبّيحة.

وطُلب الشهم للأمن، فنصحه أصحابه بأن يغادر البلد خوفاً عليه من الاعتقال وتلبيسه تهمةً مثل حمل سلاح.

غادر البلد تحت جنح ليل إلى تركيا، وهناك ركب "بَلم" إلى اليونان، وبعد تنقّله بالحافلات والقطارات والمشي على تخوم الغابات.. وصل إلى ألمانيا لاجئًا، تعلم اللغة، وانتسب إلى إحدى الجامعات مرحَّبًا به ومُعَانًا.

تقول الحكاية:

إنه ذات يوم كان يمشي في الطريق هناك، فرأى شابًّا ألمانيًا يَحصُرُ فتاة في زاوية ويَهُمُّ بالاعتداء عليها اغتصابًا، وهي تُوالي الصراخَ، والمارّةُ ما بين واقف على مَبعدة يتفرّج وبين سائر في دربه لا يبالي!

تحركت الشهامة في عروق ابن بلدنا، وتقدّم.. حاول تخليص الفتاة من المعتدي، الذي أسرع يُشهِر مُدْية.. الفتاة في ذلك تحرّرت ونجت بنفسها.. ودخل الشهم الرياضي مع المعتدي

إيواء السيارات.

في عراك، ما كان أسهل عليه أن ينتصر فيه.. انتزع المدية من يده وقد نالته منها جراح، وبطحه أرضًا على وجهه، وسحب حزامه يربط به اليدين.. وكان أن صفق المتفرجون وتوقف العابرون يمتّعون النظر بهذا المشهد الفريد!

وجاءت الشرطة، تسوق المعتدي، وصحبت الشهم مكرّمًا إلى حيث تلقّى مع الإعجاب التعجّب، من أن يتدخّل في هذا الأمر عابر سبيل مُعرِّضًا نفسه للمخاطر في سبيل إنقاذ فتاة لا يعرفها!

كتبتْ صحافةُ البلد عن هذا الشهم، العربي، السوري، ودعاه عمدة المدينة محتفيًا به، وعرضوا عليه وظيفة في الأمن لائقة، فاعتذر بأنه يتابع دراسته الجامعية.

نستطيع القول: إنّ بلدنا يقدّم للغرب نماذجَ قدوةً.. مثلما يُلجِئ للرحيل أناسًا قد ملأ قلوبَهم الخوفُ من الموت!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٨-٥-٢٠١٩

تكريم المتميّزين.. في الغرب

عن تغريدة "مطارَدٌ في... " أمس، جاءني من لاجئ سوري هناك:

صحيح الكلام بالمقال و... مو بس هيك

هون بيتكرّم المتميّز حتى لو كان ولد صغير.. يعني لما بيشوفوا ولد شاطر، مباشرة المعلمة تُخبر المنظمات، فبيتكفلوا بتدريسه وبرحلاته وبيخصصولو مربية تزوره بالبيت باستمرار..

(رامز...) ألمانيا.

قلت:

وعندنا.. الكاتب الذي يندّد بالقهر والفقر والفساد يمنعون وسائل الإعلام من أن تدنو

منه!

دمشق الشام: عصر الخميس ٩-٥-٢٠١٩

أريد لصفحتي أن تبقى!

كتبت الآن لابنتي الفنانة التشكيلية "سهير" في فلوريدا، أحدّثها أني حريصٌ على ألا تندثر صفحتي في عالم التواصل الاجتماعي إذا ما أدركتني المنية، فجأة أو على حين توقُّع.

قلت: بعيدًا عن العواطف يا ابنتي، أريد -وأنت الأقرب إليّ أدبًا وإبداعًا- أن تكون عندك منذ غد "كلمةُ السر"، تتولَّين إدارة الصفحة بعد الرحيل، بالطريقة التي تَرَيْنَها مناسبة، وأخصّ: أن تُعيدي نشر بعض التغريدات اليومية المناسبة كما أفعل في أيامي هذه، وأن تنظري في ما يرد إلى الصفحة من الأصدقاء وما يُنشَر عن أدبي في وسائل الإعلام، تختارين من ذلك للنشر في الصفحة التي تكون بين يديك الحانيتين.

إنّ الموت -الذي لا أهابه- أقرب إلينا من كلّ شيء.

فكّري فيما يمكن أن يكون.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٢-٥-٢٠١٩ س ٩: ٥٦

- - - - - - - - - - -

فكتبت لي على الفور:

بكل فخر والدي الغالي، بعد عمرٍ مديد عامر بعطاء قلمك الفياض في زمن تزايد فيه الظلم والظلام حتى كاد أن يُطفئ نور كل فكر.

أدرك أنّ أكثر البشر تصالحُاً مع فكرة الموت هم أكثرهم تقديراً لمعنى الوجود.

جوابي حاضر، لا حاجة للتفكّر.

فلوريدا، س ١٠: ١٦ م

منتدى لؤي كيالي

قبل نحو ثلاثين سنة قرأتُ أنّ بلدية باريس نُمي إليها أن بيتا هناك كان قد سكنه الكاتب الروسي تورغنييف عدة سنوات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. فاستملكَتْه وفرشَتْ فيه شيئا من أثاث تلك الحِقبة، وجعلته مُتحفًا يَؤمّه الناس، أُضيف إلى كثير من متاحف باريس.

كنت عرضتُ على وزارة الثقافة بدمشق، في تسعينيات القرن الماضي عن طريق الكاتب المفكر أنطون مقدسي، أن تستملك وزارة الثقافة البيت الذي كان سكنَهُ الفنان الراحل لؤي كيالي في أيامه الذهبية (من ٦٣– ١٩٦٨)، وتجعله "متحفًا"، وعند أهله كثير من ذلك الأثاث يُفرش فيه.. بعد سؤال الوزارة أفادني الأستاذ مقدسي بأن مثل هذه المشاريع سابقة لأوانها في بلدنا.

قبل مدة وجيزة جاءتنا سيدة سورية راقية تقيم في إسطنبول، رافَقْناها إلى البيت في حي العفيف، تفكر في شرائه –وقد غدا مهجورًا– وتجعل منه "منتدى" للفنّ والأدب تحت اسم "منتدى لؤي كيالي"، وفي بعض الغرف توضَعُ قطع الأثاث.. الحقيقية.. الفكرة ما زالت قائمة.

هذه التغريدة مهداة إلى المثقف السوري في شيكاغو نعيم موسى، فتعليقه في "جلسة مسائية.. " (الثلاثاء ١٤–٥–٢٠١٩) هو ما أوحى لي بكتابتها الساعة.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٥–٥–٢٠١٩

مرة شاهدت مقابلة تلفزيونية

مرة شاهدت مقابلة تلفزيونية لباحث أوروبي قد هام حبًّا بمصر وتاريخها، وأتى وزوجته يسكنانها، كان يتحدث في ذلك ويُعبّر عن حبّه لمصر والمصريين.. إلا في واحدة: أنه عندما يقف في باب محلّ ليشتري فهم متى عرفوا أنه "أجنبي" رفعوا الأسعار!

حدّثت بهذا صاحبي الطبيب، وأضفت أنهم في بلدي متى عرفوا أنّ لي في أمريكا أهلاً رفعوا!

قال: وأنا عندما يعرفون أني "دكتور".

دمشق الشام: ضحى الخميس ١٦-٥-٢٠١٩

في زيارتي الأولى لفرنسا صيف ١٩٧٤

في زيارتي الأولى لفرنسا صيف ١٩٧٤، كنّا أنا وبعضهم في نفق المترو بباريس.. خدَشَ سمْعَنا فجأة صوتٌ مجلجل، لم أفهم مما يقول سوى اسم فاليري جسكار ديستان.

فعلمتُ أن الرجل الغاضب يَشتم المرشح لرئاسة الجمهورية في ذلك الحين!

وما تصدّى له أحد.

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٧-٥-٢٠١٩

يوم بلغتُ الستّين من العمر

يوم بلغت الستّين من العمر كنت أقول: ما أحلاها سنُّ الأربعين!

وفي الثمانين قلت: ما أحلاها سنُّ الستّين!

اليوم أقول ما أُحَيلاها أيامٌ كنت أمشي غيرَ مُحنيِّ الظهر!

تُرى ماذا أقول في الغد القريب أو البعيد!

دمشق الشام: ضحى الجمعة ١٧-٥-٢٠١٩

في عام ٢٠٠٦ كنت بالقاهرة

في عام ٢٠٠٦ كنت بالقاهرة، وعند مغادرتي وأنا في المطار تعرّفتُ على موظَّف مِصري يعمل في مكتب "شركة الطيران السورية"، وكان مني أن قدّمتُ له تودّدا أحدَ كتبي وعنوانه "آه يا وطني" ينطوي على ثلاث قصص مُسَيَّسة.. فاحتفى بي الرجل بأن منحني فرصة أن أستريح في مقصف أطلب فيه ما أريد ضيافة.. وساعة أَزِف الموعد نادَوا عليّ بالميكرفون، والتقيت بمدير محطتنا هناك، السوري "... خانكان"، الذي بالغ بالاحتفاء بي، وكتابي في يده قدَّمه له الموظف المصري اللطيف.

بعد عام، وقد شاركت في ندوة أقامتها مكتبة الإسكندرية في ذكرى مرور خمسة وسبعين عامًا على رحيل الشاعرَين شوقي وحافظ إبراهيم، تكررت المغادرة والموقف، لكنني لم أجد الموظف المصري بل كان مدير المحطة هو الذي يتولّى. رأيته متجهّما، فتحرشّت به بأن ذكّرته.. فما هشّ ولا بشّ وظلّ عابسَ الوجه مقطِّب الجبين..

فأدركت أنه.. قرأ الكتاب!

دمشق الشام: فجر السبت ١٨-٥-٢٠١٩

ومّما آذاني من المصفّقين والهتّافة

ومّما آذاني من المصفّقين والهتّافة

أنهم لم يكتفوا بالحيلولة دون نشر أعمالي في مؤسساتهم الرسمية

بل كانوا يُزْرون بأدبي الذي يتسلّل قادمًا من وراء الحدود

وتجاوزوا إلى الطعن بي في كلّ اتجاه.

ويدّعون، يا وطني الحبيب، أنهم يبنون الوطن

دمشق الشام: فجر الخميس ٢٣-٥-٢٠١٩

شاركت مرة في مؤتمر فكري

شاركت مرة في مؤتمر فكري في جامعة بأحد الأقطار العربية، واتفق أن دعينا ذات مساء لحفلة شاي، وشاء كرم القيّمين أن يدعوا لها بعض الطلبة.

وقفنا بالدور (بالطابور باللهجة المصرية).. الله وكيلكم قبل أن أصل وكثير من المشاركين في المؤتمر إلى الموائد كانت الصحائف العامرة ممسوحة!

لا أندّد.

الجوع عند بعض أفراد الشعب يُضاهي ما عند مسؤوليهم من الجشع.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٤-٥-٢٠١٩

تقدّمتُ والصحنُ في يدي

تقدّمتُ والصحنُ في يدي، نحو الموائد العامرة، وجدتها محاطة "بالمناضلين"

وقفت على مَبعدة

خرج من "المعمعة"" أحدهم، ممتلئَ الصحن حتى القمة!

بكل "جرأة".. مددت يدي، أقتطف

نظر إليّ مستغربًا، ثمّ فَطِن إلى "المعادلة".. ابتسم ومضى.

من مخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات" المتوقع طبعه قريبا (صياغة آنيّة من الذاكرة)

دمشق الشام: عصر السبت ٢٥-٥-٢٠١٩

جدّي "سليم المفتي السباعي"

مقتطف مما كتبت قبل نصف قرن!

... فأما جدي لأبي فكان، هو الآخر، رائعا عندي في مجاله.

فتحت عينيّ على الدنيا وأنا أراه لا يقيم في حلب من أيام السنة إلا بعضَها، وفي بعضها الآخر يكون مسافرا إلى مصر، إلى مديرية الشرقية، مُتاجِرا بالعباءات العربية الفاخرة والكوفيات والعُقُل. يغادرنا في فصل الخريف، ليعود إلينا في أواخر الربيع، فيحدّثنا عما فعل وشاهد في "برّ مصر". فأحببت مصر وأنا طفل لا يعرف أنّ في الدنيا سوى "حلب" و"مصر" و"حمص" التي يحدّثنا عن إخوته فيها وأهله.

وقد كان يخصني بمحبّته، فأنا عنده أول الأحفاد والأسباط، وأنا كذلك أُشبه والده.

وكان رجلَ دين وعلم، مثلما كان محبا للمرأة يعرف شؤون دنياه! وزوجته، جدتي، تظل بحلب في أثناء رحلته السنوية إلى مصر. فإذا الرجل، على مَرِّ الأعوام، يتزوج بمصرية، وستخلف هناك بنين وبناتا، هم وهنّ أعمامي وعماتي.

وكان يعود إلينا، في كل عام، بأرباح تجارته، ليجد أنّ أبي وعمي لم يصيبا في عملهما من الرزق إلا أَقَلَّه، فيحلّ زنّاره الصوفي، وينفضه، فتسّاقط منه الليرات الإنكليزية، فيوزعها معدّلا

بها من حال أبنائه الذين عانَوا في غيبته من الشظف والرهَق كثيرا.

وأذكر كم أتت على أبي أيامُ شتاء، في الثلاثينات من هذا القرن، كان فيها لا يملك ثمن عشاء يحمله إلى البيت، فيستدين من جاره ليطعمنا.

النشر: مجلة "المعلم العربي" (عن وزارة التربية)، العدد الثلاثي مطالع العام ١٩٦٦

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر السبت ٢٥-٥-٢٠١٩

وأين تريدون

وأين تريدون

أن يذهب المُهجّرون

الذين جمّعتموهم في إدلب وأريافها!

جدّي.. وهو يقرأ القرآن سويعة الفجر

كتبت في ١٩٦٥:

... وتأثرت، وأنا طفل، بالجوّ الديني، الذي أسبغه جدي على البيت وعلى حياتي.

إنه ليصحبني، لاختصاصه إياي بمحبته، إلى الجامع الأموي القريب من بيتنا بحلب، فأصلي معه "صلاة التراويح"، حتى إذا فرغنا منها، ولمح عليّ آثار الجهد من العشرين الركعة والثلاث الوتر، التي أدّيت معظمها بأمانة، وغافلت الأعين في تأدية بعضها الباقي، أخذني من يدي إلى "المستَّت"، فأشبعني من حَلواه.

وما يزال إلى اليوم صوت جدي -يرحمه الله- في أذني. ما تزال قراءته القرآن، تلاوته جُزأه

اليومي، وهو في جلسته الصباحية، صيفا، على طرف الليوان أمام البِركة، والفجر وليد والشمس لمّا تشرق بعد... يأتيني صوته عبر الشُّبّاك وأنا في فراشي الصغير، فأنهض إلى باب الغرفة أقتعد عتبته، منصتًا إلى الصوت المتهجّد مأخوذا مسحورا، وعبير "زهر العسلية" يملأ أرجاء الدار.

هذه الصور، وآلاف منها، كيف يسعني أن أنساها؟ أليست من ذكرياتي؟ من ثقافتي الحياتية؟

كيف لا تدخل قصصي التي أكتب؟

مقتطف من مجلة "المعلم العربي" (وزارة التربية)، العدد الثلاثي مطلع العام ١٩٦٦

- - - - - - - - - - -

أقول:

بعض العارفين همسوا في أذني: إنّ نصّك هذا وأمثاله يجعل "العلمانيين" يكيدون لك كيدا.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٨-٥-٢٠١٩

الأدب الذي نحتاج

مقتطف مما كتبت قبل نصف قرن

- - - - - - - - - - -

... قلت في البداية: إنّ أدبي عن الفلسفة بعيد.

وأرى أنّ الرواية الفلسفية مرحلة تأتي بعدُ. وإنما اقتحمت الفلسفة عالم الرواية في فرنسا، مثلاً، على أيدي بعضهم، بعد أن عالجت الرواية هناك كل القيم والأفكار والوقائع. ولكنّ الرواية عندنا: كم ذا عالجت من القيم؟ وأية "تخمة" بلغها أدبنا الروائي؟

الرواية حديثة في أدبنا العربي، بل إنها في شكلها المُحدث لم تكد تولد إلا من عقود قريبات. وإنّ مَن يفكّر في "فلسفة" الرواية كمن يريد أن يطوي المسافات دون ما داع لذلك.

أترانا أحوج إلى كاتب يؤلّف على نمط تشيخوف وغوركي وستندال وبلزاك وديكنز ومورياك؟ أم إلى آخر يؤلّف على نحو كافكا وسارتر وكامو؟ أم إلى ثالث يؤلّف كما بات يؤلّف أخيرًا أمثال ألان روب غرييه وناتالي ساروت وكولن ويلسون؟

إنّ كاتبنا مطالب بأن يضع بين أيدي جمهورنا الأكثر عددًا، كتبا تعالج مشكلاته وقضاياه، فتُمتعه وتفيده، وتبعث الأمل الجميل في نفوس تطمح إلى أن تبني مجد أمة قد انحدرت وهي اليوم عازمة على النهوض.

إننا في حاجة إلى أدب غير مقلِّد، لا يوغل في سراديب الغموض والتفاهة فيغلق فهمُه حتى على العارفين بأسرار الإبداع، أدب لا يُعلن بملء الفم: إنّ الحياة عبث، وإنّ مأساة الإنسان في أنه منتهٍ إلى الموت! هذه قيم أمة قد بلغت في مضمار الحضارة ذِروةً تؤذن بالانحدار. ونحن، في يومنا هذا، أمة ناشئة تتشوّق إلى الكلمة الجميلة الشجاعة البانية، تَسوقها إلى الساعدِ العامل وإلى السلاح الذي يَذود. والكلمة التي نريد يجب ألا تنفصل عن بيئتنا وعن تراثنا، بوصفنا أمة شرقية عربية مسلمة.

تلك هويتنا القومية، فهل نضيِّعها ركضًا وراء قيم وافدة إلينا من دنيا أخرى؟ فأين شخصيتنا الإنسانية؟

مجلة "المعلم العربي" (وزارة التربية)، العدد الثلاثي مطلع العام ١٩٦٦

\- - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الخميس ٣٠-٥-٢٠١٩

قرية ظالمة.. نظام ظالم

في منتصف خمسينيات القرن الماضي، وقع في مصر، في صعيده، أنّ سيارة سياحية صغيرة، يقودها ربّ أسرة تُقلّ زوجته وأولاده، عند اقترابها من قرية على الطريق، اتفق أن توقف أوتوبيس سفر ونزل منه ركاب، بعضهم أخذ يجتاز الطريق عرْضًا إلى الطرف الآخر غير متخذين حذرهم، دهست السيارة السياحية أحدهم... فهجم الناس على أفراد هذه الأسرة، الذين هربوا وهام الأولاد على وجوههم في البراري وهم يلاحَقون...

لا أذكر كم ذا قضى من "المجتازين الطريق" دون حذر ولا من أفراد هذه الأسرة المنكوبة... ولكن حديث الصحافة يومذاك عن هذه الحادثة أثار الرأي العام في مصر ضدّ "ردّة الفعل" غير البصيرة من أولئك الناس... وما زال في الخاطر ما قرأت لصحفي كبير (محمد التابعي أو غيره)، من وصف لذلك "التجمع السكاني" بأنهم "قرية ظالمة"، وحَضَّ، في ألمه، ليس على معاقبة الذين هجموا وروّعوا فقط، بل معاقبة القرية في مجموعها!

أقول:

عشت، بعد تلك الحادثة ستين سنة، لأشهد نظامًا يهجم على شعبه، مستعينًا، فيقتل، ويزجّ في المعتقلات، ويهجّر الملايين في أنحاء المعمورة... آخر ذلك ما يفعله في إدلب الخضراء، من قصف بالأسلحة الذكية، يقتل فيه الأبرياء...

ألا يحق لنا أن نطلق عليه وصف "نظام ظالم"! دمشق الشام: صباح السبت ١-٦-٢٠١٩

وأحرقوا الأعشاب

وأحرقوا الأعشاب على سفوح قلعة حلب مع الأحجار الكلسية المرصوفة...

لم يدعوا إساءة إلا ارتكبوها في حقك، يا حلب!

وجزيل الشكر للأستاذ علاء السيد على بيانه الموضوعي والغيور على مدينته العظيمة.

دمشق الشام: ضحى السبت ٨-٦-٢٠١٩

عندما يُستشهد عاشقٌ للحرية

عندما يُستشهد عاشقٌ للحرية

وقد سبقه أبوه وثلاثة أشقاء

فإنه يصبح في الضمائر الحيّة أيقونة للحرية

رضي النظام أم لم يرضَ

جبنة بيضا.. ومِشمش مورّد الوَجنات

لمّا غادرني ضحى اليوم صديقي، طلبت منه أن يدع باب الحديقة (المطلّ على الرصيف) مواربًا توقعًا مني لقدوم قادم مجهول، وذهبت أستكمل نومي بعد صباح استغرقتني فيه غواية "التواصل".

عند استيقاظي ظهرًا فوجئت بأنّ على الطاولة في الحديقة، شيئًا غريبًا: كان عبوةً من مشمش الغوطة وإلى جوارها وريقةٌ تقول: "من صديقك "أبو بديع""، اليد السخيّة التي عوّدتني أن أتلقّى الهدايا مِن جَنَى تلك الحديقة الواسعة غربيّ العاصمة.

عند المساء أعددت شطيرة "جبنة بيضا مسنّرة"[٥٨]، وإلى جانبها مشمشات، خدٌّ منها يُلوّنه الشحوب وخدّ يكسوه لون الورد، شطرت كلّ واحدة شطرين.

(٥٨) نوع من الجبنة تُذاب على النار وتُعمل دوائر كدوائر السنّارة: (السوار) وتُحفَظ بالملح، يضاف إليها عند إعدادها حبة البركة والمستكة والمحلب، فتغدو لذيذة المذاق.

وفي الحديقة، على أنغام قطرات الماء المنسكبة على سطح البِركة بإيقاع رتيب.. تناولت عشائي: لقمة من هنا، وأخرى من هنا.

وأعترف لكم بأني ما رميت البزر إلا فتاتا، كسرته واستخرجت لبّه.

شكرا صديقي تقي القدسي.

دمشق الشام: ليل الاثنين ١٠-٦-٢٠١٩

لست "مدعوما"!

صديق لي حميم من الكتّاب المترجمين عن اللغات، ومدعوم، استحسن نقل كتاب إلى العربية. تقدّم إلى مسؤولي النشر في تلك المؤسسة الرسمية، وتلقّى الاستجابة. أنجز، ثمّ عَهِد بالنص إلى مَن نضّده ضوئيّا، وتمّ تسليم التنضيد إلى الناشر، وما هي إلا مدة وجيزة حتى كان الكتاب يتهادى بين أيدي المثقفين.

أنا -وأعوذ بالله من كلمة أنا لولا أني مضطر لها! - قدّمت مخطوطة كتاب نقلتُه عن الفرنسية إلى تلك المؤسسة، لم يكن مسؤولها الأول يعرف عني إلا أني كاتب بين الكتّاب، تراءى له أن يكون "القارئ المحكِّم" للمخطوطة. في "تقريره" عبّر عن جميل استحسانه لاختياري الموضوع، وأما اللغة، لغتي، فقد كتب يقول إنه منذ زمن لم يقرأ ما هو في مستواها! شكرا له. أكرموني بأن صوّروا التقرير، وقد استأذنتهم فلم يجدوا ما يمنع من نشره في "صفحتي" مع إغفال اسم كاتبه وعنوان الكتاب. وأما عقد النشر فقد بادروا إلى توقيعه، وقبضت المكافأة من صندوق المالية ناقصًا ما يعادل سُدُسَه حَسْميّات.

هل تورّط الرجل؟

نصحه الشانئون بأن يدخل صفحتي أولًا ويقرأ! فلما اطّلع أوعز بوقف النشر، وطولبت

بردّ ما قبضت، وهو هيّن، مع تحمّل الحسميّات.

لن أقبل أن أكون غريبًا في وطني، فحبّي لترابه لا يُضاهيه إلا إشفاقي عليهم وهم في حالة غياب النزاهة، التي هي عنوان الوطنية.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٣-٦-٢٠١٩

حوار.. في انتظار السفر

في عام ١٩٦٨ أو ما حوله، كنت في زيارة من دمشق إلى أهلي بحلب. ويوم عودتي، ولحظة كنا نحن ركاب البو لمان (في نقليات الكرنك التي كانت يومذاك هي الأرقى) نهمّ بالصعود إلى السيارة، جرى أمامنا حوار بدأه "معاون السائق" الذي كان يُشرف على تسلّم الحقائب من الركاب لتُرتَّب في مستودع السيارة ترتيبا حسنا، وبين والد أحد الركاب جاء يودّع ابنه الطالب بجامعة دمشق، بعد انقضاء العطلة الانتصافية.

في الجدال عرفنا أنّ في متاع الابن شيئًا من المأكولات التي أعدّتها الأسرة لابنها الطالب بكلية الطب في العاصمة، هي "كبّة" أقراص ودراويش وصينية. المعاون يقول: "ممنوع نقل المأكولات"، والأب يشرح أنها "ناشفة" لا يسيل منها ما يلوّث، وذاك يتعنّت: "ممنوع"... وبدا لنا نحن الواقفين نسمع، أنّ الأب الحنون يوشك أن يُغلَب وابنه طالب الطب لا يعرف ما يقول!

هنا لم أستطع السكوت، رفعت صوتي أقول للمعاون على مسمع:

ـ يا رجل! أي ضرر في أن يحمل شاب من زهرات الوطن هذه المأكولات البسيطة في سفره؟ إنه يبتعد عن أهله ليَدرس الطبّ ويعود يؤدي الخدمات للناس ومنهم أنت وأطفالك... أنت تمنعه من أن يصحب معه شويّة مأكولات صنعتها له أمه!

نظر إليّ الناس وأنا أتكلم بمنطق صادر من القلب. المعاون كفّ عن الاعتراض، والمأكولات دخلت المستودع ورُتّبت بأمان، وما أظن أن الرجل اقتنع بما أدليت، ولكنّ صوتي المرتفع جعله يظنّ أني "مدعوم".

خمسون عاما، يا أصدقائي، مرت على هذه الحادثة الصغيرة. يمتدّ بي الخيال اليوم، فأرى أنّ طالب الطب ذاك قد تخرّج، وأنه حصل على البورد الأمريكي متخصصا، وعاد يخدم الوطن، وقد يكون غادرنا للعمل في الخليج أو في أي مكان في العالم، وهو اليوم متقاعد لبلوغ السن... وأنا في دمشق أتذكّر وأكتب.

دمشق الشام: عصر السبت ١٥-٦-٢٠١٩

يوم تكون الفتاة

يوم تكون الفتاة في الثانية والعشرين بعزّ الصبا والجمال

يأتيها ابنُ الأربعين ينشد الاستقرار في الأحضان

فترى فيه النضج وترى المال، وقد ينضاف إليهما عيشٌ رغيد في عاصمة من عواصم الدنيا...

لمّا تبلغ هي الأربعين عزَّ شبابها وأنوثتها

يكون هو في حالة استقبالٍ لخريف العمر

فيبدأ عندها الأنين

ويعاني هو الإحباط والندم.

دمشق الشام: عصر الاثنين ١٧-٦-٢٠١٩

في تردّدي على بعض القرى

في تردّدي على بعض القرى في ريف العاصمة مطلع السبعينيات بعمل سُمّي "بحث تكاليف المعيشة"، عرفت أنّ أهل القرية الواحدة، التي يملك كثير من أبنائها بقرة أو اثنتين، جَرَوا على أن يقدّموا يوميًّا منتَجَها من الحليب لواحد منهم تكون عائلته قد جنّدت أفرادها ليصنعوا ممّا تلقّوا كميّةً من "الجبن" ينزلون بها إلى المدينة...

فسألت: ألا يعمد بعضهم عند تسليم الحليب إلى أن يغشّه بالماء؟

فقالوا: لا، لأنّ عند صاحب البقرة اعتقادا بأنه إن غشّ حليبها ماتت!

في إعجابي بذلك ظللت أتساءل:

أليس عند بعض بيّاعي الخُضَر والبقاليات في المدينة اعتقادٌ بأنهم إن طفّفوا بالميزان يحصل لهم ما يُشبه ذلك المحظور؟

دمشق الشام: مساء الاثنين ١٧-٦-٢٠١٩

نعم.. أنا من أتباع "الواقعية" في الأدب

حوار في جريدة "الصفاء" البيروتية، ٩-١٠-١٩٦٢

رُنيه عبّودي

- - - - - - - - - -

س١: متى بدأتم بكتابة القصة؟ ولماذا اخترتم ميدانها؟

ـ بدأت بالكتابة وأنا بعدُ في مدرسة التجهيز بحلب. أقول بدأت بالكتابة، ولم أقل كتابة القصة. وأذكر أنّ أول ما استهواني من الفنون الإبداعية فنّ الرسم، الذي زاولته قدر إمكاني

وأنا في سن التلمذة. ثم وجدتُني فجأة ذات يوم، وقد أمسكتُ بالقلم لأخطّ قصيدة موزونة مقفّاة تعبّر عن انفعال وجداني كنت أحسُّني أيامها أرزح تحت وطأته... وهكذا رأيتُني أولي الشعر اهتماماتي الغضة متولّيا عن الريشة... ثم أخذتُ أحاول تدبيج المقالات والدراسات الأدبية الصغيرة، وأميل إلى القصة تدريجيًّا دون أن أتوخّى الاتجاه إليها، فشُغِفتُ بفن القصة، وجعلني أنصرف عن الرسم والشعر، وقد حدث ذلك في العام ١٩٥٠... أما لماذا كان ذلك، فلست أدري من حقيقته إلا أنّ نفسي وجدت في القصة مجالًا أرحب للتعبير عن الخواطر والأحداث التي تسترعي انتباهي.

س٢: يلاحَظ أنكم من أنصار الواقعية، فهل أنتم كذلك؟ وكيف تفهمون الواقعية؟

ـ أنا من أنصار الواقعية في القصة، نعم. وأدب القصة يحمل في طيّاته وفي ظاهره، رسالة اجتماعية، رسالة عفوية نابعة من وجدان الأديب مفروضة عليه وفق مذهب أو معتقد. وما دامت القصة رسالة، فينبغي أن تكون واضحة المحتوى للقرّاء، للقرّاء عامّة. وليس أوضح لهم وأدعى إلى التأثير في جموعهم من الأدب الواقعي الذي يغترف مادته الأولية من واقع الأمة. ونحن أحوج ما نكون إلى سلوك سبيل الواقعية في الأدب دون سواها من السبل، في مرحلتنا الراهنة الناهضة. وأما انتهاج الأساليب البعيدة عن الواقعية، المتجافية عن الوضوح، المغرقة في متاهات لا يَفكّ رموزَها إلا الراسخون، فإنّ لقرّاء العربية، المنتشرين ما بين الخليج والمحيط، عذرهم إذا ما أعلنوا قصورهم عن فهم هذا اللون من ألوان الأدب المغلق!

إنّ علينا -نحن أدباء العرب- أن نَمتَح اليوم من أدب الواقع، حتى إذا غدا للغتنا أدبُها الحديث الراسخ، حُقّ لنا أن نجتاز هذا الأدب لنكتب على شاكلةِ أحدثِ ما توصّل إليه الإبداع الغربي من مذاهبَ أدبيةٍ فنية، ومن غوص إلى أعماق الغموض، والاكتفاء بالتلميح، والنهل من بحر اللاشعور... ولن أرجو اليوم قط لأدبنا أن يتأثّر بأمثال ألان سيليتو أو فرانسواز

ساغان، فهما في الحق تعبير عن حضارة وصلت حد الشِّبَع وتؤذن بالانحدار... وأما أمّتنا العربية، فإنها تعيد بناء صرحها المنهوك، إنها بالاختصار أمة متطلّعة متشوّفة، تحتاج أدباً بنّاء واقعيّا مدروساً رصيناً غير غاضب ولا متحلِّل من قيود الأخلاق.

إنني واقعي، نعم، مُغرق في الواقعية(١).

وإنني لأتمنّى أن أفهم الواقعية كما فهمها ستاندال في "الأحمر والأسود" وبلزاك في "أوجيني غرانديه" وفلوبير في "مدام بوفاري"، تعبيراً فنّيّاً صادقا عن أحاسيس الوجدان، ومطامح الفرد ومطامعه، وسَخَائه وأَثَرته، وحبّه وكرهه، وعن مختلف التناقضات الاجتماعية وما تولّده من المظالم والمفاسد والرذائل... ولكن -وأجدني ألحّ على هذا الشرط فهو أساس- بالتعبير الفني الصادق.

س٣: من هو أفضل كاتب قصة عربي في رأيك؟ وأفضل كاتب قصة أجنبي؟

ـ لستُ أظنّ أنّ السؤال ينبغي أن يُطرح هكذا. فليس ثمّة كاتب أفضل من كاتب. لقد نهض أدب القصة العربية بفضل عدد من الرواد الذين حاولوا، وما زال غيرهم يحاول، النهوض به إلى المستوى المطلوب. إنّ للمازني وتيمور فضلاً كبيرًا على أدب القصة، ولولا ما قطعاه وغيرهما من أشواط لما كان لنجيب محفوظ أن يجد الطريق، بعض الطريق، معبَّدًا أمامه فيُتاح له أن يتابع المسير. وأستطيع القول إن أفضلهم ما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٦٠، محفوظ في الرواية، ويحيى حقّي في القصّة.

والجواب، بعد هذا، عن أفضل كاتب قصة أجنبي يبدو لي أشد صعوبة وأبعثَ على الحيرة، لكثرة "الفضلاء" في دنيا الآداب الأجنبية، ولأنّ لكلٍ منهم مذهبه الغنيّ أو فلسفته الفكرية وجيله التي برز فيه. ولعل من أعظم كتّاب العالم الذين لم تكد تختلف عليهم الآراء تولستوي

وتشيخوف من الروس، وهامنغواي وفولكنر من الأمريكيين، وديكنز من الإنكليز، وأما الأدب الفرنسي فقممه تأبى كل عدٍّ وتمثيل.

س٤: هل يمكننا أن نقارن مستوانا الأدبي بالمستوى العالمي؟ ومن هم أدباءنا الذين بلغوا هذا المستوى؟

ـ أرفض مبدأ المقارنة من أساسه. ليس لأنّ أدبنا أدنى مستوى من الأدب العالمي فحسب، ولكن أيضًا لأنّ ظروف أدبنا الناشئ ابن القرن العشرين غير ظروف أدبهم الذي يبنونه على تراث ساهمت في إعلاء شأنه عقول جبّارة على مدى أربعة أو خمسة من القرون. وأدبنا لن يرتفع إلى المستوى اللائق ما دام على أديبنا أن يعطي نصف نفسه لعمل أو وظيفة يعتاش منها ليكون له أن يمنح بعض النصف الباقي للأدب!!

س٥: ما رأيكم بالموجة الجديدة من الأدب النسائي؟

ـ تقولين "الموجة الجديدة" لتستبعدي أدب المرأة عامّة الذي بدأ يقف على قدميه بعد جهاد خمسين عامًا بذَلَته مي وسهير القلماوي ووداد سكاكيني وعائشة عبد الرحمن.

حسنا، إنّ الموجة الجديدة في الأدب النسوي تزحف في مدّ يتزايد عامًا بعد عام. هل لي أن أعتقد أنّ البادئ فيه ليلى بعلبكي؟ قرأتُ لها "أنا أحيا" فوَقَعَتُ عندها على تمرُّد ولم أجد فنًّا قصصيًّا. ومنى جبّور تملك خواطر ثورية ملتهبة مبعثها تلك العقدة الخبيثة، "عقدة المرأة". وعند غادة السمّان ثورة ولكن مع وعي فنّي. وكذلك تملك رُنيه عبّودي الوعي الفنّي مع هدوء رصين. وكوليت سهيل ما تزال في ورودها إلى شاطئ الذكريات لا تكاد تُغني الأدب النسوي في شيء. وجورجيت حنّوش دلفت إلى الطريق قبل عام ونحن ننتظر.

ومع حدّة هذه الموجة لا يمكن تكوين رأي حاسم. إننا بانتظار انحسارها لنعطي رأيًا ليس من شك في أنّ أخواتنا الأديبات سيضقن به ذرعًا لأنّ الغواني يغرّهنّ الثناء. هوامش:

(١) ربما كان أخذي بالواقعية يومذاك وبهذه الحدّة، ناجمًا عن تأثرنا نحن الكتّاب الشباب بالكتّاب المصريين من ناحية، ورفضًا مني لمذهب الوجودية الذي شغل بعض الكتّاب على سبيل التقليد في عقد الخمسينيّات. على أني زاوجت، بدءًا من أواخر الستينيّات، ما بين الواقعية والرومانسية، وأخذت بالفانتازيا خصوصا في كتابتي القصص المسيّسة!

(٢) كانت الزميلة الأديبة رُنيه عبّودي بحلب قد نزلت إلى بيروت في مطلع ١٩٦٢، وأخذت على عاتقها -بالاتفاق مع جريدة "الصفاء" التي كانت قد صدرت حديثا- أن توافيها بحوارات تُجريها مع كتّاب حلب. وقد تهمّمنا للاستجابة نحن الكتّاب الشباب يومذاك (أنا وعلي بدّور وآخرون)، إلا أننا سمعنا زميلنا جورج سالم يقول في تواضع: "ومن نحن حتى نقدم للقراء آراء في الأدب والفكر؟ "، فتريّثنا... ثمّ بعد إعمال الفكر أقبلنا على الإجابة عن الأسئلة وبيننا جورج نفسه.

قد يكون هذا الحوار أول ما كتبت.

- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: عصر الأحد ٢٣-٦-٢٠١٩

عند بيّاع الثوم

في مطلع خمسينيّات القرن الماضي، وأنا طالب بجامعة "فؤاد الأول" بالقاهرة، أسكن عمارة الأوقاف أول "شارع الدقّي" باتجاه "حديقة الأورمان"... كان الباعة في الأسواق الشعبية القريبة يرون فيّ "أجنبيا"، يونانيًّا من المقيمين بالقاهرة أو أوروبيًّا، فلا تكون معاملتهم لي على ما يرام، فكنت في أثناء الشراء أُكثر من نطقي بعبارات مثل: "صلّي ع النبي يا عم، قول لا إله إلا الله"! فيستغرب البائع وقد يهادنني في التعامل قليلاً.

هنا في دمشق، التي أسكنها منذ خمسين سنة وزيادة، لاحظت عندما أنزل إلى الأسواق الشعبية في وسط المدينة لأتسوّق ما يكون سعره مُتهاودًا أو يقلّ وجوده في أسواق الضواحي، أنهم يرون فيّ "أجنبيًّا" يتكلّف الكلام بالعربية! سألت أصحابي في هذا ففسّروا لي بأن نطقي الكلمات واختياري العبارات بعناية، ربما هو ما يحملهم على هذا الظنّ.

وأذكر أنّ أحدهم سألني مرة من وراء بسطته، وأنا أتموّن الثوم من عنده:

ـ أنت أرمني؟

فقلت له:

ـ لا تقلها يا رجل، ابن عمّ لي كان يومًا عميدًا لكلية الشريعة وهو الذي أسسها!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢-٧-٢٠١٩

ومن أين لي أن أعلم، يا عبد العليم!

لست أدري كيف وجدتُني في تلك العاصمة التي كان قد وقع فيها حديثا انقلابٌ هادئ لم تُرَق فيه قطرة دم. وما حرّضني على هذه الزيارة أنّ فيها أحد أبناء إخوتي، واسمه "عبد العليم"، قد جاءها يعمل موظفا في مصرف.

ما استرعى انتباهي، وأنا أتجوّل في الأسواق، أنّ نَفَراً يلبسون بدلة زرقاء موحّدة يقومون بتوزيع كتاب على الناس، فكانوا يبادرون إلى شرائه بقبول رأيته ملتبسًا! سألت أحدهم عن محتوى هذا الكتاب الجميل، فأجابني بأنه يشرح "منجزات الثورة".

ولأني كاتب أَهتمّ بشؤون الثقافة والسياسة وأمارس أيضًا أعمال نشر الكتب وتوزيعها، فقد شاقني أن أقلّب لحظاتٍ صفحاتِ هذا الكتاب، الذي أُلِّف ونُشر ولـمّا يمضِ على الانقلاب إلا مدةٌ وجيزة، ودعاني فضولي لأن أسأل أين يمكنني أن أقتني نسخة منه فدلّوني وسعيت.

عند دخولي المبنى، أخذوا بيدي وقد رأوني أتحدّث بلهجة عربية مختلفة، إلى حيث مسؤول الهيئة الكبير. رأيته يلبس البدلة الموحّدة مثل كلّ من يتحركون أمامي، رحّب بي، وقلت:

ـ لمحت وأنا أتجوّل في الأسواق، كتابًا قالوا إنه يتحدث عن المنجزات فتمنّيت مطالعته!

لم أكد أنطِق عبارتي هذه حتى كان الكتاب بين يديّ، والعنوان "ثورتنا المجيدة، الحصاد الأول"، معبّرًا عن سروره من اهتمامي بهذا الكتاب، وأخذ يشرح لي أنه ثمرة عمل متواصل سهروا في إعداده ليلَ نهار. وقد أمسكت عن أن أسأله كيف تأتّى له، لهم، أن يرصدوا منجزات ملأت كتابًا بهذا الحجم وهم بعدُ على الكرسي منذ قريب! وقلت: أريد اقتناء نسخ منه أوزّعها في بلدي يقرؤه الناس.

فسألني عن "الكمية"، قلت:

ـ عشر نسخ.

فارتفع منه صوت محتجّ:

ـ عشر فقط!

قلت:

ـ وإذا رأيت إقبالًا طلبت غيرها.

وثَبتُ بعد أن أعلمني بالسعر:

ـ هذا غيرُ مقدور عليه في بلدي، الذي يبحث فيه الناس عن لقمة الخبز!

قال:

ـ ليُضحِّ المثقفون الثوريون بقرشين لقاء كتاب ثوري!

وانتهينا إلى أن يعطيني كمية برسم "الأمانة" (على المبيع)، وبحسم عال إن أنا أكثرت من

مطلوبي، على أن أقدّم له "ضمانة"!

فقلت:

-إنّ واحدا من أبناء إخوتي يعمل في بلدكم، في أحد المصارف.. هل يمشي حاله كفيلاً؟

وقبل أن أذكر الاسم كان قد أخذ الهاتف يطلب.. ولحظة فرغنا من احتساء قهوتنا كان "عبد العليم"، الشاب الرياضي، الطموح والمرح، يدخل علينا وفي محيّاه شيء من رعب لم أعهده فيه ساعة فارقته صباحًا!

قال المسؤول:

- عمّك المحترم جاء يطلب كمية من "الحصاد الأول" لتسويقه في بلدكم الجميل.. هل توقّع لنا كفالة تضمن وصول الثمن إلينا في مهلة نحددها؟

أجاب عبد العليم حالا وقد ذهب عنه بعض روعه:

- أبصم بالعشر، يا سيدي!

وجيء بالأوراق، وبصم ابن أخي بالإبهام، وأُعطي الأمر بتجهيز الإرسالية فورًا.

هنا رأيت عبد العليم يقترح على الرجل، بأدب جمّ، أن يتوسّط له عند مديره العام بأن يأذن له بمرافقتي إلى عاصمة بلدنا.. كي يساعدني في توزيع الكتاب!

في خروجنا من المكان، أيها السادة، وأنا أتحيّن لسؤال ابن أخي عن قراره المفاجئ بمرافقتي إلى الوطن، مال عليّ يقول بصوت راعش:

- شو هالورطة، يا عمّي العزيز! ألم تسمع أنهم نفّذوا في هذا الفجر، بحدّ المقصلة، حكمَ الإعدام برئيسهم الذي قاد انقلابهم.. وطافوا برأسه، مغروسًا بسنّ رمح، في العاصمة، يُعلِنون أنه.. خان الثورة، خان الوطن!

قلت مذهولا:

ـ ومن أين لي أن أعلم، يا عبد العليم!

بعد يومين.. عرفنا أنّ مسؤول النشر هذا، قد طيف برأسه في الأسواق!

واستيقظت.. لأروي لكم ما قاله هذا الحلم الغريب.

دمشق الشام: ليل الأحد ٧-٧-٢٠١٩

زارني قبيل ساعات

زارني قبيل ساعات "ماجد مراد آغا" واحد من أبناء الأخوال في مدينة حماة.. وجلسنا نتحدث على إيقاع قطرات الماء تنسكب على سطح البِركة..

يتذكر أنه قرأ كتابي "ضيف من الشرق" (عن دار الآداب بيروت) وهو في الخامسة عشرة من العمر (١٩٦٠).. في جلسة واحدة.. لم ينس!

دمشق الشام: الثلاثاء ٩-٧-٢٠١٩.

زهرة الياسمين الوحيدة

في ربيع مضى، قبل سنتين وزيادة، جاءني من أعرفه باسم "أبو وسيم" بصديق له يُدعى "أبو أحمد"، وقال لي: إن أبو أحمد يفهم بأمور الحدائق والبساتين، وقد كانت له مزرعة على طريق المطار يُصدّر منها إلى الخليج "كل دُرّاقنة هالقدّ[٥٩]!"، ضاعت المزرعة في هذه الحرب، نصف سيطر عليه المقاتلون ونصف في يد النظام، وبدا أنّ هذين الطرفين قد تسابقا في قصّ أشجار المزرعة للاستدفاء بها حطبا في ليالي الشتاء الباردة، وأنه... سوف يعتني بحديقتي

---

(٥٩) بهذا الحجم، كناية عن كبَرِها.

ويجعلها الأجمل بين حدائق الجيران!

لن أتكلم عن تواضع خبرة أبو أحمد ولا عن ابتزازه لي وتباطئه في العمل يأتي يوما ويغيب سبعة.. أكتفي بواحدة: أنه رأى شجرة الياسمين عندي قد نمت طولا حتى بلغت شرفة الجيران، الذين نصبوا لها عريشة من قصب، وتحتها صاروا يَسمُرون ويقدّمون فناجين القهوة الحلوة والمرة لضيوفهم... فأشار عليّ أبو أحمد بقَطْعها فتُفرِع أغصانا جديدة، وتُزهر في المواسم القادمة "خير ألله"!

ثمّ إني لبثت، طَوال السنتين ونصف السنة التي مرّت، أعاين الأغصان الخجولة التي أنبتتْها الجذورُ الحزينة، في الصباحات الباكرة وفي الأمسيّات العليلة، أملا في أن تصافح عيناي زهرا وأستنشق عبيرا... لكن دون جدوى!

صباح هذا اليوم لمحت زهرة وحيدة.. فأسرعت أصوّر.

ولكني أعترف لكم، يا أصدقائي، بأني استوحيت من ذلك قصةً، "شَخْصَنتُ" فيها شجرة الياسمين وجعلتها تروي بلسانها حكايتها، منذ دخولها الحديقة شتلةً، ونموّها وتسلّقها إلى شرفة الجيران، وإزهارها فوق، وما اعتراها من تأنيب الضمير لأنّ ذلك قد حرم أصحاب الحق من الاستمتاع بزهرها... إلى قَطْعها بيد الجنيناتي، وتألّمها وبكائها، ورؤيتِها جِذعَها المرميَّ أرضًا يجري تقطيعه... إلى حضّها الجذور الحَرِدة على إنتاج النّسغ... قصة كانت شجرة الياسمين المرهفة تتحدث وتبكي ظلم البشر، بعثت بها إلى صديقة في دولة عربية، لتعمل على تقديمها للنشر في مجلة هناك، فلما قرأتها كتبت لي:

"هذه القصة من أجمل ما قرأت، إبداعاتك أستاذ فاضل جليّة في القصة. أظن أنها بمعانيها القوية قد لا تُنشر في المجلة لأنها تحمل في طياتها الآلام والمعاناة والإصرار على رفض الظلم، ولهذا قد لا تنشر القصة في هذا البلد! هذا رأيي الشخصي".

فكتبت لها: "صحيح، أقول هذا وأنا أضحك من أعماقي، ولكنه ضحكٌ كالبُكا حزنًا على أوطاننا، يا صديقتي الغالية. "

دمشق الشام: الجمعة ١٢-٧-٢٠١٩

قبل سنوات كتبت لي مدرّسةٌ

قبل سنوات كتبت لي مدرّسةٌ في الوطن عن حادثة ضَربَتْ فيها مدربةُ الفتوّة[٦٠] طالبًا أمام زملائه أهانته وأوجعَتْه.. فأوحت لي التفاصيل بأن أستعيرها لمنشور مؤثر كتبته.

بعثت إليها، وأنا في فلوريدا، بمسوّدة المنشور، ونبّهتُها إلى أنهم يستطيعون أن يتعرّفوا على شخصها رغم كتماني الاسم، لفظاظة الحادثة وتفرُّدها، فينالها أذى!

وسرْعانَ ما كتبت لي تقول إنها لا تريد أن "تبتعد" عن صغارها!

فطويت المنشور وضاع بين أوراقي.

دمشق الشام: ليل الخميس ١٨-٧-٢٠١٩

ذات يوم.. في اجتماع أولياء الطالبات

في العام الدراسي ١٩٧٤-٧٥ (أو حول ذلك)، حضرتُ اجتماعًا لأولياء الطالبات في "ثانوية ساطع الحصري" (غربيّ أبو رمانة) التي كانت تُعتبر أرقى المدارس الثانوية للإناث بدمشق (بعد تأميم المدارس الخاصة، وقبل السماح بتأسيسها على نطاق واسع).

---

(٦٠) درس من دروس المرحلة الإعدادية والثانوية في سورية، كان مقرراً في عهد حافظ الأسد ثم أُلْغي في عهد ابنه عام **٢٠٠٣**. وفيه يتلقى الطلاب شيئاً من التدريبات العسكرية. ويقال لمعلم هذا الدرس: مدرِّب الفتوّة. وكان لباس الطلبة آنذاك الخاكي، يشبه لباس العسكر!!

أذكر أنّ مديرة المدرسة المربية "وسمة مهنّا" أعربت عن معاناة الإدارة من مشكلة تأخّر الطالبات في الدوام صباحا... وكثير منهنّ بنات مسؤولين!

كان بين الحاضرين ضابط عسكري (شغل يومًا رئاسة محكمة أصدرت حكمًا بإعدام الجاسوس الإسرائيلي إيلي كوهين)، فسمعناه يقترح:

ـ الطالبة اللي بتخالف جيبوها من شعرها وحطّوا راسها تحت حنفيّة المي ولو بعزّ الشتاء!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٨-٧-٢٠١٩

حدثني صاحبي

حدثني صاحبي أنه لسهرة عنده في البيت، أحبّ في موسم الكرز هذا أن يكرم ضيوفه بأفخم نوع من الكرز يأتي به من "سوق الهال" مباشرة، وعاد بعبوة ذاق شيئًا منها عند البائع فرآه عال العال[٦١].

قال إنه في السهرة تبيّن أن ما كان على سطح العبوة (عشرة كيلو) كان هو وحده الممتاز وما دونه خليط من صنوف شتى، الصغير منها، والذي قلّ مذاقه، والدبلان والمهروس... وأخذ ينقد ويلعن.

قلت له:

ـ لا تغضب مِن غِشّ هذا البائع البائس، الذي لنا أن نتوقع منه ذلك، ما دام يعرف أن بعض المسؤولين قد تجاوزت "مُدَّخراتهم" الملايين والمليارات يودعونها في بنوك الخارج. أنت لست في مدينة أفلاطون الفاضلة يا صديقي!

---

(٦١) رائعاً.

دمشق الشام: ليل الأحد ٢١-٧-٢٠١٩

رأيت فيما يرى النائم

رأيت فيما يرى النائم، أني ونحوَ أربعين من العمال والفنيين والإداريين تحمِلُنا سيارة كبيرة حمراء اللون، تُقلّنا إلى حيث نبدأ الترميم والإعمار في مكان لا نعرفه. ولما وصلنا أهاب بنا السائق أن انزلوا فهنا مكان العمل.

كان نزولنا عند مبنى قد أصابه القصف والتلف وعمالٌ فيه يرمّمون، استقبلونا بترحاب. وقد أعلمناهم أننا فريق عمل جاء ليباشر مهامّ مماثلة لما هم فيه. وانتشرنا في أرجاء المكان نتفرّج ونُثني على إنجازهم، ثمّ أشيرَ علينا أن نخرج من الجانب الخلفي من المبنى، وإذا بنا في زقاق قد تهدّمت بعض بيوته، ولاحظنا أنّ السكان قبل أن يهجروا المكان قد عملوا على ترحيل الأنقاض من بعض الطريق ليتاح لهم المرور، وأخذنا نتساءل: أي من المباني علينا أن نبدأ العمل فيه؟ وأين هي الآلات والأدوات؟ فبرز فينا من أشار أن نتابع السير في هذه الحارات لنجد ما رُسم لنا أن نبدأ العمل فيه.

وتغلغلنا... وكنا نلاحظ أنّا كلما أمعنّا في السير تناقص عديدُنا.. إلى أن رأيت أنّا قد أصبحنا أربعًا، أنا وثلاثة من الرفقاء، وبيننا سيدة تلبس الكعب العالي، نمشي وقد أرهقنا السير وامتلأت نفوسنا بالإحباط. وما لفت نظرنا نحن الرجال الثلاثة، أنّ السيدة يلَذّ لها السير، فوق أطراف الأنقاض التي تعترضنا، بخفة ظبي، فخفنا أن تتعثّر قدَمُها فيصيبَها مكروه، ويكونَ علينا أن نحملها. ونحن ندرك أنّ حمل امرأة من قبل رجال أمر شديد الحرج، فوق ما نالنا من التعب والإرهاق. وصار كلّ همّنا أن نجد طريقا يُفضي بنا إلى حيث سيارة النقل الحمراء التي غادرناها، ونحن نظنّ أن عندها سوف نلتقي "فريق العمل" الذي تشتّت شمله في هذه الرحلة

البائسة!

وقد التقينا بالسيارة، ولكنا لم نلتق بالرفقاء... بل بأصدقائي في الفيس بوك.. الذين أكتب لهم لحظة استيقاظي.

صباحكم جميل، يا أصدقاء.

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٣-٧-٢٠١٩

وزرت موسكو.. في عزّ شتائها

كتب لي صديق على الماسنجر يسألني أني دأبت على الشكوى من إهمال اتحاد الكتّاب بدمشق لشأني، مع أني بيّنت أنّ الاتحاد أوفدني مرة ضيفًا على اتحاد الكتّاب السوفيات.

فتعيّن عليّ هنا أن أبيّن أمورًا، منها أني لم أكُفّ عن النضال ضد المحاصَرات لي، ولا أسكت عنها، فكتابٌ وحيد صدر لي عن وزارة الثقافة عام ١٩٨٥ (الألم على نار هادئة) ذاك الذي كان قد اعتذر الاتحاد عن نشره لجرأة "فكرية" في قصصه، فكان أمرًا مُفارقًا جدا أن تتخلى عن نشره منظمة شعبية يفترض أنها تدعم أعضاءها المنتمين إليها، ثمّ تنشره جهة حكومية (بدعم خاص من بعض أصدقائي في الوزارة على رأسهم المفكر الحر أنطون مقدسي)، ومنها أيضًا ما تمتّعت به من "ثقة" زملائي أعضاء جمعية القصة والرواية (داخل الاتحاد) فانتخبوني مقررا لها لدورتين في السبعينيات، ولأربع في الثمانينيات...

أقول: إني جئت يومًا، في صيف ١٩٨٣، إلى رئيس الاتحاد الأستاذ علي عُقلة عِرْسان، أحدّثه في أن الاتحاد اعتذر عن نشر أربع مخطوطات لي على التوالي ولا بأس، وأنه لا يرشّحني للمشاركة في الوفود الأدبية التي تمثل الاتحاد في الداخل ووراء الحدود ولا بأس أيضًا... فهل لكم أن ترشحوني لزيارة الاتحاد السوفياتي؟

وفي إحدى تجليات رئيس الاتحاد، الذي كان يكسب بها ولاء الكتّاب، قال لي كصديق محبّ: ولِمَ لم تطلب هذا قبل اليوم؟ نحن بالأمس رشَّحْنا ثلاثة للسفر إلى موسكو وهي في الصيف أحلى من الشتاء! قلت: بل أنا أريد أن أرى روسيا وهي مغطاة بالثلوج! فوعدني، وبعد أشهر قريبة هتف لي يبلغني أني رُشّحت للسفر في شهر كانون الأول القادم. وكنا، المرشحين، ثلاثة، الشاعر مدحة عكاش المهادن للنظام، ونديم مرعشلي المقترب منه. وقد لاحظت أنّ القرار حرص على تسمية عكاش رئيسا للوفد الثلاثي، فلما اعتذر عن السفر لتعرُّض مقرّ مجلته "الثقافة" للهدم (وفي موضعه وما جاوَرَ سوف ينهض فيما بعد فندق "فور سيزنز") سُمّي مرعشلي رئيسًا!

لماذا "اعتنى" عِرْسان بأمري؟

لقد جرى رئيس الاتحاد، خلال مدد ولاياته التي بلغت ستة وعشرين عامًا، على احتواء الأعضاء واستئلافهم وكسب ودّهم والتأييد، بما يملك من مِنح، الترشيحات بمختلف أنواعها وإصدار كتبهم ضمن منشورات هذه المؤسسة الأدبية... وأظنّه أبدى فيما بعد بينه وبين نفسه أسفًا على تأمين ذلك الإيفاد لي، فقد صدر عنه، وأنا أتولى أمر جمعية القصة والرواية في السنوات (١٩٨٥-٨٨) على إزاحتي منها، وكان يخذله بعض الكتّاب البعثيين واليساريون لما يرونه من خدمتي للجمعية وإعلاء شأنها (أحدثت تكريما لأعضائها بأن نحتفي في كل عام بثلاثة كُتاب، حتى إن أعضاء من الجمعيات الأخرى في الاتحاد (الشعر، البحوث، أدب الأطفال...) كانوا يحضرون اجتماعاتنا الشهرية ضيوفًا!

تحيتي للأستاذ عرسان في مُقامه في باريس، والرحمة لمدحة عكاش ونديم مرعشلي.

إضافة: في مخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات" فصل عن زيارتي

لبلاد السوفيات والتقائي بعدد من أساتذة الأدب العربي في معهد الدراسات الاستشراقية على رأسهم البروفسور فلاديمير شاغال.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٢٦-٧-٢٠١٩

"على بطانية قذرة.."

يقول أحد الشانئين: "فاضل عمل حاله مناضل لأنهم استدعوه فقط لفرع المخابرات".

أقول: لا يا صديقي، قضيت أيامًا في عزّ الشتاءَ في زِنْزانة منفردة أرقُد فوق البَلاط على بطّانية لم تعرف في عمرها الغسل، فلما أُطلق سراحي قلت في إذاعة الـ BBC وأنا بدمشق: "فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم! "، وتكررت إذاعة هذا بصوتي سبع مرات.

إني أدفع عن رِضا ثمنَ مواقفي وأنا أغنّي للعدالة والحرية، ولا أمنّ عليك، أنت الكاره لأُمّتك ولنفسك.. فقط لو تكفّ عن التخرّص والتجنّي، يا حيدر حيدر، الذي من مدينة "يبرود" الجميلة.

هل تملك فضيلة الاعتذار؟

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٩-٧-٢٠١٩

يتساءل الشاعر عمر أبو ريشة

يتساءل الشاعر عمر أبو ريشة في إحدى قصائده بأربعينيّات القرن الماضي:

أمّتي! هل لك بين الأمم   منبر للسيف أو للقلم؟

فأقول:

وكيف يكون لها ذلك

وبعض حكّامها يُعمِلون السيف في الرقاب

وغيرُ قليل من أبنائها يُكسّرون الأقلام ويُتلفون الورق!

دمشق الشام: صباح الأربعاء ٣١-٧-٢٠١٩

حفّارة الكوسى

وعدتني صديقة بأن تقوم بإعداد طبخة لي في بيتي في قريب من الأيام قبل مغادرتها الوطن في رحلة إلى غربي أوربا.. فاشتريت ما يلزم من الخضرة المبذولة في الأسواق في موسم صيفنا الخيّر.

وفيما أنا عند المساء أفكر، دخل حديقتي صديقٌ عزيز ترافقه أمّه وزوجته.. وسرّني أنهم رأوا ما في الأكياس من ثمار الكوسى والباذنجان، فسألوا وأجبت، ولم يُطيلوا حديثًا.. قالوا:

ـ عندك حفّارة كوسى؟

ودخل الابن البيت ليعود بحفارتين.

ما أعجبني أكثر أن السيدتين الكريمتين كانتا تضعان جانبا شيئا من لبّ الكوسى، لسدّ الأفواه فلا يندلق منها الرز!

سلمت الأيادي وتسامت الهمم.. أنتظر غدا الزيارة الموعودة من الصديقة الحنون.

دمشق الشام: ليل الخميس ١-٨-٢٠١٩

وفجأة

وفجأة

وجدتُني في روضة كلُّ ما فيها شجراتُ ياسمين، تُغطّيها الأزهار حتى لا تكاد تُبصر ورقها الأخضر... والعبير ملأ صدري!

لما فتحت عينيّ وجدتّ إلى جانبي طبقا تغمره أزهار الياسمين.

يدٌ كريمة دخلت صاحبتها بيتي، فملأت الطبق زهرًا من حديقتي، وجعلته بالقرب مني

دمشق الشام: صباح الإثنين ٥-٨-٢٠١٩

ما زلت أغنّي للحرية.. وللبؤساء

ما زلت أغنّي للحرية.. وللبؤساء

وأنا أتلقّى من الطغاة، والحاسدين والأغبياء

وسوف أظلّ.. حتى الرمق الأخير

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٦-٨-٢٠١٩

في مؤتمر علمي.. ببلد بعيد

دُعيت للمشاركة في مؤتمر يُعقد في دولة أجنبية، تدور البحوث فيه على "تاريخ الطبّ عند العرب"، الذي كنت قد عُنيت به منذ عقود من السنين. استضافونا في فندق من الدرجة الخامسة، وخَصُّوني بفتاة عربية تتكلم لغة البلاد التي أجهلها.

ما لاحظته أنّ القائمين على أمر المؤتمر منحوا كلّ باحث من المشاركين "بدلة" زرقاء اللون ("بترولية" كما يقال). ولست أدري كيف تمّ لهم التعرّف على القياس وهم لم يجرّبوا.

في الليلة الأولى دُعينا إلى حفلة موسيقى وطرب، وأوكلوا همّي إلى هذه الفتاة التي تبيّن لي أنها لا تجربة لها في دخول هذه الأجواء العامة. أول ما بدا لي في ذلك أن البدلة التي أهدوها لي،

كان البنطال يحتاج إلى تعديل، تقصير في الساقين وتوسيع الحوض، وأين هو من يقوم بذلك وقد أزف موعد الحفلة؟ ورأيتُني أشفق على "المرافقة" بما لاح لي فيها من حرج أكثر مما أشفقت على نفسي من أن ألبَس ما لا يناسب وأنا ذاهب إلى "حفل دولي"، فكان أن ثَنَيتُ ما طال من ساقَي البنطال وحشرت جسدي فيه حشرًا.

مشكلة أخرى واجهتنا، أنه ضاع علينا مكان وجود حافلة البولمان، التي تقلّنا إلى مكان الحفل. وكان المرآب الملحق بهذا الفندق الفخم مؤلفا من ثلاثة طوابق تحت الأرض، فكنا نتنقّل بينها أنا والفتاة بحثًا عن الحافلة دون جدوى.

ومشكلة ثالثة، أني افتقدتُ مرافقتي، فتركتُ البحث عن الحافلة لأبحث عنها هي. وطال تنقلي بين طوابق المرآب، وسط زحام كان يتكاثف لحظة بعد أخرى... وآن لي أن أتعب ويتصبّب مني العرق، فخلعت الجاكيت وجعلته على ذراعي، حريصًا عليه كلّ الحرص ففي جيوبه مستندات السفر وأوراق "البحث" الذي سوف ألقي... ومع هذا الحرص الشديد، افتقدته وكانت تلك هي المشكلة الرابعة.

أخذت أتساءل: لماذا تقع لي هذه الخيبات كلُّها؟ هذا غير معقول! في أي عالم أنا!

واستيقظت.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٧-٨-٢٠١٩

في ستينيات القرن الماضي

في ستينيات القرن الماضي، وكنت أتردد كثيرًا على بيروت لمتابعة نشر أعمالي الأدبية هناك.. سمعت نُكتة يرويها الكاتب الكبير "منير البعلبكي" (أحد اثنين هما صاحبا "دار العلم للملايين" من كُبريات دور النشر في لبنان):

أن رجلاً كان يُسوّق الحليب ويغشّ فيه، أصبح ناشرا.. فجعل يغشّ في نشر الكتب!

وكان البعلبكي -رحمه الله- يروي ويضحك ونضحك معه.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٩-٨-٢٠١٩

في منتصف أربعينيّات القرن الماضي

كنت أرى، وأنا فتى صغير، أبي وعمي وضيوفَهم يتحدثون في الليالي السامرة، بكل الفخر والإعجاب، عن فارس الخوري المدافِع عن استقلال سورية في الأمم المتحدة.

ثمّ ينهضون لأداء صلاة العشاء جماعة.

دمشق الشام: عصر السبت ١٠-٨-٢٠١٩

حديثٌ مسترسَل عن.. "القَراصِيا"!

كان الذي طرق باب بيتي صباح اليوم، يحمل بين يديه عبوة من ثمار "القَراصِيَا"[٦٢] بِغَبْرتها، من الصديق "تقي القدسي"، الذي لم ألتق به إلا مرة، يوم زارني والسيدة قرينته عند عودتي للوطن، بعد طويل صداقة سبقت في الشبكة الزرقاء.

ذكّرتني القراصيا بما يّغنّي صباح فخري: "اللي سقوكِ بدمع العين"، وأيضًا بما كان عبّر قبل ثلاثين سنة أو يزيد، الموسيقار محمد عبد الوهاب، أشاد في لقاء له في التلفزيون السوري، بالقراصيا، تجلو الصوت والصدر، وقد سمع أنها متوافرة في سورية ولكنه لا يراها، وما درى مطرب الملايين أنّ موسمها لم يكن في أيام الشتاء تلك.

---

(٦٢) ترد في بعض كتب التاريخ والأدب بالسين: القراسيا، ولم تذكرها المعاجم القديمة. وفي نفح الطيب شعرٌ فيها. وهي من فصيلة الخوخ حباتها كالعنب الأسود.

عُبوة القراصيا اليوم ذكّرتني أيضا بطفولتي: أكلة "الخُضْرة المشكَّلة بالفرن".

كنّا نتحلّق في بعض أيام الجمعة نحن الصغار حول مائدة تتوسّطها صينيةٌ قد جاءت توًّا من عند الفران، تمتدّ أيادينا بالخبزة نغمس... وابن عم للوالد، جاره في "حي المحافظة" بحلب الدكتور صبحي السباعي، يمازحه كلما التقيا بالحارة: "حدِّثني حدّثني يا بن العم عن أيادي أبنائك التسعة عشر وهي تمتدّ فوق المائدة!" (أو كلامًا من هذا القبيل).. ويضحك الرجلان، وتُنقل إليّ السالفة عند زيارتي مسقط رأسي فأشاركهم الضحك ولو بعد حين.

أقول: إنه كان يحلو لأبي أن يضيف إلى هذه الأكلة في أول الصيف "الجانرك" (الخوخ الأخضر المُزّ)، فيكون لها طعم آخر.

قَراصيا صديقي اليوم شَغَلت ذهني، وما تقاعست: بدل الجانرك الذي موسمه مضى، أجعل بين الخضرة حبّات من هذه القراصيا. نزلت إلى الجسر الأبيض، فانتقيت أصنافًا من خضرة الموسم. في الحديقة جلست أقشّر وأفرم. كان بين ما حضّرت عشرون، ثلاثون حبة من القراصيا، ولم أنس مثلها من الكرز. وتناولت غدائي على غناء البِرْكة وزقزقة العصافير. وشكرت في سرّي صديقي أمدّ الله في عمره، وتذكرت والدي -رحمه الله- والأبناء الذين كانت "تمتدّ" أياديهم إلى مائدة واحدة.

أجل، إنّ كثيرا من الأبناء والأحفاد والأسباط قد فرقتهم الحرب في أرجاء المعمورة.

دمشق الشام: مساء السبت ١٠-٨-٢٠١٩

لست أدري

لست أدري كيف وجدتُني في صالة تسجيل تلفزيوني، أشهد مثقفين نابهين يتحدثون عن مدينتي حلب، يأخذ كلٌّ منهم جانبا من تاريخها وما اجترحته في أزمانها من فنون العلم والأدب

والطرب، مبدعين فيما يتحدثون.

هل أقول إنه جاء دوري في الكلام، وكأنهم دعَوني من العاصمة لأشارك في هذا المِهرجان، تحية لمدينتي التي أنهكتها النكبة، يكون بمثابة عزاء لها؟

ما إن اتخذت موقعي لأتحدث.. حتى كانت سيدة تدخل المكان، مليحةٌ زرقاء العينين، لتُبدي دهشتها من أن أكون في موقف المتكلم. قالت بصوت واضح: "وهل دخلتم صفحته؟ ".

فأغضى المبدعون أبصارهم.

وأما أنا.. فلحظةَ هممت بأن أتصدى.. رأيتني أستيقظ من الحلم.

كان هذا في قيلولة اليوم، أيها الأصدقاء.

دمشق الشام: ليل الأحد ١١-٨-٢٠١٩

تلقيت الآن هذه الرسالة:

صباح الخير أستاذي الكريم

لو ترى كيف أنتقل بسيارتي بين فرنسا وبلجيكا، بلا رقيب أو عتيد ولا حدود أو سدود، لعجبت لفقداننا -نحن العرب- أبسط الحقوق.

هنا أمارس حريتي.. ولكي أتأكد من ذلك عمدت إلى تجربة مجنونة: وقفتُ في ساحة كبرى من ساحات مدينة "ليل" الفرنسية وشتمت الرئيس ثلاثا، ورئيس الوزراء ثلاثاً، فلم أَجِد من المارّة غير ابتسامات ودودة. وفعلت مثل ذلك في "بروكسل" عاصمة بلجيكا.. ويا للعجب! وجدت من أتى ليشتمه معي.

وأنت في بلدك،

بعد أن وافقت السلطات الثقافية على أن تنشر كتابك المشفوع بتقرير رفع مضمونه ولغته إلى حيث تراءى للقارئ المحكّم، عدلوا عن النشر بعد أن دخلوا إلى صفحتك.

وأما اتحاد الكتّاب عندك وأنت من مؤسسيه قبل نصف قرن، فإنه يمتنع حتى عن ذكر اسمك في مجلاته لأنك من المعارضين

منذر عياشي – صباح اليوم.

فكتبتُ له:

لم تعد عيوننا تبكي على فقداننا حرية التعبير أو امتناعهم عن أداء حقنا في نشر كتبنا.. وقد استنزفت دموعَنا البيوتُ المدمرة والأرواح المبعثرة والكرامات المهدورة.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ١٢-٨-٢٠١٩

كان أحد الأصدقاء قد كتَب

كان أحد الأصدقاء قد كتب عام ٢٠١٨ في تعليق له على منشور عن الشاعر سليمان العيسى، أن ابن الشاعر "محمد" كان عام ١٩٨٠ عميدًا لكلية العلوم بجامعة حلب، فجاءه يوما رجالُ أمن يطلبون منه استدعاء أحد أساتذة الكلية لاعتقاله، فطردهم من مكتبه، وأُقيل إثرها.

هل هناك من يوثق لنا هذه الحادثة؟

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٢-٨-٢٠١٩

دون وداع.. رحل صديقي!

عرفتُ صديقي "شاهر" منذ كنا طلابًا في أربعينيات القرن الماضي بثانوية المأمون بحلب

(التجهيز الأولى)، يسبِقني بسنة دراسية. وافترقنا، هو إلى الجيش ضابطا وأنا في وظيفتي المدنية، إلى أن التقينا بدمشق، في تضاعيف الستينيات، وقد دأب صديقنا الأكرم "رياض" على أن يدعونا لنتحلّق مرة في الشهر حول مائدة تجمَعُ فلولنا التي حطّت في عاصمة الأمويين، عشرة عشرين ثلاثين صديقًا، من عبد الله واثق شهيد (الوزير) إلى سواه من العاملين في الدولة مدنيين وضباطًا مسرّحين، عُمدتنا "رياض" الودود ومنهم إياد وعاكف وطارق وبشير ومظفر... في مقصف من مقاصف دمشق، ثمّ احتوتنا "رابطة المحاربين القدماء" (برعايةٍ ممَّن كانوا ينتسبون منّا إلى القوات المسلحة وإن تقاعدوا)، إلى أن اضطررنا لهجرها، فقد أصبح الوصول إليها يقتضينا صعودَ درج لم نعد قادرين عليه، وبعضنا بدأ يتوكّأ على عكاز، فانتقلنا إلى "نادي الصحفيين" بالعفيف، المستلقي مبناه على الأرض دون درج، يرعانا صديقُنا مديره الصحفي مظفر.

كان صديقي "شاهر" إنسانا مفعما بالودّ واللطف والدماثة يُحلّيها الفهمُ وبُعد النظر. فبعد رحيل زوجته وانفراده في بيته الوسيع في قلب العاصمة، عمد إلى أن يبيعه و"يوزع" على أبنائه الشباب الثلاثة يُيسّر بذلك أمورهم، فاقتني كلٌّ بيتا لنفسه في المنطقة التي اختار، في "محيي الدين" و"صحنايا" و"حرستا".

فأما صاحب البيت الذي في حرستا، فقد ذهب إلى الخليج يعمل، فتراءى لصديقي أن يستقرّ فيه. كانت نافذة تطلّ على دوحة سِنْدِيان في بستان تحت ناظرَيه، يراها تتعرّى ثم تكتسي، فخاطبها مرة -يحدّثني- "أنت أيتها السنديانة تتجدّدين كل عام.. وأنا أطعن في السنّ! "، ووعدني بأن يكتب مقالة في هذا وهو ذو قلم، ولكنه ما كتب. وصَعُبت عليه العيشة وحيدًا في بيت بضاحية، فانتقل إلى حيث ولداه، يقضي مدة في هذا البيت، وحتى لا يُثقل ينتقل إلى البيت الآخر، ما ألطفه! ومِمّا حدثني مرة على الهاتف: "شعرت أمس بوعكة، أمسكتُ الهاتف أعلم

ابني في عمله وكَنّتي في وزارة الثقافة، فلم تمض إلا سويعة حتى كان الباب يُفتح، تدخل عليّ الكنّة وبصحبتها الطبيب المداوي. الله يرضى عليهم".

سألته أن يكتب لي حكاية سنديانة حرستا فأنشرها في صفحتي، قال: "والله هِي في خاطري، لكني أودّ أن أزورك وأجلس في الحديقة نستمع معا إلى تغريد العصافير وغناء الماء".

هل قصّر صديقي "شاهر" في الاتصال بي، أم أني أنا مَن قصّر؟ في انشغال بالي عليه هتفت أمس إلى أحد البيتين، فأفادوا بأنه غادرنا إلى جنان النعيم! وممّا زادني إحساسًا بالحزن أن الرحيل سبق يومَ الناس هذا بعشرين شهرا... فكم ذا كنت مقصرًا!

بقينا في الحياة ثلاثة من تلك الجماعة من الأصدقاء القدامى:

- "عاكف" في بيت ابنته متعَبًا،
- "رياض" لا يغادر سريره في بيت ابنته أيضًا... ألا ما أحنّ البُنيّات!
- وأنا أعاني أوجاع الكتابة، عبر ذاكرة ما آن لها أن تستريح، فإن هي "فعلتْها" أكُن قد انتهيت.

أكتب عن أصدقائي الذين يرحلون.. وأعرف أن بعض المتأخرين منهم في الرحيل سوف يكتبون، ولن يكون متاحًا لي أن أقرأ ما تخطّه أقلامهم.

سلام على الجميع.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٤-٨-٢٠١٩

رحيلٌ آخر.. دون وداع!

رحل "صديقي شاهر"، كما تبلّغت أمس متأخرا عن يوم الرحيل عشرين شهرًا، لم يَكتب

لي مشاعره عن تلك "السنديانة" التي كان يُطل عليها من نافذة بيت ابنه في حرستا، لا ولم يُتح له أن يُكرمني بزيارة نسترسل فيها بالحديث ونحن نستمع إلى ترتيل العصافير وغناء يرسله تساقطُ قطرات الماء على سطح البركة.

ونحن، أصدقاءَ التجهيز بحلب الذين قُيّض لنا أن نقيم بدمشق، كنّا ننعم بفضلٍ أخذه على عاتقه أحدُنا، "رياض"، الذي ندب نفسه منذ خمسين سنة لأن يلُمّ شملنا نحن الثلاثين رفيقا من طلاب زمن مضى، في جلسة شهرية في أحد مقاصف العاصمة، بدأ ذلك باقتراح أرسله لسانه، ثم اتخذ منه مهمّة يؤديها، يهتف يذكّرنا بالموعد، الثلاثاء الأول من كل شهر، نأكل ونشرب ونمرح ونحن عن متاعب الحياة لاهون.

كانت زوجة صديقي رياض "عفاف" أمّ محمد تحبّ الكبّاد مربّى تصنعه يداها الخيّرتان، "تدزّهُ" إليّ في المواسم فنتعاون في القطاف. أُمسك أنا بعصا طويلة (سميتُها المقطاف)، وأطلب منه أن يتلقّى، ذلك أنّ الكبّادة إن سقطت على البلاط يخشى أن تنفزر، فلما ترتمي نحوه يبتعد، يقول وهو الضابط المتقاعد: "العمى! كأنها قنبلة يدوية! "، ولكن ذلك لا يُعفيه من تكرار الزيارة والتجربة!

كان رياض محبّا للأدب. تصوروا في منتصف الأربعينيات وهو في الإعدادي أصدر "مجلة" هو وصديقه "عفيف ك. " من مَلزمة واحدة (١٦ صفحة) ملأاها بخواطر لهما، وما أعادا التجربة. ولكنه كتب وهو في عزّ شبابه ما نشره في بعض المجلات العسكرية يوم كان في الخدمة. سألني كيف يجمع ما كتب، فذهبت وإياه إلى مكتبة الأسد ودللته كيف، فجمع مّا تيسّر له.

ويزورني ذات عام، مصطحبًا حفيدته "أميّة"، طفلةً يُشعّ من عينيها بريق الذكاء ويشرق في محيّاها الحسن والجمال، كانت في يدها "قصة" كتبتها تهفو نفسها إلى نشرها في مجلة "أسامة"،

وتَأكد لي أن سيكون لها في الكتابة شأن، أمست اليوم ولها صفحة في الشابكة مفعمة بالأدب البديع والفن الجميل، وهي تتابع دراسة الصيدلة بالجامعة. ويوم رحلت الجدة "عفاف" وهم في الرياض، جعلت تناديها باكية: "يا تيته عفّو! "، فأدمعت عيني.

أعمالي الأدبية مصفوفة في رفوف مكتبةٍ في بيته. لما نزلت لي قصةٌ في كتاب مدرسيّ عنوانه "العربية لغتي"، شاركه في الإعجاب أحفاده والأسباط، وذهبوا إليه وما خرجوا إلا وقد "نظّفوا" الرفّ ممّا فيه من كتب السباعي!

هاجم ألزهايمر صديقي رياض، ولكنّ اسمي ما بَرِح ذاكرتَه، يُعينه على الاتصال بي هاتفيًّا، أهلُه، يسألني، يسألونني، عن الصحة والأحوال، وأسألهم.

كتبت أمس عن صديقي شاهر الذي رحل وما دريت، فكتب لي اليوم ابنُ صديق من بعيد يشكرني أني ذكرت اسم أبيه "عاكف" بين أصدقاء تلك السهرة الودودة، ويعلمني.. ويعلمني أنّ رياض قد غادرَنا إلى رحمة الله قبل شهرين، وأضاف: لم يبق منكم إلا الفارسان أنت وأبي!

كان الشاعران شوقي وحافظ يتمازحان في أواخر العمر، مَن منهما يموت أولا كي يرثيه الآخر. مات شوقي فرثاه حافظ، الذي أسرع يلحق به في العام ذاته. دون هذه الممازحة.. يرحل أصدقائي قبلي، فيبكي عليهم قلبي والقلم.

رحم الله شاهر ورياض.. أجل، وعاكف وأنا.. هل تكتب عني، يا عاكف، إن قدّر لي أن أكون الأسبق في الرحيل؟

دمشق الشام: ليل الخميس ١٥-٨-٢٠١٩

قطّة منتصف الليل

كنت أكّدت له أني أريد المبلغ من "أمّهات الألفين" لسهولة العدّ والحفظ، فجاءني به "أمّ

الخمسيّات" وليتها كانت من الإصدار الجديد.

جلست عند منتصف الليل في حديقة بيتي أعدّ. تركت الأوراق على الطاولة دون أن أحبسها بسوار المطاط. غبت داخل البيت دقيقة، تاركًا هذه القطة، المشردة، تشرب من البِركة، من مائها القريب من القاع، البعيد عن متناولها.. رأيتها والقائمتان الخلفيتان تتشبّثان بالحافَة والرأسُ مدلّى إلى تحت يلعق. أكره القطط تزور حديقتي، يؤاخذني أصدقائي: حرام، خْطَي! والناس يموتون في وطني تحت الأنقاض. لا أملك وسيلة لمنعها ولبيتي عشرون مَقلبًا ومقلبًا.

ماذا أقول؟ لحظة عدت، رأيت أوراق الخمسمئة مبعثرة فوق الطاولة.

انكفأت أعدّها مرة ثانية.. وجدتها ناقصة مقدارًا من هذه الأوراق التي هرّأتها الأيادي.

تلفّتّ حولي: لا أحد عندي يسامرني منتصف الليل! لا ريح! والمروحة تستريح.. فاتّهمت القطة المشردة أنها قفزت فوق الطاولة في غيبتي، ثلاثين ثانية والله لا أكثر، مرّت بأنفها على الأوراق تتشمّم ما علق بها من زَفَر الأيام ونشح الليالي، فأخذت بين أسنانها جَرْزة.. وولّت.

لم يكن قليلاً ما فقدت.. أعملت الفكر.. قلت: هي نزلت بالأوراق إلى الشارع، ولعلها تركتها هناك حين لم تجد فيها مطمعا.. هل أنزل والدنيا ليل، أبحث في مسارها المتوقع؟ فلأسرع قبل أن يلتقط الأوراق عابرون للطريق.

أخذت أمشي الهوينى على الرصيف، والعينان تتنقلان ما بين هنا وأرض الشارع.. هل انتابني خوفٌ من أن تهبّ ريح تبعثر أوراقي المسروقة!

فجأة هبّت رياح، نثرت أوراق الشجر في الفضاء حولي.. اشتدّ عصفها.. رأيت الشجر يتعرّى من أوراقه الصُّفر، والخُضر، ومن بعض أغصانه الغضّة.

أحسست ببرد يجتاحني.

شددت اللِّحاف إلى العنق. ولما سحبته إلى ما فوقَ رأسي.. استيقظت.

دمشق الشام: فجر السبت ١٧-٨-٢٠١٩

"المامونيّة" الحلبية

اشتهيت مساء اليوم على أكلة المامونيّة التي برعت في إعدادها محلات الحلوى بحلب، ومثلهم ربّات البيوت. سميد، وسكر وماء، والمقادير -كما يجري على ألسنة ربّات البيوت- (١، ٢، ٤)، الرقم الأول للسميد ملءَ وعاء ما، والثاني للسكر، والثالث ماء. وبالمناسبة هذه الأكلة لا يتعاطاها أهلونا بدمشق.

نُحمِّص السميد أولا بالسمن العربي أو الزبدة أو حتى بزيت الزيتون، حتى يصبح لونه -كما يقولون- بلون "جنح الدبور"، ثم يضاف الماء والسكر، وتحريكٌ على النار. وعند الأكل يُلقى على وجه الصحن شيء من الصنوبر المحمّص وتُرشّ قرفة ناعمة، وتتوسط الصحن كتلة من القَشْطة[٦٣] تتناولها الأيادي أو من السمن يجري في الحلوق مع المامونية مَريئًا.

ثلاث حكايات صغيرة عن "المامونية ما تزال في الخاطر

ترجع الأولى إلى أيام كان الأديب الحلبي الكبير خليل الهنداوي في إدارة المركز الثقافي العربي المفتتح حديثا بحلب أيام الوحدة يترأسه موظف من مصر. الحكاية رواها لنا صديقنا جورج سالم، لم يبق منها في الذاكرة منذ ١٩٦٠ إلا أنّ الهنداوي طلب ضحى يومٍ "صحن مامونية" من عند "المستّت" أشهر حلواني في البلد بزمنه، فكان حوار دافئ على ذلك بين معاون المدير الهنداوي والمدير المصري، انفعل لها أستاذنا الهنداوي فعافت نفسه أكل المامونية. ولعل

(٦٣) والكلمة بالفصحى، بكسر القاف: القِشْطة، لغة في القِشدة، كما في تاج العروس.

صديقنا صاحب الذاكرة المتعشة دائمًا جهاد الكاتب يعرف تفاصيلها.

والحكاية الثانية: أن صهر الأسرة الدكتور سعيد الخطيب كان يروي لنا نكتا مختارة ونحن عنده في بيته "بطلعة سيف الدولة"، من ذلك أنّ زوجين وقع بينهما خلاف فشكت الزوجة حالها لأبيها، فدعاهما للفطور على أكلة مامونية يستمع ويكون الحكم. يروي صهرنا العزيز: أنّ صحن المامونية كان يتوسّط المائدة تعلوه كتلة من السمن العربي الذي يُشتَهى في ذاك الزمن. الزوج وهو يحكي مشكلته مدّ ملعقة السكْبة إلى حيث تلك الكتلة: "أقول لها: هكذا فتعمل هكذا"، وفتح في ذلك دربا سال فيه سائل السمنة نحوه، والزوجة: "وأنا أقول كذا فيقول كذا"، وفتحت دربا آخر نحوها. الأب وقد رأى السمن يذهب إلى ضيفيه، أخذ الملعقة وقال: "بدكُنْ الحقيقة؟ شغلتكن كلها حرّ ولوص! "، وخلط بملعقته السمن كله بالمامونية! وكان رحمه الله كلما رواها ضحكنا مع سابق معرفتنا بها!

الحكاية الثالثة.. أني دعوت، وأنا بدمشق مدير لدائرة الإحصاء عام ١٩٧١، بعض زملاء الوظيفة على الفطور في بيتي، وسكبنا لكل مقدارًا من المامونية في صحن. قلت: إن الدماشقة لا يعرفون المامونية، هذه التي تؤكل معها الجبنة والخبز، فقد رأيتهم يُبعدون هذين العنصرين ويأكلون المامونية بالملعقة على أنها نوع من الهريسة.

ولم ير العلامة "الأسدي م. خير الدين" (م ١٩٠٠-١٩٧٢) في موسوعته أن لكلمة "المامونية" صلة بالخليفة العباسي، فحياته المفصّلة جدًا ليس فيها ما يشير إلى ذلك، ويغلب على ظنّ صاحب "موسوعة حلب المقارنة" أن يكون مبدعها من "سوق السقطيّة" (مطاعم حلب في ذلك الزمن) اسمه "مأمون"[٦٤].. ووصف الأسدي تناولها، وإلى جانبها الشعيبيات

---

(٦٤) لكن ورد في تاج العروس: المأمونية: نوع من الأطعمة يُنسَب إلى المأمون! ولعلها حلوى أخرى. والله أعلم.

الإدلبية والجبن الأعزازي (نسبة إلى بلدة أعزاز المجاورة لعِفْرين اليوم)، ويقول: كانت فطورًا في الربيع ثمّ عمّت، ولم ينس أن يذكّر بأن بائع التوت بحلب ينادي: "أطيب من المامونية، يا حلاوته".

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٩-٨-٢٠١٩

في مؤتمر علمي غريب

رأيتُني مدعوًّا لمؤتمر علمي ألقي فيه بحثًا. ولكني تعرفت في رحابه على أناس كنت أسمع بهم ويسمعون، وكان تعارف شخصي وسرور وأحاديث جانبية، وهذا عادةً ما يقع لنا عند مشاركتنا في المؤتمرات.

وممن تعرفت إليهم طفلان هما ابنان لأحد الأعضاء الذين يديرون المؤتمر، فنشأت بيني وبينهما مودة.

اكتشفنا فجأة أن في حديقة المؤتمر كرمة عنب مفتّحة من عيونها، عناقيدها بنفسجية اللون، مُدَلاة، بعضها تتزاحم الحبّات فيه حتى لا تكاد تجد لها موضعا. وأعلمونا أنّ القطف والأكل مباحان، فجعلنا نأكل منها بشهية دون أن نغسل العناقيد.

وأزفت ساعةُ الرحيل، وكان علينا أن نعود إلى محطة القطار التي منها جئنا بتلك الحافلة الأنيفة.

وكنت حدثتهم عن أن شجرة الياسمين في بيتي كفّت عن الإزهار منذ سنتين، وأني لذلك حزين، فدلّني أحدهم أن هنا في المكان المجاور سماداً ينفع في هذه الحالة، وهو أيضًا مباح، فدخلت، وفي كيس نايلوني عبّأت مقدارًا.

التقيت امرأة شَكَت لي أنها فقدت عملها فلم يبق هنا بيوت تخدم فيها، وأخذت تبكي،

فناولتها قليلاً من القليل الذي في جَيبي، أقول قليلا فعادةً نحن في المؤتمرات لا نحمل نقودا كثيرة لأننا في ضيافة علماء كرماء.

غادرتُ المكان مستعجِلاً خشيةَ أن تفوتَني الحافلة، فسمعت صوت تكسي يغادر المكان، أطللت فرأيت خمسة من هؤلاء المعارف الجدد بينهم الطفلان، تمضي بهم سيارة غريبة الشكل، فجعلت أناديهم بأعلى ما أملك من صوت، وعادت السيارة متراجعة، وأتاني منها صوت يقول: إني حتى لو كنت بينهم أنتظر لما وجدت لي مكانا فهذه السيارة لا تتسع إلا لخمسة، وأن عليّ أن آخذ سيارة أجرة من الطريق.

نزلت متأبطا كيس السماد، وأنا آمل أن أشرح وضعي لواحد من سائقي سيارات الأجرة يُقلّني مجانا مع ما بينهم وبين الركاب من سوء تفاهم مزمن.

فجأة برزت سيارة من هذه أمامي، قال لي السائق بوضوح إنه يستطيع أن يوصلني لمكان قريب، وإن عليّ أن أستقل من هناك سيارة أخرى إلى المحطة، ولم يكن لي إلا أن أقبل. ولما نزلت، وكيس السماد في يدي، أخذت أبحث في جيوبي الفارغة، ولكني فوجئت بالسيارة تمضي.

ووقفت في عتَمة الليل أنتظر وأنا أخشى أن يفوتني القطار.

وهنا حصرني البروستات الصعب، فاستيقظت.

في يقظتي أخذت أفكر حزينًا في سلسلة الإحباطات التي تعرضت لها. وأعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأن أكثر ما أحزنني فقداني كيس السماد لياسمينة حديقتي.

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٩-٨-٢٠١٩

تقول الشاهدة

تقول الشاهدة تغريد في ليلة السارين:

لما عدتُ من المستشفى وجدت أميرة (زوجة أخي خالد) تبكي بحرقة، عادت من هناك ومعها خبر وفاة عائلة أختها كاملة:

- أطفال أختها الأربعة
- وزوجها
- وأمّه وأبيه
- وأخيه وزوجته وأطفاله
- ولم ينج إلا أختها، وولدها الأكبر في حالة خطرة جدًا

وأقول أنا:

وفي اليوم التالي قام بعضهم في العاصمة يوزعون الحلوى ابتهاجًا!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢١-٨-٢٠١٩

في الطريق.. إلى قبض "المكافآت"!

كان الطريق جميلا والنسيم عليلاً، مرتفعاتٌ عن يميني ووادٍ عن اليسار، وأنا ذاهبٌ إلى حيث آخذ وسيلة نقل تُقلّني إلى بلدة أقابل فيها رجلاً لم ألتق به قبل اليوم!

لما وصلت إلى المكان.. رأيت فتيات يتولّين الإدارة. سألتهنّ فقالوا:

ـ نعم، إن وسيلة النقل التي تريد كانت، وما زالت، تمرّ من هنا، ولكن قبل أيام شيّدوا سُوراً هنا وأغلقوا!

ولا أدري ما الذي جعلهنّ، وجعلني، نتبسّط في الحديث، فسألنني إلى أين أريد أن تحملني تلك الحافلة؟ فأخذت أروي لهن، مُسَرّيًا عن نفسي قليلاً، بأني أكتب مقالات في الأدب والحياة وأنشرها في مجلات وراء الحدود، ولأن تحويل المكافآت إليّ بالدولار بالطرق الرسمية بات يجيز للدولة أن تستأثر بالربع وتدفع لنا بالعملة الوطنية، فإنّ الناس بدؤوا يلجؤون -مَن يستطيع منهم- إلى أن يحملها إليهم مغتربون قادمون. أمس أخبروني بأن من جاء بمكافآتي رجل من أهالي بلدة "عين الوادي"، يتعيّن عليّ التوجّه إليها بمواصلة من هنا...

فأظهرن إشفاقا عليّ.. ونصحوني بالعودة إلى حيث أتيت، ومن هناك أسلك طريقًا آخر هو مع الأسف أطول من الطريق الذي مشيته الآن!

قلت لهنّ مستسلما للمعاناة كما كلّ المواطنين:

ـ طيب، شكرا.

ولم أبتعد عنهن إلا خطوات حتى أتاني -رغم سمعي الضعيف- صوتُ إحداهنّ تقول إنها قرأت لي يوما، ثمّ صوتُ أخرى تتمنى صاحبته لو ترافقني إلى حيث أستقلّ تلك الحافلة من هناك.

وقبل أن أتمكّن من الالتفات.. كنت قد استيقظت من قيلولتي!

دمشق الشام: الجمعة ٢٣-٨-٢٠١٩

ليس لك

ليس لك أن تُشير على مَن سكن الوطنُ قلبَه

وأَترعَ المِدادُ قلمَه

أن يُخفّف الوطء...

وهو يرى بأمّ العين

المنازلَ تُهدم فوق الرؤوس

والأطفالَ يموتون بالسيرين

والناسَ ينتشرون في أنحاء المعمورة

دعوا القلمَ... ينزف حتى الموت!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٥-٨-٢٠١٩

أيها النظام..

أما آنَ أن تمنح الناس الأمان

فيعيشوا في أوطانهم دون خوف؟

دمشق الشام: فجر ٢٩-٨-٢٠١٩

وثيقة "براءة طَرَف"

رأيت فيما يرى النائم عند قيلولة اليوم أني مواطن في بلد يدعى "فردوسيا"، ومع ما في هذا الاسم من معان، إلا أني كنت أشعر أنّ "أجهزة أمنية" في هذا الوطن تلاحقني بسبب انتقادي لما تراه عيني من فساد.

بدأت مشكلتي، التي حَلَمتُ بها الساعة، أني كنت في حالة احتياج لوثيقة تسمى "براءة طَرَف" يُستحصل عليها من أكبر جهات الأمن في دولة فردوسيا العتيدة.

دخلت المبنى العظيم بإجراءات غير معقدة، ثمّ رأيتهم يُحيلونني وأنا أتنقّل من مسؤول عاقدِ الحاجبين غطرسة إلى مسؤول باسم، حتى وصلت إلى واحد قالوا إنه يدير أعمال "النشر"

في المؤسسة، وكانت إحالتي إلى هنا لمعرفتهم بأني كاتب ينشر أفكارًا! من عجبٍ أني رأيت بسمة هذا الرجل واسعة، وهو يشير إلى رفّ خلفه قد صُفّت فيه منشوراتهم، تدلّ عناوينها على سياسة وعلى أدب أيضًا. وإذا لم أستغرب أن يكون عنوان واحد منها "رسالة شيوعي منحاز لفردوسيا" فقد ملكني الاستغراب حتى النخاع الشوكي لقراءتي عنوان ديوان "فردوسيا هواي الأمثل" لشاعر قد آن له أن ينشقّ عنهم فهو من "الخوارج" الملاحقين. ويسألني الرجل بعذوبة صوت، ما إذا كان عندي مخطوطة كتاب جاهز ينشرونه لي بأحسن حُلّة خلال أيام؟ فاستعرضت بلمح البصر أعمالي التي أجتهد في إعدادها للنشر فوجدت أنها كلّها تجعلني مؤهلاً للاعتقال!

فجأة أحسست بـ"زنقة" فطلبت "الدورة"، فقادني أحدهم إلى حيث رأيت من الأجهزة والأدوات ما لا يمكن أن تكون في مثل هذا المكان. ولكني لاحظت أنّ أحدهم يتقدم مني، لحظة خروجي من عندهم، وبيده الغليظة عنقيّ، فاكتفيت بالاستغراب!

وعدت أتابع معاملة الوثيقة، وما تمّت الاجراءات حتى كان الدوام قد انتهى، والأبواب أغلقت فأصبح متعذرًا عليّ الخروج من المبنى. وعرفت منهم أنّ عليّ قضاء ليلتي هنا! ومررت فرأيت نسوة وأولادا يقتعدون درَجاً متأهّبين للنوم.

لم أخضع لهذا التصرف العجيب. عدت لكل الذين مررت بهم أسألهم، ولا جواب.

وأنا أسعى... بدأت أحسّ حِكّةً في العنق. تلمّست، كان ثمة أداة صغيرة، صغيرة جدًّا، ملصوقة، فكان عليّ أن أدرك أنها جهاز تنصّت متطور. ساءني ما اكتشفت، وانتزعت الأداة ورميتها بعيدًا. وأخذت أتجول في ردهات المكان حائرًا. فخيّل إليّ أن شيئًا ما كان قد انبثّ في جسدي، واستقرّ في الصدر والنفْس، فهم إذن يتنصّتون حتى على أنين الضمير.

أخذت أصرخ منددًا، غير مبال بأنهم يسمعون صوتي أو يسجلون هواجس الضمير.

رأيتني وكأنني في صحراء، ظلماء، يَضيع فيها الصراخ

وما انتشلني ممّا أنا فيه... إلا قرعُ جرس الباب.

صديق أتى لزيارتي بموعد... وعند معانقتي له حرصت على أن أتلمّس عنقه.

دمشق الشام: ليل الخميس ٢٩-٨-٢٠١٩

حزّورة.. صعبة شْوَيْ!

وأنا في عمرٍ ما.. كنت أقول لأصحابي مُعاظِلاً[٦٥]:

• يوم تزوجتُ كنت في العشرين، بعد عام جاءتنا ابنتُنا الأولى

• تزوجتْ ابنتي في العشرين، بعد عام جاءها ابنُها الأول

• عمره اليوم عشرون..

فكم عمري أنا؟

بعضهم كان يقول مستصعبًا: هيّه بدها آلة حاسبة!

وبعضهم يسرع للقول: (٦٢)!

ما رأيكم؟

مع العلم أنّ عمري الآن تسعون.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٣١-٨-٢٠١٩

---

(٦٥) المعاظَلة: تعقيد الكلام وعدم إيضاحه.

وقال صباح فخري.. للمليحة

في عام ١٩٧٥، وقد بدأت ظلال صباح فحري تمتدّ في الخافقين، حدّثني ديبلوماسي في السفارة المغربية بدمشق، أنّ مطربنا في حفلة غنائية كان أقامها منذ قريب هناك، أخذ يغني:

قل للمليحة في الخمار الأسودِ...

والجمهور يطرب ويستعيد. فجأة وردت إلى المكان مكالمة من القصر. كان الملك يستمع... استبدّ به الطرب فرفع سماعة الهاتف يطلب الإعادة.

إنها نشوة الفنّ في أعلى مستوياتها.

صباح فخري، أمدّ الله في حياتك.

سوف يذكرك التاريخ كما تَغنَّى بأخبار "زرياب" القادم من بغداد إلى الأندلس.

نَم، بعد عمر طويل، قرير العين!

أنت وأندادك أسهمتم في رفع راية الفن وخفّفتم من إحساسنا بالانكسار!

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢-٩-٢٠١٩

"الصمت.. الذي لا يُقهر"

في منتصف الستينيّات علمت من زملائي في العمل بموت أحدهم تحت التعذيب (طالب جامعي سنة أخيرة أدب إنكليزي)، ظللت أعاني وجع الحادثة قبل أن يتأتّى لي أن آخذ القلم أكتب قصته لأُذيعها بين قراء العربية لونًا من ألوان ظلم الإنسان لأخيه الإنسان. ومن عجبٍ أني كتبت ما يقارب النصف منها ثمّ استعصت عليّ المتابعة، وابتعدت عنها سنوات أربعا، إلى أن أسعفني الوحي فأكملتها مع نهاية العام ١٩٧٢. قصة تروي حكاية هذا الفتى، الذي أُخذ

عصر يوم بالشُّبهة، وأخضع للتعذيب "استخلاصًا للمعلومات". بعد منتصف الليل فارق الحياة، وسويعة الفجر اكتشفوا "الفاعل"، وحملوا الجثمان للأهل بكل اللطف معتذرين. سمّيتُ القصة "الصمت والموت"، فقد التزم الفتى الصمت في أثناء التعذيب بعدما رأى أنه كلما نطق باسمٍ جاؤوا بصاحبه وعذّبوه. نُشرت القصة في مجلة "الآداب" اللبنانية في عدد خاص بالقصة العربية عام ١٩٧٣.

يوم أراد المستعربون السوفيات في معهد الدراسات الاستشراقية بموسكو، إصدار كتاب يضم مجموعة من القصص السورية بِلغتهم، كانت "الصمت والموت" من بين ما اختاروا (وهو أربع عشرة قصة). هل كان مُعدّو الكتاب، وعلى رأسهم "البروفسور فلاديمير شاغال" (الذي تعرفت عليه بعدئذ في موسكو بكل الاحترام)، يشاركوننا -وهم تحت الحكم السوفياتي- محنتنا، شعورنا، حتى جعلوها في الكتاب القصةَ-الأمّ، وعنونوه باسمها معدّلًا ومفعّلاً: "الصمت الذي لا يُقهر"، ومثّلت لوحةُ الغلاف الابنَ مفارِقاً الحياة، والأب الشيخ يتلمّس وجهه بيديه؟

ثم تنزل القصة في "الألم على نار هادئة"، كتابٍ لي نشرته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٥ بعناية من صديقي العامل فيها "شوكت يوسف" وبعطف كلّي من كبير مسؤولي النشر في الوزارة "أنطون مقدسي". وليس جديدا قولي: إني استوحيت، وكتبت، كثيرًا مثل هذه القصة... وما آن لهذا الدَّفْق من الوحي المؤلم أن يتوقف عندي وعند المتألمين.

أمس وضع صديق في حيّز "التعليقات" في صفحتي حكاية منسولة من أوجاعنا العامة، مكتوبة بالعامية الأخّاذة، نقلتها، وأعملت فيها القلم قليلاً جدًّا، سوف أنشرها بعد هذا البيان.

أجل، قبل خمسين سنة موت طالب لغة إنكليزية، بالأمس موت طالب طبّ.. فالموت

تحت التعذيب لا يستثني أحدًا! دمشق الشام: مساء الجمعة ٦-٩-٢٠١٩

في آذار ١٩٦٣

في آذار ١٩٦٣ كان السفر إلى لبنان يتطلب موافقة أمنية يحصل عليها المواطن من إدارة الهجرة والجوازات (وكان مقرها في دمشق بجوار وزارة الداخلية)، نقف منذ الصباح في فِناء المبنى بصف طويل، صابرين، يأتينا بعد ساعة شرطي يسجل أسماء الستّين شخصا الأماميين (يُدخل فيها أسماء من عنده!)، هؤلاء يَمْثُلون واحدًا واحدًا أمام مدير الإدارة، يسأل عن أسباب السفر، ثم يوافق أو يحجب.. وأما الذين زاد عددهم على الستين فإنهم ينصرفون ليأتوا باكر الغد. وأحبّ أن أبيّن أني استوحيت من هذه الوَقفة الذليلة فانتازيا قصتي "قاطف الزهرات اليابسات"، نزلت في مجموعتي "حزن حتى الموت" ١٩٧٥.

وقد أجبت في المرة الأولى بأني أسعى في بيروت لنشر كتابي الجديد "رياح كانون"، تأملني الضابط لحظة ثم منحني الموافقة. ولما جئته بعد أشهر لمتابعة ما أنا فيه، بدا أنه شكّ في "تكرار" سفري إلى لبنان فحجبها عني.

ولقد كان عليّ بصفتي موظفًا في الحكومة أن أحصل على موافقة أخرى من الوزارة التي أعمل فيها، من "أمينها العام" (سُمّي فيما بعد: معاون الوزير)، هذا الذي كان زميلاً لي أيام البكالوريا بحلب ولا يُضمر لي شيئا من ودّ، يمنح ويمنع... وفي ذلك كله تمكنت من نشر روايتي هذه في بيروت أوائل العام ١٩٦٨، وهي في أربعمئة صفحة ويزيد.

أقول: معاناة في الكتابة مع ما يرافقها من متعة الإبداع... أسترسل في وضع أعمالي الأدبية، وأنا أرزح تحت وطأة المنع، والتعويق، والتهميش، والنقد المتجنّي... وأُهدهد آمالي القلقة.

كنّا عايشين!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٦-٩-٢٠١٩

أدب قَرْع جرس الباب

قُرِع الباب عندي، رنّ الجرس وأضاءت اللمبة الحمراء، قمت إلى "الأنترفون"، سألت، لا جواب.

عاد الرنين والإضاءة، ألو ألو، لا جواب، كبست الزرّ. ذهبت إلى الباب، قطعت مسافة في الحديقة، نزلت الدرجات العشر أتوكأ على مسند في الجدار، لم أجد على الرصيف أحدًا، ولكني رأيت أغراضًا، أكياسًا، وراء الباب كأنما أودعها الطارق، الحميم، وأغلق ومضى.

تذكرت كتاب الهيثم "في أدب السلوك"، لو أنه بيننا الآن وهو بصدد تأليف كتابه الرشيق الأنيق، لكتب فصلا سمّاه: "أدب قَرع الباب" وألحقه بباب "أدب الزيارة"، أتوقع أن يقول فيه:

• إذا كبست زر جرس الباب الذي تقصد فعليك الانتظار لحظات، فربما كان قاطن البيت وحيدًا أو مشغولًا

• لا تبتعد عن الباب، يشغلك النظر إلى المارة، ولا تُجرِ حديثا مع صديق عابر

• لا تبادر للدخول إلا إذا لمست ترحيبًا كاملاً من صاحب البيت

• اعرفْ ما إذا كان ممّن يسمح لضيوفه بالدوس على السجادة، وإلا فاخلع نعليك، وضع الفردتين متجاورتين لا واحدة هنا وأخرى هناك!

• وتلي ذلك تعليمات في أدب الزيارة.

رحم الله الهيثم الكواكبي، المرهف حتى رؤوس أنامله.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٩-٩-٢٠١٩

أخرجوا البائسين من حيّهم نازحين

أخرجوا البائسين من حيّهم نازحين، خوفًا عليهم أو منهم. سكنوا بعيدا بالأجرة قبل مدة سمحوا لهم بالعودة.

الأبواب مسروقة، والشبابيك مقلوعة، والبلاط منشال، وأنابيب المياه، والأسلاك الكهربائية مسحوبة من قلب الجدران لتباع بالرخص نحاسا مذوّبا... كان الشبيحة قد مرّوا.

سألتها: هل عوّضتْكم الدولة؟

قالت: يعوّضون للذين أصاب بيوتَهم قصف

أبكيك، يا شعبي المقهور!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١١-٩-٢٠١٩

اعتذر "اتحاد الكتّاب" في عمره المديد

• اعتذر "اتحاد الكتّاب" في عمره المديد –وأنا من أعضائه المؤسسين عام ٦٩– عن نشر أعمال لي.. فتظهر فيما بعد في الأرقى أو مترجمة

• واعتذرت "وزارة الثقافة" عن نشر ما صدر بعدئذ في "سلسلة اقرأ" (دار المعارف بمصر)

• وبالأمس كانت موافقة متميّزة من "الهيئة السورية العامة للكتاب" على نشر عمل لي.. فلما دخل كبيرُهم صفحتي في التواصل عَدَلَ عن النشر، وهم يطالبونني بالزهيد الذي كافؤوني!

• في افتتاحيةٍ لواحد من أعمالي قلت:

عندما يضطهَد المواطن في وطنه الحبيب يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبًا، يصبح بلدًا من البلدان ليس إلّا.

في صميم الأدب أعمل.. وفي عرائه أقيم!

ضحى الإثنين ١٦-٩-٢٠١٩

وكتبت حينًا في مجلة "جيش الشعب"

إلى الإعلامي الحرّ "صبري عيسى"

كان مسؤولون في البعث قد لاحظوا (في نحو ١٩٧٥) أنّ كتّابهم إذا حطّوا على "دوريّة" (مجلة أو جريدة) أرهقوها بكتاباتهم، ايديولوجيا وشعارات. والقراء في واد آخر. ما حدا وزارةَ الإعلام إلى إنشاء جريدة "تشرين" مفتوحة لكل الأقلام.

وقد كانت مجلة "جيش الشعب" رائجة، بإلزام الضباط الاشتراك فيها وبما تسجله المبيعات في أكشاك البيع.. إلى أن لاحظ القائمون على "التوجيه المعنوي" في إدارة الجيش في نحو العام ١٩٧٧ تراجعًا في المبيعات من خلال النظر إلى المرتجع.. فرأوا أن يقلّصوا الأقلام البعثية وأن يستكتبوا من هم في مثل حالي!

ووجدتني يوما (في خريف ١٩٧٨) أستقبل في بيتي رئيس تحرير هذه المجلة الجديد "النقيب تركي صقر" (أصبح فيما بعد مديرًا لدار البعث للنشر ثم سفيرًا في الكويت) يرافقه الفنان التشكيلي الشاب الذي يؤدي خدمة العلم "وضاح الدقر" (ابن صديقي محمد الدقر)، يستكتبني، ثم يَصْحَبني في يوم تال لزيارة مديرهم الجديد "العميد ناصر الدين ناصر" (أصبح بعيد ذلك وزيرًا للداخلية)، الذي قدّم لي جزءًا من كتاب "ابن عساكر" ذي الثمانين سِفرًا نشرته الهيئة.. وخصّصوا لي في المجلة زاوية أسبوعية من صفحتين.

ثمّ بدا أن العاملين فيها، المؤدلجين، ضاقوا بهذا الكاتب يأتيهم من خارج النطاق، واستطاعوا أن يؤثّروا في رئيسهم الذي أبلغني في إحدى زياراتي له أنّ "الشباب" يريدون أن يجتمعوا بي ويناقشوني! ومع استغرابي الطلب اعتذرت، وإذا هم يدخلون المكان، أربعة (أحدهم "حَكَم البابا" الذي تحوّل في الأحداث إلى معارض، وشاعر "..... درويش" من المدينة التي يقال إنها أنجبت مئة شاعر التقيت به فيما بعد فوجدته قد اعتدل).. فكان أن انسحبت، واستعفيت، و"أرحتهم من ظلي".

دمشق الشام: عصر الإثنين ١٦-٩-٢٠١٩

وجاء اللورد بلفور

... وجاء اللورد بلفور إلى دمشق في نيسان ١٩٢٥، ونزل في فندق فيكتوريا ١٩ ساعة فقط، لم يخرج من غرفته، بسبب المظاهرات الحاشدة للدمشقيين المندّدين بوعده المشؤوم[٦٦]. وحصلت مصادمات مع قوات الانتداب الفرنسي آنذاك سقط خلالها أكثر من ٥٠ جريحاً، مما اضطر بلفور إلى مغادرة دمشق.

موقع "التاريخ السوري المعاصر"

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٦-٩-٢٠١٩

فكرة أقلقتني

فكرة أقلقتني، استيقظت بُعيد منتصف الليل وجعلت منها منشورًا تستريح عنده خواطر قارئيه، ووضعته جانبا لأعود إليه أزيد في معناه.

---

(٦٦) وعده بإنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين.

ولكن سوّلت لي نفسي هذه المرة، أن أنشره لحظةً ثمّ أحذفه عندما يتلقى أول إعجاب... وإذا الإعجاب يتوارد، فأسرعت في حذفه.

ومن عجبٍ أن أقرأ بين تعليقات منشور آخر، سؤالًا من صديقة، بدا أنها "مولعة بالتتبّع"، تقول: هل تسمح أن أنشر على صفحتي منشورًا لك ظهر قبل قليل ثمّ غاب.. لكني صوّرته!

قلت: لا، أيتها المصوّرة.. السريعة!

قالت: خسارة.. منشور رائع وحقيقي!

دمشق الشام: فجر السبت ٢١-٩-٢٠١٩

نسيتُ رقم الغرفة

دُعيت من قبل اتحاد الكتّاب (وذلك لأول مرة في حياتي و.. حياته) للمشاركة في موسم أدبي. أنزلونا في فندق كبير، وخصّوني بغرفة في طابق ما.

حاضرتُ، وتجوّلت، وتعرّفت... ولما شعرت بالتعب في ليلتي الأولى تلك أردت العودة إلى غرفتي طلبًا للنوم.. ولكني نسيت رقمها.

تذكّرت أنها الثانية إلى اليمين في ذلك الممرّ الطويل. فتحت الباب فانفتح، ورأيت أناسًا آخرين ينامون فيها.

قلت: لعلها إذن الغرفة الأولى أو الثالثة. أفتح الأبواب، وأرى ما أرى.

قلت: لعلني أخطأت الطابق، فقمت أنزل طابقًا وأصعد آخر، أفتح وأرى.

وقلت أخيرا: عليّ أن أنزل وأراجع "الاستقبال" فهو يرشدني إلى غرفتي.

لما دخلت المصعد، انسحب بي في هدوء إلى طوابق لا أريدها، وكان يقف في كلّ مرة، يدخل أناس ويخرج آخرون.

كرهت الدعوة والاستجابة.

وفي ذلك حمدت الله على أني أنعم بالنوم في سريري ببيتي في "نوري باشا".

دمشق الشام: فجر السبت ٢١-٩-٢٠١٩

دعوني أنبُشْ ذكرياتي

هل تدَعونني، أيها الأصدقاء، أسردْ شيئا من ذكرياتي؟ منذ فجر شبابي عرفت أنّ ما في الداخل عندي لا يُنبي عنه المحيّا، وأعترف بأنّ هذا كان يضايقني. ولكنّ مصارحاتٍ من بعض أصدقائي كانت تُسرّي عني ولا أملك معها إلا الضحك والاستطراف.

قال لي يوما الشاعر علي الناصر، إنه كلما صادفني في أمسيّة أدبية، تساءل وماذا يمكن لهذا الكاتب "الوديع" أن يعطي للأدب، الذي ترتفع فيه أصوات الحياة؟ فقدّمت له، وهو القارئ الذي لا يملّ من القراءة في عيادته، مخطوطة الرواية التي كنت قد فرغت لتوي من تأليفها، "رياح كانون" (٤٠٠ صفحة مرقونة على الآلة الكاتبة)... قرأها، الشاعر الذي كان يطوي من السنين ضعف ما عندي، وقال: إنّ الاشتعال في الأعماق. الآن عرفتك.

كان ذلك عام ١٩٦٥.

في العام الذي تلا انتقلتُ بوظيفتي من حلب إلى العاصمة، وأخذت أتردّد على مقاهيها ومنتدياتها، فكنت أرى رجلاً في نحو الخمسين، مهيب الطلعة، يلبس الرسمي الأسود ترفرف تحت ذَقَنِه ربطة على شكل فراشة، هو من أرمن سوريا، مهنته "قارئ كفّ"، يدعوه بعض الجلساء إلى طاولاتهم، ويُوْدعونه أكُفَّهم، يقرأ، يرتجل، يبتدع، وهم مبتهجون.

سألني لؤي كيالي مرة ما إذا كنت أرغب في أن يقرأ الرجل لي ماضي حياتي وما ينتظرني من مستقبل؟ وكنت، وسوف أظل، أرى في هذا النوع من "التنبّؤ" لغوًا كقراءة فنجان قهوة

تمارسه عجائز البلد. قلت: لا بأس في أن أطّلع على هذا اللون من الكلام. ولما كنت أعرف أنّ "الوداعة" في محيّاي سوف تصرفه عما يعتمل في الداخل، فقد خلعت، على مرأى من جليسيّ العازبَيْن، لؤي وهشام الشيشكلي، "خاتم الزواج" من بِنْصِري وأودعته جيبي.

وأقبل علينا الرجل، الطيب، وما إن جلس وعرف أني أنا المطلوب قراءةَ كفّه، حتى أسرع يقول لي بمرح، بلهجة الطاعنين في السن من أبناء طائفته: "أنت لازم بياكل "قتلة" من أمّك خمس مرات حتى.. تتزوّج! ". وبعد أن قرأ وغرّد أعلمه لؤي بأني متزوج من شقيقته وأن لي بنتا باتت في سنّ يُدَقّ باب بيتنا طلبًا لخِطبتها!

بالأمس زارتني صديقة تصحب ابنتها التي أخذت تسقي زرعات الحديقة في الليل الساجي، قامت تصوّرها، والتقطت في ذلك لي صورًا، لما أمعنت النظر فيها تبدّت لي البراءة والسكينة بأجلى المعاني، نشرتها في صفحتي وقدمت لها بهذه العبارة:

في المُحيّا.. كثيرٌ من الوداعة

وفي الصدر.. صراخٌ يملأ الدنيا.

وسرعان ما قرأتُ تعليقا على ذلك من صديق يقول: "أول مرة التقيت بك عام ١٩٦٢ في المركز الثقافي بحلب، فشدّتني أناقتك ووسامتك(!) وقلت في نفسي: لا بدّ أن يكون أدبك أنيقًا. ولا تزال تلك الصورة لا تغيب عن عيني".

أصدقائي.

فأما العبارة الأخيرة هذه فهي للأديب "جهاد الكاتب"، يَصغرني بعشر سنين أو يزيد، وهو اليوم من الناشطين في قول الحق متحمّلاً مشاقّ الاغتراب. وأعترف بأنّ "ظلمًا" ما قد وقع عليه من قِبَلي، فكلمته التي تتّسم بكل الودّ والشفافية كان يقابلها عندي منذ برز في صفحتي،

"نسيانٌ" له... كم حزّ في نفسي هذا: أني لا أذكر حتى اسمه! مع أنّ بعضهم يقول إني إنسان ذَكور!

وأما قارئ الكف، فقد بدا أنّ الزمن حَطّ به. رأيته يوما يقطع الأرصفة المخضوضرة تحت نظر فندق سميراميس، لا بدلة سوداء ولا فراشة تَرِفّ، وكان في برد ذلك الشتاء مُتَزَمِّلا بمعطف قد أكل الدهر عليه ولمّا يشرب بعد.

وأما طبيب الأمراض الجلدية، الشاعر علي الناصر، الذي كَثُر تردّدي عليه في ذلك العام (١٩٦٥)، فقد آلمني أن أرى "ديوانًا" كانت أبياته ما تزال تتنزّل عليه، يكتبها في وريقات ينزعها من تلك التقاويم التي يقتنيها الأطباء، منتثرة على مكتبه... فأخذت أجمعها، وكلّ منها مذيّل بتاريخ، وأُرقِّنها على الآلة الكاتبة، وأعود إليه في اليوم التالي، نقرأ، نصحّح. خمس نسخ كتبت حتى أتممت، فأهدى إليّ النسخة الثانية وأهدى الثلاث إلى أصدقاء له واستبقى لنفسه الأولى... ثم كان ما كان من صروف الزمان، مضى الناصر، ومضى مَن أهدى إليهم، ولم يبق إلا نسختي!

أقول: إني كتبت -بعد رحيله غدرًا عام ١٩٧٠- مقالة ضافية عنه في مجلة "الأديب" اللبنانية، وإنّ عندي رسائل منه وهو الذي كان ضنينًا بالكتابة، ما جعلت من ذلك كله كتابًا سمّيته "الشاعر علي الناصر وأنا وديوانه المضيّع"، يبحث عن ناشر يحب الشعر وسِيَر الشعراء ويأسى على اغتيالهم بمسدس كاتم للصوت.

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٩-٩-٢٠١٩

في تلك الليلة القريبة..

في تلك الليلة القريبة زارني صديق وأنا متراجع في صحتي، وكان أن صحبني إلى الصيدلية المجاورة، تناولت إبرة في العضل، وعدت متوكّئًا على ساعده. تمدّدت على سريري، غطّاني

بعناية، قبّل يديّ الظاهرة فوق اللحاف وهو يقول: أنت كنز لنا! أنا وسيارتي تحت تصرفك.

ما أغدقه عليّ هذا الصديق من فيض حنانه يعادل ما يُغرقني به "أحدهم" من آلام العقوق.. التي لو وُزّعت لكان هناك مئة من المتألمين!

دمشق الشام: صباح الأحد ٢٩-٩-٢٠١٩

الإبداع في الأدب: ويتنزّل المضمون تلقائيًّا في الشكل الذي يناسبه

[فقرة من حوار لي في جريدة "أضواء" الجزائرية/ مارس ١٩٨٤]

في شباط/ فبراير ١٩٨٤ جاء دمشق الإعلامي الجزائري "بوعلام رمضاني" لإجراء مقابلات مع أدباء وفنانين، وكان بيننا لقاء وعشرة أسئلة، أقتطف فيما يلي أحدها (السادس):

السؤال: الإبداع في الأدب مسألة معقّدة ولا شكّ، ومن الطروحات التي تفسّر الإبداع بالمعاناة الإنسانية، هي التي تربط بين حتميّة الجدلية القائمة بين الشكل والمضمون الأدبيين.

ما رأي أستاذنا في المسألة؟ وإذا كان الأمر على هذه الحالة، هل من أمثلة تعكس ذلك في إبداعاتك الأدبية؟

ـ في بدء حياتي الأدبية كنت، وما أزال، أكتب القصص وفق المذهب الواقعي، متّخذًا من الزمن الميكانيكي سُلّمًا ترتقيه الحوادث، أو أبدأ رواية القصة من النهاية مستحضرًا حوادثها من ذاكرة البطل، وشخوصي يتصرّفون وفق المواضعات الإنسانية، لا يَطْفِرون ولا يخرجون عن المألوف.

ولكني يوم بدأت، قبل سبعة عشر عامًا على وجه التحديد (عام ١٩٦٧)، أتصدّى لمظاهر الظلم والقمع، فإنّ موضوعاتي أخذت تتنزّل، تلقائيًّا، في أشكال مختلفة، فالأبطال يتجاوزون في تصرفاتهم المألوف، وينطقون بكلام لا يستساغ في الأحوال العادية.

يقول أحدهم مخاطبًا الآخرين: "لماذا تتشاجرون وشعبُنا أرقى شعوب العالم؟ "، فيتساءل واحد من سامعيه: "وكيف نكون أرقى شعوب العالم وليس عندنا مسرح رفيع! "، ويضيف آخر: "ولا موسيقى سمفونية! "، وثالث: "ويقع في بلدنا كلّ يوم انقلاب أو محاولة انقلاب فاشلة! " (قصة "يقظة بعد سُبات طويل").

وواحد من أبطالي المطارَدين يتوصّل إلى ابتكار غريب: أن يستطيع تغيير سحنته، حتى إذا ما وقع في قبضتهم يقول إنه "ليس هو"! (قصة "الصورة والاسم"، ترجمتْها إلى الفرنسية المستعربة السويسرية كلود كرول في كتاب ضمّ مختارات من القصة السورية).

وفي "الأيدي الكرتونية" يتجرّأ المواطن الذي كان يسير في طريق خَلَوي، فيَعصي طلبَ رجل السلطة أن يقتاده، ويتمنّع، فيتماسك الرجلان بالأيدي. يتبيّن المواطن أن يدَي الرجل ليستا من لحم ودم، وليس فيهما عظام، هشّتان، تتقصّفان. كان الرجل -يا للعجب! - كرتونيّا، يدفعه دفعة يسيرة، فإذا هو يتهاوى على الأرض كومةً من ورق، من قصاصات ورق صغيرة، سرعان ما أخذت تذروها الريح (ترجمها إلى اللغة الألبانية محمد موفاكو)[٦٧].

وفي قصة "الأشباح" يموت البريء بين أيدي جلاديه، فتتحوّل روحه إلى شبح يَسُوم الجلادين العذاب، ثمّ ما يلبث أن يلتقي بكثير من الأشباح أمثاله، فيتنظّمون ويتوزّعون العمل (دخلتُ بسبب هذه القصة المعتقل!) [نزلت فيما بعد في كتابي "آه، يا وطني! "، دمشق ١٩٩٦].

لقد جاء الشكل، في هذه القصص وما كتبت على غرارها، مفصّلاً على قدّ المضمون الغريب. ولكني حريص على ألا أُغرِب في الشكل، لتظلّ صلتي وثيقة بأكبر عدد من القراء فلا يزهدوا بقراءتي.

---

(٦٧) هذه القصص المشار إليها، من مجموعته القصصية: "حزن حتى الموت"

نُشر الحوار في جريدة "أضواء" الأسبوعية، العدد ١٣، تاريخ ٣ مارس ١٩٨٤ (العاصمة الجزائر)، تحت عنوان وضعوه: "تحتّم عليّ أن أجنّد أدبي في رصد فجيعتي المرة". وقد صادف النشر افتتاح المؤتمر الرابع عشر للأدباء والكتّاب العرب بالجزائر.

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ١-١٠-٢٠١٩

سائق التكسي بدمشق

سائق التكسي بدمشق يتحدث لمسؤول أمني كبير (وهو لا يعرف من يكون) عن وجود اللبنانيين والعراقيين بكثافة في بلده ويقول: إنهم إخوتنا وأهلنا وواجب علينا مساندتهم وضيافتهم؟

- وما يسمّى بحزب الله اللبناني يقتحم بلادنا مجاهدًا لإنقاذ المراقد الشيعية!
- والعراقيون ومِن ورائهم الفُرس، يزحفون إلينا ليعلّموا أولادنا كيف يَلطِمون الخدود ويُدْمون بالزَّرَد الأكتافَ والظهور!

دمشق الشام: عصر الأربعاء ٢-١٠-٢٠١٩

كانت هجرة آخر الأندلسيين

كانت هجرة آخر الأندلسيين بسبب سيطرة الجيوش الإسبانية على غرناطة عام ١٤٩٢م.

ما السبب في هجرة الشاميين من ديارهم ابتداء من عام ٢٠١١؟

ومع أن المسافة

ومع أن المسافة بين بيتي وبيتك لا تعدو رمية حجر إلا أنّ "الخوف" يمنعني لولا شبكة التواصل. أَدينُ لها.

دمشق الجمعة ٤-١٠-٢٠١٩ س١٠: ٠٢م

كتب يقول:

يوم السادس من شباط ١٩٩٨ كنت -وأنا في الستين من العمر- أمشي في الجميلية، وبرفقتي شاب في الثلاثين.

قرأت على باب "جامع الصِّدّيق" نَعيَ رئيس الجمهورية الأسبق الدكتور ناظم القدسي أستاذ الديبلوماسية والاقتصاد.

تراءى لي أن أسأل مرافقي: هل تعرف ناظم القدسي؟

قال: ومن هذا؟

ومضيت وإياه لا يطاوعني الكلام.

دمشق الشام: فجر السبت ٥-١٠-٢٠١٩

أقدّس الحرية والعدالة

"أقدّس الحرية والعدالة، لأنهما جوهر الكرامة الإنسانيّة، وأكره الفقر والاستعباد، لأنهما والكرامة الإنسانية على طرفَي نقيض" فاضل السباعي دمشق ١٩٨٢.

(مقتطف من موسوعة "أعلام الأدب العربي المعاصر"، النسخة العربية ١٩٩٦)

رأيتُني فجرَ اليوم..

رأيتني، فجر اليوم، أدخل ذلك البيت العتيق الذي ما فارقَ خاطري منذ رأت عيني النور إلى يوم الناس هذا.. فأرى جدّي لأمي يقف بقامة منتصبة في أرض الدار، يعاين بنظره ما أنجزه البنّاؤون في يومهم من عمل.

أدرت نظري في أنحاء المكان فوجدت أنّ الغرفة المواجهة قد جُدّدت نوافذها وأصبح لها مصاريعُ تَردّ عنها ضوء النهار، وأنّ ما كان فوقها من غرفة متداعية قد أعيدت لها الحياة، وما تحت الدرج خزائن ورفوف تُحفظ فيها الأشياء، وتحاذي حائط الجيران على طوله أحواضٌ عامرة بالياسمين والنارنج والكبّاد.

قلت أحدثه، هو في السبعين من العمر وأنا.. وأنا في التسعين، بأن هذه الحارة قد أتت عليها الحرب اليوم فدمّرَتْها، وجعلَتها كما وقع لها قبل مئتي سنة من حريق نُبِزت بعده باسم لم أطِقْه: "الخَرَابة".. فتلقيت منه صمتا نمّ على أن لا علم له بما يجري في البلد، ولم يسمع بذلك الاسم القديم الذي تسقّطه حفيده في مطالعاته بما أتى من زمن!

وسألته مشفقًا عمّن يعتني به وحيدًا في هذا البيت؟ فبرزت لي سيدة في نحو الأربعين، تقول إنها مَن يسهر على راحته، وهي "ابنته من زواج سابق"!

كان كل ما صادفت يؤكد لي أني لست في يقظة.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٩-١٠-٢٠١٩

مسّت الضرورة الصحيّة

مسّت الضرورة الصحيّة لأن أعالِج فَرْوة الرأس بالليزر. ذهب صديقٌ لي يراجع المشفى

الحكومي الضخم لتحديد موعد للبدء في جلسات المعالجة، قالوا له في "مكتب القبول": ينبغي أن يكون المريض حاضرا هنا.

اليوم أقلّني الصديق إليهم بسيارته.

لدى مراجعتهم للصور الشعاعية وجدوا أنّ اسمي المرقوم فيها هو ما أُعرَف به بين الناس (جزءان)، على حين أنه في البطاقة الشخصية أجزاء ثلاثة.

اعترض الموظف -الذي بدا لي من لهجته أنه من "إخوتنا في الساحل"- على أنّ الاسمين مختلفان، وما نفع شرحي له أنّ التقاليد قد جرت على أن يتقدّم اسمَ الذكور في مجتمعاتنا أحيانًا اسمُ الرسول العربي تبرّكا، فيكون غضُّ طرف من المعنيّين عن مثل هذا الاختلاف. أصرّ، فاستأذنته بأن أعرّفه بنفسي:

ـ أنا في التسعين. كاتب. عضو مؤسّس في اتحاد الكتّاب. لي أربعون مؤلفًا مطبوعًا، بعض أدبي مترجم إلى لغات...

وتوقفتُ، والعينان تحدّقان إليّ

وتوقف هو عن الاعتراض!

دمشق الشام: ليل الأحد ٢٠-١٠-٢٠١٩

في ربيع العام ٢٠٠٩

في ربيع العام ٢٠٠٩ كنت في المملكة المغربية أشارك في مؤتمر تاريخي في بلاد الريف بمدينة "الحُسيمة".

مرة، في أثناء تنقلاتنا في حافلة البولمان، اتفق أن جاءت جلستي بجوار أستاذ متقاعد كان يُدرس العربية متخرّجًا في آداب القاهرة، رأيته متحمسًا جدًّا للمسألة "الأمازيغية"..

سألته: كم تُقدّر نسبة العرب اليوم بين سكان المغرب؟

أجاب: العرب؟ ليس عندنا عرب، كلهم أمازيغ!

فكان عليّ أن أخفي بسمتي احترامًا لحماسته الفيّاضة.

دمشق الشام: عصر الإثنين ٢١-١٠-٢٠١٩

الأرمن جاؤوا سورية في حوادث ١٩١٥

الأرمن جاؤوا سورية في حوادث ١٩١٥ لاجئين ونازحين، مَن بقي منهم بيننا اكتسب الجنسية.

الأكراد نزلوا لاجئين[٦٨] في الشريط الحدودي مع تركيا، في أعقاب ثورة قاموا بها عام ١٩٢٥ هناك، واكتسبوا الجنسية.

إلى أن رأت الحكومة السورية عام ١٩٦٢ أن تجري "تعداد سكان" في الجزيرة، لنوايا بدأت تظهر بين الأكراد هناك من أن أرض الشمال لهم وحَرمت أعدادًا كبيرة منهم من الجنسية... وما سُحبت الجنسية من الأرمن لانتفاء هذه النية عندهم!

دمشق الشام: عصر السبت ٢٦-١٠-٢٠١٩

قوميّة أندلسية..

يا أصدقائي،

في الأندلس، التي فتحها المسلمون من عرب ومغاربة، حلّ -بعد زمن ما- الوئامُ بينهم

---

(٦٨) لعل الصواب أن الأكراد هم سكان أصليون في هذه المنطقة قبل وضع الحدود المصطنعة، فإطلاق كلمة لاجئين غير دقيقة.

وبين سكان البلاد الأصليين الداخلين في الإسلام، وامّحت الفوارق، وأصبح الجميع يدًا واحدة، تبني حضارة متميّزة، وتدافع عن بلدهم "الأندلس" في مواجهة "الممالك المسيحية".. حتى ليمكننا القول بمصطلح اليوم: إنهم شكّلوا "قومية أندلسية" صلبة.

فما بال بعضِ الناس في وطني يستحضرون -في أيام الضعف التي نعاني- ما سلف من حوادث الزمان.. ويقول أحدنا -بحسن النية-: إن ثلث سكان هذه المدينة هم كذا وربع تلك هم كيت وكيت!

ألا ليتهم يَنْشُدون "دولة العدل والمساواة".. ففيها تُحَلّ جميع العُقد.

دمشق الشام: ليل السبت ٢٦-١٠-٢٠١٩

قال: نصف سكان مدينة حماة أكراد!

قال: نصف سكان مدينة حماة أكراد.

قلت: لا تقل "أكراد"، قل: ربما من "أصول كردية"، وقد تعرّبوا وتخلّقوا بالأخلاق والعادات العربية.. هل تعني أنّ لهم أن يُنشئوا لأنفسهم "دويلة كردية"؟ [٦٩]

وأنا أعرف أن في سورية ثلاثة ملايين ونصف المليون من "أصول تركمانية".. هل ينشئون؟

وأنّ غير قليل من سكان بلاد الشام اليوم هم من أصول سريانية، اعتنقوا الإسلام في زمنهم، وغدت ذراريهم جحافل في جيوش المسلمين تفتح الأمصار، وأنّ أصول المصريين هم

(٦٩) لم يطالب كرد سوريا بدويلة أو استقطاع جزء من أرض الوطن بحسب عبارة النظام المستبد في سورية لتمرير اضطهاده للشعب الكردي، أمّا بالنسبة لأكراد حماة فليس صعبًا الرجوع إلى المصادر التي تتحدث بالتفصيل عن تاريخ تواجدهم في حماة ونسبتهم.

من الأقباط الذين اعتنقوا عبر خمسمئة سنة إلى أن استوفت الأسلمة حدودها.

ولتعلمْ أنّ الأكثرية الساحقة من "الأندلسيين" هم من أصول إسبانية اعتنقوا، وأسهموا إسهامًا في بناء حضارة بلدهم، وامتشقوا السلاح دفاعًا عن أندلسهم في مواجهة الممالك الإسبانية المسيحية.

اعدِل عن كلامك، يا صديق، وعَدّله.

نحن اليوم أمة تطمح إلى أن تستظلّ سماء العدل والمساواة.

دمشق الشام: صباح الأربعاء ٣٠-١٠-٢٠١٩

"لفّاحة".. تُدفئ العنق

سيدة دمشقية قضت وزوجها جزءًا كبيرًا من العمر في حلب. وفي محبّتها للمطالعة -كتبت لي مرة- أنها كانت تتردّد على "دار الكتب الوطنية" العريقة، تستعير ما تقرؤه.. ومن هناك تعرفت على "أدب فاضل السباعي" وقرأت كل ما طالته يدُها من أعماله.. ما أرقّ مشاعرها!

ولكني أكتشف فيها رقة أخرى.

مرّت ببيتي عصر اليوم، ترافقها ابنتها والطفل الحفيد، وفي اليد منها "لفّاحة" (في دمشق "لَحْشة" وبمصر "لفحة")، قد حاكت يداها السخيّتان بإبرتين صوفًا ذا ألوان هادئة، من شأنها أن تريح العين بقدر ما تبعث الدفء في العنق فتُثري الخاطر بأعذب الأفكار.

وعلى حين بدا الطفل يصغي لما ترسله البِركة من غناء الماء.. كنت أحدث السيدتين عن تلك القصة التي كتبتها في ١٩٥٦، والتي أُعِدّ لطباعتها قريبًا إن شاء الله، بعنوان "صبيّ في حمّام النسوان".. فيها يقول الصبيّ لأمه التي أرهقته "بكيس التفريك": "يامو هادي مو فتايل وسخ تنزل مني، هادا لحمي يامو"!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٣٠-١٠-٢٠١٩

يوم أسّسنا اتحاد الكتّاب في الوطن

كتب لي هذه الساعة (من مساء السبت الثاني من تشرين الأول ٢٠١٩) صديقٌ من المهتمين بالثقافة أنه استمَع الليلة في القناة السورية إلى كاتبين اثنين أخذا يتحدثان عن "اتحاد الكتاب العرب" في سورية، يَشْغَل الأول أمانة فرع الاتحاد بدمشق والآخر مدير دائرة الترجمة في وزارة الثقافة.

وقال: إني فرحت لأن أتعرف على اتحاد كتّابنا نشأتِه وتطوره، وأن أعرف المزيد عن ذلك الذي ترأَّسَه غيرَ منازَعٍ طوال مدة ربع قرن على التوالي من زماننا هذا الذي نعيش فيه.

والواقع أن الأول تكلم عن أنّ الاتحاد تأسس عام ١٩٦٩ ثم تكلم الثاني.. وبدلًا من أن يستفيضا في الحديث عن الاتحاد إذا هما يتحولان للحديث عن "الاستعمار العثماني" وسياسة "التتريك" ثم سياسة "التطبيع" مع العدو الإسرائيلي، وانصرفا كليةً عن الحديث عن موضوع الاتحاد، فخاب أملي وأَسِفتُ لبرنامج أن يبدأ بموضوع ثم يتحول إلى مواضيع.

فهل عندك يا صديقي السباعي، ما يَشفي غليلي من حديث، ولو مختصراً، عن نشأة اتحاد كتّابنا العربي، وأنت عضو قديم فيه أمدّ الله في حياتك؟

- - - - - - - - - -

يا صديقي الذي سمّى نفسه "أبا حيان الدمشقي" مذكرًا إياي "بأبي حيان التوحيدي" البغدادي، طيّبٌ منك أن تنقل لي هذه السالفة التي خطرت أمامك الليلة. سأكتب لك شيئًا قليلاً من كثير أعرفه، فالحديث في هذا يطول.

كنا نجتمع في صيف ١٩٦٨ في المركز الثقافي بأبو رمانة، في تلك الشرفة التي كانت تطل

على حديقة المبنى (قبل أن تُضم الشرفة إلى الغرفة التي تجاورها فتصبح قاعة لعروض الفن التشكيلي). كنا نحضر الاجتماعات في توالي الأيام نحن عشرة من "المؤسسين" ويغيب عشرون لشواغل الحياة. وبعد أن أنجزنا مشروع التأسيس أقام لنا الحزب الحاكم حفلة غداء في مطعم بالربْوة احتفاءً، حضرها -عدا الأستاذ سليمان الخش (رئيس الهيئة التأسيسية، وكان وزيرًا للتربية)- عضوُ القيادة القطرية المقدم أحمد المير.

وبعد عام كامل صدر مرسوم بتأسيس الاتحاد، واتُّخذ له مقرّ في شارع "مرشد خاطر"، قبل أن يُبنى له ذلك المبنى الشاهق المطل على أوتوستراد المزة.

ما أريد أن أتوقف عنده أنه لوحظ فيما بعد أن أوراق التأسيس كلها فُقدت من محفوظات الاتحاد! لا يعرف أحد كيف ولماذا! ولكني أنا أشكّ في أحدهم ولا أستطيع البوح.

وقبل نحو عشرة أعوام أو يزيد سألني رئيس الاتحاد التالي عما إذا كان يمكنني أن أفيده في مسألة نشوء الاتحاد، فصورت المشروع الذي كان قدّمه لنا سليمان الخش وأجرينا في اجتماعاتنا التعديلات عليه، التي كنت أدونها بيدي على المشروع الأصل، وقدمت نسخة مصورة لرئيس الاتحاد وأخرى للديوان.

وقبل مدة وجيزة سألتني موظفة في الاتحاد بدا أنها معنيّة بهذا الأمر، أن أزودها بقائمة بأسماء أعضاء المكتب التنفيذي الأول (ولايته من ١٩٦٩-١٩٧١)، قلت: يمكنني هذا، فقط لو يتلطّف رئيس الاتحاد الحالي بطلب ذلك مني ولو هاتفيًّا... ومن يومها لم أتلقَّ منها ومن الاتحاد اتصالًا.

وبالأمس وربما اليوم، بدا محرَّما على المجلات الخمس التي يصدرها الاتحاد، أن تنشر لي مادة أو يَرِد اسمي في موضوع يظهر فيها!

دمشق الشام: ليل السبت ٢-١١-٢٠١٩

والعين اليمنى.. أحسنُ حالًا من اليسرى!

لم تكتفِ الصديقة "الدكتورة جودي إسماعيل" طبيبة العيون، بأن صحبتني الثلاثاء الماضي في العيادات العينيّة، تصويرًا وتحليلاً، وتوديعًا حتى باب المشفى.. ولكنها وافتني عند المساء عبر الماسنجر بتقرير وضعتْه عن حالة عينيّ، اليسرى التي تدنّت فيها الرؤية، واليمنى التي أُجرِي لها في الربيع الماضي عملان جراحيان.. وهذا نص التقرير:

وضْع العين اليمنى من ناحية العدسة بخير، والعدسة صافية ولا تحتاج الى ليزر.. المسؤول عن تدنّي الرؤية هو حدوث ما يسمى "وَذْمة اللطخة" فيها، هذه التي تحدُث أحيانا بعد أشهر من العمل الجراحي.. حاليّا سوف نعالجها بالقطرة nepafenac لمدة شهر، ونعيد الفحص بداية الشهر القادم إن شاء الله.

أما العين اليسرى فهي ثابتة، لا مجال لأن تتحسّن بسبب ضمور اللطخة الشَّيْخيِّ المتقدم فيها.

- - - - -

سألتها:

وهل لك أن تُضيفي إلى هذا التقرير توضيحًا يتعلق بالرؤية في العينين الاثنتين وباستعمال نظارة؟

فأجابت بتفصيل:

تدنّي الرؤية بالعينين يتعلق بالإصابة بضمور أو اعتلال اللطخة المتعلق بالعمر بمرحلة متقدمة منه، ويسمى "ضمور اللطخة الجغرافي الجاف"، وهو أشدّ في العين اليسرى التي تصل

القدرة البصرية فيها إلى مرحلة "عد الأصابع على بعد مترين"، وهو في العين اليمنى أخفّ حدة وتصل القدرة البصرية الى واحد من عشرة، والوضع مستقر حاليًّا في العينين.

لكن تطوّرت في العين اليمنى "وذمة" في اللطخة تاليةٌ لعملية زرع العدسة.. هذه الوذمة قد تتراجع تلقائيًّا مع الوقت، وفي حال عدم التراجع قد تستجيب وتتراجع على استخدام القطرة التي بدأنا باستعمالها.. ويجب المراقبة والمتابعة كل شهر.

تصحيح الرؤية بالنظارة وصل الى أربعة من عشرة في العين اليمنى وواحد من عشرة في اليسرى.

في حال تراجعت الوذمة يمكن ان يتحسّن مقدار الرؤية أكثر، وعندها نقوم بوصف نظارة مناسبة للرؤية البعيدة ونعدّل أيضًا نظارة القريب. انتهى التقرير.

نهفة، بعد الآلام والآمال:

أعلمتني الدكتورة جودي أن أصدقاءها في العيادات العينية سعدوا بلقاء كاتب معروف، "وهم ظنّوا في البداية أنك جدّي للشبه بيني وبينك! "، فقلت لها: "ليتَك وليتني.. كنت أكسب حفيدة، تسبق في دراسة الطب حفيدتي زين السباعي بـفلوريدا، سنة رابعة! "

أهنئك، صديقةَ التواصل الاجتماعي دكتورة جودي إسماعيل، على العلم الذي تُحصّلين، وأشكرك على الودّ الذي تمنحين.. متمنّيًا أن يُتاح لكل مواطن أن يتلقى مثل ما حظيت من رعايتك الكريمة.

دمشق الشام: مساء الخميس ٧-١١-٢٠١٩

يا سيدي النظام

ألا يخطر في بالك لحظة كيف يمكن لموظف في دولتك أن يعيش براتب "وقدره خمسون

ألف ليرة سورية" (ولا أقول ٢٠ ألفا) ولا يموت أطفالُه من الجوع، وفي شعاراتك المرفوعة: "الاشتراكية"!

وحولك المدلّلون يرتعون في رغد العيش... حتى إن أحدهم -سمعت يومًا- قضى "ليلة رأس السنة" في "لاس فيغاس" بلد القِمار العالمية.. وعاد خَسِيراً غيرَ حزين!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٤-١١-٢٠١٩

زميلة لي في العمل

زميلة لي في العمل،

طلبت مني استعارة "ثم أزهر الحزن" (حين صدورها عام ١٩٦٣عن بيروت)

بعد أن قرأتها أعلمتني أنها اقتنت نسخة لها من المكتبة.. كي تقرأها طفلتُها لما تكبر!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٤-١١-٢٠١٩

الصمت الذي لا يُقهر

"موت طالب جامعي تحت التعذيب"

بقلم: فاضل السباعي، دمشق الشام

موقع "بروكار برس"، الرئيسة، مساء السبت ١٦-١١-٢٠١٩

- - - - - - - - - - -

يوم أتيتُ العاصمة موظفًا منتقلاً إليها من حلب، التقيت في الوزارة زميلاً من الشباب، مال عليّ يسألني: "أتذكر زميلنا "بهجت أبو... "؟ "، قلت: "ولا أنساه، طالب أدب انكليزي متفوّق"، فقال إنه أُلقي القبض عليه بعد الثامن من آذار وتحت التعذيب مات.

لم أكن، حتى ذلك الحين (ربيع ١٩٦٦)، قد تناولت الشأن السياسي في أعمالي القصصية، وإن كنت بدأت أعاني القهر في الواقع وفي الخاطر، ولكن هذا الخبر هزّني.. لأني أعرف الضحية معرفة شخصية، وكنت على يقين من أنّ مَن يذهبْ به الطموح العلمي حدّ التفوق لا يقاربِ السياسة لدرجة أن يمسي موضع مساءلة تودي به إلى الموت.

تلك الحكاية الصادمة وشعوري بأننا بدأنا نفقد حريتنا شيئا فشيئا، حرّضتني بعد قليل من الوقت على أن أكتب القصص السياسي. وكان ممّا كتبت قصةٌ مكّنتُ فيها "الجلاّد" من أن يُخضع سجينَه، أستاذ القانون، بعد "غسل مخّه" بالتخويف، لأن يُقبّل "بُسطارَه" (البوط العسكري) أملاً في إطلاق سراحه! (قصة "العينان في الأفق الشرقي" ١٩٦٧، كتابي "حزن حتى الموت" ط١ ١٩٧٥.

لم تبرح حكاية زميلي خاطري... إلى أن طاوعني الوحي يوما فشرعت، مستمدًّا "مادتي" من مخزون الذاكرة ومن "المسموعيّات". وأعترف بأني، بعد أن قدّمت ومهّدت وأرهصت، استعصت عليّ المتابعة، فسّرتُ ذلك بأن ليس عندي ما يكفي من المعرفة بأفانين التعذيب تمارَس في الأقبية المعتمة. وظلّت القصة التي كتبت منها نحو ٢٥٠٠ مفردة مركونة عندي سنة، وسنة أخرى، وأخرى، كنت خلال ذلك مسكونًا بالقلق: كيف أصوّر على نحو مُقْنع تعذيبًا يُفضي إلى الموت!

وقد تهمّمت في أواخر ١٩٧٢، فاستكملت وأكملت.. وجاءت القصة ذات طول (خمسة آلاف مفردة)، بعثت بها فورًا إلى مجلة "الآداب" اللبنانية (سهيل إدريس). وفي زيارة مني لحلب ربيع ١٩٧٣ دخلت فرع اتحاد الكتّاب، والتقيت صديقي الأديب جورج سالم (أمين الفرع) وهو يَهُمّ بتوجيه دعوة لأمسية أدبية قادمة، فنحّى -احتفاءً بصديقه القادم من العاصمة- جانبًا ما بين يديه، ليدعو جمهوره لسماع قصتي، التي كان رأيي قد استقرّ على أن أسمّيها: "الصمت

والموت".

أعترف بأن الحاضرين فوجئوا بالموضوع الذي تدور عليه القصة. طالب جامعي، سمّيته غير بعيد عن الاسم الحقيقي "مهذّب أبو سلام".. يُلقى القبضُ عليه سويعة العصر.. بتهمة إلقاء قنبلة ما! في التحقيق، في التعذيب، كان كلما أدلى، ووَرَد على لسانه اسمٌ، أسرعوا يأتون بصاحبه، وتكون "مواجهةٌ". على أنّ المحقّق معه ذكر أنه له شريكًا في "الفعل"، ما جعل "المتّهم-البريء" يعتصم بالصمت فلا ينبس أبدًا. وفي صمت القهر هذا تفيض روحه. وبعد ساعتين يكتشفون "الفاعل"، فيقومون بتسليم الجثمان لأبيه، معتذرين له: عن الخطأ في الظنّ، وعن خطأ آخر في تقديرهم مدى تحمّله لما يمارسون عليه!

وفي ذلك همس في أذني، بعد الأمسية، رئيس الفرع أستاذُنا خليل الهنداوي، بأنّ هذه القصة هي أجرأ ما قُدّم في الاتحاد، و... "الله يستر"! وأما صديقي جورج، فقد لاحَظ بحقّ أن أسلوب السرد بدا له متفاوتا فنيّا ما بين نصفيها الأول والثاني، ومردّ الأمر عندي إلى اختلاف المكان (حياة الفتى اليومية، ثمّ وقوعه بين أيديهم)، وإلى اختلاف الزمان (رُكنت القصة عندي سنوات أربعا وزيادة)

لم يتح لي أن أعرف مصير القصة نشرًا في تلك المجلة. ولكني تلقيت، عبر اتحاد الكتاب، أنّ جهة نشرية في موسكو قد اختارت قصتي هذه مع قصص سورية أخرى لنشرها في كتاب باللغة الروسية، وهم يسألونني الموافقة. بعدئذ قرأت في إحدى دورياتنا السورية تقريظا للكتاب الموعود يعرّف بكلّ من القصص الأربع عشرة التي ضمّها بين دفّتيه، ومنها قصتي التي شاؤوا أن يعدّلوا اسمها إلى "الصمت الذي لا يُقهر".

ثمّ إنه اتفق لي أن سافرت إلى موسكو موفَدًا من اتحادنا ونزيلا على "اتحاد الكتّاب السوفيات". وتُعلِمني المرافِقة "أولغا" أنّ المستشرق "فلاديمير شاغال" يريد مقابلتي. في

اللقاء حول مائدة في مطعم "فندق بكين"، أعلمُ منه أنه هو مَن اختار القصص السورية لذاك الكتاب، وتولى الإشراف على ترجمتها، وأيضًا أنّ أساتذة الأدب العربي في "معهد الدراسات الاستشراقية" الذي يعمل فيه، يودّون الاجتماع بي عندهم. ثمّ وجدتني بين عدد من الأساتذة في قاعة بذاك المعهد، وكانوا قد قرؤوا لتوهم قصتي التي نشروا.

كنت أتحدث إليهم بالفصحى، لا أجنح في ذلك إلى العاميّة (فهذه "لغة" أخرى لا "يفهمونها"). يسألون وأجيب. لم يَطُل مكوث "صديقي" فلاديمير شاغال بيننا، كان عليه أن يلقي محاضرة أمام طلابه، غاب ساعة وعاد!

في غيابه أو في حضوره، تراءى للبروفسورة "فاليريا" أستاذة الأدب المصري، أن تسألني عن مكانة الأدب المصري، اليوم، بين الآداب العربية الأخرى. فأجبت أنّ ما كان يصدر عن مصر في بدايات عصر نهضتنا حتى منتصف القرن العشرين ويعمّ الأقطار، قد تغيّرت فيه اليوم الأحوال، فقد أصبح في كل عاصمة من عواصم العرب دُورٌ للنشر تُعنى بتقديم إبداع الكتّاب في مجتمعاتهم، وأمسى بذلك الأدب المصري مواكِبًا للإبداعات العربية وليس متفرّدًا بينها. ولحظة خرجت، وفيما أنا عند الباب، صافحتني البروفسورة واحتضنت يدي في صدرها تقول من الكلام ما يؤكد حبّها للأدب المصري وتمنّيها أن يكون سيّدا (تفصيل هذا اللقاء يرد في فصل من فصول مخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، في أدب الرحلات").

في طريق عودتي كنت أفكر مليًّا، في دواعي اختيارهم لهذه القصة من بين قصصي المنشورة، وفي تغييرهم عنوانها الذي اتخذوا منه عنوانا للكتاب مقرونًا بلوحة تمثّل "الأب العربي" -كما تخيّله رسامهم- وهو يتلمّس بيده وجه ولده! وانتهيت إلى أننا جميعًا نعاني.. ويُفرَض علينا التواري.. خلف صمت.. رأوا أنه لا يُقهر!

كانت زيارتي للسوفيات في شهر كانون الأول ١٩٨٣. وبعد سنوات ستّ كان الانهيار العظيم.

وقصة "الصمت والموت" غدت بعد عشر سنين إحدى القصص التي ضمّتها مجموعتي "الألم على نار هادئة"، تلطفت بنشرها وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٥ بعنوان "الألم على نار هادئة"، وقد أعدتُ نشر هذا الكتاب في الدار التي استحدثتُها لنفسي (إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع) بدمشق، ط٢ ١٩٩٠، ط٣ ٢٠٠٢

دمشق الشام: ليل السبت ١٦-١١-٢٠١٩

"شَغِّلْ الكير، يا صبي!"

في الأخبار اليوم أنّ السفير الأمريكي الأسبق في العراق، رايان كروكر، قال: إن لم تبرز قيادة للاحتجاجات في إيران فسوف تتمكن قوات الأمن من قمعها.

وكنت قرأت في التاريخ الأندلسي أنه لما وقع "هَيْجٌ" (انتفاضة، اضطرابات، احتجاجات، ثورة، في مصطلحنا اليوم) في حاضرة قرطبة، قبل ألف من السنين أو يزيد، فأنّ شيخًا من العامة، حَدّادًا، كان جالسًا على كيره يعالج صنعته (والكير هو جهاز من الجلد يستخدمه الحدّاد للنفخ في النار لإلهابها)، سمع بالهَيج...

فسأل: "ما بال الناس؟"،

قالوا: "قامت العامّة على السلطان"!،

فقال: "لَهُم رأس؟"،

قالوا: "لا".

فقال مخاطبًا أجيره: "شغّلَ الكير، يا صبي! "، واستأنف العمل.

تقول الرواية: وذهبت مثلاً.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ١٩-١١-٢٠١٩

شامة.. ليست كالشامات

... وتظهر في مواضع من الجسد شامات، كانت تتكاثر متناثرةً على الظهر خاصة ويتزايد بعضها مع الأيام حجما. مرة أزالتْها "طبيبة الجلدية"، بأن كانت تحقن حول كل واحدة شيئًا مما يخفف الألم وتسرع بإزالتها بمِكْشَط أشبه بموسى حلاقة!

لكن ما بال هذه الشامات تتبدّى في صفحة وجهه، قي الصُّدْغ هنا وهناك! يُزيلها.. إلا أنّ تلك، في أعلى الجبين قريبا من منبت الشعر، بدت مُعنّدة، أزالتها الطبيبة مرة فعادت، فجعلت تداويها بالمراهم مُحاذِرة، فلما استعصى الأمر نصحته بالجراحة، فآخر المداواة الكيّ!

عايَنَها الطبيب الجراح، وسأله، سألني، أن أحدّد يوما لإجراء الجراحة، فقلت: هل يمكن الآن؟ وكانت جراحة بسيطة، فتَحَ، وجرّف، وخاط خمس قُطب، وخزعةٌ أرسلت إلى مختبر للتأكد من السلامة.

وجاء الجواب مُلتبِسًا، تارة أنّ النتيجة إيجابية وأخرى يغمغمون! وأشاروا بالمعالجة الليزرية.

اليوم صباحا كانت الجلسة الأولى. توجّهت -برفقة صديق صدوق- إلى "مستشفى البِيْرُوني"، الذي يَحوز أرقى أجهزة المعالجة الليزرية مقدّمة من منظمة الصحة العالمية. دخلتُ. أخذوا يرسمون بقلم أزرق المداد دائرة حول موضع الشامة التي كانت. لم يفارقني ولعي بالمزاح، سألت المُداوي: "ابنتي فنانة تشكيلية، إن احتاج الأمر تأتي وترسم! "، يؤسفني أنه

أجاب بجِدّية: "لا حاجة"، وأحسست أنه يَخِزُ بالإبرة ما حول الدائرة التي رَسَم... ثم قادوني، عبر سِرْداب مُحكَم، إلى حيث جهازٌ ضخم معلق، اضطجعت تحته على فراش غير وثير، وتلقّت الدائرةُ الأشعة.

وبات عليّ أن أتوجّه إليهم يوميا لمدة ثلاثة أسابيع.

وفي أثناء ذلك، أيها الأصدقاء، أتابع مداواة العينين، وأوجاع الظهر.. والقلمُ في يدي، أعالج به أوجاع القهر.. حتى آخر لحظة من عمر أعرف أنه يدنو.

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٤-١١-٢٠١٩

كان شكري القوتلي

كان شكري القوتلي لا يتناول راتب الرئاسة ويردّه إلى خزانة الدولة

ومرة علم الرئيس هاشم الأتاسي أنّ بعض أهله القادمين إليه من البلد قد استعملوا سيارة القصر في نزهة إلى "الربوة"، فأعادهم فورًا إلى حمص.

ونعرف أن ناظم القدسي كان ينزل من قصر المهاجرين إلى جامع الروضة ليؤدي صلاة الفجر مشيًا على القدمين

فما بال المسؤولين في أيامنا؟

يَنصِب أحدهم على رصيف بيته غرفةً من خشب تتسع لخمسة من حُرّاسه الأشداء، يتسامع المارون قرقعة شَفْطِهم المتّة،

ويبني آخر على شاطئ "نهر تورا" مولّد كهربا يترامى صوت شخيره عند التشغيل حتى الجادة السابعة في مرتفعات المهاجرين؟

ثمّ يأتيني صديقٌ مغاربي (من الجزائر) هو بمنزلة أستاذ في جامعة، طيّوب، يقول لي عاتبًا:

لماذا قمتم يا أهل الشام على النظام وهو يتأهّب لتحرير الأراضي المغتصبة!

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٢٥-١١-٢٠١٩

ما حدث أمام الصراف الآلي

زارني صديقي مساء اليوم ليقصّ عليّ ما وقع له عندما ذهب ليَقبِض راتبه عن الشهر القادم.. قال:

- - - - - - - - - - -

رأيت الناس على الرصيف صفًا طويلاً على غير العادة، أقبلوا فرحين ليقبضوا رواتبهم مع الزيادة، وشرطيًا جيء به ليحفظ النظام. انتظرت ثلاثة أرباع الساعة حتى لم يبق أمامي سوى سيدتين اثنتين.

في هذه اللحظة جاء رجل، تُميّزه قامة ممشوقة وأناقة ملحوظة وشعر مسترسل يدلّ على أنه فنان، تقدّم -متجاوزًا الدور- إلى الشرطي وهمس في أذنه: "أنا صحفي"، ومدّ يده بالبطاقة إلى "الصرّاف الآلي" ليقبض!

ساءتني هاتان الكلمتان يتلقاهما سمعي، فرفعتُ صوتي مخاطبًا الناس المنتظمين في الدور أقول بجرأة لم أعرفها في نفسي:

ـ اسمعوا يا جماعة، الأخ صحفي يأخذ دورنا، وغداً يكتب في صحيفته أنه رأى الناس أمام الصراف الآلي يتجاوزون الدور!

فردّ "الصحفي": أنا ما عم أحكي معك!

قلت: لكني أنا عم أحكي معك!

واستدار، وأخرج من جيبه بطاقة ما، أطْلعَ الشرطي عليها، ثمّ ناوله بطاقة الصرف، ولما وصل المبلغ ليده سحب منه ورقة نقدية يقدمها لحارس النظام.. هذا الذي اعتذر عن قبولها!

يتابع صديقي: بعد أن قبَضت السيدتان وقبَضت، رأيت "الصحفي" في رأس الشارع، وكأنه ينتظرني!

استوقفني ليقول لي: أنت أحرجتني أمام الناس، لم أكن أستطيع أن أقول إني "مصور في القصر".

واتتني الجرأة، قلت: أظن أنّ القصر لا يرضى لك أن تتجاوز الدور.

قال: أنا مستعجل.

قلت: كل الواقفين مستعجلون.

وختم صديقي حديثه بأنه لاحظ في صوت الرجل ما اعتقد أنه.. الخجل!

- - - - -

قلت له: كان هذا منك موقفًا جريئًا لم تحدثني بمثله من قبل.

أجابني: تشجّعت من خلال قراءتي لمنشوراتك!

فقلت: حماك الله.. وحماني.

دمشق الشام: ليل الخميس ٢٨-١١-٢٠١٩

يا ظلامَ السجن خَيِّم..

في المدوّنات الوطنية أيام الانتداب الفرنسي.. ورد أنّ زعماء سورية المعتقلين في جزيرة "أرواد" (على الساحل السوري) أيام الثورة السورية الكبرى (من ٢٥-١٩٢٧)، كانوا يُنشدون

القصيدة التي عمّت الآفاق في بلاد الشام:

يا ظَلامَ السجن خَيِّمْ إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الظلم إلا نورُ فجرٍ يتسامى

وكان إنشادهم لها يزيدهم صبرًا على المعاناة وقوةً على الصمود.

أقول: يخطر لي الآن أن أتصور لو أن سجناء الرأي اليوم أنشدوها وهم في المعتقلات.. فماذا يمكن أن يكون؟

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٤-١٢-٢٠١٩

حيّا الله شعبَ العراق

في خمسينيّات القرن الماضي، وأنا أتردّد على بيروت لنشر أعمالي الأدبية الأولى..

كنت أسمع الناشرين اللبنانيين يُشيدون بالعراقيين بأنهم أكثر العرب قراءةً، فإنّ أيّ واحد من الناشرين كان، إمّا أصدر كتابا، يبادر لأن يُرسل كمية منه متفقًا عليها مقدَّمًا، إلى "مكتبة المُثنّى" ببغداد.

وذلك ما لم يكن واردًا في التعامل مع أي من المكتبات في العواصم العربية الأخرى.

حيّا الله شعبَ العراق،

القارئَ المثقف،

الذي لا يَغُضّ الطرفَ عن انتمائه إلى العروبة المؤثّلة.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٤-١٢-٢٠١٩

أقول لأحدهم:

ومع كل هذه المناصب، التي أهّله لها انتماؤه الحزبي.. هو في النقد مُتَجَنٍّ وقليلُ إنصاف، وخصوصًا للذين لا ينتمون لفصيله!

وأنا... أرهقوني بالإقصاء، فمع أني من الأعضاء الذين أسسوا، فإن الاتحاد لاحقًا لم يرشحني لعضوية أي مؤتمر أدبي لا في الداخل ولا في الخارج، لا ولم يَنشر من أعمالي كتابًا واحدًا، وحين أصروا مرة على رفض أحدها نُشر وراء الحدود مرة ومرات، ثم تأتّى له أن يكون إصداره الخامس بالفرنسية في باريس.

تُرجم بعض أدبي إلى بضع عشرة لغة، وما تزال تُعد عن أعمالي أطروحات ماجستير ودكتوراه خارج حدود الوطن من قبل عرب وأجانب، آخرها هذه الأيام: بالقاهرة (ماجستير) وفي إسطنبول (دكتوراه).

لعلمك، إني من مواليد حلب ١٩٢٩، أصْل أسرتي من حمص، والأصل الأبعد من المغرب، مسلم سني، تَزعم أسرتي الانتماء نسبًا إلى "سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب". لم أدرس الأدب المقارن في كامبرج، بل الحقوق بجامعة القاهرة، وتربّيت على الحق والإنصاف والأدب، والوقوف في أدبي كله في صفّ المقهورين والجياع دون جعجعة يسارية.

ليس كل ما يلمع ذهبا، يا صاحبي، وليس بالمناصب (التي تذلّلها الأنظمة لأعوانها) يُقيَّم الرجال!

دمشق الشام: فجر الخميس ٥-١٢-٢٠١٩

عندما يُزري ناقدٌ أدبي من المُوالين

عندما يُزري "ناقدٌ أدبي" من المُوالين، برواية ألفها كاتب غير موال، أحبّ الناسُ

شخوصَها المنسولةَ من واقعهم الحميم، وقد طُبعت في كتاب من أربعمئة صفحة مرة ومرات، ودارت حولها أطروحات في بعض جامعات العالم، وتحوّلت لاحقًا إلى مسلسل تلفزيوني بثّته الفضائيات العربية... قائلاً:

"إنّ معظم شخصيات هذه الرواية -إن لم نقل كلّها- مسطّحة، رخوة، غير متشكلة.. وذلك نتيجة لعزوف الكاتب عن التعمّق في نفوس أشخاصه".. و"الرواية تعاني من الكساح".. و"شخصياتها من ورق"!!

فإنّ هذا الناقد يضع نفسه في "خانة التشبيح الأدبي" قبل ظهور "الشبّيحة" للوجود بكثير من السنين!

ولا يَشفع له أنه خريج جامعةٍ بريطانية أو أمريكية، ولا تنقّله بين المناصب الأدبية والسياسية.. فإنّ ضعف تذوّقه للنصوص الإبداعية، مقرونًا بلؤم التجنّي وبؤس التحيّز وغياب الإنصاف.. تُفضي هذه كلّها به إلى حيث يعرف الفضلاءُ من أهل العلم والأدب.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٦-١٢-٢٠١٩

صديقي.. سائق التكسي

توجّهت مساء هذا اليوم المطير، إلى "مشفى البِيروني" لتلقي دفعة جديدة من المعالجة الليزرية في فروة الرأس. وخرجت كالمنهك، ومشيت داخل "مجمّع المواساة الطبي" مسافة تحت رذاذ المطر. وفي الساحة لم أتمكّن من تبيّن سيارات الأجرة الخالية، سألت شرطي المرور، فاستوقف لي واحدة.

هل أقول إنّ من حسن حظي أنّ سائق هذا التكسي كان ثرثارًا لطيفًا؟ سألني: حجّي،

أنت من وين؟ (ثم) شو بتشتغل؟

قلت: كاتب (وأضفت زيادة في التعريف) وصحفي.. ولم أقل إني أكتب وأنا في صفوف المعارضة، فقد لاحظت أنّ لهجته "ساحليّة"!

ثمّ قال بنبرة عالية: بردان؟ أشغّل المكيّف؟

أجبت: دفيان.

استوقفَنا أحدُهم أن يصعد معنا حتى أول طلعة "قاسيون"، وعلى ذراعه ربطتا "خبز" طازج فاحت رائحته، فاشتهيت على نصف رغيف أرشّ عليه الزيت والزعتر الحلبي.. ثمّ وجدتني أقول: أرخص شيء هذه الأيام الخبز والسكر!

قال: لكن السكر غلي مع ارتفاع الدولار!

قلت: أنت تقرقع مَتّة؟

قال: كتير.

وسألني: حجّي، عندي مشكلة أريد منك حلّها!

فخشيت أن يستطرد في الحديث، فاعتذرت: أنا سمعي ضعيف ومزاجي الآن ليس على ما يرام.

قال بإصرار: لا أصدّق أنو طلع معي راكب بيشتغل كاتب.. مشكلتي إني بحبّ الشعر لكن لا أحفظ الأشعار!

وروى لي ثلاثة أبيات من نظمه، غير موزونة و......، يتحدّث فيها عن حبّه لفتاة ويتساءل كيف يمنحها ثقته!

في هذه اللحظة ناوله الراكب الإضافي من وراء نصف رغيف ولي النصف الآخر، فجعل

يأكل وسألني لمَ لا آكل خبزتي؟

قلت: أدّخرها للبيت.. زيت وزعتر وكاسة شاي!

قال: اللللله! أنت رجل شعبي رغم مظهرك.

ثمّ ألوى عليّ طالبًا الحلّ لمشكلته.

قلت: وضعك غريب، مَن ينظم الشعر يفترض أنه يحفظ الأشعار. وإنّ مِن الشعراء مَن يحفظ كل ما نظم، وبعضهم يحفظون ديوان المتنبي وأشعار أبي العلاء!

قال: هلّق أنا شو الحل معي؟

قلت مازحًا: عليك "بطبيب نفسي"! (وأضفت) تعرف أنّ حديثك جدير بأن أكتبه الليلة مقالة وأنشرها غدًا في جريدة؟ هيّا اكتبْ لي الأبيات الثلاثة.

فكأنه ظنّ أني سأنسبها إلى نفسي، قال: لا والله، شعر تعبت عليه!

وتركني صديقي سائق التكسي أمام باب بيتي، ودخلت أُعدّ من الخبزة عروسة زيت وزعتر مع زيتون وكاسة شاي.

دمشق الشام: ليل الأحد ٨-١٢-٢٠١٩

هل التمتُّع بالفنّ شأنٌ برجوازي؟

بعد انتقالي موظفًا من حلب إلى دمشق عام ١٩٦٦

اتفق أن زارني في بيتي الدمشقي، المستأجَر، صحفيٌّ يَدين باليسار مذهبًا له في الحياة، كنت قد تعرّفت عليه في يومي ذاك.

فلما رأى غرفة الاستقبال مرتّبة، وعلى جدرانها لوحات من إبداع الفنان الشاب لؤي كيالي

(شقيق زوجتي).. رأيته يتكلّف أن يأخذ نفسًا عميقًا ثمّ يقول بملء رئتيه:

ـ أشمّ "رائحة برجوازية"!

فرأيت قوله صفعةً لما يَدين به من "أفكار تقدّمية".

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ١٠-١٢-٢٠١٩

يقع في بلد منكوب.. اسمه سورية!

عندما نقرأ في تقرير لوزارة الخارجية الألمانية نشرته مجلة دير شبيغل، من أن سورية اليوم "بلد غير آمن، وبالتالي فإنّ إعادة لاجئين إليه هو أمر غير ممكن حاليًّا"، وبتسريب للأرقام نعرف:

- أنّ نحو ستة ملايين لاجئ خارج سورية،
- وأنّ مثلهم نازحون من منازلهم داخل الوطن،
- وأن ٧٠٪ من المواطنين يعيشون في فقر مُدقع (دولارين كل يوم(،
- وأن هناك ١٤٤ ألف معتقل، منهم ١٧ ألف ماتوا تحت التعذيب.....

فإنّ من حق المواطن السوري، مثقّفًا كان أو متعلّمًا أو أميًّا، و "للمواطن العالمي الإنساني" أيضا، أن يتساءلوا: لماذا يقع هذا كله في دولة ما يزال النظام فيها يتغنى بأنها "مهد الحضارات"؟

دمشق الشام: ضحى الخميس ١٢-١٢-٢٠١٩

منذ المدّ القومي العربي

منذ المدّ القومي العربي مطلعَ القرن العشرين في بلاد الشام، كردّة فعل لسياسة "ااالتتريك" التي انتهجها غُلاة الترك (وليس العثمانيين) متأثرين بما كان قد تصاعد في مناطق من أوربا..

وفئةٌ منّا، في بلاد الشام خاصة، تحاول أن تُعلي من شأن قيمة "العروبة" أملاً في أن تُحِلّها محلّ "الإسلام"، وأتيح لهم أن يحققوا بعض النجاح، الذي أجهزت عليه حرب الـ٦٧ الملتبِسة.

ولنلاحظ أن هذا المدّ القومي لم يبلغ أسماع وقلوب المصريين وأهل الشمال الإفريقي. وقد رأيت "النخبة" المصرية بعد "حركة الضباط الأحرار" وكأنها فوجئت به، فتبنّته عن غير قناعة كافية توسيعًا لنفوذ كان متاحًا لعبد الناصر، الذي أراه لا يملك من "الثقافة السياسية" إلا حرصَه على تأسيس حكمه وَفْقَ منهج الديكتاتورية التي شاعت من يومئذ على يد العسكريتاريا وتغوّلت في بعض الأقطار.

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ١٧-١٢-٢٠١٩

"السبع الأشهب".. رواية بقلم أخي نادر السباعي

شاء أبي "أبو السعود" أن تكون له زوجتان، تُكنى الأولى "بأم فاضل" والثانية "بأم نادر"، وفارق السن بين الابنين إحدى عشرة سنة.

من ناحيتي بدأت الكتابة وأنا على مقاعد الدراسة الإعدادية، الشعر والنثر والنشر، وتأخر في ذلك أخي فبدأ الكتابة والإبداع وهو في الثلاثينيات من عمره، أصدر مجموعتين قصصيتين "عيون من زجاج" و"الغابة النائمة" (التي ترجمت إلى الفرنسية ونشرت في باريس عام ٢٠٠٢)، وقد أبدع في أواخر التسعينيات رواية سمّاها "السَّبع الأشهب" حازت إحدى الجوائز المتاحة في دول الخليج.

غادرَنا أخي الأصغر "نادر" عام ٢٠٠٩ (عن ٦٩ عامًا)، وكان قد افتتح دارا للنشر بحلب سماها "دار الإنماء العربي" بمشاركة مع ابن عمّتنا الكاتب المفكر الدكتور منذر عياشي قبل أن يستقلّ أخي بها لانشغال منذر في التعليم العالي بجامعة البحرين.

مما نُشر عن نتاج أخي دراسة أدبية كتبها بإبداع الدكتور حلمي محمد القاعود في مصر (رئيس قسم البلاغة بجامعة طنطا)، ونشرَها في حينه بجريدة "الأهرام" القاهرية بتاريخ....... رأيتها أمس منشورة في صفحة الدكتور القاعود، فأتيت بها، وأقول: لا شيء يُخلّد الإنسان بعد رحيله مثل الإبداع.

رحم الله المبدع أخي نادر السباعي، وأمدّ الله في عمر أديبنا الكبير حلمي القاعود، الذي أراه -من قبل ومن بعد- أكثر من عرفت من الكتّاب عِصاميةً ونجاحًا متألقًا.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٨-١٢-٢٠١٩

- - - - - - - - - - -

نادر السباعي ورواية السبع الأشهب.. تجليات الذاكرة

بقلم أ. د. حلمي محمد القاعود

نادر السباعي ناشر من سورية الشقيقة، ومن حلب تحديدًا يُخاطب القراء العرب في كل مكان بمنشوراته الأدبية والثقافية، ويكتُب أحيانًا بعض الموضوعات النقدية، ولكنه فاجأنا مؤخرًا بتقديم رواية جيدة تحمل هذا العنوان، يَستخدم فيها بناءً روائيًّا متميزًا يعتمد على الرسائل المتبادلة بين كاتب الرواية وفتاتين طالبتين تعيشان بعيدًا عن العاصمة على حافَة الصحراء أو في قلبها. ويعمد الكاتب الذي يعيش في حلب إلى التخييل، محاولًا إقناع القارئ أنه مجرد صانع للرواية من خلال استخدام مصطلحات نقدية معاصرة، ومن خلال حديث مباشر إلى الفتاة التي يكتب إليها حول البناء الروائي، فضلاً عن بعض الاقتباسات من الكتب القديمة والمعاصرة مثل "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمن الكواكبي، و"هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه، و"الإنياذة" لفرجيل، و"رحلة إلى جمهورية النظرية" لعبد الله

الغذامي، ورواية "لقاء مع الجنرال" لجراهام جرين، ورواية "المخطوط القرمزي" للكاتب الإسباني أنطونيو غالا.

هذا التخييل الذي يُقنع القارئ أنه يصنع رواية مشتركة مع الكاتب يؤدي دورا في تصنيف الرواية، التى تستدعي التاريخ، بطريقة منتقاة، تشمل مراحل التاريخ الإسلامي منذ فجر الدعوة حتى سقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. والسؤال هو: هل هذه رواية تاريخية أم رواية سيرة ذاتية؟، أم أنها تمزج بين الجنسين التاريخ والسيرة؟

إن الكاتب/ الراوي يتلقى رسالة من فتاة اسمها "وردة" يصفها بصفات عديدة معظمها يعود إلى المكان الذي تسكنه أو تقيم فيه، وتعبر وردة عن اعجابها بما يكتبه الكاتب/ الراوي، وتستحثه على المزيد من الكتابة، فيحكي لها عن نفسه وظروفه وما يعانيه في حياته الزوجية وطلاقه من امرأته، ومشكلات الأولاد بعد الطلاق، كما يحكي لها عن الحياة الثقافية ومفاسدها، وما يعانيه من بعض زملائه في الوسط الصحفي، ومؤامراتهم التي جعلته بلا عمل بعد حصار لمقالاته وكتاباته، ويحدّثها عن صديقه العائد من باريس، التي ذهب إليها ليدرس الدكتوراة، فعاد ليجد نفسه بلا عمل أيضًا، لأن هناك من يقف حائلاً دون الاستفادة بالكفاءات حسدًا أو أنانية أو بيروقراطية. وتشارك وردة صديقة لها، اسمها "نسرين" -لاحظ المشترك المعنوي بين الاسمين- تكتب إليه متأثرة بصديقتها، ولا يتوانى الكاتب/ الراوي عن الكتابة للصديقتين، حيث صارت رسائله إليهما مثار اهتمام عائلي، ويتجمع أفراد العائلة لقراءة ما يكتبه الكاتب/ الراوي ومتابعته، حتى إن والد "وردة" الذي صار وزيرًا مرموقًا وانتقل إلى العاصمة يتحول إلى قارئ شغوف لرسائل الكاتب/ الراوي، بعد أن كان في أول الأمر رافضًا لأن تكتب ابنته إلى رجل لا تعرفه.. وفي هذا الإطار العام للرسائل المتبادلة بين وردة ونسرين

من جهة، والكاتب/ الراوي من جهة أخرى، تقرأ التاريخ الذي يدور حول شخصية الجد الأكبر الذي تحمل الرواية اسمه وهو "السبع الأشهب" -لاحظ المادة المشتركة بين "السبع" و"السباعى" اسم عائلة المؤلف- وهو شخصية غير عادية تختفي من المنزل لتُشارك في الحرب العالمية الأولى تحت راية الخليفة العثماني، ولكنه يترك الجيش ويهرب إلى مصر بعد اكتشاف الخديعة التركية(!!)، وينضم إلى القوات العربية المُحاربة مع الحلفاء سعيًا لاستقلال العرب، وبعد انهيار الحلم وعودة الحلفاء إلى البلاد العربية مستعمرين ومحتلين، يعود السبع الأشهب مُنكسرا إلى حلب، ليجد امرأته قد فقدت أحدَ ولديها التوأم، فيعيش، في حزن عظيم!

وإذا كانت قصة الجد "السبع الأشهب" تمثل الخيط الذي ينتظم رسائل الرواية، عبر تسعة وأربعين فصلاً، فإن استدعاء التاريخ أو "تجليات الذاكرة" -كما يُسميها الكاتب في عنوان روايته- يبدأ منذ قصة الصوفية أو أهل الصفة من الصحابة الزهاد الذين عاشوا بالقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي، وما طرأ على الصوفية في القرون التالية من دَخَلٍ وضلال وزيغ ودروشة. ثم نطالع بشيء من التركيز والاهتمام حديثًا مسهَبًا عن الأندلس وسقوط غرناطة، وصراع الحكام العرب حتى استطاع الصليبيون دَحْرهم وإخراجهم من الأندلس تمامًا، وتستعيد الرواية سيرة عبد الرحمن الكواكبي والمجاهدين في زمانه من أجل الحرية ومحاربة الاستبداد، وترسم صورة لأبطال عاشوا ورحلوا سعيا لحلم الحرية والانعتاق من رِبْقة الضعف والهزيمة في العصر الحديث، وزمن الحروب الصليبية على السواء.

ولا ريب أن الرواية وهي تستدعي التاريخ، أو تجلو الذاكرة، فإنها تعزف على وتر الواقع المشابه الذي يَغَصّ بالقهر والأحزان، والقيود والهزائم، أبسطها ما يسرده الكاتب/ الراوي عما يلاقيه من عناء وحِصار.. وكأن الرواية تعقد مقارنة ضمنية بين ما كان وما هو كائن، وتحذّر وتنبه إلى أسباب الخيبات والمحن التي تمرّ بها الأمة.

ومن ثم يمكن القول إن رواية "السبع الأشهب" تمزج بين استدعاء التاريخ والسيرة الذاتية، حيث يحضر التاريخ والمؤلف حضورا واضحا، حتى لو توسلت الرواية أحيانًا بجو الأسطورة لتصنع "السبع الأشهب" في صورة مَن يخترق الحجب، ويتجاوز المألوف، ويرحل في غموض، ويعود دون مقدمات.

تحتفي الرواية –وهي الأولى للكاتب– بالصياغة حفاوة ملحوظة، فاللغة عربية فصيحة، تَشِفّ وترقى في العديد من المواضع، وتندر فيها أخطاء النحو، وتستفيد بمعطيات العصر، والفنون الأخرى في تشكيل المشاهد والحوار والاسترجاع والشعر والتناص، أضف إلى ذلك أناقة تعبيرية تُشبه أناقة ما يكتبة الشقيق الأكبر للكاتب وهو الأستاذ "فاضل السباعي" الروائي المعروف، وتمتد هذه الأناقة لتشمل ترتيب الجمل والعبارات والفقرات وعلامات الترقيم، فضلا عن إخراج الرواية طباعة ورسماً في صورة جميلة أنيقة.

بالأمس وأنا بين يدي طبيبة العيون

بالأمس وأنا بين يدي طبيبة العيون الدكتورة جودي في "العيادات العينية" بمشفى المواساة، تُصوِّر لي "الشبكية" لتتأكد ممّا تحقق لي من تقدّم.

رأيت –مثلما لاحظت في المرات الماضية– أنّ طلاب الدراسات العليا في طب العيون، بناتٍ وشبابًا.. كلهم يتّسمون بالأناقة، والملاحة، والسماحة!

ولحظة دخلنا المصعد مغادرين الطابق الثالث، اتفق أن كانت فيه ثلاثٌ من هؤلاء الطالبات.. فلم أتمالك نفسي من التصريح:

ـ أسألُ ما إذا كانت "كلية الطبّ" تختار للدراسات العليا الأجمل بين الطالبات، أم أن ذلك يأتي تلقائيًّا لأنّ الكلّ جميل!

والتمعت في العيون إشراقة.. تابعت:

ـ أشهد أن الناس في بلاد الشام هم الأجمل، وهم الأذكى والأكثر لطفًا وظَرفًا.. ولذلك أرادوا أن يدمّروا "مهد الحضارات" تدميرًا!

فرأيت إشراقة العيون تغيب.. فأخذت أغمغم: وهأنذا دون قصد أدخل في.. السياسة!

دمشق الشام: فجر الخميس ١٩-١٢-٢٠١٩

"عندك عصير جزر؟"

كانت ابنتي تروي لنا وهي طفلة في الروضة هذه النكتة ولا نملّ من سماعها:

أرنب صغير كان يسكن بحوار دكان قصاب (لحام، جزار).

ذهب إليه يوما وسأله: عندك عصير جزر؟

قال القصاب: لا، أنا بياع لحمة لا أبيع عصير جزر!

قال أرنوب الصغير: طيب، ومضى.

جاءه في اليوم الثاني وسأله: عندك عصير جزر؟

قال القصاب: قلت لك أمس أني لا أبيع عصير جزر!

فقال أرنوب: طيب، ومضى.

في اليوم التالي جاءه وسأله نفس السؤال. فأمسك به القصاب من رقبته وبالساطور ضربه على أسنانه!

وعاد أرنوب إلى بيته مكسّر الأسنان.

وفي اليوم الذي يليه جاء إلى القصاب وسأله: عندك عثير ذذر!

لم نعد نضحك للنكتة التي بتنا نعرف مضمونها جيدًا، ولكن كان يلذّ لنا سماعُها بنطق الطفولة.

وللنكتة دلالتها السيكولوجية: التكرار بسبب النسيان والإصرار على الموقف حتى بعد تلقّي الأذى.

ابنتي راوية النكتة قبل خمسين سنة.. تمارس اليوم الفن التشكيلي باقتدار. خلود. معجب أبوها بفنها.

دمشق الشام: عصر السبت ٢١-١٢-٢٠١٩

تابع لـ "الماردلّيّة الجميلة"

كل ما ورد في كلمتك مقبول.. إلا لفظة "التشفيّ"

أعترف لك، يا صديقي، أني ظللت أبحث دون جدوى في المصادر المتاحة عن تعريف للفظة "الماردلّ" الحلبية (وفيها شيء من "التبخيس" البغيض)، حتى "الأسدي م. خير الدين" أغفلها في موسوعته المقارنة عن حلب.

الآن أتأكد أنّ مَن رصدت حالهم في منشوري هم من فقراء الأكراد من تلك المنطقة التي وصفتُها بأنها بعض "ريف ماردين"، فهؤلاء الفئة القليلة، التي قُدّر لها أن تسكن بيوتًا متهدمة في حلب بُعيد ١٩١٥، هم من "البروليتاريا الرثّة" الكردية.

ولا أريدك أن تستاء مرة أخرى من هذا المصطلح، فإنّ في كل شعب، في كل مجتمع، أمشاجًا من ذلك، ليس من البروليتاريا هذه فقط لكن من السفهاء والبغاة والشبيحة

والشّلكّات[٧٠] والقَوّادات أيضًا.. فإن ذكرنا ورصدنا فإنه لا يكون من حق أحد أن يدع التعصب يسرع إلى قلبه، والغضب!

أنا أؤرّخ، أرصد بشفافيّة، أطمح لأن أكون "شاهد عصر...

هل تعرف أنت وأنا ما يفعل أناسٌ منّا هناك في ديار الهجرة؟

بعض من ينتمون لنا، في أمريكا مثلاً، يتخصصون في أعمال منحطة، ليس أولها الحصول على حبوب المخدر من الصيدليات بطرق ملتوية والمتاجرة بها، ولا أعرف إلى أين يصلون في سلوكهم المشين.

لا أحد من أبناء الأمم منزّه، يا صديقي.

لو تحذف كلمة "التشفي" من بين مفرداتك، فهي عندي أكثر إيلامًا.

ظهيرة الثلاثاء ٢٤-١٢-٢٠١٩.

انتابني سويعة الفجر أرق

انتابني سويعة الفجر أرق،

فنهضت أُعدّ فنجان قهوتي قبل أن يُدركني قطع الكهرباء في صباحيّة حارتي.

استعجلت في صَبّ الحليب، والرفع فوق النار، وتحضير الكعك والتمرات الثلاث.. محاذِرًا أن يفاجئني الانقطاع فأعمل في الظلام!

ولما جلست والكأس في يدي، أخذت أفكر:

ما النظام الذي مضى عليه يحكمنا خمسون سنة؟ وما آن له أن يملأ بيوتنا بنور الكهرباء..

---

(٧٠) الموسات.

على حين امتلأت.. هناك.. جيوب!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٥-١٢-٢٠١٩

عندما تنقطع الكهرباء

عندما تنقطع الكهرباء ألتجئ إلى السرير.

منعتني أمطار اليوم من أن أخلو للحديقة متدثرًا بسميك الملابس.

لا أحد قرع بابي اليوم، وهاتفي أصيب بالخَرَس.

أختار وجبة طعامي من البرّاد.

وساعة تأتي الكهرباء أجلس أمام الشاشة العريضة.. أغازلها، فتغنّي لي...

كل عيد ميلاد وأنتم بخير

دمشق الشام: الخميس ٢٦-١٢-٢٠١٩

أمّ صغيرة شجاعة

بروكار برس – فاضل السباعي

كان زوجها قد سبقها عائدًا إلى دمشق مجتازًا طريق السفر الرسمي مثلما كان دخل قبل ثلاث سنين إلى هذا القطر المجاور لبنان، وكان عليها أن تلحق به لدمشق "تهريبًا" كما جاءت إليه تهريبًا. أقلَّتْها في عتمة الليل سيارةٌ من بيروت إلى بلدة قريبة من الحدود، كانوا هناك ينتظرونهم بعيدًا عن أعين "الأمن"، ثمّ أخذوهم متفرّقين إلى أمكنة أكثر ظلمة، في ليلة كانت تصافح الوجوهَ أنسامٌ تُنبئ بثلج قادم. وما ظنّت هذه الأم الصغيرة أنّ البرد ينال من أطفالها الثلاثة، فقد أثقلَتْهم بكل ما تملك من أردية سميكة، معتقدةً أيضًا أنه تُدفئهم، وتخفف أشواقَهم

للأب الذي يعاني من سَكَرات مرض، لم يملكوا ما يدفعونه للمستشفى هنا لقاء المعالجة.

رأتهم يوزعون هؤلاء الناس، الراغبين في العودة إلى الوطن، على جماعات، كل من نحو بضعة عشر يقودهم دليل، هذا الذي أفصح لهم، قبل أن يُدلِج بهم إلى المرتفعات الباردة، عن أنّ "قُطّاع طرق" قد يعترضون سيرنا، ونحن غير مسؤولين عمّا قد يحدث!

لم تنل هذه الكلمات من عزيمتها، فمثلها سمعت يوم جاءت تهريبًا قبل عام، وبدا أن حرصها الآن على أن تحضر العمل الجراحي يُجرى غدًا لزوجها يُمدّها بكثير من الشجاعة. وحَمِدت الله أن صغارها لم يستوعبوا هذه الكلمات، لحظة بدأت الجماعة تمشي على أطراف المرتفعات الجبلية، يَصفَعهم البرد ويُغنّي في آذانهم دويّ الريح.

أخذوا يصعدون تلاً وينزلون منخفضًا. لم تكن الدروب شديدة الوعورة، فقد بدا أنّ أقدام أهل المنطقة قد عملت على تمهيدها، وربما زاد في التمهيد عبور اللاجئين هذه الأيام في ذهابٍ يظنّون فيه النجاة، وفي رجوع يطنون فيه النجاة مرة أخرى.

لم تعد تذكر ما إذا كانت هي وصغارها في منتصف رتل هذه "الجماعة" أم في أواخرها. ولكنها لاحظت أن فتى ذا إعاقة جزئية، ينوء بحمل حقيبتين صغيرتين، ما زال يتخلف عن المسير حتى بات أمامها.. فأشفق أبناؤها عليه، والأب هناك ينتظر رحمة الله، فأقبلوا يساعدونه بحمل واحدة من الحقيبتين وما مانعت، ثم.. تبيّنوا أن "الجماعة" التي هم في رتلها قد أضاعتهم، أو هم الذين ضيّعوها! فلم تتردد في الاعتذار من الفتى بأنّ عندها ثلاثة أطفال تخاف عليهم "وأنت لك الله". وتركوه لمصيره.

ولكن أين هي الجماعة؟

أخذ أفراد الأسرة الصغيرة يضربون في الظلام هائمين على وجوههم، مُسْتَهْدِين بما يملكون من بصر وبصيرة. فجأة يقول أحد الصغار إنه لمح هناك عينَي ضَبع تلتمعان، فكان

على الأم الشجاعة أن تقول إنهما عينا كلب ضال يا أولادي! ولم يكن بد من متابعة المشي إلى حيث لا يعرفون.

وفي انحدارهم مرة سمعوا أصواتا وبَهَرت أعينَهم أضواء وأناس وسيارات، واعترضهم رجال ببدلات رسمية يسألونهم:

ـ انتو منَيْن؟ وشو جابكن لهَوْن؟

وأدركت الأم أنهم نزلوا في "حضن أمهم وأبيهم"، هؤلاء "رجال الجمارك اللبنانيين" في نقطة الحدود!

وأسعفتها غريزة الأمومة بأن ادّعت أنها كانت مع أناس جاؤوا ليدخلوا لبنان فضيّعوهم، والآن.. "عدلتُ، أريد العودة إلى دمشق! "، فاستوقفوا إحدى السيارات "السورية" (التي توصل الركاب من دمشق حتى نقطة الحدود)، أن يردّوا هذه الأسرة، الضائعة، إلى بلدهم!

نجحت الأمّ الشابة الشجاعة، الحريصةُ على أن تكون بجوار زوجها في جراحته الخطيرة، الضاربةُ في دروب فوق مرتفعات تنتظر نزول الثلج، المهتديةُ إلى كلمة نَجّتها من مصير مجهول.. نجحت في كل ذلك، لتسمع أطباء بلدها، وهم يشرعون في جراحة طال تأجيلها، يرفعون الصوت متسائلين:

ـ ولماذا لم تأتوا به في أول مراحل المرض؟ كان الشفاء ممكنًا.

وما كان لأحد أن يسمعها إن هي أجابت: في الغربة، في التشرّد، كنّا نعاني من البطالة ومن الاشتياق للعمل، ومن الجوع والمرض، ومن كل أشكال الذلّ والهوان!

ثمّ استنزفت دموعَها ما رأت من فلذات تُنتزع من الجسد الذي أنجب أولادَها الثلاثة.. حتى لم يبقَ عندها دموع لبكاء قادم، وهي تتساءل:

ـ بيتنا في الغوطة وقُصِف، زوجي فَقَد عمله، سافر للبنان نظاميًّا بحثًا عن لقمة عيش، اشتاق لأسرته فدعاها إليه، منحتنا "الأمم" طراريح وأغطية وبطاقات نأكل بها "قوت اللايموت".. لماذا يقع لنا هذا كله يا ربّ!

وماذا يفيدها أن يقول الناس عنها: أنت امرأة صبور، أنت أمّ شجاعة؟

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢٧-١٢-٢٠١٩

وقال الشاب: الرئيس أبي وهذه السيدة أمي!

في إحدى الصفحات في الشابكة وبعد تقديم منشور يتحدث عن "تواضع" المسؤولين في سورية في العهد الوطني.. روى أحدهم في تعليق ما كان سمعه من سائق سيارة في "نقليات أرسان" (التي كانت الأشهر في نقل الركاب بين المحافظات في تلك الآونة).

يقول الراوي نقلاً عن السائق:

تلَقّى المكتب الذي أعمل تحت إدارته (في ساحة المرجة) مكالمة هاتفية أن نحجز مَقعدين لراكبين أذهب إليهما في "القصر الجمهوري" في سِكّة المهاجرين.

وهناك فوجئت بالرئيس "ناظم القدسي" يودّع امرأة وشابًا هما اللذان يعتزمان السفر معي إلى حلب. جلَسَا في المقعد الأمامي (وكان يشغل المقعد الخلفي ثلاثة ركاب من عامة الناس).

على الطريق خطر لي أن أسأل الشاب عن علاقته بالرئيس، فأجابني:

ـ هو أبي والسيدة بجواري أمي!

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٣٠-١٢-٢٠١٩

الجزء التاسع

٢٠٢٠

عام الرحيل

جداول في "الوورد".. للأعوام العشرة القادمة

كنت جريت، منذ اتخذتُ لي صفحة في الفيس، على أن أعِدّ في برنامج "وورد" جداول زمنية، لكل سنة ولكل شهر في السنة، مقسِّمًا إيّاها لِحَيّزاتٍ يومية، أكتب في كل منها ما يعنّ لي في يومي، متمهّلاً مستمتعا مجوّدا، قبل أن أنقل المكتوب في وضعه النهائي إلى جداريّتي في الفيس.. كان أصدقاء في دمشق يعدّون لي ذلك عشيّة كل عام!

في فلوريدا، التي نزلت فيها أواخر العام ٢٠١٣، اقتضى استحداثَ جداولَ للعام الجديد ١٤، فتولى ذلك حفيدي "رامي" العارفُ بشؤون شبكة التواصل ومتعلقاتها، فأعدَّها بمهارة انتزعت إعجابي. وتراءى لي أن أقترح عليه إعداد ما أستعملُه في العام الذي يلي، ٢٠١٥.. ثمّ جعلت أستزيده سنة بعد أخرى.. حتى وصلنا إلى العام ٢٠٢٠، ونحن نضحك.. فمن "يضمن" أن أعيش حتى ذلك التاريخ البعيد!

اليوم دخلت جداول ٢٠٢٠، ذاك الذي كان إحداثه مثيرًا للبهجة والمرح...

هل لي أن أتساءل مَن يُعدّ لي عشرةً للعقد الثالث من هذا القرن!

وأضحك، وتضحكون.. وتضحك الأقدار.

دمشق الشام: الأربعاء ١-١-٢٠٢٠

معلّم جميل.. من الزمن الجميل

صباحكم خير وبركة، في أول أيام العام الجديد، أيها الأصدقاء.

استيقظت اليوم باكرا، وجلست في حديقة بيتي (في شارع نوري باشا بدمشق)، متدثّرا بكلّ سميك، أتناول ما أعددت: "شطيرة لبنة"، رششتُ عليها شيئا من نعنع يابس، بجانبها

زيتونات منزوعة النوى وكأسُ شاي سكّر زيادة، وأنا أتملّى النظر من الطبيعة في شتاء، قد زاد بردُه بقدر ما شحّت فيه أسباب التدفئة... طبيعةٌ على قسوتها كريمة، أبقت لي كثيرا من أغصان اللبلاب دائم الخُضرة، أراها مستلقية على طول الجدار أمامي... أنظر بعين المستقبل إلى ما تُخبّئه لنا الأيام في سواد ليلها، دون أن يفوتني التعريج على ما مضى من أيام الزمن الجميل!

تذكّرت يوم كنت تلميذا في الصفّ الثالث الابتدائي، في العام الدراسي ١٩٣٨-٣٩، في المدرسة الأوليّة التي استُحدثت يومذاك بحلب عُقيب رحيل الزعيم إبراهيم هنانو وسمّيت باسمه... تذكّرت نفسي وأنا أتوجّه إلى معلمنا بسؤالي البريء: "لماذا "الفستق الحلبي" غالي الثمن، حتى إننا لا نستطيع التزوّد منه، وهو من زراعة مدينتنا حلب؟".

وقد ظلّت إجابته تتردّد في خاطري حتى يوم الناس هذا، من أنّ ارتفاع سعر الفستق الحلبي يعود إلى أنه مطلوب، نبيعه للدول، فنحصل على نقود تنفع البلد.

كان هذا أول درس في "الاقتصاد" تلقّيته صغيرا، وأذكر أننا نحن التلاميذ اقتنعنا بهذا التفسير من معلمنا الذي أحببناه... ورضينا بألا نأكل الفستق الحلبي إلا قليلا.

وما كان للأيام أن تُنسيني اسم هذا المعلم: "زاهد تاج الدين".

معلم جميل من الزمن الجميل.

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١-١-٢٠٢٠

بعد جراحة.. في العين

بعد جراحة أجراها في العين أملاً في زيادة الإبصار.. ضاع البصر

توسّل لطبيبه المداوي، فدقّ هذا على صدره: لسوف تبصر بعد العملية الثانية!

في الثانية أبصر.

كانت العملية الأولى.. خُلّبيّة!

والطبيب نام، كما في كل ليلة، غير معذّب الضمير.

دمشق الشام: عصر الخميس ٢-١-٢٠٢٠

ويسأل طالبٌ أزهريّ

ويسأل طالبٌ أزهريّ طيّب القلب زميلَه السوري في الأربعينيات: عندكو شوارع؟ فيقول: لا! فيقول: ألّاه، امّال بتمشوا ازّاي!

فيقول: ع الاسطحة!

دمشق الشام: مساء الجمعة ٣-١-٢٠٢٠

كلمة.. في نجيب محفوظ

كتب نجيب محفوظ، الذي كان ينتمي إلى "حزب الوفد" قبل حركة الضباط الانقلابيين، أجرأ ما يمكن أن يُنجزه روائي في ظلّ حكم العسكر، داراهم وتمكن من أن يقول كثيرا ممّا في نفسه المبدعة.

ومرة رفضت الرقابة عملا له، وصل الأمر لعبد الناصر، فأوعز إلى هيكل أن يقرأه شخصيا، فرأى هذا أن نشر العمل خير من رفضه.

تبنّاه اليساريون الممالئون للسلطة بمصر منذ ١٩٥٢، ورفعوه بمقدار ما غمطوا حقوق الكتّاب ذوي النزعة المحافظة، ونجحوا في رهانهم.

التقيت به في مقهى الأوبرا بالقاهرة في شباط/ فبراير ١٩٦١، وكنت كتبت وأنا في بلدي نقدًا شديدا لشخصية محورية في روايته "بداية ونهاية" (مجلة "الأديب" اللبنانية، أغسطس/ آب

١٩٥٦)، فقدّمني لجلسائه بأني القاصّ و"الناقد"!

أرى أنّ نجيب محفوظ كان ذرائعيّا (براغماتيّا) ناجحا.

دمشق الشام: ليل الجمعة ٣-١-٢٠٢٠

سألتُ عمر السباعي...

مرة طرحت على الأستاذ عمر السباعي (الذي كان توجّه في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى باريس فدرس الهندسة):

ـ لماذا يقوم الفرنسيون أحيانا بالتظاهر مطالبين بزيادة الرواتب والمعاشات، والحكومة تمنحهم في بداية كل شهر إضافة غلاء معيشة تلقائيا؟

أجابني مازحا:

ـ لأن مَن يشرب منهم النبيذ على مائدته.. يريده أن يكون معتّقا أكثر، يا بن العمّ!

وللعلم إن المهندس عمر السباعي، الحلبي، شيوعي من "عضام الرقبة"، وكان يشغل، يوم هذا الحوار، منصب وزير في دولة البعث.

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٥-١-٢٠٢٠

وأنا في باريس قبل أربعين سنة

كنت أستأذن أحيانا بعض مَن أعرف من الموظفين الفرنسيين، فأسألهم عن رواتبهم، فأعرف أنّ ما يتقاضاه الموظف والعامل هناك يسدّ حاجته الشهرية، ويزيد:

- ما يمكّنه من قضاء إجارته السنوية على الشواطئ الدافئة (إيطاليا- إسبانيا) أو ما هو أبعد،
- ومنهم من يدّخر ويقتني بيتا في الأرياف.

وعندنا.. يا حسرة.. عندنا..

• كان راتب الموظف، قبل الانتفاضة، ينفَد في منتصف الشهر..

• اليوم.. يودّع الموظف آخر ليرة من راتبه في اليوم الـ.. خامس من الشهر!

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٥-١-٢٠٢٠

خطاب جريء.. مرفوع للسلطان عبد الحميد

كتيّب "شكوى وآمال مرفوعة إلى جلالة السلطان عبد الحميد خان"، بقلم الدكتور شبلي شميّل ١٨٩٦

نقدم لكم الكتيّب النادر جداً "شكوى وأمال" الذي أصدره الدكتور شبلي شميّل عام ١٨٩٦وأعادت صحيفة المقطّم نشره على حلقات في الاعداد التالية: ٨، و١١، و١٢، و١٣، و١٤، آب ١٩٠٨. وذلك في أعقاب إعلان الدستور.

انتقد الدكتور شميل في هذا الكتيب الصغير السلطنة العثمانية والسلطان عبد الحميد نقداً لاذعاً مغلفا بعبارات لعلها تحمي كاتبها.

وعلى اعتبار أن الكاتب كان مقيما في مصر التي كانت تحت سلطة الخديوي والإنكليز فلم تصل يد السلطان للمؤلف.

يعتبر هذا الانتقاد لسياسة السلطنة ولعبد الحميد عملا فريدا في جرأته في ذلك الوقت. وقد صاغ الشكوى على هيئة خطاب مفتوح إلى السلطان وقال فيها: "ليس من ينكر أنّ الأمّة العثمانية قد تقهقرت جداً في حين أن الأمم الأخرى بلغت شأواً بعيداً في الرفعة... فما هو السبب الذي لأجله هي آخذة في الارتفاع ونحن آخذون في الانحطاط؟

يجيب شميّل: "سبب تأخرنا وتداعي الملك هو فقدان العلم والعدل والحريّة من المملكة. أركان ثلاثة من دونها لا يعتز ملك ولا تسود أمّة". ويتابع: "فإذا سُلبت الحريّة من أمّة امتنع العدل، وإذا امتنع العدل، يقع الظلم، وإذا انتفى العدل وساد الظلم، ينطفئ نور العلم.

واذا كانت الأمةُ مؤلفة من أديان مختلفة فهناك الطامّة الكبرى، لأن الجهل يثير نار التعصب فيها وينسيها جامعتها الوطنيّة ويبعثها على تمزيق شملها بأيديها".

وقد شنّ شبلي شميّل هجوما عنيفا على السياسة الاستبدادية للدولة وعلى الأخص تكميم الأفواه والتنكيل بالخصوم والزج بهم في السجون، وبث الجواسيس لتصيد الأخبار في المدن. وقد أخذ عددهم في التزايد حتى أضحت عاصمة الخلافة أشبه: "بمغارة لصوص لا يأمن الإنسان فيها على نفسه طرفة عين"

ويجعل شبلي شميل من افتقاد الحرية السبب الرئيس لما أصاب الدولة وبقية الأسباب هي فروع عن هذا الأصل، ويفسر ذلك بأننا: "إذا نظرنا إلى حالة البلاد وجدنا الحرية مسلوبة لا يجسر أحد أن يرفع شكواه ويُفضي بما ألمّ به، ومع استلاب الحرية يغدو تحقق العدل مستحيلا لعدم معرفة مواضع الخلل في الأمة بسبب عدم الإصغاء إلى شكايات أهلها ولانفراد الحاكم وأمنه من مراقبة الأمة فيصبح مطلق الرأي والتصرف، وإذا انتفى العدل وساد الظلم انطفأ نور العلم، لأن النفوس التي أُشربت الظلم تنصرف عن الإتيان من الأعمال الجليلة ويستغرقها الجهل، وعندئذ تكثر الفتن وخاصة إذا كانت الأمة مكونة من أديان مختلفة حيث يثير الجهل التعصب الديني ويُنسيها جامعتها الوطنية".

الشاعر والمفكر اللبناني الكاثوليكي الدكتور الطبيب شبلي شميل من مواليد لبنان ١٨٥٣م. درس في المدرسة اليسوعية في عينطورة، وأتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية إلى جانب العربية. ثم درس الطب في الكلية الأميركية ببيروت وتخرّج عام ١٨٧١. عاد وتخصص بالطب في

باريس لمدة، استقر بعدها في مصر عام ١٨٧٩م، وأصدر مجلة "الشفاء" ١٨٨٥م. حكم عليه بالإعدام غيابيًا أثناء الحرب العالمية الأولى من المجلس العرفي التركي المنعقد في لبنان.

[دار الوثائق الرقمية التاريخية، ٣١-١٢-٢٠١٩]

أرجو ألا يظنّنّ أحد أني، بتقديمي هذه الرسالة، متراجع عن رأيي في مكانة الدولة العثمانية، التي كانت آخر امبراطورية إسلامية في العالم.. ولكن هناك من الوقائع والحقائق ما يجب أن يقال، مع بيان أن "العثمانية" كانت يومذاك مستهدفة من كل الأطراف والجهات.

وليُدلِ من يشاء برأيه موضوعيا.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٦-١-٢٠٢٠

"ادخلوا صفحته.. وشوفوا! "

اطلعت في عدد أمس من جريدة "تشرين" على خبر مفصّل يتعلق بمرض أحد فناني الدراما.. فسرّني أن الصحافة تهتم بالمبدعين في مثل هذه الحالة.

وذكّرني ذلك بأن كاتبا كان قد وقف قبل سنتين في المركز الثقافي بأبو رمانة، ورفع صوته عاليا.. بأن لي في "تشرين" زاوية صغيرة (من ٢٥٠ كلمة لا تزيد، سمّيتها "أيام وليال")، وأهاب بالحاضرين في القاعة أن: ادخلوا صفحته وشوفوا (ما يكتبه هذا المارق من دين الوطنية! عفوا التعبير الأخير من عندي أملاه عليّ الموقف الدراماتيكي!).

والذي كان أنهم دخلوا، وشافوا:

• فأوقفوا الزاوية فورا، وكنت أكتب فيها بعيدا عن السياسة، معبّرا عن النبض الذي يختلج في عروق الناس، من عواطف وذكريات وأمشاج ثقافة.

• وأما الهيئة التي تنشر الكتب في وزارة الثقافة، فقد سحبت موافقتها على نشر كتاب لي كان قد أجيز بتقرير من كبيرهم عبّر فيه عن منتهى.. أقول عن منتهى إعجابه! (سوف أنشر التقرير قريبا فهو حقا قطعة أدبية جميلة).

• وكان رئيس اتحاد الكتّاب، المنصرف، قد عمّم ألا تُنشر لي مادة وألا يُذكر اسمي في دوريات الاتحاد، هذا الذي كنت من مؤسسيه عام ١٩٦٩ ربما قبل أن تلده أمّه!

أقول الآن: هل هذه عدالة من نظام يُظهر اهتماما هنا وإزراءً هناك، ومصدر ذلك كلمةٌ قالها كاتب.. لم يسبق لي أن قرأت له سطرا واحدا (وهذا تقصير مني لا أعتذر عنه).

دمشق الشام: ظهيرة الإثنين ٦-١-٢٠٢٠

تخفيف الوطء.. تجنبًا للضرر!

يوم ظهرت قصة "الأول" في مجلة "العربي" (ديسمير/ كانون الأول ١٩٨٣)..

حدثني أحد أقاربي من الشباب، "مُتَبَعِّثًا" كان للضرورة لكنّ القلب معنا، أنّ صديقا له طالب طبّ متحرّجًا في عامه ذاك متفوقا، وكان قد تقدّم للمعيدية بكلية الطب واستُبعد بحجة أنه ذو "منبت برجوازي"..

أنّ والده المقهور على ابنه، جعل يدور بعدد المجلة ذاك، يعرضه على أصدقائه ويقول: بطل القصة ابني!

فخشي قريبي، الذي يعرف مجريات النظام، عليّ.. والتمس من صديقه أن يطلب من والده أن "يخفف الوطء" تجنّبًا للفت الأنظار للقصة.. فيأتي "ابنَ خالته" ضرر!

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٧-١-٢٠٢٠

لو أن النظام

لو أن النظام يأمر حيتان المال

بأن يأتوا بأموالهم المودعة هناك وهنالك

قبل أن يفترسها ترامب

فلعل الدولار يتوقف عن صعوده، الذي بلغ الألف..

فالناس..

يتلظّون بنار الغلاء.. مثلما يعانون من لسعات الزمهرير..

يا سيدي النظام الحنون!

دمشق الشام: ليل الخميس ٩-١-٢٠٢٠

أموال المسؤولين العراقيين.. تذهب إلى الخزينة الأمريكية

تلقيت من صديق نصا نشر اليوم في ما يقول إنه موقع الخزينة الأمريكية، أنّ ترامب، العاقل-المجنون، اعتبر أنّ أموال السياسيين العراقيين المودعة في المصارف الأمريكية، هي ملك الشعب الأمريكي وضريبة دماء جنوده التي أزهقت في العراق.

مقدار الأموال - يا لطيف - (٥٨٣) مليار دولار أمريكي!

وأخذت أقرأ الأسماء والأرقام، بعينين يترقرق فيهما الألم والغضب، وأتساءل: لماذا كل بلاوي الدنيا تنزل بالعرب؟

وأعرف أنّ الملك فاروق خرج من مصر.. وليس له رصيد مالي في الخارج، ولم تخصص له مصر-الثورة معاشا يتبلغ به، فتولت السعودية ذلك.

دمشق الشام: ليل الخميس ٩-١-٢٠٢٠

كنتُ للمعجميّ "عمر رضا كحالة"

كنتُ للمعجميّ "عمر رضا كحالة" (١٩٠٥-١٩٨٧ صاحب "معجم المؤلفين" خمسة عشر جزءا) صديقًا على ما بيننا من فارق سنّ.

حدثني يوما، ونحن في "حديقة المدفع" بأبو رمانة بدمشق (حديقة ابن سينا فيما بعد) نتنسّم الهواء العليل في أصيل يوم صيفي، أنه دُعي مرة وسافر إلى بغداد، ولقي ترحيبا هناك من السُّنة ومن الشيعة.

فسألته: و"عُمَر" الذي في اسمك؟

قال: يشفع له الاسمُ الثاني "رضا"!

كان دؤوبًا في أعماله المعجمية لا يكلّ، وكان يتمتع بدماثة لا حدّ لها، يرحمه الله.

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٠-١-٢٠٢٠

حديث بردانين

جاءني صديقي يقول لي:

آتيك في أيام الشتاء، فأراك في حديقة بيتك تستدفئ بأشعة الشمس إن كانت، وإلا فتَرجع في اليوم الماطر بكرسيّك المريح إلى ما تحت شرفة الجيران، وأنت متدثُّر بـ"حْرَام" صغير على الكتفين وآخر تغطي به الركبتين.. الآن تعال شوفنا في البيت كيف قاعدين عند المسا، كل واحد من الأولاد لافف حاله بحرام من الكتفين إلى القدمين!

وأخذ ينشد:

إذا حـلّ الصـــقـيـعُ بـدار قـوم فلا حـلٌّ ســوى ضـــمّ اللِّحـافِ
وإنّ الـكـهـرباءَ كـحـلـمِ طـيـفٍ يُـراودنا ويُـبـدع في الـتـخـافي
فـإن خَرِســـتْ مـدافئنـا هُرعنـا إلى حِضـــن اللحـاف للاعتكـافِ
وأكـثـر مـا يَحُـزّ الـقـلـبَ بـردًا إذا دُسْـــتَ البَلاطَ وأنـت حـافِ

وفيما كان يتابع إنشاده للقصيدة، التي يقول إن ناظمها "بردان بن صقعان".. كنت أفكر في ألّا فرق كبيرا في الشتاء بيننا وبين إخوتنا في مخيماتهم المغطاة بالثلج.. بعد مضيّ.. سبعة وخمسين عاما!

وكلمة "حْرَام" (بتسكين الحرف الأول)، يا أصدقائي العرب في كلّ مكان، من العامية السورية، أطلقوها على الدِّثار غير اللحاف ممّا نُسج أو اتُّخذ من طاق واحد، وهي تحريف "ثوب الإحْرام في الحج". وقد جاء ذكرها في "رحلة ابن بطوطة" في أثناء وجوده بدمشق. ومثلها في اللهجة المصرية: "بطّانيّة"، ويرى أحد اللغويين أنّ كلمة "مِشْمال" صالحة لذلك.

فماذا يقال عن هذا الدثار في لهجات الأقطار العربية؟

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٠-١-٢٠٢٠

ما أقسى الموت.. على أيدي الأطباء!

كتبتُ يوما:

"والله لا أترك بيتي إلا إلى القبر! "

تقول هذا شقيقتي، الأحبّ إليّ، وكنا ننزل إلى بيتها بعشر درجات

لم يقض عليها القصف، لكن غباءُ أطبائها

فذيّل كلمتي ابنُها علاء خطيب (بحلب):

الله يرحمك يا أمي.. كنتِ ضحية غباء طبيبَين وقلة الخبرة:

• أخطأ الأول (طبيب هضمية) بسحب حُصَيّات بالمنظار من القناة الجامعة، ولم ينتبه إلى أنه ترك أربعا أخرى..

• وأخطأ الآخر (جراحة عامة) بأن لم يتأكد بالتصوير من وجود حصيات، فسحب المرارة ما أدى إلى انسداد والتهاب الكبد،

• ولم تفلح العملية الثالثة بفتح القناة وسحب السوائل..

• ففارقت أمي الحياة فجر ٢٧-١٠-٢٠١٧

وقال: أفادني طبيب من دمشق (أخصائي هضمية) بأن العملية الصحيحة لعمر ٨٥ أن يوضع لها بالمنظار أنبوب يصل طرفي القناة بالكبد ولا يُجرى لها سحب الحصيات ولا استئصال المرارة لخطورتها.. لكن مع الأسف الطبيبان لا يعرفان هذه المعلومة.

فكرنا بالشكوى.. قيل لنا: ما بيطلع منها شي! وأصَرّينا واشتكينا.. وكانت النتيجة كما توقعوا.. عدنا خائبين، فرفعنا شكوانا لله العادل.

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٠-١-٢٠٢٠

في وطني..

في وطني.. حربٌ، وبردٌ، وعتَمة

وفقرٌ حتى مُخّ العِظام.

السبت ١١-١-٢٠٢٠

في بداية انتفاضتنا

في بداية انتفاضتنا، السلمية، صرّح مسؤول كبير بأنهم يوم تسلّموا حكم البلد كان عدد السكان عشرة ملايين نسمة، هم مستعدون لأن يُعيدوا هذا العدد إلى ما كان عليه!

أقول:

ليتهم يقدرون أيضا أن يُعيدوا سعر الدولار إلى ٤ ليرات سورية كما كان عام ١٩٦٣.

دمشق الشام: مساء الإثنين ١٣-١-٢٠٢٠

نهض عند الفجر ليذهب..

نهض عند الفجر ليذهب.. إلى هناك

شعر ببلل في "تحتانيّة" البيجامة.. لا ليس ذاك!

اكتشف أنّ الكيس المطاطي المودع عند القدمين، قد تسرّب منه الماء الساخن حتى ندّى الفراش واللحاف، ووصل البلل إلى ألبسته الفوقانية.

في زمهرير الشتاء وفي عتمة الليل (فالكهرباء مقطوعة).. قام ينضو عن نفسه الملابس ويستبدل.

في الصباح.. غسَل، ونشر الأغطية المبللة على حبل الغسيل.. وهو يُندّد بكلّ ما يُستورَد من الصين!

دمشق الشام: ضحى الإثنين ١٣-١-٢٠٢٠

الدولار الذي كان بأربع ليرات في آذار٦٣

الدولار اللي كان بأربع ليرات في آذار٦٣

تجاوز اليوم الألف، ويقولون: رايح للألفين

مؤامرة كونية، نعم.. فماذا أنت فاعل، يا سيدي النظام؟

دمشق الشام: ١٧/١/٢٠٢٠

نكتة.. من تونس

واحد يساري..... في "مركز التميمي" قال:

ـ ما يلزمش "البسملة" في الدستور، وما يلزمش نذكرو اسم "محمد رسول الله"، وما نقولوش "صلى الله عليه وسلم"!

فقلت له:

ـ يا هذا، أتريد أن تُعيدنا للجاهلية؟ وقلت له: نسبة خمسة وتسعين في المائة في الشعب التونسي مسلمون تريد نهبط في النسبة! باش تجي أنت تفرض علينا هذا؟ لن نسمح لك..

فقال لي: وماذا أعمل أنا "المختلف"؟

فجاوبته بكل بساطة: تدفع "الجزية"!

فقال: ليس عندي مال!

فأجبته: نشوفو لك حلّ...

Lesverts Ducapbon

\- - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأحد ١٩-١-٢٠٢٠

لو أننا قدّرنا علماءنا

لو أننا قدّرنا علماءنا فلم ندَعهم يتوجّهون إلى أمريكا والغرب

ولو أن المليارات المستباحة لم تخرج من فضاء الوطن فتودع في مصارف غير آمنة

لكان العلماء أنجزوا في مراكز البحث العلمية في بلادنا، وأبدعوا.

ولكنّ.. ما يقع عندنا.. شيء آخر مختلف جدا

دمشق الشام: ليل الأحد ١٩-١-٢٠٢٠

لو أنّ الشيوعية.. تعود إلى موسكو!

اسمحوا لي أن أحلم بأنّ تحوّلًا دراماتيكيّا وقع فجأة في موسكو، أُقصيَ فيه بوتن قاتل السوريين، أو انتُزعت من صدره الحياة، وعاد العمل بالنظام الشيوعي.

سوف أكون فرحًا مع شجبي للشيوعية جملة وتفصيلا.. فإنّ السوفيات لم يبعثوا إلينا بطائراتهم تقصف الأحياء السكنية، وتقتل النساء والأطفال، وتُبيد حتى الأسرة وهي مجتمعة حول مائدة إفطار رمضان.

دمشق الشام: ضحى الأحد ١٩-١-٢٠٢٠

في ظلال الياسمين

قبل سنوات جاءني يطرق باب بيتي يبثّني شكواه من أنه تلقّى، الساعة، من "الرقابة" اعتذارها عن الموافقة على أن ينشر "أشعاره" في ديوان وإن كان ذلك على نفقته الخاصة،

فاستمعت إليه بأذن صاغية، مثل استماعي إليه وهو يلقي عليّ بعض مقطوعاته الشعرية بأسلوب مسرِف في الفخامة! وقد عبّرتُ له عن شجبي لما ارتأته الرقابة من منع نشر نصوصٍ لشاعر أو كاتب، فإنّ لصاحبها الحقّ في أن يطبع وينشر كلامه في أضيق دائرة بين الأهل والأصدقاء. ومع تعاطفي معه، في ذلك المساء، دعوته للمبيت عندي وأنا المقيم في بيتي وحيدًا بدمشق، أجاذب الحديث كاتبًا يحسّ ظلمًا، وأذكر أني اشترطت عليه أن يُخفف من إسماعي مزيدا من أشعاره... وقد ضحك وضحكت، ونام سعيدا، وفي الصباح انطلق عائدا إلى موطنه في الشمال.

وقد ظللنا على تواصل عبر المكالمات الهاتفية... إلى أن زارني، قبل أيام، ليحدّثني عن همّ له آخر: ابنه، الذي يؤدّي "خدمة العَلم"، موقوفٌ بمحاولته الفِرار، وقد وصل هو اليوم إلى العاصمة في مسعًى للإفراج عنه وعودته إلى كتيبته، وأضاف أنه حاول، في هذه الساعات الصعبة، أن يجد فندقًا متواضعا يُؤويه ليلته وعبثًا ما حاول، ومع أنّ ظروفي تغيّرت، ففي بيتي اليوم أسرتي مضافًا إليها زوارٌ من حلب فالغرف كلّها مشغولة، فإني رحّبت به ضيفًا، وسألته عمّا إذا كان يطيب له أن ينام، في هذه الليلة الصيفيّة، في الحديقة مستظلا السماء ومستنشقًا عطر الياسمين، فطرب، وعبّر عن أنّ هذا أجمل ما يتمنّى، ثمّ شاء تخفيفًا للعبء، أن يترك البيت متوجّهًا إلى "روضة أبي العلاء" القريبة من بيتي، يغيب فيها سويعاتٍ إلى أن يقترب موعد النوم.

الذي وقع أني بدأت أسمع، بُعيد انصرافه، أصواتَ القذائف تتوالى في سماء العاصمة، فانتابني قلقٌ عليه، مع أنّ الخطر يتربّص بنا في الحدائق والشوارع كما في البيوت المحصّنة على حدّ سواء. فقمت أهتِفُ إليه أستدعيه، ولكنّ الجوّال يجيبني بأنّ الخطّ خارج التغطية! فأين ذهب الرجل؟ وهل حملوه من روضة الشاعر أبي العلاء المعرّي إلى حيث ابنُه الموقوف، لا

سمح الله!

فتوجّهت إلى روضة أبي العلاء... وهناك رأيت الناس يحرسون بأنظارهم أطفالهم الذين يلعبون أمام أعينهم. وعلى الأرصفة هناك كراسي وطاولات، و"تين الصبّار" مقشّرًا منتظمًا صفوفا فوق ألواح الثلج الأبيض، ونباتٌ أخضر وأزهار بألوان... والناس لا يتوقفون عن أكل التّين، وأنظارهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم يشكرون الله لأنّ هذه القذيفة، أو تلك، لم تنزل على رؤوسهم!

ذلك كلّه لم ينفِ عني القلق من أنّ جوّال صاحبي "خارج التغطية". ومع ما انتابني من الهواجس البغيضة، تراءى لي أن أتصل بأسرته في حلب، فكأنني باتصالي أشَعْتُ القلق في صدورهم التي يسكنها الخوف ابتداءً، وتصوّرت المكالمات تنهال على جوّاله الملتبس!

و... يُطلّ عليّ، باسمَ الثغر طلق المحيا: لقد ابتعد إلى "حديقة الجاحظ" ترويحًا عن نفسه وتفريجًا لهمّه، وقال إنه أكل صندويشتَين اثنتين من لحم الفراريج مدعومتين بعُبوتَين من الكولا! ولم أجد تفسيرًا عنده لصمت هاتفه عن الإجابة، ولكني سألته في انتقاله من روضة الشاعر إلى حديقة إمام الناثرين العرب، الجاحظ، ما إذا كان قد ملّ نظم "الشعر" فهو ينوي التحوّل إلى كتابة "النثر"؟

في عودته إليّ تعيّن أن ننجز معًا عملا. طلبت منه أن يساعدني في شطف ذلك الجانب من الحديقة تمهيدًا لمدّ الفراش ينام عليه. ولله كم أبدى أسفًا على المياه المسفوحة، وهم في حلب يتلهّفون على كأس من الماء العذب! فكان كلما سفحنا سطل ماء، نغترفه من البِركة (البَحرة)، يقول لي: "حَرام، والله حرام"!

وفيما أخذ يكشِط، بالمسّاحة المطّاطية، البلاط المغسول تسريعًا لتجفيفه، كان يحدّثني،

ويستفيض، عن أنّ ابنه ما كان ليفكر في الفرار، وكلّ ما هنالك أنه، في أثناء إجازته، حرَصَ على أن يلتقي بجدّته، المحبّة له، والساكنة في ضيعة باتت في قبضة "داعش"، فما أَذِنوا لها هناك بالسفر عندما أعلمتهم أنها تريد لقاء حفيدها الذي يؤدّي الخدمة، فطال انتظاره لها، واستأذن بالهاتف رئيسه الذي يعزّه، إلا أنّ هذا الضابط استُشهد في قذيفة طالته، فجاء الخَلَفُ "يكتب" فيه... فكان ما كان!

ونحن نمدّ السجادة على البلاط، ثمّ الفراش والملاءة وأخرى غطاء، خطر لي أن أمازحه، فأقول بأنه قد تأتيه، في أثناء الليل، قطّة "تُشمشم" رائحة الفراريج المنبعثة من فمه، فليقم يغسل فمه! وضحكنا كثيرا، قبل أن يُخلِد إلى النوم، يستمع إلى خرير الماء في البركة، ويتمتّع بالأنسام الرقيقة تأتيه من المروحة المنتصبة قرب رأسه.

في الصباح رأيت الفراش خاويًا خاليا، فقد غادر الضيف الحديقة في وقت مبكّر ضمانًا للحجز في رحلة العودة إلى بلده.

وقد هتف لي بجوّاله – ذي التغطية! – يبشّرني بأنّ الحافلة قد خرجت اللحظة من حدود العاصمة، وحدّثني مرحًا بأنه لمح عند الفجر، في آخر الحديقة هناك، "جسمًا" غريبا يتحرّك، فراوده ظنٌّ بأن يكون في "حديقة بيت الأستاذ" شيء من تلك الكائنات الداكنة اللون! ثمّ سرعان ما تبيّن أنها قطّة صغيرة أليفة سوداء، جاءت إليه مستأنسةً، وأخذ يداعبها!

وما فاته أن يعبّر عن سعادته بأنه نام أحلى نومة في حياته، في حديقة، تحت ظلال الياسمين، يسمع طول الليل ثرثرة الماء، والمروحة ترسل إليه أنساما تدغدغ وجهه وصدره وذراعيه... وسألني ما إذا كنت أرحّب به في زيارته المقبلة للعاصمة للسؤال عن حكم المحكمة!

الكتابة: دمشق ٩-٩-٢٠١٥.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٩-١-٢٠٢٠

على هامش المنشور السابق

أستاذنا في الفيزياء، في "ثانوية المأمون بحلب" أواخر أربعينيات القرن الماضي.. ذهب في حينه إلى أمريكا، فكان في فريق العمل الذي أنزل أول رائد فضاء على وجه القمر عام ١٩٦٩.

ولقد ظلّ محبّا لوطنه، ولمدينته حلب، وللحارة الشعبية التي عاش فيها.. فكان يأتي في كل حين بأبنائه ويقيمون في بيت الأسرة.. إلى أن سوّت الطائرات الحيّ بالأرض..

إنه البروفسور منذر مكانسي.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٢٠-١-٢٠٢٠

"لا تموتي قبلي، يا أختاه! "

أنجب أبي "أبو السعود المفتي السباعي " (المولودُ بحمص عام ١٩٠٧ والقادمُ مع أبيه طفلا إلى حلب في ١٩١٥)، تسعة عشر من البنين والبنات، أحببتهم وأنا الأخ الأكبر، وأولادَهم والأحفادَ والأسباط، الذين شتّتْهم اليومَ الحرب فانتشروا في القارّات الأربع (عدا الخامسة أستراليا، وإن اقترب بعضهم منها، ماليزيا) ووصلوا شمالا إلى فنلندا وإستونيا حيث الشمس تظهر في الأيام الشاتية ثلاثين دقيقة في النهار فقط!

أقول: أحببتهم جميعا، إلا أني كنت أخصّ بجانب أكبر من المحبّة شقيقتي التي تصغرني بعامين (مَلَك، أم ماجد)، التي أفضّل النزول عندها في زياراتي لمسقط رأسي حلب، نتداول الذكريات عن الطفولة في بيتنا الأول في "زقاق الزهراوي" ونبتهج... وأحيانا نتمازح متسائلَين عمّن يموت قبل الآخر ونتضاحك... لكن مرة قلت لها كالمتوسّل: "أختي، الله يخلّيك لا تموتي قبلي! "، وبدل الابتهاج اغرورقت بالدمع العيون.

ولكن شقيقتي الحبيبة "ملك" سبقتْني إلى هناك، بخطأ فاحش من أطبائها المعالجين، فصعدت روحها إلى السماء مثل ملاك (فجر الجمعة السابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٧)، وأنا عنها بعيد، ويوم اشتكى أبناؤها لنقابة الأطباء كان الجواب تقريرا فيه من المغالطة أكثر مما وقع من سابق الأخطاء!

سبقِتِني، يا أختاه! نلتقي في الفردوس الأعلى إن شاء الله.

دمشق الشام: ضحى الإثنين ٢٠-١-٢٠٢٠

في الأوتوبيس.. من "ميدان العتبة" إلى "الدقّي"

في شتاء ١٩٥٠-٥١، وأنا طالب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد)، اتفق لي أن أخذت الأوتوبيس يوما من "ميدان العتبة الخضراء" (وسط القاهرة) إلى بيتي بجوار المتحف الزراعي (في الطريق إلى "الدقّي").. وجاءت جلستي في المقعد الأول وراء السائق.

في المقعد المتطاول إلى يمين السائق، ذاك الذي يتّسع لثلاثة ركاب أو أربعة، سمعت - والسيارة تتهادى بنا على ضفة نهر النيل- واحداً من هؤلاء الركاب أخذ يحدّث السائق، على طريقة "أبناء البلد" الودّية، بأنّه ما زال يشكو من نزلة برد "جامدة" وزكام، لم يعرف طريقة للتخلّص منها.. فجعل السائق ينصح:

ـ اسمعني.. خُدْلك كُبّاية شاي سُخنة قوي.. وادخل على مْراتك.. ادعكْ يمين وادعك شمال.. وتروح في النوم.. وتصحى تاني يوم وانت زيّ الحصان.. وابقى ادعيلي!

أعتقد أنه كان يستحيل على ذلكما الرجلين أن يتوقّعا أنّ الراكب الجالس وراء السائق والذي وصل إليه الحديث عفويا.. سوف يحفظه في ذاكرته، عبر سبعين سنة، ليرويه للناس فيما سيُسمّى "صفحة في الفيسبوك".

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٤-١-٢٠٢٠

اليوم، ساعةَ حلّ الظلام مساء..

اليوم، ساعةَ حلّ الظلام مساء.. جلست في الحديقة متدثّرا.. أنتظر عودة الكهرباء.

وتساءلتُ:

هل هناك نظامٌ في الدنيا، ديمقراطيٌّ أو شموليّ، يحكم شعبَه منذ نصف قرن ويزيد،

يعجز عن...

أن يملأ حياة المواطنين بنور الكهرباء،

في حين امتلأت جيوبُ مسؤولين فيه بكثير من الأموال!

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٦-١-٢٠٢٠

الخبز الغالي

قبل أن يقفز الدولار من الخمسمئة إلى الألف في غضون الأشهر الستة الماضية، كنت أقف بالدور أمام فرن حارتنا لآخذ "ربطة" من الصَّمّون وفيها (١٤) وحدة.

ودعوني أشرح لكم، أيها الأصدقاء، أنّ كلمة "الصَّمّون" تعني الخبز ذا اللُبوب، من التركية "صومون"، منه المستدير والطويل، واحدته صَمّونة. أفتحها من جانبها بسكين، وأضع في الشّق جُبنًا أبيض مُسَنّرا، أُطيّبه بشيء من النعنع اليابس، وأُسخّنها على نار هادئة، آكل قَضْمة من هنا وحَسْوة من كاس شاي، وأَلقَم في ذلك حبّات من زيتونٍ يأتينا من ريف "إدلب"، الذي يموت فيه قصفًا بالطائرات الملتجئون إليه من كل أنحاء الوطن.

لم أبعُد عن الموضوع، لا تظنّوا!

في تصاعد سعر الدولار في السوق المتوارية عن الأنظار.. رأيت عدد الصمّونات في الربطة يتناقص (فليس "الطحين"، الذي يُصنع منه الصمّون والخبز الأسمر والكعك، "مدعوما" من الدولة بل يتسوّقه الخبازون من الأسواق)، وما زال العدد في تناقص.. حتى وصل إلى عشر صمّونات لا غير.

بعد صدور المرسومين العتيدين، بما وسّعا للساهرين على أمننا من فُرَص ملاحقة الصرّافين المُستترين والزجّ بهم في السجون بتهمةٍ ارتفع وصفُها من "جُنحة" إلى "جناية" (وهذا أمر خطير).. ظننّا أنّ الصمّون والكعك المُحمّر والخبز الأسمر الذي يمنع السِّمَنَ، سوف تعود أسعارها إلى ما كان.. لكن اكتشفت أمس أنّ العدد قد نزل إلى ٨!

سامحوني، يا أصدقائي، أني أتحدّث في مسألة بسيطة.. فإنّ عذاباتنا الكبيرة إنما تتكدّس من مثل هذه العذابات الصغيرة.

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٦-١-٢٠٢٠

الخوفُ.. عليّ!

سألني عبر الماسنجر، فأجبت:

الظنّ أنهم لن يتعرّضوا لي:

• فتركُهم لي يعطي فكرةَ أنهم يمنحون حرية للمتألّمين (وإني على هذا منذ الستينيّات(،

• وأظنّهم يُحاذرون استدعائي إليهم وأنا مَن تجاوز التسعين حولا.. خشيةَ أن أموت بين أيديهم.. فيَكْتَسِبَ أدبي رواجًا أكبر لا يتمنَّونه لي..

• ولا بأس إن "فعلوها".. فقد عشت، وشفت، وكتبت!

دمشق الشام: صباح الثلاثاء ٢٨-١-٢٠٢٠

هل كفّ أبناء المدن عن الالتحاق بالكليات العسكرية زمنَ البعث!

في ربيع ١٩٧٨، ونحن الموفدون الأجانب عائدون من رحلة للنورماندي في شمال فرنسا، توخّينا - أنا ورفيق السفر الطبيب السوري (ب. خ)- أن نجلس متجاورين في البولمان العائد بنا إلى باريس، وأخذنا نتحدث باستفاضة في الشأن السوري منذ بداية الاستقلال إلى يوم الناس ذاك.

ووصل بنا الحديث إلى ما يُلاحَظ من ارتفاع نسبة الضباط من أبناء الساحل في الجيش منذ آذار ٦٣، واستئنافا بُعيد شباط ٦٦، وليس انتهاء بالحركة التصحيحية الثانية تشرين الثاني ١٩٧٠... فبرّر لي رفيق السفر بأن أبناء المدن (يعني "السُّنّة") قد كفّوا عن الانتساب إلى الكليات العسكرية فملأ أبناءُ الساحل الفراغ.

وكان عليّ أن أصحّح.. قلت:

ـ إنّ الرغبة في الانتساب للقوات المسلحة هي واحدة عند أبناء المدن والأرياف، سهولا وجبالا وبَوَاديَ بعيدة، وليس لفريق من منطقة ما أن يدلّ على فريق آخر بأنه أكثر حبّا للوطن وغَيرة عليه وحرصا على الدفاع عنه.. ولكنّ ذلك "الاستبعاد" من قبل النظام جاء للاستئثار بالجيش والسلطة.. ويُذكر أنّ طلاب الكلية العسكرية يوم الثامن من آذار كانوا يمثلون كالعادة شرائح المجتمع كافة، فصَرفت "الثورةُ" الطالعة طلابَ تلك "الدورة" إلى بيوتهم مستبدلةً بهم منتمين إلى حزب البعث ومنهم مَن سُمّيت الدورة باسمه "دورة رفعت الأسد".

لم ألتقِ من يومئذ بذلك الصديق الطبيب، لا في باريس ولا في الوطن. ولكن حديثنا ذاك، ونحن في الطريق من النورماندي إلى باريس، ما كان له أن يغيب عن خاطري مع ما طواه الزمن من أيام وليال، مثلما حفظت ذاكرتي -منذ كنت طالبًا في "ثانوية المأمون" بحلب في بداية عهد

الاستقلال- ما كنا نرى، في أيام العطلة الانتصافية، من طلاب نعرفهم في "المأمون" قد سبقونا في التخرّج وانتسبوا إلى الكلية العسكرية، يزورون مسقط رأسهم، يتنزّهون سيرًا من شارع إسكندرون بالجميليّة حتى متنزّه السبيل، جيئةً وذهابًا، متباهين بزيّهم العسكري، وبالضفيرة الخضراء (الكوردون) متدلّيَة من الكتف اليسرى تَخفِق أمام موضع القلب، وفي الكفّ قفازٌ ناصع البياض يقبض على القفاز الآخر، ويُطلّ من العيون الاعتزازُ بحبّ الوطن، المستقلّ حديثا، وعلى الجباه يرتسم العزم على الدفاع عنه حتى الموت.

وأيضا لا أنسى ما كنا نراه بأمّ العين في حلب، في تلك الآونة من يوم ٢٩ أيار١٩٤٥ (قصَف الفرنسيون دمشق بالمدافع) حتى ما قبل الاحتفال بيوم الجلاء عن البلاد في نيسان ١٩٤٦، من مشاهد تَسرّ القلب: كتائب من مواطنينا المنتسبين إلى الجيش الفرنسي جنودا وضباطا، وقد غادروا لتوّهم الثكنة فوق تلك الهضبة (التي سمّيت فيما بعد "ثكنة طارق بن زياد")، منشقين بآلياتهم وعتادهم الحربي عن جيش الانتداب ملتحقين بالحكومة الوطنية، نراهم، ونحن في أول شارع إسكندرون عند موقف الترامواي، يطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجًا، فلا نملك نحن المشاهدون إلا التصفيق فرحًا بأن الجيش الوطني يبدأ بالتكوّن.

ذلك الجيش الذي أردناه حاميا لنا.. وليس مهجِّرًا لنصف سكان الوطن.. من بيوت بَنَوْها بكدّ اليمين وعرق الجبين.

دمشق الشام: ليل الخميس ٣٠-١-٢٠٢٠

في ستينيات القرن الماضي

في ستينيات القرن الماضي، أيام لؤي كيالي الذهبية..

كان يخطر لفناننا الجميل أن يذهب، بنحو عشرين لوحة من جديد إبداعه، إلى العاصمة

الإيطالية روما أو سواها، حيث معرضٌ يكون قد تمّ الاستعداد له.. يتخاطف فيه زوارُه كل ما هنالك..

ويعود لؤي إلى الوطن ناجحا غانما..

إنّ مبدِعًا على هذا المستوى.. كان لا بدّ من أن يُسرع الموت إليه في مجتمع غير متوازن!

دمشق الشام: فجر الجمعة ٧-٢-٢٠٢٠

يوم بدأت في العام ١٩٥٥ أنشر ما تجود به القريحة

يوم بدأت في العام ١٩٥٥ أنشر ما تجود به القريحة في المجلتين اللبنانيتين الشهيرتين في زمنهما "الأديب" و"الآداب"، التقيت لأول مرة في حياتي وجها لوجه بأديب حلب الكبير خليل الهنداوي في محلّ الكيالي لتوزيع المطبوعات بساحة "باب الفرج" (في تلك "الجزيرة" من الأبنية التي تمّت إزالتها لاحقا).. فبادر يسألني باهتمام ما إذا كنت من بين تلامذته في الإعدادي أو الثانوي؟

فأجبت بأنْ لا.

وأخذت أسمّي له الأساتذة الذين تلقّيت على أيديهم الأدب العربي في تلكما المرحلتين:

- إحسان النص (فيما بعد عضو مجمع اللغة العربية بدمشق)،
- وفريد رمضان (أستاذ مصري، شاعر)،
- وصبري الأشتر (أسهم فيما بعد في تأسيس كلية الآداب بجامعة حلب وغدا أول عميد لها)
- وعمر يحيى (الشاعر ذو الديوانين ومدير التربية بحماه).

منذ ذلك التاريخ أصبحت، أنا وعدد من زملائي الأدباء الشباب، "تلاميذ" للهنداوي وأصدقاء، نتلقى منه.. أدب الحياة.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ١٢-٢-٢٠٢٠

بعضُهم يتواصلون من "تحت الطاولة"

بعضُهم يتواصلون من "تحت الطاولة"

وبعضٌ أخرج بيادقه إلى ما فوقها

والأمة، المقهورة، تتساءل عن المصير!

ضحى الأحد ١٦-٢-٢٠٢٠

هل أنت بردان يا أبي؟

لا، ماني بردان، يا بنتي!

صحيح، ليس عندي تدفئة بالوقود السائل، فهذا ما أقلعتُ عنه منذ بداية أيام "المؤامرة الكونية"، مجرد مدفأة على الكهربا تلك التي تعرفين، أُشغّلها ما كان التيار ساريًا، وأُدَفّئ جسدي باللبس الثقيل: قميص أبيض لصق الجسد، تليهما بلوزة صوف، فوقها "معطف البيت" الذي بعثت به إليّ يومًا من فلوريدا، والرأس -الذي زال من قمّته الشعر بعد المعالجة الليزرية- يعتمر قلنسوة، وتلتفّ حول العنق لفّاحة، وكيس ماء ساخن رايح وكيس جاي، أضعه بين القدمين عند النوم وفي الحضن وأنا أمام الكمبيوتر أعمل.. فيستوي بذلك عندي الجلوس داخل غرفات البيت، أو الخروج إلى الحديقة أنعم بدفء الشمس إن كانت، أو أستظلّ شرفة الجيران في الساعات التي يَهمي فيها المطر.

ولا أتساءل كيف يتدفّأ اللاجئون بعيدًا عن بيوتهم التي كانوا بنوها بكدّ اليمين، ولا كيف يأكل فقراء الوطن، المتشبّثون بأسقف بيوتهم الإسمنتية، في أيام الغلاء الفاحش هذه.. لأني أعرف كثيرا من أحوالهم: البردَ الذي يعانون، والجوعَ الذي يَسْغَبون، والذلَّ الذي استوطن في سويداء قلوبهم، والموتَ الذي تُمطرهم به السماء نارًا، أو بَرَدًا وثلجًا، أو طُوفانًا.

نعم، وأعرف كذلك كيف يتمرّغ أولئك في بُلَهْنيّة العيش، ينعمون في الدفء، والشبع والريّ، والأمان. شيء واحد لا يستطيعون دفعَه عن أنفسهم، يا ابنتي: المَحْبَرة التي يغمِس فيها التاريخُ قلمَه.. ويُدَوّن.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٦-٢-٢٠٢٠

أمس.. فقدت صديقة قديمة عزيزة..

في عام ١٩٦٧ عرفتها موظفةً زميلة في دائرة رسمية تطلّ على "ساحة المرجة". رأيتها تهتم بالثقافة والمطالعة وإن كان ما تحمله من مؤهلات لا يزيد على الشهادة الثانوية. اسمها "ازدهار"، عزباء كانت، ثمّ عرفنا أنّ زميلا لنا في العمل، "عبد الرزاق" رئيسها المباشر، قد أخذه الحبّ والحنين، وأُعلنت بينهما خطبة وتمّ زواج.

تركتُ العمل في تلك الدائرة منتقلا إلى وزارة أخرى، ثمّ إني طلبت الإحالة على التقاعد في سن لم يألفها الموظفون، تطلّعًا مني للتفرغ للكتابة بقدر ما كان توقًا للانعتاق من قيود الوظيفة.

ذات يوم، وأنا أمشي الهوينى في "شارع الحمرا" المُنشَأ حديثا، توقفت سيارة بجواري. كان الزميل القديم، الزوج المحبّ عبد الرزاق حفار. كلمات قليلة تلقّيتها منه تعبّر عن استحسانه لما يقرأ لي هنا وهناك، لم تدع لي فرصة أن أسأله عن الزوجة وما أنجبا من بنين وبنات.

سنوات أخرى انطوت، وإذا امرأة تطلّ عليّ في العالم الأزرق، تسألني: "كيفك يا كاتبنا

الكبير؟ "، قلت: "أين أنت يا ازدهار خانم؟ "، فكتبت غير متخلّية عن دُعاباتها: "والله بيلبقلي هاللقب! ".. وخُيّل إليّ أني أسمع صليل ضحكتها.

وكان إحياءٌ للزمالة القديمة. قالت إنّ لها ستّ بنات وشابا، والجميع متخرجون في الجامعات، وهم يعملون في وظائف متميّزة. وأضافت أن إحدى بناتها طبيبة استشارية في إسبانيا، وسألتني إن كنت أشكو من شيء؟ فاستجبت، بعد ربع ساعة جاءتني المَشُورة! يا للتفوق! ويا للمخترعات!

دعاني الزوجان لوليمة في بيتهما بضاحية دمشق الجديدة (مشروع دمّر)، حرصت ازدهار على أن تدعو مَن لها صلة مستمرة بهم من زملاء وزميلات تلك الأيام. وعرفت -ولم أكن أعلم- أنّ صديقي عبد الرزاق ينظِم الشعر موزونا ومقفى، ثم رأيته يتخذ من التعليق على منشوراتي في "التواصل" إحدى هواياته. وأما ازدهار فقد عرفتُ أنها دخلت كلية الآداب وحازت، وتابعت الماجستير في بيروت.. أيّ اكتشاف أضمرته لي الأيام!

أقول: الأيام.

بعد حين قصير جاءني نعي صديقي، فقرأت لها في صفحتها: "من فجر يوم الخميس وإلى الآن لا تغيب عن نفسي ونظري صورة زوجي العظيم بكل صفاته الإسلامية، من نظافة القلب والجسد والصدق والعفة والتسامح، قبل ساعات قليلة كانت جلسة جميلة، كانت جلسة الوداع دون أن ندري في ٢٠١٧/١٢/١٤ صباح يوم الخميس... أرجو منكم الترحم على روحه الطاهرة.

وأمس، أمس أيها الأصدقاء، يأتيني خبر رحيل صديقتي ازدهار.. فجعلني هذا أفكر، وأعيد التفكير.. وأنتظر..

رحمهما الله تعالى.. ورحمنا.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ١٨-٢-٢٠٢٠

وهو أمام شاشة الفيسبوك

اعترته، وهو أمام شاشة الفيسبوك يوم أمس، دوخةٌ مفاجئة أحسّ معها كأنه يوشك أن يُغمى عليه، دام ذلك نصف ساعة وهو يُصابر.. نهض ليمشي، وجد نفسه يترنّح، بسط ذراعيه إلى جانبيه للتوازن..

زايلته هذه الحالة تدريجياً خلال ساعتين.

دمشق الشام: صباح الجمعة ٢١-٢-٢٠٢٠

نظام..

نظام.. لا يأبهُ بالتاريخ

دمشق الشام فجر السبت ٢٢-٢-٢٠٢٠

في صيف ٢٠١٥

زارتني صديقة بالفيس، كانت قد تخرّجت في عامها ذاك متفوقة وتوظفت مهندسة في الدولة.

سألتها، فأجابت بأنّ ما يصل إلى يدها من راتب هو ٢٢ ألف ليرة (وكان الدولار يومئذ قد تجاوز ٣٠٠ ليرة).

لم أبك شفقة عليها.. لكنها لاحظت الريبةَ في عينيّ.. فحلفت لي!

لا تزعل مني يا بلدي.. أنتَ.. لا تُهجّر أبناءك من منازلهم، ولا تُجيعهم.

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٣-٢-٢٠٢٠

في طلعة "العفيف"، أو في نزلتها

في طلعة "العفيف"، أو في نزلتها، رأيت معلمةً شابة تقود رتلاً من تلاميذَ صغار (نحو عشرة)

واحدا وراء الآخر

وقفت أتأملهم

لاحظني الأخيرُ

ابتسم

واشرأبّت قامتُه، تزهو

ذكّروني بأحفاد

أودعتُهم هناك

أشتاق إليهم

وليس للعمر أن يُسعفَني بلقائهم!

دمشق الشام: عصر الإثنين ٢٤-٢-٢٠٢٠

ولا ربع لايك

قُرع الباب. كَبستُ زرّ الأنترفون. لاح لي في أول الحديقة رجل في الخمسين، يدنو بقامته الفارعة. بعد السلام رأيته يُطلعني على بطاقته الشخصية معرّفا، مازحتُه بأن حاولت سحبها

من كفه، فاستغرب.. إلى أن عرف أني رجل "مزّاح"!

جلسنا تحت شجر الكبّاد تتدلى ثماره ما بيننا ولا تحجب.

قال: تعرّفت على صفحتك، يا سيدي، منذ عام. أتابع في الصباح ما تجود به قريحتك في الليل، ثم أطلّ عليها في أوقات النهار. أحبّك في الله. أنت تعبّر عمّا لا نستطيع نحن البوح به. لكني أخاف عليك، يا سيدي، وأخاف على نفسي إن وضعت لك لايك!

قلت: لست أول من قالها!

قال: لو تعرف كيف اهتديت إلى بيتك. الصورة التي نشرتَها أمس لباب بيتك كانت لي الدليل. أعرف اسم الشارع الذي تسكن فيه. قضيت الآن نصف ساعة وأنا أتجول بسيارتي في المنطقة حتى اهتديت. ما أردت أن أسأل في هذا أحدا.

بعد الحديث عما استوعبته ذاكرته ممّا سمّاه "جواهر" الأقوال.. سألته: غدًا.. هل تضع لي لايك؟

أسرع يجيب: ولا ربع لايك!

التقط صورا للكبّاد، وأشرت عليه أن يقطف، اكتفى بواحدة وبليمونتين.. قال: أشمّها وأتذكّر.

سألته أن نتصور معا، رضي بالموبايل الذي يحمل!

أظنّه الآن يتوقع أن يقرأ هذا الذي أوحته لي زيارةُ مواطن.. ما يملأ قلبَه من الألم يضاهي الذي عندي.

له.. ولكم التحية، أيها الأصدقاء، مَن يضع ومَن يمتنع.

دمشق الشام: ليل الإثنين ٢٤-٢-٢٠٢٠

كان أهلنا يبعثوننا صيفًا

كان أهلنا يبعثوننا صيفًا، عندما تُغلِق مدرسة الحضانة في حي "العَدَسات" بحلب أبوابها، إلى الخوجة "أم أحمد الضامَهْ جي" في حارتنا "زقاق الزهراوي".. لنتعلم ما تيسّر من آيات القرآن الكريم.

كان بيننا طفلٌ صغير اسمه "توفيق" مُسَتّتُ الأصابع، لم يكن يُوفَّق في لُبس الشحاطة، (الشبشب) أو القبقاب، بالشكل الصحيح، فكان يُبادل ما بين الفردتين.. نلاحظ ذلك نحن الأولاد ونضحك.

فجر اليوم، قمت من سريري والكهرباء مقطوعة. في الحمّام اكتشفت أني لبست الخف بالمقلوب.

دمشق الشام: ضحى السبت ٢٩-٢-٢٠٢٠

أصدقائي الأعزاء

ما رأيكم في "ذكريات" عن أيام كان قد قضاها "جنينٌ" في رحم أمّه.. يرويها وهو في سنّ الشباب أو الكهولة؟

قصة قصيرة لي (من ٥٠٠ مفردة) تتخذ من "الفانتازيا" أسلوبا لها.. وتُمعن في الخيال والتخييل!

ظهرت القصة، وعنوانها "سبع بنات"، في العدد الذي صدر هذا اليوم لمجلة "كل العرب"، التي تُطبع في كل من باريس والقاهرة في آن معًا.

أقدّمها لكم هذه الليلة.

دمشق الشام: عصر الأحد ١-٣-٢٠٢٠

مجدِّد السيارات القديمة

وقد تنشأ عند شابٍّ من مواطنينا في فلوريدا، هوايةُ تحديث السيارات القديمة الطراز، فهو إمّا صادف واحدة من ذلك في طريقٍ عرَضَ على صاحبها التخلّي عنها لقاء....

ويأتي بها إلى فناء دارته، يفكك أعضاءها ومفاصلها، ويتواصل مع "الفابريكات" التي تنتج تلك القطع.. ويُركّب.

وبعد أسابيع من العمل في أويقات الفراغ، ينتهي بأن "يبخّ" السيارة بالدهان، فتغدو جديدة تهفو إليها قلوب عشاق السيارات القديمة..

ولا يتخلّى عنها إلا إذا التقط قديمة أخرى.. فيشرع من جديد!

دمشق الشام: ضحى السبت ٧-٣-٢٠٢٠

كيف انتقلتُ موظفا.. من حلب إلى دمشق!

كان بعض رفاق المدرسة في أواخر أربعينيات القرن الماضي ونحن طلاب في "ثانوية المأمون" بحلب، وكذلك زملاءُ لي في المحاماة والوظيفة العامة في الخمسينيات، ينتسبون إلى الحزب.. فلما أشرقت شمس الثامن من آذار كوفئوا بأن أَخذوا حظوظهم من الامتيازات: مَن أُوفد منهم لمتابعة التحصيل في دول العالم، ومَن تَسَلّم منصب مدير عام لمؤسسة، أو معاون وزير، أو تسلّم وزارة برمّتها، أو أمسى سفيرا يتنقل في دول العالم...

وأما أنا..

فقد ظللت موظفا في الدولة، يمارس الكتابة بقلم يَنشد الحرية للجميع، ينظرون إليه بعين

حمراء، وهم ينقلونني بين محافظات القطر من مدينة لأخرى.. آخر ذلك أنّ "رئيسي" المباشر بحلب، وهو زميل كان متعثّرا في دراسته، يقترح على "الوزير" (وهو من عمال حلب) أن يقذف بي إلى أقصى المحافظات الشرقية، الحسكة، بذريعة أني "موظف مخرّب".. لولا أن الوزير (الذي كان آخر ما شغل من مواقع بحلب "رئاسة اتحاد النقابات") امتنع عن اقتراف هذه الأذيّة.. وأسمح لنفسي بأن أتخيّله يحاور "المدير" فيقول: إنّ هذا الموظف كان يستقبلني في مكتبه بكل الاحترام، وقد استمعت إليه "محاضرًا" فينا بدورة تثقيفية، أفَإن صرت وزيرا رميتُه في آخر البلاد؟! إن كان يضايقك آخذه موظفا عندي في الوزارة.

وهكذا، يا أصدقائي، كان انتقالي بوظيفتي إلى دمشق، وبقيت فيها حتى يوم الناس هذا.

فأما المدير زميل الدراسة القديم (م. ق)، فقد ظل يصعد ويصعد.. حتى بلغ المناصب العليا.

وأما الوزير (ج. ث) الذي كنت حاضرت فيه وفي زملائه.. فقد نزل عليه غضب بُعيد ذلك اليوم (فجر ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٦٦).. فأُقصي، وغاب في زحمة الحياة.

رحل الرجلان، عليهما رحمة الله.. وبقيت لأروي.

دمشق الشام: ضحى الأحد ٨-٣-٢٠٢٠

سائق الإسكندرية، الشريف

كتبت ابنتي سهير في صفحتها الآن (في فلوريدا) مستذكرةً حادثة وقعت لها قبل بضعة عشر عامًا وهي في الإسكندرية:

"وحصلَ أن قفزتُ من القطار وهو يُغادر المحطة، (وتدعبلتُ) على الرصيف ركضاً خلف حقيبةٍ نسيتُها بالتكسي! الإسكندريّة"

فكتبت معلّقًا:

والذي حصل لاحقًا، يا بنتي، وفي الساعة ذاتها.. أن سائق التكسي، الشريف، جاء إلى البيت (الذي أسكنه بجوار مكتبة الإسكندرية)، وقدّم لك الحقيبة، وقال: فتشوها! فوجدتِها تمام وأعطيته اللي فيه النصيب، وغادرت ثانية بالقطار إلى القاهرة، حيث سبقتك أختك خلود وابنتك زينة. كان ذلك في صيف ٢٠٠٢.

دمشق الشام: ليل السبت ١٤-٣-٢٠٢٠

صديقٌ أكاديميّ جزائري

صديقٌ أكاديميّ جزائري، يحبّ بلدي سورية حبًّا جمّا.. ومشكلته أنه لا يُفرّق بين محبّته للحكومة القاهرة وحبّه للشعب المقهور

رأيته يقتبس مقتطفاتٍ ممّا يكتبه المؤيدون للنظام هنا، وينشرها في صفحته بمتعة فائقة، وأحيانًا يترجمها إلى الفرنسية ليُعبّر عن محبّته لسورية.

كان يجادلني، ويستغرب جهالتي من أنّ النظام يعتزم مع "آيات الله" أن يحرّروا القدس ويسترجعوا كل الأراضي المحتلّة...

في الآونة الأخيرة افتقدتُ وجوده في الشابكة

وما أدري:

هل يئس من أن تُدرك الصحوةُ أبناء شعبي؟ أم أنّ الصحوة أدركته هو.. فخجل وتوارى؟

دمشق الشام: مساء الثلاثاء ١٧-٣-٢٠٢٠

لو أنهم كثيرٌ، الذين هم على غرار ذلك الوزير!

في عام ١٩٨٢، وفي شهر شباط الدامي في مدينة حماة، كُتب لي - وأنا أشغل وظيفة مدير في وزارة التعليم العالي - أن أمثّل الوزارة في إجراء تمديد "الاتفاقية الثقافية" المعقودة بين القطر ودولة الجزائر الفتيّة. وقد أتاح لي سفري أن أنزل بطريق العودة في تونس لمراجعة "التجارب الطباعية" لكتابي "الابتسام في الأيام الصعبة" التي تتعهد نشره الشركة التونسية للتوزيع (ط٢ دمشق ٢٠٠٢)، فزرت في العاصمة التونسية "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" ALECSO وكان في رئاستها الدكتور محيي الدين صابر، (من النخبة الثقافية السودانية)، والتقيت باثنين من العاملين السوريين فيها، الدكتور أديب اللُجَمي وشحادة الخوري.

وفي عودتي للوطن اتفق أن وصل من هذه المنظمة للقطر تعميمٌ في الحاجة لموظفين يعملون فيها يُنتدبون من العاملين في دوائر الحكومات العربية، فزَيَّن لي طموحي أن أتقدم بين زملائي السوريين مترشحا لذلك، مع يقيني من استحالة تحقيق هذه الطموح فمثل تلك الوظائف الغالية وقفٌ على البعثيين ومن يوالون النظام. وكانت الترشيحات ترد إلى وزارة التربية في جهة مخصصة للنظر فيها قبل توجيهها إلى المنظمة.

كان وزير التعليم العالي آنذاك هو الدكتور أسعد عربي درقاوي، أستاذ الفلسفة في آداب دمشق (وهو من أصول جزائرية، كانت جماعة كبيرة منهم قد نزلت الشام في أعقاب ثورة الأمير عبد القادر)، وكانت في ميزات هذا الرجل الإنصافُ جليّا، من ذلك أنه لم يَدَع رحلات السفر لتمديد الاتفاقيات الثقافية مع الدول وقفًا على مدير (أو مديرة) "العلاقات الثقافية" في الوزارة، فكان يوزّعها على المديرين كافة، إلى أن جاء دوري في الترشيح، وكان وزيرنا يكنّ لي التقدير بصفتي كاتبا على نحو ندَرَ في علاقاتي السابقة مع الرؤساء والوزراء الذين كان "عدم

ارتياحهم" لشخصي يفوق تقديرهم لموهبتي الأدبية!

في تقديمي الأوراق إلى إدارتي أملاً في الالتحاق بالعمل في تلك المؤسسة العربية الثقافية (لتي كان قد انتقل مقرّها من القاهرة، في أعقاب زيارة الرئيس السادات لإسرائيل، وكذلك جامعة الدول العربية وملحقاتها، وتمّ توزيعها بين الدول العربية).. كان يتعين إيداع مثل هذه الأوراق في وزارة التربية فهناك جهة خاصة تتولى التواصل مع هذه المنظمات.

وأذكر، هنا، أن الدكتور الدرقاوي كان مرة في اجتماع لمجلس الوزراء. مما نُمِي إليّ أن وزير التربية في ذلك الحين اقترب منه وهمس في أذنه أنّ السباعي فاضل كان قد اعتُقل قبل عامين من سلطات الأمن فهل يجوز أن يكون اسمه بين هؤلاء المرشحين؟

وأذكر أيضا أن إجابة الوزير الهُمام كانت: نعم اعتُقل وخرج بريئا، وقد عَهِدْنا إليه في الوزارة أن يشارك عميدَ كلية الآداب في امتحان المرشحين لوظيفة معيد في "المقدرة اللغوية".

أكرر الآن ما سبق أن قلته في ذلك اليوم من أنه يكون طيّبا جدا لو كانوا كثيراً في قيادات النظام، "المنصفون" الذين هم على غِرار الدكتور أسعد عربي درقاوي، الذي كان اختياري مغادرة الوظيفة بالمصادفة في أيامه الخيّرة (أواخر ذلك العام ١٩٨٢) وأنا في عزّ شبابي رغبة في التفرّغ للكتابة... هذا الرجل الذي انتهت أيامه وزيرًا في العام بعد التالي، وذلك برحيله بمرض عُضال. ليكن منزله في الفردوس الأعلى، يرحمه الله تعالى.

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ١٩-٣-٢٠٢٠

في المتجر

ذهبت أمس مساء إلى المتجر القريب الواقع على الضفة الجنوبية لـ"نهر تورا"، لأشتري غرضًا.

فوجئت بأن حارسًا يقف في الباب على غير العادة، وبعضهم ينتظمون في صف أمامه منتظرين، قلت له لحظة حال بيني وبين الدخول: أريد فقط عُبوة من زيت الزيتون للسلطة! ولما هممت بالنكوص مكّنني من اجتياز الباب (ربما استثناءً بسبب السنّ).

رأيت المكان في الداخل مزدحمًا بالزبائن، يتبضّع كلٌّ ما استطاع حملَه، وتبيّنت أن مهمة الحارس في الخارج كانت أن يسمح بدخول عدد من المنتظرين بقدر مَن يخرج من المتجر.

إنهم "يتموّنون" كما لو أنّ حربا توشك أن تقع.. وهم لم يخرجوا بعدُ من حرب نحن فيها منذ عشر سنين!

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٠-٣-٢٠٢٠

امرأة في صيدلية

بمناسبة عيد الأم

سيدة في ثلاثينيات العمر، دخلت صيدلية وفي يدها وصفة طبية.. اضطَرّها الانتظارُ لأن تستمع لكلام رجل يحدّث آخر.. يقول:

ـ المرأة لا تستحق أن تُمنح حرية.. المرأة من جنس الشياطين.. المرأة بنصف عقل.. المرأة أغبى مخلوق صنعه الله على وجه الارض..

والآخر يهتزّ طربا و.. غباء.

لم تستطع السيدة أن تتحمّل أكثر، فانتفضت قائلة:

ـ ليس لأنك قليل أدب وضعيف عقل.. بل لأنك لم تحترم وجود سيدة في المكان مضطرةٍ لأن تستمع لسخافاتك وتفاهتك.. ليتني كنت أعرف زوجتك، أو أختك، أو أمك، أو جدتك، أو عمتك، أو خالتك.. أنت لم تحترم كل هؤلاء وتصفهنّ بكل هذه الصفات المنحطة.. عليّ

إذن أن أُعرّفَك بها لم تعرف عن المرأة من قبل، أو أنك لم تسمع بهن: أنديرا غاندي هل سمعت بها؟ أو غولدا مائير؟ أو جميلة بوحيرد؟ أو ما حققته ماري كوري؟ أو هيلين كيللر؟ أو زنوبيا؟ أو بِلقيس؟ أو سميراميس؟ أو شجرة الدر؟ أو عائشة وقبلها خديجة وبعدهما سكينة بنت الحسين؟!

وغادرت الصيدلية.. دون أن تشتري الدواء.

وقع ذلك.. في مثل هذا اليوم.. في عيد الأم.. قبل خمسين سنة.

كان اسم السيدة "ملكة الزهور".. فأصبح "ملكة العقول".

(منقول بتصرف يسير)

دمشق الشام: ضحى السبت ٢١-٣-٢٠٢٠

أنا.. والزمن!

رأيت يد العون تمتدّ لي من أصدقاء وراء الحدود، لم تكتحل عيناي برؤيتهم:

• في الرياض، صديقٌ يتطوّع لأن يجمع كلّ ما نشرت وأنشر من خواطر في صفحتي، عامًا بعد عام، مفهرسةَ الأشهر والسنين،

• وفي إسطنبول، يتبرّع صديقٌ بأن يُنشئ لي موقعًا أنزّل فيه كتبي وأعمالي يقرؤها الناس،

• وفي واشنطن يَعرِض عليّ صديق أن ينشر لي كتابا بالتعاون مع شركة أمازون العالمية يوزَّع في كلّ أنحاء الدنيا،

• وفي مكة المكرمة يتولّى صديقٌ إعداد فهارس فنية لكتاب لي قيد النشر بلغت صفحاتها الخمسين،

• وفي الدوحة، وفي جنيف..... ماذا أقول؟

ولكن الأمر هنا في دمشق مختلف جدا:

• يتردّد بعضهم في عوني وعيونُهم نحو السلطة، حتى إنهم يمنعون النفس من وضع لايك!

• والصبايا المُتقِنات فنَّ التنضيد الضوئي والإخراج والتعامل مع المواقع، يُحجِمنَ عن دخول بيت رجل.. أوحد.. أعزب!

• والنظام يوصد أبوابه دوني فلا يسمح بأن أكتب خواطري الثقافية، البريئة، في "زاوية" بجريدة، ويعتذر عن نشر كتبي في مؤسساته، ويمنع ذكر اسمي في وسائل إعلامه...

قولوا لي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا أعمل.. وقافلةُ الزمن تمضي بي؟

دمشق الشام: صباح السبت ٢١-٣-٢٠٢٠

اثنان.. واثنان

هل كُتب على العالم في أيامنا هذه أن يكون أرقى رئيسين للوزراء:

• الأول في أقصى الغرب: الكندي "جاستين ترودو"،

• والآخر، والأخرى في أقصى الشرق: النيوزيلاندية "جاسيندا اردرن"؟

وأن يكون أسوأ رئيسين للبلاد:

• الأحمق ترامب،

• والأكثر شراسة بوتين؟

دمشق الشام: فجر الأحد ٢٢-٣-٢٠٢٠

قعود الرجل في البيت

في خريف ١٩٨٢ طلبت في الوظيفة إحالتي على التقاعد وأنا في سنّ من العمر مبكرة، رغبةً في أن أتفرّغ للكتابة.

فجاءت النسوة يُشفقنَ على زوجتي.. من أنّ "قعدة الرجّال في البيت" تجعله يتدخّل حتى في أمور المطبخ، خاصة وأني قلّما أفارق البيت، مُغرِقا نفسي في الأوراق والأقلام والكتب!

الذي وقع أنّ زوجتي كانت هي التي تدخل عليّ، والقلم في يدي يقطر كتابة، لتطلب مني أن أُنزِّل لها القطرميز من على الرفّ، أو أن أبدّل جرّة الغاز، أو أذهب إلى الفرن لآتي بالخبز (الذي لم يكن يباع بالربطات!).

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٢٤-٣-٢٠٢٠

المشي على الأرصفة!

أمسِ.. كنت أسير على جانب من الشارع، متحاشيًا المشي على الرصيف، وبيدي أغراضٌ تسوّقتها من المتجر القريب خِلسةً من وباء "الكورونا"!

فجأة.. توقفتْ بجواري سيارة فارهة، يقودها رجل كان كلّ ما فيه ينُمُّ على الغطرسة والعنطزة[1]، قال يخاطبني:

ـ يا ختيار الختايرة! ليش ما تمشي ع الرصيف، الظريف النظيف، فتجنّبَنا المزالقْ، وتخلّي مزاجَنا رايقْ؟

---

(١) من العاميّة: أصلها للجحش إذا رفع قوائمه الخلفية ورفس بهما، ثم استخدموها تهكّماً للمنتفخ كِبراً المسيء بهذا لمن حوله

فساءني أن أتلقى هذا الكلام الفظّ، من رجل لا أعرفه ولا يعرفني، فجاريته بالفذلكة والحذلقة:

ـ لأنّ كلّ الأرصفه، مهدومةُ الأرض منخسفهْ، محفّرهْ ومجعبَرهْ، فالمسؤولون يُبيّتون سياراتهم عليها، غيرَ سائلين عن البلد ومَن عليها! وإني لِكَلالٍ عندي في البصرْ، أخشى أن أتعثّر فأقع وأنكسرْ... ثمّ ثمّ من أنت يا صاحْ، حتى تخاطبني بهذه اللهجة الوقاحْ! بالله عليك ألست ممّن يُبيّتون سياراتهم، على أرصفة بوّاباتهم!

فرأيته يُدير وجهه عنّي، ويدعس على البنزين هربًا منّي.

دمشق الشام: الجمعة ٢٧-٣-٢٠٢٠

الختيار الشَّغوب

خرج الختيار من بيته سويعة الضحى. مشى في "شارع عطا الأيوبي" (الموازي لـ "نوري باشا" صعودا) حتى الطريق العام النازل من "العفيف"، وانعطف نحو اليمين.

دخل صيدلية. طلب تلك القطرة التي تجلو الغشاوة من العين، ما زال يتعالج بها قبل تصحيح النظر لعدسات جديدة للنظارة القديمة. وجد سعر القطرة قد ارتفع، قال إنه اشتراها آخر مرة بنصف هذا الثمن، فقال الصيدلاني وهو يبتسم: "كان يا ما كان! ".

في متابعة نزوله نحو "الجسر الأبيض" صادف فتى يقف على الرصيف مستندا بظهره إلى الحائط، مستريحًا حتى إنه مدّ إحدى قدميه إلى أمام. توقف أمامه، رفع قدمه يهمّ بأن يدوس القدم الممتدّة. استغرب الفتى، وربما قال في نفسه: هذا الختيار الطيب، ألا يُبصر طريقه؟ قال الختيار باسما: "أردت أن أشْغَبَ عليك! "، فأدرك الفتى، واعتدل في وقفته، وأقبل يعانق ذراع الختيار يماشيه الهوينى خطوات!

على رصيف الفرن، المفتَتح حديثا في المحلّة يُقدّم الخبز "غير المدعوم" من الحكومة والصمّون والكعك، رأى صَفّين من الناس، للنساء وللرجال. تجاوز الدور، ليقول للفران: "عمري ٩٠، أريد ربطة خبز أسمر". قال الفران كالمعتذر: "استأذنْ الواقفين في الدور إذا يسمحوا". رفع الختيار صوته: "أقول لك عمري ٩٠، ولا أقدر على الوقوف! ". أرسل الرجل إليه نظرا مستطلِعًا. وبدا أنّ السيدة الواقفة في أول الصف أشفقت، فتمتمت بكلمات جعلت الفران يقدم له ربطة، قال الختيار: "تنتين".

ومضى عائدا إلى البيت.

في ناصيةٍ داخل "شارع نوري باشا" رأى، للمرة العاشرة، بُحيرة ماء. المصرفُ هنا مصطوم[1]، وغَسْل سيارات المسؤول، المصفوفة بجوار الرصيف، غير ممتنع ولا منقطع.

قال في نفسه: المسؤولون إن سكنوا بيننا فلا يأتينا منهم إلا وجع القلب!

ودخل بيته بالخبز والدواء، وأغلق الباب وراءه، منعزلًا متوحّدا.. في زمن الكورونا.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٨-٣-٢٠٢٠

يا ربي، لماذا خلقتني في هذا الزمن!

أسهر الليل. أكتب أدبًا، أتعاطف فيه مع الفقير والمقهور والمطالب بالحرية. أبعث به إلى ما وراء الحدود. يُرشَّح للنشر. أستحقّ عليه "مكافأة".. وأنتظر.

• والمكافأة إنْ أرسلت إليّ عن طريق شركات التحويل، فإنّ نظامنا يقضم نصفها (الفارق بين السعرين)،

(١) مسدود. أصلها من العربية من سَطَم الباب، بالسين، أي: ردّه.

• فيكون اقتراحٌ بأن يتريّثوا هناك ويبعثوا بالمبلغ مع أحد القادمين. وعند تسلّمه يتتابنا الخوف من أن نَصرف الدولار سِرّا في "السوق الحرة"، فإن ضُبط أحدنا متلبّسًا عوقب بالسجن سنين عِجافا.

أسمع، أقرأ، أشاهد.. أولئك الذين فُرشت أمامهم الدروب بالأزاهير والورود، وأتساءل متعجّبًا: كيف تأتّى لهم أن يمتلكوا الملايين والمليارات بالعملات المحرّمة ولا حرج عليهم!

فأتوجّه إلى ربّ العالمين أسأله: يا إله الكون! هل هؤلاء أنفع للوطن منّي؟ لماذا خلقتَني في زمن البعث!

وأعود.. أسهر الليل.. وقد ازدادت رغبتي في الكتابة.

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ٣١-٣-٢٠٢٠

كلمة "ختيار".. من أين؟

لاحظت أنّ كلمة "ختيار" باتت تتردّد عندي في الآونة الأخيرة، فشاقني أن أتعرّف على أصل الكلمة؟

لدى رجوعي إلى "موسوعة حلب المقارنة" للأسدي (التي حققها وأشرف على نشر أسفارها السبعة باقتدار صديقُنا محمد كمال، بجامعة حلب)، وجدت أن هذه المفردة الشائعة في بلاد الشام جاءتنا من اللغة التركية "بي إختيار"، ومعناها "الشيخ"، وهي في هذه اللغة مؤلفة من كلمتين غير تركيتين:

• الأولى "بي" الفارسية أداة النفي عندهم،

• والأخرى من "الاختيار" العربية،

ويشرح العلامة خير الدين الأسدي: يريدون بالكلمة: مَن هو في سنّ ليس له فيها أن يختار،

ثم اختصروها "إختيار".. انتهى[١].

وأعرف أنهم في حلب يلفظونها "ختيار"، وفي دمشق "إختيار"، وهنا في العاصمة أسرة "الاختيار"، منها الكاتب والإذاعي "نسيب الاختيار" (ي١٩١٠-١٩٧٢).

وتحضُرني الآن ذكرى غير مستحبّة: أنّ ولدي الوحيد يوم كان في العشرين من العمر اعتُقل بدمشق، وبالجهد عرفنا في أي معتقل هو. وبوساطة عند رئيس اتحاد الكتّاب تناول السماعة يهتف إلى رئيس تلك الجهة الأمنية واسمه "هشام اختيار" (هكذا فهمتها)، وتمّ تحديّد موعد لزيارتي له. وأذكر (وكان ذلك في صيف ١٩٨٩) أنّ "العميد هشام" كان لطيفا جدا، ما جعلني أسأله عما إذا كان الكاتب الدمشقي الراحل "نسيب الاختيار" من أسرته، فجعل يقول إنها.. أسرة ذات فروع.. بعضها.. وبعضها.. لمّا حدّثت أصدقائي عن ذلك، صحّحوا لي اسم الرجل، فهو "هشام بُخْتيار" من أصول إيرانيه (وتذكرت أني قرأت يوما أنّ زوجة شاه إيران المطلقة لعدم الإنجاب "ثريا" تنتمي إلى قبيلة "بختيار" العريقة)، وأدركت الخطأ الذي وقعت فيه. وكانت نهاية حياة (اللواء) هشام بختيار في ذلك الانفجار، الغامض، في تموز ٢٠١٢ الذي وقع في مقرٍّ للأمن القومي بجوار بيتي (على الضفة الجنوبية "لنهر تورا" أحد فروع بردى في دخوله دمشق)، وراح ضحيتَه عددٌ من كبار الضباط ومنهم وزير الدفاع.

لن أدع القلم من يدي قبل أن أذكر أنّ صديقي الطبيب الدكتور طارق عكاش (يصغرني بعشرين سنة)، اتفق أن غاب كلٌّ منّا عن صاحبه ربع قرن مديد، فلما تلاقينا عام ٢٠١٦ رآني وقد تقدّمْ بي العمر، فدفعتْه مودّته إلى أن يقول لي كلمة ما زالت تتردّد في خاطري: "والله الخَتْيَرة

---

(١) الأرجح أن الأتراك أخذوها من "الاختيار" العربية دون معنى النفي، القادم من الفارسية، لأن الشيخ الكبير يُختار ويُرشَّح من قِبَل عائلته لينوب عنها أو يتحدث باسمها ونحو ذلك. ويشيع في اللغة التركية أخذُ المصادر من العربية، واستخدامها في غير معنى المصدر. والله أعلم.

ما بتلبقلك".

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ١-٤-٢٠٢٠

وجدتُني أصارع الموت

وجدتُني أصارع الموت في بحر عميق. فتهيّأ لي أنهم يريدون لي الموت.

رفعت صوتي:

ـ تُغرقونني في بحر العقوق، أنا الذي صغت لكم حروفا أثمنَ من رؤوسكم!

واستيقظت، وقد انتابني شعورٌ حادّ بالخوف من الغرق، أنا الذي لا أعرف السباحة.. مع كثير من الخجل لما فاه به لساني، وقد كنت أظنّني أمتلك التواضع!

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ١-٤-٢٠٢٠

ضحى اليوم الجمعة

بعد أن أخذت حبّة فيتامين لتقوية المفاصل وأخرى لتمييع الدم، خرجت من بيتي متّجهًا إلى "الجسر الأبيض" القريب. وقد سمعت أنّ "الغذائيّات" تفتح يوم الجمعة حتى الثانية عشرة ظهرا قبل أن يُدركها المنع.

وأنا أمشي متحاملا على نفسي، في الشارع الخالي من المارة، لأشتري خبزا وحليبا.. خطر لي أن يكون ما وصل إليّ من خبر فتحِ المحالّ في هذه الأويقات غير صحيح.

مرّت بي فتاة قادمة من الجسر، تحكي بالجوّال بصوت عال، استوقفتها، فأفادت بأنّ الفران مسكّر، وكذلك المتجر اللي جنبه؟

فعدت إلى البيت. وأنا أشكو إلى الله ما فعله الأشرار بالعالم.. وأخذت شيئا من الخبز اليابس

أبلّه، واستبدلت الشاي بالحليب.. ومشي الحال.

إنها ليست أيام خراب وتدمير فقط، بل هي "زمن الكورونا" أيضا.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٣-٤-٢٠٢٠

في أعقاب الحرب العالمية الثانية

في أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، لم يكن هناك اتحادٌ يقوم بين العرب أفضلَ من أن يكون:

- بين شام الأمويين، فاتحةِ العالم في زمانها،
- وبين العراق، منجزِ أعظم حضارة في تاريخ العرب

وما كان هذا المشروع يروق لبعض العربان.. فخذلوه واتّهموا.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٣-٤-٢٠٢٠

وقفتُ هذا الفجر

وقفتُ هذا الفجر على رسالة من صديق يسألني:

ممكن تفسّر لنا المقولة الحلبية "عمرو من بيت الزطّ ما طلع مؤدّن! "، ومين بيت الزط؟ وعذرًا إذا سببت لك أي إزعاج.

أقول:

في المصادر أنّ "الزُّطّ" قوم جاؤوا من الهند واستقرّوا في العراق في البطائح ما بين واسط والبصرة، الواحد منهم "زُطِّيّ"، ويوصَم بأنه لئيم دنيء! ومعنى هذا أنّ هؤلاء القوم على إسلامهم لا يخرج منهم من يمكن أن يتولّى الأذان في المساجد. وذلك ممّا تتعالى به الشعوب

أحيانا على فئات فيها وتزدريهم. وليس في علمي بحلب من يُعرف بأنه من "بيت الزطّ"!

ولم يُسبّب سؤالك لي إزعاجا، بل تأكد عندي أنك "تُنكّش" في أمور وتحب أن تعرف.

دمشق الشام: فجر الأحد ٥-٤-٢٠٢٠

"الحقّ على الزمن، يا بُنيّتي"

تحاملت على نفسي اليوم وتوجّهت إلى حيث تُستخرج بطاقة سمَّوها "الذكية"، تلك التي تُخَوّل حامليها أن يحصلوا - بالهاتف ودون وقوف وانتظار - على "جرّة غاز" تبثّ الحياة في أوصال مواقدهم.

صعدت درجًا استنفد كلّ قوتي.. حتى بلغت الطابق الثالث. التقيت رجالا ونساء ينتظرون بصبر جميل أن يُفتح أمامهم بابٌ مغلق، ما لبث أن انفرج عن وجه فتاة، رأيتها تُمكّن في كل طلّة منها اثنين من الدخول، فأنجدتْني شيخوختي بأن أدافع بالمنكبين لأقول للصبية الجميلة بأني غير قادر على الوقوف فكيف الانتظار! وكان من لطفها أن قدّمتني، فدخلت.. لأجد نفسي في غرفة تعمل فيها زميلتان لها.. وأشارت لي بالجلوس.

أخذت أجول بناظري في أرجاء المكان: غرفة ذات اتساع، كراسي مريحة للمنتظرين دورَهم، وطاولات أنيقة، وأجهزة متطوّرة، وتكييف يكسر سمّ البرد، ولاحظت أنّ مرايا تغطّي بعض الجدران.. هل ذلك لأنّ العاملين هنا هم من "الجنس اللطيف"؟

رأيت كلاّ من الموظفتين تستدعي واحدا من الجالسين، تدرس ما يقدّم لها من أوراق، تسأل، تستفسر، منقّلة في ذلك أناملها على أجهزتها الضوئية، وتصوّر صاحب العلاقة.. ثمّ تُحيله إلى زميلتها "صاحبة الباب"!

جلست بجوار الموظفة، وقد فَطِنتُ إلى أنه فاتني قبل خروجي من البيت -كما يقع لي

أحيانا- أن أضع "السماعتين" في الأذنين! وجّهتْ إليّ سؤالا أول طرحته بكلمات بعضها يمسك بتلابيب بعض، فالتمست منها أن تتكلم ببطء، فأعادت بالنطق الذي فُطرت عليه، فما وصَلَ إليّ كلامها، فسمعتها تقول، وقد نمّت كلماتها على ظنّ بأني من جيل قديم ما زال باقيا:

ـ عمي، بتعرف تقرا؟!

هذه الكلمات وصلتني مع الأسف.. ورأيتها في الآن تأخذ وريقة وتكتب، بينما أخذت أنا أضحك، واستبدّ بي الضحك حتى لاح عليها الارتباك، وتعيّن عليّ أن أُفصح:

ـ إني كاتب يا ابنتي، ولي أربعون مؤلفا بعضها تُرجم إلى لغات، وعضو مؤسِّس في اتحاد الكتّاب في البلد!

وإذا بها ترفع كفّيها تُغطّي وجهها الجميل استحياءً من سؤالها.

قلت أُطيّب خاطرها:

ـ لا يهمّك.. الحق على الزمن، يا بُنَيّتي!

قالت: أعتذر.. وأنا طالبة سنة ثالثة آداب!

قلت: آداب؟ إذن أعدك بواحد من كتبي يصل إليك غدا!

فتنفّست الصُّعداء وسألتني مستوثقةً: عن جدّ!

وأحالتني إلى تلك الزميلة التي كانت قدّرت سنّي فقدّمتني على الناس وراء الباب. قامت تُفعّل ما بين يديها من أجهزة، وأنا أتابع النظر.. وانتهت إلى أن وضعت إبهامي في صُحَينٍ ضوئي انطبعَ عبرَه ما يؤكد تسلّمي البطاقة الذكية!

في انصرافي، أيها الأصدقاء، لم تمنعني فرحتي بالحصول على هذه البطاقة من خلال التكنولوجيا الحديثة، من أن أتساءل عما إذا كانت الأنظمة الشمولية في العالم تستفيد من هذه

التكنولوجيا أيضا، عند التعامل مع المواطنين الذين يقودهم سوء حظّهم إلى المعتقلات، المصطفين - في غير تزاحم - أمام أبواب كئيبة، تمهيدًا لأن تُنتزع منهم اعترافات.. إن لم يكونوا يملكونها "فبرَكَتْها" أجهزة متطورة؟!

وبتفكيري في ذلك تبدّدت فرحتي بهذه البطاقة التي لمّا تسخُن في جيبي بعد.. ولكني ما فقدت رغبتي في أن أقدّم ما وعدتُ به من هدايا للموظفتين اللطيفتين وللثالثة أيضا[١].

دمشق الشام: ضحى الأربعاء ٨-٤-٢٠٢٠.

السجّان.. يقرأ قصصي المسيّسة

السجّان.. يقرأ قصصي المسيّسة

اقتادوني من باب جامعة حلب إلى الاعتقال عند "الأمن السياسي" (مقابل مبنى البريد)، واقتادوني ثانية إلى العاصمة في سيارة أمنية يُحيط بي اثنان مسلحان.

سلّموني في دمشق لأمن "الجُبّة". أنزلني هؤلاء إلى طابق يغوص في باطن الأرض، زنزانة منعزلة عن العالم، لاحظت في أرضها آثار قيء وبول، ثم ارتفعوا بي إلى سطح الأرض. أدركت أنّ السفهاء كانوا يمارسون "الترهيب" على حامل قلم.

اقتادوني في ذلك اليوم ثالثة إلى "معتقل الشيخ حسن". دخلت مقيّدًا إلى غرفة "مدير السجن" وتبيّن أنه ما كان يجوز لي الدخول، اعتذرت لهم بأدب، صرخ بي أحدهم: "اسكوت وْلَاكْ، مْكُولِكْ".

دفعوني إلى الزنزانة (رقم ١). كنّا يومذاك في أول "أربعينيّة الشتاء". تمدّدت بملابسي فوق

---

(١) نشرت هذه الخاطرة في مجلة "كل العرب"، باريس، عدد نيسان/ أبريل ٢٠٢٠.

مصطبة حجرية، بطانيةٌ وِطاءً وأخرى غِطاء كانتا متخشّبتين من قذارة، يطعمونني كل يوم خبزا وزيتونا وبرتقالا.

كان جُهّالهم، سفهاؤهم، يتشفَّون من مُحاضر وقف في أمسه في الجامعة يُحدّث في الأدب زهراتِ المجتمع.

ذلك كان في أواخر كانون الأول من العام ١٩٨٠، وكنت في الخمسين من العمر.

بعد أن أطلق سراحي بريئا، قلت في إذاعة الـ"BBC" اللندنية في مقابلة هاتفية: "وكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم! ".

أقول لكم، أيها الأصدقاء، كلمة. كان في جيبي ذلك اليوم كتابي "حزن حتى الموت" (خمس عشرة قصة مسيّسة، تُرجم الكتاب فيما بعد إلى الفرنسية)، وقد احتجزوا عندهم لدى دخولي حتى مفاتيح بيتي. لمّا أُطلِقت بعد أسبوع، عبّر لي كبيرهم وأنا أتسلم منه أشيائي، عن أنه.. قرأ قصص الكتاب.. وأنه أعجب بها!

تفسير العبارة التي تلقتها أذناي:

اسكوت: فعل أمر من سكت يسكت

وْلَاكْ: كلمة تبخيسيّة، مستمدة من كلمة ولد

مْكُولِكْ: الذي يمارس "تمسيح الجوخ"، أي الممالأة والنفاق، من الكلمة التركية "كولَكْجي" كَوّاء الملابس.

يريد ذلك الصغير إهانة مَن عَرف أنه في عِداد الكتاب!

دمشق الشام: مساء السبت ١٨-٤-٢٠٢٠

وأنا في الاعتقال في "الشيخ حسن"

طُلبتُ، صباح السبت ٢٧-١٢-١٩٨٠، للإدارة في "الجبّة". قيّدَ الأمنيُّ معصمَيَّ بلطافة ملحوظة. وعند الوصول قلت له بعد أن فكّ قيدي: شكرًا.

قال: تشكرني وأنا الذي قيّدت يديك!

قلت: أشكرك لأنك فككت القيد.

وهمس في أذني أنه طالب جامعة يؤدّي خدمة العلم، وأنّ له مع الكلية مشكلة كان قد جاءني قبل أيام إلى وزارة التعليم العالي (التي أشغل فيها وظيفة مدير مكتب الشكاوى والإعلام)، يراجعني، وأني كنت لطيفًا في استقباله وفي إسداء المشورة.

ذلك الشاب كان من أبناء المنطقة الشرقية (دير الزور أو ما حولها)، لا أنساه.. وقد مرّ على ذلك اليوم أربعون عاما. دمشق الشام: ليل السبت ١٨-٤-٢٠٢٠

دواء من صيدليّة.. وصورة شعاعيّة

في حلب عرفتُ وأنا في مطلع شبابي، أنه إذا دخل رجلٌ صيدليةً بوصفة ليشتري دواء لواحد من أهله، وتبيّن أنّ ما في جيبه لا يفي بالثمن، فإنّه قد يتلقّى من الصيدلي قوله وإنْ على غير معرفة: تدفع الآن ما تقدر عليه والباقي بعد!

سمعت أمس بدمشق وأنا مقيم فيها منذ زمن، أنّ أحدهم أراد لنفسه صورة شعاعيّة (طبقيّة محوريّة)، فتبيّن أن كُلفتها تفوق راتبه الشهري الذي يقبِض من الدولة، فيَسّر الطبيب الأمر له بأن يدفع النصف والباقي تقسيطا!

دمشق الشام: صباح السبت ١٨-٤-٢٠٢٠

سلَطة ألزاسية.. في باريس

مرة، وأنا في باريس مطلعَ العام ١٩٧٨، أنبأتنا مديرة المطعم (التابع للمؤسسة التي نعمل فيها) أنه سيكون لكلٍّ منّا اليوم بعد وجبة الغداء قدرٌ من "السلَطة الألزاسية".

وانتظرنا.. حتى دارت علينا النادلة الظريفة بآنية تسكب منها لكلّ شيئا من السلَطة الموعودة..

قلت في نفسي: نحن في بلدنا نتناول في كلّ وجبة أضعافَ هذه الكمية من سلطتنا السورية!

وأكلنا السلَطة الألزاسيّة بسرور.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٢٠-٤-٢٠٢٠

ما زال ينقّب، هناك

ما زال ينقّب، هناك، في مزوَّرات التاريخ ويبعث لي، مصرّا على "ألا يرى".. مع أنه يملأ غلاف صفحته بمثل هذا:

"نعم للانفتاح وقبول الآخر"، "لا للانغلاق والإقصاء والإلغاء"... الخ

أمس جاءني بفيديو يلوي عنق أحداث التاريخ مفتخرًا بما يقدّم، وغاضًّا طَرْفه الحَسير عن تهجير نصف شعب من منازلهم يَذْرعون طرقات العالم بحرًا، برّا، ويموتون في صمت القبور.

أقول له وهو في تلك البقعة من وطننا الكبير: هل أنت من بقايا "العُبَيديّين" (الفاطميين) الذين تلقّى كبيرُهم المجنونُ يومًا من شاعره الكليّ النفاق تلك القصيدةَ التي مطلعها:

ما شئتَ، لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ، فأنت الواحد القهّارُ!

دمشق الشام: ضحى الخميس ٢٣-٤-٢٠٢٠

في هذا المساء

في هذا المساء، وعند الساعة ٧: ٤٠ (بتوقيتنا)، تلقيت هذا السؤال من صديقة وفيّة:

"ترى كيف تقضي يومك برمضان أيها الصديق العزيز؟ "

فكتبت لها:

في رمضان وغيره، في زمن الكورونا أو قبلها:

- لا وقت معيّنًا عندي للنوم ولا لتناول الوجبات،
- في انقطاع التيار الكهربائي غالبًا ما أرقد في سريري،
- أو أتولّي الطبخ والنفخ على مصباح يستمدّ نوره من بطارية وشاحن،
- أو أخرج إلى الحديقة أُعِدّ، في ضوء النهار، كبّادتين مربّى،
- يزورني أحيانا أصدقاء عطوفون يَبذلون لي كثيرا من العون،
- وأحيانا أتلقى من بعض الناس الرفض والأذى،
- أستقبل ضيوفا، حتى في أيام الكورونا،
- لم أعد أستطيع القراءة لكلال البصر،
- أحيانا، وأنا في ليلي وأرَقي، تخطر لي الفكرة، فأنهض أكتبها، على شاشة طولها ٣٢ بوصة،
- أعتني بالحديقة، يساعدني مَن يتعهد أمرها،
- أذهب أتسوّق،
- أعرّج، مرة في الشهر، على "الصراف الآلي" فأقبِض معاشا لا يحسدني عليه "مسؤول"، لا ولا يَرثي لي،

• ينتابني الفرح أحيانا.. ولكني غالبا ما أكون حزينا على نفسي وعلى الوطن،

• وأشياء كثيرة أخرى.....

الصديقة، زميلة قديمة في "وزارة التعليم العالي"، كانت قد غادرتنا منتصف الثمانينيات إلى باريس.

كل رمضان وأنت بخير، يا ضحى، ولزوجك الفنان عيد، ولشقيقك الدكتور برهان.

دمشق الشام: ليل السبت الثاني من رمضان ١٤٤١ه، ٢٥-٤-٢٠٢٠

وجدتُني أتحاور مع أحد أفراد أسرتي

وجدتُني أتحاور مع أحد أفراد أسرتي، ونحن في إحدى غرف البيت.

فجأة شعرت بضيقٍ في التنفّس، وتذكّرت أني حين أراجع الطبيب يكون من بين أسئلته أحيانا "عندك مشكلة في التنفّس؟ " فأجيب بأن لا.. قلت في نفسي: هو ذا ضيق التنفّس يُدركني!

بيّنت لابني ذلك، فاتصل بصديق له.

وإذ انتقلنا إلى غرفة أخرى في البيت.. رأيت حفيدتي -التي تدرس الطبّ في فلوريدا- تقدّم لي حبّة دواء وكأس ماء، فتناولت.. وشعرت بزوال ما أنا فيه.

قبّلت الحفيدة وقلت لها: ستكونين، يا حبيبة جدّك، طبيبة على يدك يُشفى كثير من الناس إن شاء الله.

ثمّ فتحت عيني ووجدتُني في سريري.. كانت ضجعتي في الفراش غيرَ مريحة!

قلت: قد نجوت في هذه المرة أيضا.. بقي أن تنجو مخطوطاتي من الاندثار!

دمشق الشام: مساء السبت ٢٥-٤-٢٠٢٠

عندما يجيب مسؤول بحجم وزير

عندما يجيب مسؤول بحجم وزير، ردا على سؤال في مجلس الشعب حول الأسعار التي تكسر ظهر المواطن، قائلا بأن الأسعار عندنا لا تزال أقل من نظيرتها في دول الجوار...

فذلك يعني أنّ هذا المسؤول مقطوع الصلة مع الشعب الذي يعاني، لكنه قبل هذا لا يملك التمييز بين رواتب الناس هنا والرواتب هناك

وليس هذا من السياسة والكياسة في شيء..

كيف يكون وزيرا!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٩-٤-٢٠٢٠

كلام.. في الليمون

في زمن مضى كان يدخل بيتي أحفادي، يبادر صغيرُهم فيقول وهو يتلعثم بالنطق إنّ أمّه تريد عشر ليمونات! وبعد قبلة الموافقة والترحيب يتقدّم أبوه لأن يقطف، فأنصح بأن يقطفها الطفل بيده فتلك متعة له!

وكان، وما يزال، في بيتي شجرة ليمون مُعمَّرة، قلْ عمرها خمسون سنة أو ستون، تُعطي من ثمارها ما يبدأ أخضرَ ثمّ مع برودة الطقس يصفرّ، وتثقل الأغصان بالثمار ويحين قطافها. ويوم أُعِدّ السلطة من بندورة وخيار وبقدونس فإني أخرج إلى الحديقة وأمدّ يدي إلى أقرب الحبّات لي.

وتُعد شجرة الليمون من أشجار الفاكهة المستديمة الخضرة، فهي لا تتعرّى من أوراقها

خلال فصول السنة، يتساقط منها الربعُ وتظل كاسية بالباقي، وهي قوية في نموّها ومتجهة إلى أعلى ما يوجب تقليمها في المزارع للحدّ من ارتفاع نموّها، ولكني أدعها عندي تنمو طوليّا حتى لتصل إلى شرفة جاري فأرفع الصوت أقول: القطف مباح، يا جاري عبد الفتاح!

وقد أورد العشّاب الأندلسي المتمصّر ابن البَيْطار (من أبناء القرن الثالث عشر الميلادي) في مؤلَّفه الشهير "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، أن الليمونة مركّبة من ثلاثة أجزاء مختلفة المنافع والقوى: القشر، والحُمّاض، والبَزر. وفي البداية ورد الاسم في المصنفات العربية بهذه الصورة: "لِيمُو"، قبل أن تضاف النون فيغدو "لَيْمُون". وللطرافة يوم نزلت في باريس خريف ١٩٧٧ كنت أتلّذّذ بشرب الـ"ليموناد Limonade"، وأضحك في سري: هاهم الفرنسيين "يقترضون" الاسم من العربية عبر ما كان قد تُرجم من مؤلفاتنا العلمية إلى اللاتينية فيما سمّيناه لاحقا "مدرسة طليطلة للترجمة"، ولكني لمّا أمعنت في قراءة كتب الطبّ والنبات العربية اكتشفت أنّ الكلمة منتشرة في اللغات المجاورة لبلادنا، وأنها باللاتينية Lemon، والاسم العلمي العالمي اليوم هو Citrus Limon، وقيل في ذلك: بما أنّ أصل هذه الشجرة من الهند فالمرجّح أنّ اسمها هندي الأصل، انتقل معها إلى جميع لغات العالم بنفس اللفظ. وقد تغلغل الاسم فينا حتى رأينا صباح فخري يرسل أغنيته التي طرب لها الناس:

ليموني ع الليموني دخيل الله   وَنَا حْبابي ظلموني دخيل الله

لن أدع التقصّي العلمي، الذي اغتنت ثقافتي به، يُلهيني عن شجرة الليمون في حديقتي. حين غادرت الوطن في خريف ٢٠١٣ إلى المنفى الاختياري في فلوريدا عند أبنائي، تركت ثمار الليمون "على أمّها" خُضْرًا صغيراتٍ تنتظر برد الشتاء حتى تنضَج، ولكن برد ذلك العام جاء صقيعًا خيّم على البلد، وجعل أغصان شجرتي تنحني إلى حدّ الانكسار والانقصاف! ولم تزهر

الشجرة في السنة التالية، أقول: كما لو أنه انتابها "زعلٌ وحَرَد"، وظلت في ذلك إلى ما بعد عودتي للوطن، وما غبت عنه طويلا.

وبتُّ أنتظر ربيعًا بعد ربيع أن تزهر شجرتي الأليفة، أرسل النظري إليها طوال شهر نيسان فلا أرى فيها زهرا ولا ثمرا. سألت، فما تلقيت من الردود إلا ما يمنع عينيّ من أن تكتحلا برؤية بَتَلات الزهر تملأ الأرض مبشّرةً بموسم غني... إلى أن كان ربيعٌ حملتْ فيه من الزهر والثمر ما عددتُه بنظري الضعيف فكان عشرة، فلما تمّ النضج بدت لي عشرون ليمونة تتلامع صُفرتُها بين الأغصان، ولله كم فرحت! وفي هذا الموسم الذي نحن فيه، بدا لي أن الشجرة قد تصالحت مع الطبيعة وتعافت من الحرد، فإذا هي تتفتّق عن كثير من الزهر، والبتلات المتساقطة تغطّي الأرض، والزهر يَعقِد، ويبلغ عدد الثمار ما لا أحبّ أن أفصح عنه، لا اتقاءً "للعين" لا والله، وأُفصح عن أنّ الجيران والأصدقاء ينظرون، ويهنّئون، ويطالبون.. هل أقول إن المطالبة المُدِلّة تمادت في أيام الكورونا.. يقولون لي: "قد أوصَونا بأن نُكثر من أكل الليمون، وأن نتغرغر به"، فكأنّ دواءهم أمسى في "صيدليّتي"!

وتزورني صديقة الفيس بوك، الدكتورة جودي، وترسم في حديقتي ليمونة بشفافيّة تلمحها عينا طبيبة عيون!

وتذكرت حفيدي الذي كان يطالبني، قبل الأحداث، بحقه من ليمون شجرة جدّه، فأجعله يصعد السلّم ذا الساقين، وأنا وراءه، أُجنّبه وخزات الأشواك، وأساعده في أن يقطف بيده الصغيرة الليمونة الكبيرة، وأقرأ في مُحَيّاه الفرح.

أين هو اليوم حفيدي، سميّي، الذي لم يعد طفلا؟ إنه هناك، هناك، في بلد الهجرة، يتلقى

تحصيله المدرسي بغير لغته الأمّ.. تماما كما أتناول الليمون، هنا، بغير نكهته التي كانت[1].

دمشق الشام: ليل الجمعة ١-٥-٢٠٢٠

قبضت أمس من "الصراف الآلي"

قبضت أمس من "الصراف الآلي" معاشي التقاعدي، ومضيت اليوم إلى التصوير الشعاعي الذي كنت سألت فعلمت أن التكلفة تساوي ضعف المعاش.

خطر لي أن أسأل الطبيب ما إذا كان يمكنني أن أُسلِف له النصف نقدًا والباقي كتبًا من تأليفي في التاريخ والأدب؟ فأجابني بلطف: أنا أمّي في التاريخ والأدب، لا أقرأ!

بعد التصوير تبيّنت أن الكلفة زادت خلال الأسبوعين بارتفاع سعر الدولار.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٢-٥-٢٠٢٠

بصلة خضرا.. على مائدة

كان بين الخُضَر التي تسوّقتها "جَرْزة بصل" قِوامها خمس بصلات أنيقات تضمهنّ حلقة من مطاط، ولما كان السعر فاحشا فقد أحطتُها بعنايتي، صرت أسحب من الجرزة عند كل وجبة بصلة واحدة، أفصِل عنها "شعرها" (أعني جذورها التي كانت)، أنقعها في المعقّم ثم أغسلها، أنزع منها الطبقة الخارجية، أمسّد ذيولها الخضر، وأجعلها في صحن خاص لأتناولها في وجبتي...

وللعلم إن ثمن هذه البصلة وحدها بلغ اليوم عشرين ليرة سورية.. هذا المبلغ الذي كان ابن حلب يسافر به إلى العاصمة، يدفع أجرة السفر بسيارة "البوسطة" ذهابا وإيابا، ينزل في

---

(١) نشرت هذه الخاطرة في مجلة "كل العرب" باريس عدد أيار/ مايو ٢٠٢٠

فندق بالسنجقدار يومين، ويقضي غرضه في مراجعة الدوائر الرسمية، ويعود إلى مسقط رأسه بـ"أرمغان" (هدية السفر).

بالأمس سأل أعضاء في مجلس الشعب وزيرا عن ارتفاع الأسعار في البلد، فأجاب بأنّ الأسعار عندنا ما زالت أقلّ منها في دول الجوار، مُغيّبا مسألة تدنّي الرواتب والأجور.. استمَع الطيبون إلى ردّه، وما خطر لأحدهم أن يحجب الثقة عنه ليكون خارج صفوف الحاكمين.. فهم -آخر الأمر- حبايب.

دمشق الشام: صباح الأربعاء ٦-٥-٢٠٢٠

الحنفيّة

سألني مساء اليوم صديق.. أجيبه:

يقول العلامة خير الدين الأسدي (ت ١٩٧١ بحلب) في موسوعته الفريدة:

الحنفيّة: يطلقونها على صنبور الماء أو مفتاح مجرى السوائل. استنّه الإمام أبو حنيفة [القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي] للوضوء لئلا يتلوّث ماء الحوض، وهو اختراع عظيم النفع.

الجمع: حنفيّات. اهـ. "موسوعة حلب المقارنة"، ٣: ٢٧١

دمشق الشام: ليل الجمعة ٨-٥-٢٠٢٠

سؤال.. وجواب

صباح اليوم تلقيت هذه الكلمات:

أخي الأديب فاضل السباعي

كيف تذهب وحدك للحديقة في "باب توما"، ونحن من باب البيت لا نخرج!

اشرح لي رأيك على الفيس، إذا سمحت.

عبد الجليل فليون

- - - - -

يا صديق العمر

كنت قاعدا في حديقة بيتي والكهرباء مقطوعة، أستمع إلى زقزقة العصافير وغناء البركة.

فجأة دخل صديق مثل إحسانك، ودعاني لأن ننزل نتسوّق؟ فقدمت له الأعذار، ولكنه بودّه أصرّ على أن أخرج من البيت وسيارته على الرصيف، فقمت.

توجهنا أولا إلى "سوق الهال القديم" (في شارع الملك فيصل)، أعرفه من قبل، ولكني لم أكن أتصوّره بهذا الاتساع، والباعة منتشرون فيه دروبا وصفوفا ينادون تحت مظلاتهم المنصوبة. تعبت من المشي، وتوقفنا عند بائع كان ينادي بملء صوته: "مالطِيّة حرير"، يعني الفاصولية الخضرا، فاشترينا كيلو لي وآخر لابنتي التي تسكن "دُمَّر" (ضاحية الشام الجديدة).

كان صديقي قد تلقى في التو من ابنتي على الواتس -وقد حدّثتها أين نحن- قائمة بمشتريات أيقظها فيها أنّ والدها وصديقه في هذا السوق الشعبي العريق. في تلك اللحظة كان قد أدركني التعب -ذاك الذي يمنعك من مغادرة بيتك- فوجدت كرسيا في زاوية من محلّ بائع المالطيّة، استأذنته، وذهب صديقي يتسوّق ويأتي بالأكياس يصفّها حولي.

رأيت عند صاحبنا البندورة تتلامح لي بين يديه، يستخرج كل حين من صندوق البلاستيك الأبيض، يُلمّع ويصُفّ. مرّت به، بنا، امرأة مستورة، كلمته بصوت تبيّنه هو، فتناول كيسا يلقي فيه حبات مما بين يديه، أخذته المرأة ومضت. أكبرت في ابن البلد هذه المرحمة، ثم أحببت أن أجاذبه الحديث: من أين تأتي هذه البندورة الذهبية؟ قال: من بانياس، وهذا موسمها، وقريبا

تأتينا "البندورة الحورانية"، فاشتهيت أن آكل حبّة قانية اللون، أكلتها بعد مسحها باليد وشرشرت على حالي.. واشتريت كميتين لي ولدُمّر!

كان آخر ما جاءني به صديقي ربطتين من "الثوم الكسواني[1]" اليابس مونة العام. استوقفْنا صبيا يدفع أمامه عربة، جعلنا فيها أغراضنا، وخرجنا من زحمة السوق، وما فاتنا أن نشتري من هنا ومن هنا. تصوروا الفليفلة الحدّة الكيلو بـ٢٥٠ ليرة، يا بلاش، عبّينا للمخلل، في الجسر الأبيض عندي بألف ليرة، وفي دمّر حدثتني ابنتي بألفين، ويقسم لها البائع الكذّاب: "والله من أرضها هيك! ".

أثار الصبي في نفسنا شعورا. لحظة وصلنا إلى حيث السيارة مركونة في الشارع هناك، سألته كم يريد، أجاب: متل ما بدْكُن، فأجزل صديقي له، فقبّل الولدُ "أم الألف" ودسّها في جيبه ومضى.

لم أحدثك بعد عن حديقة باب توما!

خيّرني صديقي الودود وهو يقود سيارته بين أن يمضي بي إلى بيتي غربيّ المدينة ثم يعود لشرقيها حيث يتجمّع الآن أشقاؤه في تربة "الشيخ رسلان"، زائرين مثوى الأب المتوفى من خمس سنين؟ قلت: بل أذهب برفقتك إلى الأشقاء ينتظرون. تركني في تلك الحديقة، ثم عاد وبرفقته شقيق له وشقيقة، محام ومدرّسة لغة عربية، تعارفنا، قالوا إنهم من "المتابعين" لصفحتي (دون وضع لايكات).

اقترح صديقي أن يصورني في تلك الحديقة، فكانت الصورة التي أثارت تساؤلك وقد علّق أحد المحبين عليها: "أنت كشجرة السنديان"، فراق لي وصفه، وقلوبُ الكتّاب مثل قلوب

---

(١) نسبة إلى بلدة الكسوة، القريبة من دمشق. يُشتهر ثومها بمواصفاته التخزينية الجيدة.

الأطفال تفرح وتتذكر!

أكتفي بهذا القدر من البيان عند صورة حديقة باب توما، ولو تركتُ نفسي لكتبت أكثر.

- - - - -

أقول: وقبل نشْري هذه الكلمات بعثت بها إلى صديقي عبد الجليل أُطلعه لأسمع رأيه، فكان من لطفه أن كتب لي:

قبل نصف قرن كنا في الوزارة نتداول أعمالك الأدبية ونقرأ باستمتاع. اليوم سألتك بسطرين فأجبتني بصفحتين. هل تسمح لي بأن أسمّيك "الكاتب الكبير للموضوعات العابرة"؟

دمشق الشام الجميلة: عصر الثلاثاء ١٢-٥-٢٠٢٠

ورفعتُ على النار.. ثلاث طناجر

ورّطت نفسي وزادني صديقي تورّطا، أني اشتريت من الخضرة ما يطيب طبخه في هذه الأيام. لم أشرع في ذلك إثر وصولي إلى البيت. في ظهيرة اليوم التالي، أمس، تهمّمت للعمل.

كان عليّ أن "أُوَلِّف" الفاصوليا، تلك المالطيّة لتُطبخ باللحمة وهذه الناعمة - المسماة "فاصوليا فرنسية" - أطبخها بالزيت. مللتُ. وقشّرت وأنا في الحديقة كثيرا من فصوص الثوم. وكنت طلبت من صديقي أن يتناول من أغراض ابنتي عدة حبّات من الكوسا فأجعلها محشوة بين الفاصوليا، فقلَّل ما أخذ، أربعة، ومشيرًا عليّ بأن أجعل من لبّها "متبّل الكوسا" (ما يسمّى بحلب "مُتوّمة"، لكثرة ما يلقى فيها من توم)، فوجدت اللبّ قليلا جدا، فنزلت إلى "الجسر" أشتري حبّات، قَوّرتُ، ومن الفريزر استخرجت "حشوة" كنت أودعتُها بقيّةً من عمل سابق..

وبدأت العمل.

ثلاث طناجر، رفعتها على النار واحدة بعد أخرى.. وغدًا جرّةُ الغاز تنفَد.. و"يا سُلاف أنجديني".

كنت أعود إلى "الوصفات" المكتوبة، أقرأ وأتابع: أذوق، ينقص ملحٌ هنا، أو توم، أو ماء. أهتف إلى مَن علّموني الطبخ، أستشير. وأعترف بأني كنت أختلس من وقتي ما يمكّنني من أن أنشر في صفحتي نقدًا للظلم والفساد.. ذلك ما لا أكفّ عنه حتى لو كانت على ناري عشر طناجر!

أربع ساعات، أتعبت ظهري وأرهقت بصري.. وتناولت وجبتي من الفاصوليا "في عبّها"[1] ما وصفتُ.. والله كنتم في بالي وأنا أعتزم أن أكتب لكم هذه الكلمات.

تفضلوا، ثلاث طبخات في الانتظار. لكن مَن يتناول إفطاره في بيتي يضطرّ في زمن الكورونا للمبيت عندي. سلام.

دمشق الشام الجميلة: مساء الثلاثاء ١٢-٥-٢٠٢٠

رحيل الأديب رياض عصمت

توفي ليلة أمس وزير الثقافة السوري، رياض عصمت، في إحدى مشافي ولاية شيكاغو الأمريكية، عن عمر ناهز الثانية والسبعين، جراء إصابته بفيروس كورونا.

وشغل عصمت مناصب عدة، بينها وزير الثقافة، وعميد المعهد العالي للفنون المسرحية، معاون وزير الثقافة، مدير عام هيئة الإذاعة والتلفزيون، سفير سورية لدى باكستان ثم قطر،

---

(١) يُطبَخ محشي الكوسا مع الفاصوليا وفي القِدر نفسه، وتسمى الأكلة: فاصوليا بعبّها محشي. وكلمة العُبّ فصيحة بمعنى الرُّدْن، بالمعنى العامّي نفسه.

وأستاذ زائر في جامعة نورث وسترن الأميركية.

نشر عصمت، المولود في دمشق، ٣٥ كتابا، وحاز الجائزة الأولى لأفضل قصة عربية في مسابقة إذاعة "دويتشه فيلله" الألمانية عام ١٩٩٣، وكرَّمته عدة مهرجانات مسرحية عربية.

من ناحيتي أشهد أنّ الدكتور رياض عصمت أديب مبدع، وأكاديمي مقتدر، ورجل يتميّز باللطف والدماثة، يرحمه الله.

دمشق الشام: عصر الخميس ١٤-٥-٢٠٢٠

قبل عشرين سنة أو ثلاثين

قرأت أنّ كاتبا روائيًا شابّا في إيطاليا، موهوبًا وشديد الحساسية والشعور، تعلَّق بفتاة لعوب، فأخذت تلهو به.. حتى أوصلته إلى الانتحار.

فقامت الصحافة تُشيد بإبداعه.

قالت اللعوب إنها لم تكن تعلم أنه موهوب!

دمشق الشام: صباح الخميس ١٤-٥-٢٠٢٠

في الطريق إلى.. الياسمين

بسيارته مرّ صديقٌ ضحى اليوم ليصحبني إلى حيث نشتري شتلة من ياسمين الشام أو اثنتين، بعد أن طال حَرَدُ الياسمينة العتيقة في حديقتي لقَصٍّ جائر لها قريبٍ من الجذور اقترفه الجنيناتي بحقها قبل ثلاث سنوات، وقد أعيتني معالجتُها و"مصالحتُها" وجنيُ أزهارها، أنا الذي كنت في فلوريدا أشمّ كلّ يوم الياسمين الشامي المتسرب إلى هناك.

مررنا أولا بمشفى ملحق بالمؤسسة التي ينتمي إليها صديقي، التربية والتعليم. دخلنا

وجلسنا في صالة الانتظار، وقد سبقَنا من رأيناهم بضعة رجال ونساء. وكسرًا للملل أخذت أتحدّث إلى صديقي -الذي يجلس إلى يميني حيث تعمل سماعة الأذن على نحو أفضل- بصوت أحسبه خفيضا، عن تغريدة كتبتها ونشرتها بصفحتي في باكر الصباح: كيف تكوّنت عندي الكراهية للأنظمة الديكتاتورية، منذ توجّهت إلى مصر طالبًا في كلية الحقوق "بجامعة فؤاد الأول" خريف ١٩٥٠، وكيف أننا نحن طلاب الجامعة خرجنا -بعد تأييدنا "لحركة الضباط الأحرار" أولا.. - نهتف في ربيع ١٩٥٤: "يسقط حكم البكباشيّة"[١].

واسترسلت في حديثي -بما ظننته صوتا لا يبلغ أسماع من حولنا- أني بدأت في الستينيات أكتب قصصا أندّد فيها بالديكتاتورية البغيضة، وقد جعلت مرة بطلَ قصة يخضع، تحت التعنيف والترهيب "مغسولَ المخّ" فيُقبّل بُسطار[٢] الجلاّد ثمنا لإخلاء سبيله وهو البريء.. وإذا بي أتلقى "لكزة" من صديقي، ما كان لها أن توجعني بمقدار ما أحدثت فيّ من استغراب! وتبيّنت أنّ صوتي لم يكن خفيضا قط، وأن الموجودين في المكان كانوا يُصيخون السمع لي، غيرَ وَجِلين، لأنهم.. لم يذهبوا هم لسماع هذه "المعزوفة" ولكن صاحبها هو الذي جاء!

هنا ارتفع صوت إحدى موظفات السكرتاريا، تسألني بطلاقة ما إذا كنت أعرف الأديب "فلان الفلاني" فإنه صديق والدها الحميم؟ فأجبت بأنه عندما كان رئيسا لمجلة "..." تَشَجَّعَ ونشر قصة لي من أجرأ ما كتبت ضدّ القهر والفساد، فمنحها بذلك مجال أن أنشرها في وطني بكتاب، وصلتْ نسخٌ منه إلى إسبانيا، وقام طالب بترجمته مقدّمًا إياه أطروحةَ دكتوراه، ونشر القصة هناك بنصّيها الاثنين.. وإذا بي أتلقى "لكزة" أخرى.. فكان لي أن أقول على مسمع: "أما

---

(١) كبار الضُّبّاط. وكان يُطلَق على جمال عبد الناصر البكباشيّ. أصلها من التركية.

(٢) حذاء عالي الساق، (الجزمة)، وتُستخدَم غالباً للبوط العسكري.

ترى الجماعة مبسوطين! ".

ثمّ ذهبنا إلى المشاتل في منطقة "الرَّبوة"، وتنقّلنا بينها، واطلعنا على شتول الياسمين.. وأما التي هممنا بشرائها فإنّ صاحب المشتل نظر في الموبايل، وضرب وطرح، ثمّ حدّد لنا مبلغا استكثرناه، فقال: ألم تعلموا أن الدولار اليوم بـ ١٨٠٠!

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٨-٥-٢٠٢٠

كيف كرهت الحكم الديكتاتوري

دخلت مصر في خريف ١٩٥٠ طالبا في كلية الحقوق "بجامعة فؤاد الأول" وأنا معبّأ بكراهية النظام الملكي. يوم انقلاب "الضباط الأحرار" في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وبعد ثلاثة أيام فرحت لترحيل الملك فاروق من قصر رأس التين بالإسكندرية إلى المنفى (الذي سوف يموت فيه بفعل من النظام الجديد)، فخرجت إلى شرفة بيتي في "شارع سليمان جوهر" أريد أن أتواصل مع الناس، وجعلنا نتبادل التهاني تلويحًا بالأيدي عبر شرفات المنازل.

في ربيع ١٩٥٤ كشف النظام عن وجهه الديكتاتوري.. فخَرَجْنا - نحن طلاب "جامعة القاهرة" - نهتف بملء حناجرنا الفتية: "يسقط حكم البكباشية! "

أقول: أعدت ترتيب أوراقي الفكرية على أساس كراهية الحكم الفردي... وفي الستينيات بدأت أندد به، بالكلمة، فكتبت عن ذلك الموظف القانوني الذي يخضع في الاعتقال للتعنيف حتى ليُقبّل بِسطار جلاّده ثمنًا لإطلاق سراحه.. ثمّ يغادر المدينة إلى الصحراء.. يبكي، مستلقيًا طول الليل على الرمل.. وعيناه إلى الأفق الشرقي!

- كتابة قصة "العينان في الأفق الشرقي": دمشق آب/ اغسطس ١٩٦٧.

• نُشرت في مجلة "الكاتب" المصرية، العدد ١٧١ يونيو ١٩٧٥ (عشرين صفحة مع ثلاث لوحات تزيينية).

• نزلت في كتابي "حزن حتى الموت"، بطبعاته المختلفة.

• أعيد نشرها على جداريّتي عما قريب.

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٨-٥-٢٠٢٠

ذهبت اليوم إلى الطبيب

فتبيّنتُ أنّ رسم الكشفيّة (المعاينة) قد تضاعف.

دمشق الشام: الثلاثاء ١٩-٥-٢٠٢٠

زبديّة سَلَطة.. قبل تناول الطعام

شعرت اليوم عند مغيب الشمس أن نفسي تعاف الطعام، لا تهفو إليه على الإطلاق. وتذكرت صديقا بدمشق، كاتبا، كنّا تعارفنا قبل عشرين سنة أو يزيد، من "الأهواز" العربية التي استولت عليها إيران عام ١٩٢٥ لما فيها من ثرَوات نفطية.

اكتشفت في هذا الصديق أنه يجيد "طبخ الفاصوليا الخضرا"، فجعل يزورني في مواسمها حاملا مقدارا منها مع خضرة متنوعة، فكان يتولى هو طبخها بإتقان ويوكل لي أن أعدّ كمية غير محدودة من "السلطة"، الخس والبندورة والنعنع الأخضر والبصل والطرخون وكل ما يخطر في بال عاشقي السلطات.

أول مرة استكثرت مقدارها، وبالتطبيق كنّا:

• يتناول كلّ منّا "زبدية" فتحًا للشهيّة والطبخة على النار قاربت الاستواء،

• وزبديّة ثانية في أثناء الطعام،

• وثالثة بعد الانتهاء من الوجبة.

وأذكر أنه كان للرجل صديق عراقي في السويد يدعمه كل شهر بمبلغ، فالمخصص له من حكومتنا لاجئا لا يكفي. وأعرف أنه كان يتحيّن الفرص للهجرة قبل أن تقع الأحداث في بلدنا ويصبح "البْلوم" مبتدَئًا للهجرة التي عَبّدَ طريقها السوريون الناجون بأنفسهم من القهر والجوع. وقد غادرتُ من ناحيتي إلى فلوريدا عند أبنائي، ولما عدت فقدت عنوانه.

أقول: تذكّرت هذا المساء الزبديات الثلاث، قبل وأثناء وبعد، فهجرت مكاني في الحديقة، ودخلت أعدّ زبديتين اثنتين لا ثلاثا، تناولت الأولى... وهأنذا أحدّثكم، وأحسّ أني مُقدِم لأتناول الثانية مع وجبة الفاصوليا التي بتّ أحسن طبخها.. والتي ينادى بيّاعها في سوق الهال: "مالطيّة حرير، يا فاصوليّة!".

لكم شهيّة طيبة.

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٠-٥-٢٠٢٠

صدّقوني إن قلت لكم: إني لا أهاب الموت

صدّقوني إن قلت لكم إني لا أهاب الموت، وأبالغ قليلا إن زعمت أني مستعدّ أن أستقبله بالأحضان

لكني مشفقٌ على إرثي الأدبي، على خلاصة العمر، عشرين مخطوطة ويزيد، تتوزّعها الرفوفُ والخزائن، أضابيرَ وكلاسورات..... أن تتبدّد بعد رحيلي.....

وقد خذلني المثقفون، المقتدرون، أيّ خذلان!

دمشق الشام: ليل الأربعاء ٢٠-٥-٢٠٢٠

شكوت من أن المثقفين المقتدرين خذلوني

شكوت من أن المثقفين المقتدرين خذلوني، فكتب ناشط:

"هم خذلوا شعوبَهم.. فما بالك بإرثك الأدبي.. للأسف يغلب عليهم الجُبن والبخل والتقوقع".

دمشق الشام: ضحى الخميس ٢١-٥-٢٠٢٠

بالأمس شاهدت مسؤولا يتحدث

بالأمس شاهدت مسؤولا يتحدث عن أنهم جعلوا سعر الصرف الرسمي للدولار:

- (٤٥٧)،
- لا بل (٤٦٠)،
- لا بل أربعمئة وكيت وكيت...

وهو ينسى أنّ الدولار يتجه في السوق نحو الألفين.. والناس يكتوون بارتفاع الأسعار

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢١-٥-٢٠٢٠

العينان في الأفق الشرقي

قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان، كتبت -بيد غير مرتعشة- قصة جعلتُ فيها الجلاّد يمارس الترهيب على أستاذ القانون.. حتى يجعله يُقبّل بُسطاره العسكري..

قبل أيام وعدت بأن أقدّمها لكم مرة أخرى.

كثيرةٌ كلماتها المعبّرة (نحو أربعة آلاف مفردة).. مَن شاء منكم أن يطلع على لون من ألوان الأدب السردي، المتخيّل والمستمدّ من قلب الحقيقة الواقعة، فليجلُ نظارته ويقرأ.

أنشرها لكم في الخاطرة التالية.

دمشق الشام: عصر الخميس ٢١-٥-٢٠٢٠

كنت اقترحت، وأنا في أمريكا

كنت اقترحت، وأنا في أمريكا، على مَن يخصونني هناك:

أن نختار نحو ١٠٠ تغريدة (من بين الألف التي نزّلتها في صفحتي خلال إقامتي العشرين شهرا هناك)، مما يتعلق بالأسرة وتجلّيات الحياة في فلوريدا، تُترجم إلى الإنكليزية، وتنزل في كتاب باللغتين معًا....

فاعتذروا.

دمشق الشام: عصر الجمعة ٢٢-٥-٢٠٢٠

غدًا.. أو بعد غد

بعد أن تناولت عند الصباح حبوبي، المقوّي منها والمدافع عن صحتي، أخذت ثمرة بندورة (طماطم) حمراء الوجنات، قسّمتها بالسكين، ومَيّلت القطع في تناسقها على جنبها، والملحَ والشوكة، وخرجت إلى حديقة البيت، آكل، وأتذكّر ما كان كتب صديقٌ من أنه رأى "المهندس الكوري" في الورشة يومًا يعتلي سطح قاطرة، يعمل في صيانتها وبجواره كيسٌ من البندورة، يأكل منها متلذّذًا على أنها شيء من الفاكهة كما يرون في بلده.

• كنت أستمتع بمرأى الخضرة المتفتّحة في هذا الربيع،

• وأشتنشق عبير زهر الياسمين،

• وأستمع إلى غناء البِركة بما يتساقط على سطحها من قطرات الماء،

• وأشنّف الأذنَ بزقزقة العصافير...

قلت لنفسي: لن ترَيْ هذا كلّه غدًا أو بعد غد..

وقلت: لسوف تنوب عني.. كلماتٌ.. أودعتُها الأبصار والأسماعَ والقلوب.. على مدى حياتي.

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ٢٤-٥-٢٠٢٠ أول أيام عيد الفطر

أغلقوا الباب عليّ.. وتركوني!

رأيت كما يرى النائم، أني أمشي في طريق لقضاء إحدى حاجاتي.

فجأة التقيت بصديق من عهد الشباب الأدبي الأول (ج. س)، فتبادلنا التحية وانا مندهش لأني أعلم أنه قد ترك دنيانا شابا ومضى. سرنا معا نتحدث فيما لم أعد أذكر. ولست أدري كيف قادني إلى حيث كان متوجّهًا، فوجدتُني في بيت، حوش تتحلق حولها الغرف، وأشار إلى ناحية وقال على ذلك الركن تطلّ غرفتي (ولم يقل: غرفتي التي كانت!).

هل غافلته وتوجّهت إلى ذلك الركن؟

وبدا أنّ أصحاب الدار تنبّهوا إلى أنّ هناك غريبا يذرع ذلك المكان. فآثرت التواري. وجدت أمامي بابا "للغرفة". مددت يدي فانفتح الباب. تسلّلت. رأيت سريرا، وطاولة، ومكتبة، وكل شيء على حاله وكأنّ صديقي يرتاد الغرفة كلّ يوم.

جلست على إحدى الكنبات.

دخلوا الغرفة من باب آخر. ومن عجبٍ أنّ عيونهم لم تلمحني، فكأنّ جسدي بدا لهم في

تلك اللحظة شفافا، أو أنهم تغافلوا عني. ولم يكن بينهم صديقي الذي رحل قبل أربعين سنة.

أغلقوا الباب بهدوء، وتركوني.

دمشق الشام: الأحد ٢٤-٥-٢٠٢٠ (أول أيام عيد الفطر).

رسالة غير لطيفة

ما ورد في هذه القصة من تفاصيل قد وقع لبطلها ولنا، وما لم يقع أني لم أرسل هذا المضمون إليه كما ادّعت الرسالة - القصة!

ممّا أزعم الآن أنّ القصة "ممتعة" (وهل لكاتبٍ أن يعلن مثل هذا أمام جمهوره؟).. ودليلي أنّ الصديقة "مديحة باروتجي" من حلب قد قرأتها وهي في أيام الصبا، قبل أربعين عاما، وما زالت في خاطرها تحنّ إلى إعادة قراءتها، وعندما افتقدتْها في الإنترنت دفعها الشوق إلى أن تسهر الليلة الماضية وتُكبّ عليها تنضيدا. جزيل الشكر لها على إعجابها بها وعلى ما بذلت من نور عينيها الجميلتين في سبيل التنضيد.

دمشق الشام: عصر الإثنين ٢٥-٥-٢٠٢٠

- - - - - - - - - -

صديقي العزيز!

أنتَ ما إن تركت الغرفة وغادرت باريس عائداً إلى وطنك حتى أقبلت "المنظِّفة" بمكانسها وموادّها، فأزالت ما تخلّف عنك من "أوساخ"، فخرجت الغرفة من بين يديها "تضيء" كما تقول العامة في بلدي.. ثم إن مديرة المجمّع السكني أوعزت بتسليمي إياها في اليوم التالي، غرفة نظيفة مرتبة في الطابق السابع، ذات شمس وهواء ومناظر خلابة.. هي الغرفة ذاتها، الرقم ٧٠٧ التي قضيتَ فيها أشهر إيفادك الستة في العاصمة الفرنسية، يا صديقي!

لست أشك في أنك شاعرٌ بالضيقِ، وأنت تقرأ أسطُري الأُولى هذه، وكأني بك تحدث نفسك: هو ذا صديق تعرّفت إليه في باريس، قد أتاحت له مغادرتي فرنسا أن يحلّ محلي في غرفةٍ ذاتِ مَطَلّ، بعد أن كان يسكن الطابق الثاني، يلاحقني برسالة منه إليّ في وطني ليتّهمني بأني قليل العناية بالنظافة! فأية تهمة! وأي صديق!

مهلاً يا صديقي.. فأنا ما أنهيتُ كلامي!

إني في دخولي الغرفة ساكناً جديداً لها، وبينما أُغلق الباب بذاك الدرباس الكبير الذي تعرف، سقط منه إلى الأرض صرصور، مارّاً عبر كفي.

ومع أنه كان صرصوراً صغيراً، إلا أنّ ما انتابني من القرف كان بمقدار ما داخلني من العجب، وأنا أرى الصراصير تتراكض في جوانب المغسلة وفي أرجاء الغرفة...

عجِبتُ كيف أنها لم تمت من الجوع، صراصير في غرفة لم تدخلها كسرة من خبز أو قليل من سكر؟!

أراك الآن تتضايق من نزق، وتتمتم: عادت حليمة! تهمة البخل ذاتها! "، وتضيف: "أجل أيها الأصدقاء، أنا لا أستقبل في غرفتي ضيوفاً، وأظلُّ أضيِّفُ نفسي عند أصحابي في غرفهم، بخلاً مني أو كسلاً، سمّوه ما تشاؤون! وماذا هنالك بعد؟

لا أحب أن تغضب يا صديقي، وإن كان مظهرك غاضباً يلذُّ لي عن قرب!

إني في رسالتي هذه رغبت أن أستعيد وإياك، على البعد، بعض ذكرياتنا العزيزة التي نسجتْها حياتُنا المشتركة في المجمّع السكني هذا في ضاحية "كاشان" جنوبي باريس.

هل تذكر ليلة كنا فيها ساهرين عند أحد الأصحاب، ودار الحوار حول شؤون الفكر والأدب، فسُئلتَ عمن تقرأ لهم من الكتّاب، قدماء ومحدثِين، فأنشأتَ تقول: "من المحدثين:

أقرأ للعقاد والمازني وطه حسين، ومن القدماء،... " وعددت أسماءً دون أن تأتي على ذكرِ سيد الناثرين العرب، "أبي عثمان الجاحظ".. فسوّلت لي نفسي، الأمَّارة، أن أتدخل قائلاً: "ليتك يا أبا فؤاد قرأتَ الجاحظ، وخاصة كتابه "البخلاء"، فاقتديتَ به فيما فعل.. ".

فتساءَلَتْ سيدة من الحاضرين، هي صديقتنا "مفيدة"، التي تنتمي إلى دولة عربية تقع إلى جوار بلدينا: "وماذا فعل الجاحظ يا أبا فراس؟! ".

قلت:

- مما قيل، أنّ أبا عثمان الجاحظ كان يُعَد أميراً للبخلاء في عصره، فأخذ يجمع نوادر نظرائه، قبل أن أخرجها إلى الناس في كتابه البديع الشهير هذا، رغبةً منه خفيّةً في أن يُسقِطَ عيبَ البُخْلِ فيه على الحاضرين!

ولعلك تذكر يا صديقي، أنّ الجميع ضحكوا من أعماق قلوبهم، عدا اثنين: أنت؛ كاظماً عظيم غيظك، وأنا؛ إمعاناً مني في استثارتهم للضحك!

أما تذكر هذه "السالفة"؟ هل نسيتها يا عزيزي؟!

ولن أُعفِيكَ في رسالتي هذه من أن أذكّرك بأنك كنتَ تَضِنّ على نفسك في شراءِ "سَخَّان" كهربائي تُعدّ عليه القهوة والشاي، وتسلق البيض، أكلتك المفضلة، سهلة التحضير، رخيصة التكاليف.. وقد كنت تؤمِّن لنفسك هذه الأمور على نحوٍ أو آخر..

فأما البيض فتسلُقه عند جيرانك، وأما القهوة والشاي، فقد دأبت على أن تزورنا، نحن أصحابك، في غرفنا، على الرحب والسعة.. تدخل على كل منا، قائلاً بأخوة حميمة:

"أين قهوتك التي عوّدتنا عليها يا أستاذ؟! "،

"أنتِ يا أُخت مفيدة، إنّ "شاياتك" ما في المجمّع أطيب منها! "

وأحياناً تطلب مع الشاي، قطعة من جبنة "البقرة الضاحكة"، ومع قطعة الجبن، بضع حبات من الزيتون! فيكون لك بين ضحك الأصحاب ومرحك المستلطف، عشاءٌ وافٍ طلبتَهُ في غير بيتك. وكم تتباهى بأنك "تقطّعها برقاب الناس"، تزورهم في غرفهم، شارباً آكلاً، دون أن تمكنهم من أن يطأوا عتبة غرفتك!

وإذا اتفق لأحدهم أن تجاوز هذه العتبة، ونادراً ما يقع ذلك، لأنك لا تستقر في غرفتك، لم تقدم له فنجان قهوة، متعللاً بأن ليس عندك سخان تُعدُّ على ناره القهوة. والواقع إن ما كنتَ تفتقده هو النار، مضافاً إليها البن والسكَّر!

وعلى ذكر السخان الكهربائي، هل تذكر أياماً باريسية اشتدّ فيها البرد، وأنت كما ظللتَ تردد "رجلٌ برِّيد"، فلم يدفئك ما يمرّ في غرفتك من أنابيب تدفئة مركزية، وبدلاً من أن يحملك هذا على شراء سخان تصبح استفادتك منه مضاعفة في الطبخ وفي الاستدفاء، كحال بعض نزلاء المجمّع من البرّيدين، قمت تطلب مني ومن صديقتنا مفيدة استعارة سخانينا الإثنين!

- وكيف؟!

سألناك مستغربين، وكلٌّ منا يستعمل سَخّانه في الصباح وفي المساء؟ أجبت:

ـ آخذهما منكما قُبَيْلَ النوم، وأردّهما في الصباح!

وقد استجبنا لك في المرة الأولى، وكان مما زاد في استعدادنا للإجابة تلك الليلة، أن الثلج كان قد غطى باريس بوشاحٍ أبيض.. ثم اكتشفنا في اليوم التالي أننا وقعنا في "مطبّ" صغير، ذلك أنك لم تردّ في الصباح إلى كلٍّ منا سخَّانه، كما أننا تحرَّجنا من أن نطرق الباب عليك نوقظك سائلين عما لنا من سخانٍ عندك..

وظللت تغُطّ في نومك الهنيء، واضطررنا أن نغدو إلى أعمالنا بفَطور ينقصه الشاي أو

القهوة، وذلك مما جعلني، أعدل عن إعارتك سخّاني، وظلَّت مفيدة تقدِّمُ لك سخَّانها على استحياء، كلما عصف البرد في سماء باريس... وأنت في ذلك تُعيّرني: "أرأيتَ يا أبا فراس، كم أن أختنا مفيدة أكرم منك يدا؟! ".

فكنتَ يا صديقي، تتّهمني بالبخل في الإعارة، وتنسى بخلك في شراء ما أنت في أمسّ الحاجة إليه!

جرى على قلمي ذِكرُ القهوة والشاي، فكان لا بد من أن أتذكر الشاي الذي دعوتنا إلى تناوله في أحد مقاهي "مونبارناس". كنّا يومها ثلاثة، أنت وأنا وصديقتنا العزيزة مفيدة، وقد غادرنا لتونا محلات "فناك" الشهيرة: أنت اشتريت أسطوانة لبيتهوفن، واشتريتُ أنا مجموعات من الحكايا والأساطير عند الشعوب، وأودعت مفيدة فيلماً ملوناً كانت قد التقطت صوره بمصورتها للتحميض.

البرد في ذلك اليوم الشتوي كان قارساً، ولسنا ندري، مفيدة وأنا، كيف عصف بك عاصفٌ من كرم.. كعصف الريح في ذلك المساء الباريسي، فدعوتنا إلى أن نأخذ قدحاً من الشاي في مقهى "لاتور" (البرج!).

غمزتني مفيدة ونحن نَدلِفُ إلى المقهى بعينها، باسمةً فرحة، وكأنّ لسان حالها يقول: "يا للأريحية[1] المفاجئة! "

فابتسمتُ لها مستجيباً لغمزتها ولفرحها، وفي نفسي تتردّد عبارة لم ألبث أن سكبتها في أذنها ونحن نشقّ طريقنا بين المناضد والروّاد: "إنها لحظة ضعفٍ منه، أودت به إلى أن يدعونا! ".

ولاحظتَ أنت إشراقةَ وجهينا، فتساءلت عمّا بنا؟ فأجابتك صديقتنا التي كانت لا تزال

---

(١) الجود مع الارتياح فيه.

تُعيرك سخّانها، مُجاملةً: "الحق إننا سعداء جداً بتناول الشاي الحار في هذا اليوم البارد! ".

فرحتَ تعدّد لنا مزايا تناول الشاي في هذا المقهى، المطلّ على "بلاس دو رين" (ساحة الملكات)، فيما نحن نرشُف الشاي من أقداحنا، متلذّذين لأنه كان بدعوة منك، أكثر من تلذذنا بنكهته أو حرارته!

فلما آن لنا أن نمضي، أخذت أنت وريقة الحساب، وقرأت الرقم فيها و"قسمته" على ثلاثة فكان الحاصل: ثلاث فرنكات ونصف الفرنك!

أعلنتَ ذلك بصوتٍ مرتفع، ثم دسستَ يدك في جيبك، فخرجتَ بقبضة نقودٍ، وانتقيتَ منها، ونحن ننظر مذهولَين، ثلاثة فرنكات ونصفاً، وضعتها بعناية في طبقك إلى جوار الفنجان، وأنت تقول: "نحن في فرنسا، لنتعامل على الطريقة الفرنسية! ".

فأدهشَنا قولك، صُعِقنا، حتى إن مفيدة لم تتمالك من أن تراجعك بعتاب:

ـ أبا فؤاد! ألست أنت مَن دعانا إلى تناول الشاي؟!

أجبتَ، ضاحكاً مرحاً، كعادتك:

ـ دعوتكما، لا أنكر، ولكن من أجل أن يشرب كل منا على حسابه! ولماذا أتولى الدفع عنكما؟ نحن جميعاً غرباء في بلدٍ غريب!

بعدئذ حدثتني مفيدة، وختمت حديثها بهذا السؤال: "طيب، وعندما يزورنا في غرفنا دون دعوة، ويطلب أن نقدم له القهوة والشاي والجبنة والزيتون، هل يفعل ذلك على الطريقة الفرنسية أيضاً؟ "

أجبتها: "لا، في تلك الليالي يكون هو وحده الأجنبي، ونحن من أبناء البلد".

ثم إني نقلت لك هذا الحوار، فضحكتَ له طويلاً، وقلت: "إذن، فقد كان مقلباً في "لاتور"

شربتهاه! كنت أدرك من البداية أنكما واقعان في هذا الظن".

وما فاتني أن أسألك: "أبا فؤاد! إن راتب المنحة الذي تقبِض هو ذاته ما يقبِضه كلّ منا نحن معشرَ الموفَدين إلى باريس، خبّرني، أين تذهب به كله؟ ".

قلت: "أنت تعرف كم أهوى الفن والموسيقى! إني أُكثر من التردّد على المسارح وحضور الحفلات الموسيقية، وهذا يكلفني غالياً في باريس! ".

وأعترف لك، أيها الصديق الحميم، بأنه قد مسّني يومها كثيرٌ من العجب، ولقد ظللت ثلاثة أيام بلياليها، وأنا أتساءل عن وظيفة الفن، وما يمكن أن يفعله في النفس فنُّ الموسيقى خاصة، قبل أن أنتهي إلى هذه المقولة:

إنّ امرءاً عربياً لم تكسبه أرض بلاده وسماؤها خصيصة كرم اليد، يستحيل عليه أن يكسبها في بلاد الغرب بفعل الموسيقى التي يَهيم بها، حتى ولو كانت لشوبان أو بتهوفن أو برليوز!!

هأنذا قد اوصلتك إلى حافة الغضب، يا صديقي! أم أنك غضبت فعلاً؟! وغضبت جداً؟! فأنت تهمّ بأن تمزق رسالتي وتذروها في الهواء؟!

ولكن مهلا، مهلاً.. انتظر حتى أكمل حديثي وترجيعي ذكرياتنا المشتركة، أيها الصديق!

إنّ ما يغفر لك عندي بعض ما يَعلق بك من هذا الطبع غير المستحبّ، أنك تملك حميّة، قد بدت منك، فجأة، في يومٍ مشهود!

كان ذلك عندما غادرت ذات ليلةٍ شتوية، القطار السريع RER في محطة "آركوي كاشان"، القريبة من المجمّع، عائداً إلى البيت، وأنت متدثر بمعطفك، ومعتمر "برنيطة" رمادية اللون، فرأيتَ، في ذلك الزقاق المنحدر من باب المحطة نحو الشارع، أربعة فتيان مراهقين، قد تخلف عنهم رابعهم الذي راح يُعابث فتاة صبيّة تريد أن تعبر الزقاق، وهو يمنعها، باسطاً ذراعيه

دونها..

ولستَ تدري أنت، كما لا يدري أي أحدٍ من معارفك، أيةَ نفحة من الحميّة والنجدة واتتك تلك اللحظة، فأقبلتَ على المراهق العابث، تخاطبه بلهجة رقيقةٍ قد غاليتَ في تهذيبها:

"لماذا تضايقها يا سيد؟ دعها تمرّ! "

ولما كان الناس في هذه البلاد لم يعتادوا أن يتدخّل أحد في شأن أحد، فقد اعترى المراهق ذهول من أن يتدخل "عابر سبيل" بدا له من لُكْنَته أنه أجنبي، ليحول بينه وبين أن يمارس ما حلا له من حماقة!

وما وقع للفتى المراهق، أنّ ذهوله جعله يُرخي ذراعه، فيُتاح للصبية المحصورة أن تتحرر.. ذهوله ذاته جعله يطلق صرخةً عشواء، تَنبّه لها رفاقه الثلاثة، فهبّوا يسألونه، نادبين أنفسهم لكل كريهة: "ماذا هنالك؟ ماذا جرى؟! ".

أعلن الفتى: "تصوروا! ذلك الأجنبي الـ.....! ذو البرنيطة الرمادية، يقول لي: "لماذا تضايق الفتاة؟ دعها تمر! "

استنفر الفتيان، غضبوا، ثاروا، وأنت، يا صديقي -ولك الحق- وجف قلبك..

سمعتهم يقدّمون مقترحاتهم:

"هل نضربه؟ هل نرميه أرضاً؟ أتريد أن نأتي به إليك؟! ".

ههنا تعين عليك أن توازن بين قوتك، وأنت النحيل الضاوي، وبين قوة الحمقى الأربعة، فوجدتَ أنك الخاسر في كل ميزان، حتى ولو كان مخفر الشرطة على مقربة!

فحثثت خطاك، وصوت أحدهم يترامى إليك:

"هل نَضرِبُه على رأسه، ونطيّر له "البرنيطة" في الفضاء؟! ".

الموازنة بين القوتين كانت قد انتهت بك إلى أن تُؤثر الفِرار، فما كان منك إلا أن أطلقتَ ساقيكَ للريح، فإذا بالأشقياء يصرخون في إثرك هازئين ضاجِّين: "هووووو! النجدة! يا شرطة أنجديه!.. "

وبدلاً من أن تتجه نحو موقف الأوتوبيس، الذي يُقلّك عادة عبر أربعة مواقف إلى المجمّع، اتجهتَ، قصدَ التواري، نحو طريقٍ أُخرى، فجئتنا على قدميك، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ونفضت بين أيدينا تفاصيل الحادثة، فكان عجبنا ممّا بدا من الفتيان الأربعة، لا يُدانيه أو يفوقه عندي إلا إعجابي العظيم بما بدر منك من نخوة وشهامة، تغفِران، بل تمحوان كثيراً مما "يشاع" عنك من تهم البخل، يا صديقي!

رسالتي هذه إليك قد يصفها غيرك بأنها صريحة، واضحة، تضع النقاط على الحروف... وقد يراها آخرون بأنها مرحة! وربما زعم فريق ثالث أنها.. ملتزمة وهادفة، وإنسانية النزعة أيضاً!

أنت تقول عني "مغرور"، يخربش كلاماً سقيماً ثم يحسب أنه يكتب "أدباً".. إن كان هذا حقاً ما يدور في خاطرك الآن، فاسمح لي أن أظنّ بأني قد أصبت في رسالتي الهدف!

ولو كنتُ على النقيض من ذلك، أطريتُ ما فيك من بخل، وجعلتُ منه خُلّةً سجية كريمة يفتخر بها صاحبها، أأكون إذاً قد كتبت أدباً؟! أم جعلتُ نفسي نصيراً للبخل والبخلاء وذلك ما لم يقع فيه بخيل عصره في كتابه سالف الذكر؟!

اشتدّ، الآن، ضيقُك بي، وغضبُك عليّ، فرسالتي، في رأيك، "نابية"! فإن خففتَ الوصف، قلت إنها "مُزعجة"! فإن ترققتَ قلتَ: "رسالةٌ غير لطيفة"!

تقول "رسالةٌ غير لطيفة"؟!

راق لي منك هذا التعبير! لسوف أجعله عنواناً للرسالة، وسأدلك على المجلة التي تُنشَر فيها، لتقرأها مطبوعةً طباعةً أنيقة، ولن أنسى أن أهدي إليك نسخة من الكتاب الذي ستنشر فيه! فإني أريد لك أن تحتفظ بالرسالة مكتوبة بخط يدي، ومنشورة في مجلة وفي كتاب!

وبانتظار أن ترِدني منك رسالةٌ جوابية تضاهي رسالتي هذه... أتمنى لك أسعد الأوقات، أيها الصديق الذي ألهمني هذه السطور..

صديقك المشتاق: أبو فراس (فاضل السباعي)

الكتابة: باريس، ربيع ١٩٧٨. نُشرتْ في مجلة "الفيصل"، الرياض ١٩٧٩، ثم ضمن كتابي "الابتسام في الأيام الصعبة".

ذات محاضرة

رفع طالب صوته في وسط المدرّج يقول:

ـ كيف فات مؤلفَ "ثم أزهر الحزن" أن يعرف أنّ الحزن لا "يُزهر" إلّا حزنا!

فأجابه المعلم:

ـ ألم تسمع أنّ الوردة تُخلّف شوكة وأنّ الشوكة تخلف وردة؟

دمشق الشام: ظهيرة الأربعاء ٢٧-٥-٢٠٢٠

عام ١٩٨٥ (أو ما حوله)

عام ١٩٨٥ (أو ما حوله) زار دمشق اثنان من كتّاب مملكة المغرب نزلا ضيفين على اتحاد الكتاب. واتفق أن دعَتْهما إدارة الاتحاد لعشاء في مطعم بأبو رمانة، وكنت مدعوًّا لذلك أنا وأخي الكاتب نادر السباعي، ولم يكن بدّ من أن يرافقنا مندوبٌ عن الاتحاد ليتولى أمر الضيافة

و.. ليحول دون أن ننفرد بأحد الضيفين فنحكي! لم ألحظ هذا إلا أنّ أخي نادر لاحظ ونبّهني.

في عام ٢٠٠٠، عند وفاة الرئيس حافظ الأسد، دعت جهةٌ أمنية كلّ الناشرين بدمشق (وأنا واحد منهم) لمراجعتها والدخول إليها على التتابع لسؤالنا أين نطبع كتبنا، قصد تنبيهنا إلى ما قد يُطبع من منشورات ضد العهد الذي بدأ برحيل الرئيس (والمقصود الشقيق رفعت)، واتفق أنّ دخولي إلى مكتب المسؤول الأمني كان برفقة ذلك الكاتب الناشر الذي تولى قبل بضعة عشر عاما أمر العشاء في مطعم أبو رمانة.

بعد انصرافنا، وأنا وهذا الكاتب نمشي في "شارع مرشد خاطر"، انطلق لسانه يحدّثني بإسهاب عن فساد في النظام أكثر ما كنت أحبس في صدري... فعرفت كم ذا تفعل الأيام في نفوس الرجال وعقولهم!

دمشق الشام: ظهيرة الجمعة ٢٩-٥-٢٠٢٠

رحلة نملة في رحاب الدار

كثيرًا ما نبّهتني أمي وكبيرات النمل مني إلى أن أظلّ في السِّرب لا أبتعد عنهنّ، وهنّ يعرفنَ مدى حبّي للمغامرة وذهابي أحيانا هنا وهناك، وأنا أراهنّ منشغلات بتنظيف البيت، يحملنَ بقايا الطعام يلقينَها خارجا، ويُرتّبنَ موجوداته، ثمّ يشرعنَ بالبحث عن قوت جديد يدّخرنَه للأيام الآتيات.

كنت أحسّ دائما أني توّاقة للذهاب بعيدًا، أغامر، أرى، أكتشف، وأنا أنظر من موقعي على الأرض إلى صاحب البيت جالسا يستظلّ العريشة، يشرب قهوته الصباحية، ويتناول غداءه أحيانا وعشاءه أيضا، ويستقبل ضيوفه... فأقول في نفسي: كيف يمكنني أن أرى هذا الرجل إذا اعتليت مرة هذه العريشة وأطللت عليه من فوق؟

إلى أن وجدتني يوما أتسلّقها... أصعَدُها عبر جذوع، وفروع، وأغصان، وأوراق خُضْر ومصفرّة ويابسة... كان سفرا متعبا اجتزت فيه دروبا سالكة وأخرى مسدودة فأتحوّل عنها.. ويا له من منظر جميل إذ رأيت الحديقة كلها تحت بصري، الأشجار والأزهار، وتمنّيت لو أنّ أخواتي كنّ يصحبنني!

لم يكن الرجل ساعتها تحت العريشة... فلما جاء بفنجان قهوته رأيته من علٍ أصغر مما كنت أراه وأنا أَدِبّ على الأرض تدوسنا قدماه.

أخذت أتفرّج عليه. يمسك فنجان القهوة من عروته، يُدنيه من وجهه ثم يُعيده، يقضَم مع هذا قطعة من البسكويت نتمنّى نحن لو أنّ واحدة منها نتعاون في حمل فتاتها إلى وكرنا!

في استمتاعي بهذه الفرجة لست أدري كيف زلّت قوائمي الستّ، فسقطت... أين؟

لم تأتِ سقطتي في فنجان قهوته أو فوق بسكويتة، بل على رأسه، فوق شعره، وهذا لا يقع لنا معشرَ النِّمال، فإن نظَرنا إلى بني البشر يأتي من تحت، وقلما نصعد.

واكتشفت أنّ السير على شعر رأس الإنسان ليس سهلا. كنت أنتقل من شعرة إلى شعرة وكأنني في غابة أتطاير بين الأشجار. ومع ما بذلت من جهد خارق فقد كان ذلك ممتعا لي جدا.. إلى أن وجدتُني أنزلق إلى رقبة الرجل، وهنا أحسّ بي، فترك فنجان قهوته، وانهال بيده يضرب المكان الذي أنا فيه، وأتبعها فركةَ بأصابعه الغليظة، أسفرت عن زحزحة مفاصلي عن مواضعها، فأسرعت أختبئ في ثَنية بقميصه وأنا أتلوّى من الألم.

وهناك أخذت أعالج نفسي، بما عُرِف عنّا نحن النمل من قوة الصبر والاحتمال، بحركات أعادت لي قوتي وتوازني. استرجعت قَوامي الذي تضعضع، وعاد لي خصري الرفيع الذي تحسدني عليه "عارضات الأزياء" البشريّات، ممسّدةً قرنَي الاستشعار في رأسي... وفكرت، بدماغي الذي يُحسن التفكير والتخطيط، ونويت أن تكون "مداعبتي" القادمة لهذا الرجل أكثر

مرارة، حامدةً -في الوقت نفسه- ربّي أنّ الأذى الذي نزل بي لم يُطح بي أرضا!

ظللت في مكمني حتى الليل، ودخل الرجل سريره لينام. خطر لي، وأنا أشمّ رائحته البشرية، أن أتذوق جسده، فلحست أولا بلساني لحسة، وجدت الطعم مختلفا عن كلّ ما عهدناه في أوكارنا والجحور، وسوّلت لي نفسي أن "أعضّه" بفكّيّ، وماأقرصته غير قرصة واحدة حتى هبّ من فراشه يبحث عني. ولما كان عثوره عليّ صعبا والنوم في عينيه، فقد خلع قميصه وأخذ ينفضه نفضا أخرجني من مكمنٍي وألقى بي بعيدا.

وجدتني على الأرض أسعى، أمشي فوق سجّادة مزركشة لم يكن سيري عليها مريحا، إلا أنه لا يُشبه ذلك القفز بين أشجار "الغابة" الذي فعلت! وجدت الباب مغلقا، فتسرّبت من تحته، وسرت حتى غدوت في أرض الحديقة، وقادني قرناي إلى منزل أهلي، وأنا أتصور أمي الملكة وشقيقاتي قلقاتٍ عليّ لغيبتي الطويلة.

وما إن اقتربت من البيت وسمع أهلي دبيب أقدامي، حتى ارتفعت منهنّ الأصوات، منها ما يعبّر عن الفرح بعودتي.. إلا أن الملكة الأمّ قالت تقرّعني:

ـ أين كنت، يا منظومة، ونحن قلقات عليك منذ ساعات النهار؟ لم لم تطلقي "إنذارا" كي نعرف إن كنت في خطر، أو تبعثي لنا بتلك "الرائحة" فنتأكّد من أنك في حالة موت؟ كم مرة قلنا لك: لا تبتعدي عن شقيقاتك، يا شقيّة؟

وذرفت دموع الندم، فأشفقت عليّ شقيقاتي، وتدخلن قائلات بحنان:

ـ معليش، يا ستّ الكلّ، لن تعيدها بعد اليوم، اغفري لها خطأها...

ثم خلَتْ بي شقيقاتي الصغيرات، يطلبن مني أن أروي لهنّ كيف تسلّقت العريشة، وهويت فوق رأس الرجل، وصرت أمشي فوق شعره وكأنني في غابة.. اختبأت بين ثنايا القميص، وفي

الليل قرصتُه..

بعضهنّ أشفقنَ عليّ، وبعضهنّ ضحك، وقرأت في بعض العيون أنهنّ يتمنّين أن يقمنَ بهذه المغامرة! [1]

دمشق الشام: ليل الأحد ٣١-٥-٢٠٢٠

وترحل الأيام.. ونرحل

شقيقتي، التي كانت تشفق على دموعي عندما يحلّ المساء، أذرِفها ساعة أفطن -بعد اللهو في أرض دارنا الكبيرة- إلى أنّ عليّ أن أكتب واجباتي المدرسية (خاصة المفروضة عليّ بشكل جزاء)، وأنا في الأول ابتدائي.. فتتطوّع لكتابتها نيابة عني وأنا بجانبها، تشكرها دموعي التي مسحتها بكمّي ويشكرها في الصدر القلب أيضا، ولا ينتبه في اليوم التالي معلمي الرحيم، "عبد الرحمن سيريس"، إلى فارق الخط، أو هو يعرف ولكنه يغضّ الطرف، في شفقة تشبه ما منحتني إياه شقيقتي التي تكبرني بسنتين. تذكرني بهذه السالفة، في جلساتنا العائلية الحميمة، فيضحك الكبار مرحًا، ويعزّ على الصغار أن يُصدّقوا: كبير الأسرة، الكاتب الذي يعرفون، كان في الصف الأول متقاعسا، فينبري من يقول: "بعدين طلع قدّها وقدود! ".

وتمرّ الأيام، وتبني شقيقتي أسرة من أربع زهرات فوّاحة، وهم يؤسسون ويبنون، منهم من ظلّ في الديار مقيما، ومنهم من شرّق وغرّب.. إلى أن جاءها هي الدور في الاغتراب، فاتخذت وِجهتها منذ أول الأحداث إلى أقرب المهاجر، تركيا.. وكان ما بيني وبينها لقاءات على الهاتف صوتًا تصحبه الصورة أحيانا.

قبل أيام أطلّت عليّ بوجه يطفح بشاشة، فقلت لها: "والله حليانة يا سعاد! "، نقلوا لها

---

(١) نُشرت في مجلة "كل العرب"، باريس – القاهرة، عدد حزيران/ يونيو ٢٠٢٠

والسمع قد كلّ، فضحكت كثيرا كثيرا.. وما كان لي أن أعلم، أو تعلم هي، أن ما كان بيننا في ذلك المساء، من رؤية ومن كلام ومن ضحكات، هو آخر ما هنالك، يا شقيقتي "أم منار"، إنهم يودِعون الساعة جثمانك الطاهر في أرض غريبة.

تسبقينني يا أختاه، ليرحمك الله.. لن يطول الانتظار.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٣-٦-٢٠٢٠

اجتزت الحدود دون أن يُقيّد المعصمان!

في مثل هذه الساعات قبل سنوات خمس كوامل..

تركت في فلوريدا البلدةَ الصغيرة Palm Bay، التي تحنو على خمسة بيوت لأبنائي وأحفادي، وأنا غير آسف أو نادم، إنما تملأ جوانحي الأشواق إلى الوطن الحبيب ولأوراقي الحميمة.. متجها بالسيارة أولا -بصحبة ابنتي سهير وحفيدي رامي- إلى مدينة "أورلندو" القريبة.. ومنها أخذت الطائر إلى "مطار فيلادلفيا"، ومنه عبرنا رُبع الكون إلى العاصمة "الدوحة"، ثم إلى "بيروت".. وعلى باب المطار هناك كانت سيارة تنتظر لتُقلّني إلى وطني الحبيب.. ووصلت إلى حيث تملأ الصدرَ رائحة الكباد والياسمين، في عصر الإثنين السابع من حزيران ٢٠١٥.

في البيت التقيتُ، وتصورت وأنا في وعثاء السفر، وكتبت للأصدقاء أني اجتزت الحدود ولم يُقيَّد معصماي بالأصفاد!!

وللحديث بقية.. جديرة بأن تقرأ غدا..

دمشق الشام: ليل السبت ٦-٥-٢٠٢٠

أعظم الحكام المسلمين اليوم...

ونرى أنّ أعظم الحكام المسلمين اليوم هم من غير العرب:

• مهاتير محمد (ماليزيا)،

• ورجب طيب أردوغان (تركيا)،

• وحليمة يعقوب (رئيسة سنغافورة).....

متماشين مع متطلّبات العصر، اقتصاديّا واجتماعيّا وديمقراطيّا.....

دمشق الشام: ظهيرة الأحد ١٤-٦-٢٠٢٠

يومًا اقترحت على صديق ودود

أن أضع بين يديه ما نشرت من تغريدات وأنا في اغترابي عشرين شهرا في أمريكا.. ينتقي منها ما يتعلق بالطفولة والحرب.. ليُنشر في كتاب يحمل اسمَينا معا، تحت عنوان "حكايا من فلوريدا ".

دمشق الشام: عصر الأحد ١٤-٦-٢٠٢٠

أروح إلى العطار...

صحبتني حفيدتي "ديمة"، وأنا في فلوريدا، إلى العيادة السنّيّة.

بعد تحديد الموعد، الذي نُصحت أن أتناول قبله كذا بيضة دجاج اتقاءً لما يتوقعون، لقلع اثني عشر سنا ونابا وضرسا، ودخولي غرفة العمل، طلبوا من ديمة أن تترك المكان، الذي اجتمع فيه ثلاثة أطباء أو مساعدين متأهّبين، أطْوَلُهم قامة أسمرُ متسلح بكمّاشة أنيقة، وامرأتان تمسك إحداهما بأدوات والأخرى بأوراق وقلم.

لاحظت، وأنا "أنتظر"، أنّ الثلاثة كانوا يتحاورون ويتضاحكون وكأنهم في نزهة، ولم أكن أنا كذلك! أخذ التخدير حدّه، والأسمر ابتدأ، يقلع سنا في الفك العلوي بعد آخر، ويلتقط، وتتقدّم مني إحداهما تمسح حول الفم.

ثمّ سمح للحفيدة أن تدخل، فأظهرت ارتياعًا وهي ترى حول الفم "بقايا" ما "فعلوا"!

الطريف أن الموعد التالي كان عصر ذلك اليوم، وظهر "الجسر" مُعدا لأن يأخذ مكانه.

بعد "الجسر" كان عليّ أن أخضع "لتخطيط السمع".

كنت أترنّم:

تروح إلى العطار تبغي شبابَها   وهل يُصلحُ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ!

أقول: قد أصلح العطارون ما مكّنتهم منه مخترعات هذا الزمان.

دمشق الشام: ليل الجمعة ١٩-٦-٢٠٢٠

لم أكن واحدا من بين.. المحظوظين

في عام ١٩٧٠ أو ما حوله عُيّن صديق لنا أديب (من أبناء النظام "ع.ع. هـ") أمينا عاما للمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، وما كانت قامته الأدبية تستحق ذلك المنصب الفضفاض.

زرته يوما فحدثني، بطلاقةٍ، عن أنّ جهة ما ثقافية أجنبية، طلبت من حكومتنا أن تقترح عليها أسماء كتّاب كي تنظر في أمر ترجمة شيء من أعمالهم للغتها، وتبرّع بأن قرأ عليّ، بطلاقةٍ، قائمة بأسماء يرشّحها لذلك لم يرد اسمي بينها.. ولاحظت أنّ قامات كثير منهم لا تصل لكتفي، فكأنه كان يريد التشفّي مني والإزراء بأدبي.

فيما بعد رأيت من الأجانب والمستعربين المعنيّين بأدبنا العربي مَن يترجم لي نصوصا بعلمي أو دون علم مني، وما أذكر أني عرفت أنه تُرجم شيء لأولئك المحظوظين.

دمشق الشام: فجر السبت ٢٧-٦-٢٠٢٠

الولد الديمقراطي

تقديم:

مواطن تزوره في بيته إحدى قريباته وبرفقتها صبيّ وُلد وعاش في بلاد أوربا الشمالية، يفهم العربية ولا ينطق بها..

في أثناء الزيارة علت في الشارع هتافات وضجيج موسيقى.. خُيّل إليه أن هذا يزعج سكان الحارة كما أزعجه هو.. خرج إلى الشرفة ونبّههم لذلك بلغته السويدية..

توقفت الموسيقى وساد صمت..

ثم.. ما لبث أن قُرع الباب..

فماذا حصل؟

قصة كتبتُها منذ قريب، نشرتْها مجلةُ "كل العرب" (يصدرها في باريس الإعلامي علي المرعبي) في عدد هذا الشهر، تموز.

وإليكم القصة:

في تلك الساعة قُرع الباب، وأنا في "اجتماعي" بأصدقائي في الفضاء الأزرق أرسل وأتلقى. وقد لاحظت أنّ القرع جاء مختلفا، لم يضغطوا على زر الجرس بل كانت نقراتٍ لطيفة بإصبع اليد وذات إيقاع!

رأيت أمامي سيدة قد مضى زمن وهي غائبة عن عيني، برفقتها صبيّ في العاشرة أو دون

ذلك أنيقٌ وسيم.

قالت لي وهي تلاحظ اندهاشي:

ـ ألم تعرفني؟ أنا "ميسون" زوجة ابن عمّك "خلدون"، إني اليوم في زيارة للوطن، آتيك الآن لأحقق رغبة تُراودني وأنا في المهجر!

وتذكرتُ أنها إحدى الكناين في عائلتنا الكبيرة، كانت قد غادرت وزوجَها البلادَ مع بداية الأحداث إلى إحدى دول الغرب، العاليةِ جغرافيّاً.

وأخذت تحدثني عن أنها، بعد أن تعلمت لغة القوم هناك، تعمل وزوجُها مهندسيَنِ، وأنّ ابنها قد وَلدته في صقيع الشمال.. الذي وصفَتْه بالدافئ! واستطردت فعبّرت عن إعجابها بما تقرأ على جداريّتي في الشابكة، ولم يَفُتها أن تنصحني باتخاذ الحيطة والحذر فهم لا يُراعون أحدا.. ولكنها حرَصت على أن تعتِب عليّ أني أعيش وحيدا في هذا البيت الكبير.. قالت:

ـ لماذا لا تأتي بامرأة تتولى العناية بك.. بل بامرأتين تتناوبان!

كنّا نسترسل في الحديث، والولد ابن العاشرة يُصغي إلينا بكل جوارحه ولا يرفع عينيه عني، وقد أعلمتني أمّه أنه يفهم العربية ولكنه لا ينطِقها، وأفصحت عن أنّ هذه مشكلة يبدو أنّ المغتربين في كل مكان يعانون منها. وفي مرحها بيّنت أنّ ابنها، الذي يتلقى العلم في المدارس السويدية:

ـ ما زال يصحّح لنا "أخطاءنا" في اللغة التي يرضعها هناك، وينتقد بعض "سلوكيّاتنا" أيضا!

وقد ضحكنا لهذه السالفة كثيرا.

هل أقول إنه كان يشوّش علينا، في تبادلنا الحديث، ضجيجٌ يأتينا من الشارع، وهتافات؟

ذلك أنّ أمام بيتي هذا مؤسسةً حزبية، وقد جاؤوا إليها اليوم -كما يفعلون في المناسبات- يهنّئون ويحتفلون. ومن عجبٍ أني لم أرَ بيتي هذا حديقة كما عهدته من خمسين عاما، بل يشغل الطابق الثاني في بناية، وأنّ للغرفة الواسعة التي نجلس فيها بابا عريضا وشبّاكين تفضي إلى شرفة تطلّ على الشارع وعلى هذه المؤسسة بما يَصُكّ آذاننا الآن من هتافات وموسيقى نحاسية صاخبة!

تساءل الصبي، بلغة البلد التي يعيش فيها، عما يجري في الشارع تحت؟ ترجمت أمُّه لي كلامه، فقلت: إنها مناسبة حزبية استدعت ذلك. ولم أفطن إلى أنّ الصبي المشبع بمعاني الديمقراطية من هناك، قد استنكر أن تحدث كل هذه الجلبة، التي تزعج أهل الحيّ لهذا السبب أو لسواه.. ورأيناه ينهض متجها نحو الباب العريض المُفضي للشرفة، يفتحه ويطلّ على مصدر الضجيج، رافعا صوته بلغته الغريبة على الأسماع، وقد بدا أنهم فوجئوا بهذا فأسكتوا حناجرهم المبحوحة وآلاتهم الضاجّة، ما أتاح لهذا "الصبي السويدي" أن يقول: إن احتفالكم هذا يزعج سكان الحي، وأعقب ذلك بهتاف.. تحاشت الأم أن تترجمه لي!

ومع أني جريت على أن أنتقد في كتاباتي أخطاءَ النظام المطّردة في حُكمِه للرعية، إلا أني توجّست شرّا من تلك الكلمات التي تلقتها أسماع المحتفلين، والصبيّ في ذلك يتابع ذكر ما قال في إطلالته عليهم، والأم تترجم، وتضيف أنهم هناك ينقدون الملك ولا أحد يؤاخذ!

وبينا أنا أستعيد في خاطري معاني الكلمات الأجنبية القليلة التي رطن بها ابنُ كنّتنا، سمعتُ نَقْراً على الباب، لطيفا وذا إيقاع خُيّل إليّ أنه يشبه ما فعلته "كنتُنا السويدية"، فقمت أفتح الباب وأنا أردّد في ذات نفسي بألا يكون القادم كنتَنا الأخرى "النرويجية"، "ميساء" زوجة "ميّاس" وبرفقتها صبي آخر! وإذا بي أرى أمام الباب أربعةُ رجالٍ أشدّاء، اجتازوا الباب – بعد القرع اللطيف المصطنع – يسألون عن الولد الذي أطلّ عليهم من الشرفة وحكى كلاما غير مفهوم؟

اعترى الأمَّ خوف عظيم، ضمّت معه ولدها إليها، وتولّيت الجواب بأن الصبيّ وُلِد وترعرع في بلاد الغرب ولا يعرف تقاليدنا العامة.

قالوا:

ـ نعلّمه الأدب.. أنت مسؤول لوقوع هذا في شرفة بيتك!

وبينا أنا في جدالهم.. دخل رجلٌ شديد آخر، وفي يده ورقة طويلة أخذ يقرأ ما كُتب فيها من ترجمة لأقوال الصبي، حَزَرت أنهم جاؤوا بها من "فرع أمن اللغات"!

لم يَصْبِروا حتى الانتهاء من قراءة الترجمة وما ذُيّل بها من تقرير يُحلّل ويقترح.. هجموا على الولد يريدون انتزاعه من حضن أمّه، فما فكّت الأمّ ذراعيها عنه، فأخذوها وإياه جرّا، وهمّوا بي فقلت:

ـ أذهب معكم على قدميّ.

هنا كان قد آن لي.. أن أستيقظ من هذا الحلم الغريب.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ١-٧-٢٠٢٠

وأنا طفل صغير..

كنت أسمع من عجائز ذلك الزمان أنّ الشاة وهي تُذبح تجد لذة في الذبح لدرجة أنها تتمنّى أن تعود للحياة وتذبح من جديد!

كنت أفكر طفلاً:

كيف عرفوا أن "الغَنَمة" تتمنّى ذلك! وكيف وصل إليهم تمنّيها وهي في لحظة الموت!

وأتساءل اليوم وقد طعنت بي السنّ:

تُرى ما هو شعور المواطن الذي يموت تحت التعذيب، وشعور الذي ينقلب به "البَلْم" وهو في البحر مهاجرا إلى حيث يريد أن يقتات بخبز الحرية؟!

دمشق الشام: مساء الأربعاء ١-٧-٢٠٢٠

صدر حكم الإعدام أمس

صدر حكم الإعدام أمس (الأحد) بحق المجرمين الذين قتلوا عائلة وحرقوا منزلهم في "بيت سحم" بدمشق. وسوف ينفذ الحكم يوم ١٥-٧-٢٠٢٠

بعثت لي صديقة الآن

بعثت لي صديقة الآن بنصّ يُبيّن أسماء بعض الملاحَقين والمصادَرين بتهم الفساد، وفيه أنّ مجموع المصادرات المالية (دون غيرها) قد تجاوز مجموعها هذا الشهر (٨ مليار دولار)!

جعلت أحسب معاشاتي التقاعدية التي أقبض، فكانت:

• ٤٦٠ ألف ليرة سورية (أي ٢٥ $) تقاعدي من الحكومة التي كانت آخر خدماتي فيها مديرا بوزارة التعليم العالي وتركتها وأنا في غزّ الشباب،

• و١٢ ألف ليرة سورية (٦ $) من صندوق تقاعد اتحاد الكتاب الذي شاركت فيه مؤسسا عام ١٩٦٩.

وبالمقارنة مع الغنى الذي ينعم فيه أثرياءُ أعلِنَ اليوم عن فسادهم، عرفت كم أنا أعيش في فقر، أنا الكاتب الذي أمسكت بالقلم منذ ما قبل عام ١٩٥٠ أدافع عن الحرية وأندد بالفساد!

هنا.. جاشت نفسي بالبكاء، ولم أعرف:

• هل أبكي على نفسي مغلوبًا؟

• أم على الوطن الذي -بعد تشرّد نصف سكانه- يتضوّر الباقون جوعا؟

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ٧-٧-٢٠٢٠

لم أعد قادرًا

لم أعد قادرًا على حِلاقة ذَقَني بنفسي،

وحلاقُ الحارة تقاعدَ عن العمل،

ولـمّا أتعرفْ بعد على حلاق يأتي إليّ في بيتي!

قبل سنوات كتبتْ لي

قبل سنوات كتبتْ لي، وأنا في فلوريدا، مدرّسةٌ في الوطن عن حادثة ضَربتْ فيها مدربةُ الفتوة طالبا أمام زملائه أهانته وأوجعته.. فأوحت لي التفاصيل بأن أستعيرها لمنشور مؤثّر كتبتُه.

بعثت إليها بمسوّدة المنشور، ونبّهتُها على أنهم يستطيعون أن يتعرّفوا على شخصها رغم كتماني الاسم، لفظاظة الحادثة وتفرُّدِها، فينالها أذى!

وسرعان ما كتبت لي تقول إنها لا تريد أن "تبتعد" عن صغارها!

فطويت المنشور وضاع بين أوراقي.

دمشق الشام: ضحى السبت ١٨-٧-٢٠٢٠

توجّهت إلى حلاق

توجّهت إلى حلاق ليُزيل ما استرسل من شعر نما في صفحتَي الخدين.

جلست على الكرسي.. وفاتني أن أنبّهه إلى أن ثمة لحية صغيرة أوشكت أن تغيب تحت وابل الشعر الأبيض. وإذا بماكينته الكهربائية تجتاح ذقَني، ولم أطلب منه أن يتوقف فقد قُضي الأمر.. بل قلت: لقد أعدْتَنِي شابّا!

دمشق الشام: ليل الأحد ١٩-٧-٢٠٢٠

رحيل.. زين الرجال

عرفته منذ سسنوات أربع، ومع حداثة الصداقة دأب على أن يزورني مساء كل أربعاء وهو -الابن البارّ- عائد من زيارة والديه، يمرّ بي ليتفقّد صحتي وأحوالي.

ويوما بعد يوم تزداد عرى الصداقة توثيقا، فأعرف أنّ هذا الدمشقي العريق درس الطب بجامعة حلب، وفيها تخصَّص طبيبا عاما، وأعرف أن والدته من إحدى الأسر الحلبية المعروفة، وأنه تزوج في باكرٍ من سنِيِّ شبابه، وأفرحني أنه "جدّ" لأحفاد من ابنتين، كانت إحداهما تقيم وزوجها في تركيا والأخرى ما تزال وزوجها في قطَر، تأتيان صيفا إلى عاصمة الوطن، تنزل كل منهما في بيت لها، ولكن الشوق يدفعهما لكثرة التردد مع الأطفال إلى بيت الأهل.. كنت أغبِطه على هذه "النعمة"، وأهيب به أن يقبّل البنيّتين وأن يشمّ كل طفل من رأسه نازلا إلى الوجه والخدين، ونضحك.

من كتبي التي قدمتها له قال إن ابنه في سن العاشرة قرأ "بدر الزمان" وما غاب عنه من معانيها شيء. وكان يردد على مِسمعي أنه يقرأ كل ما أنشر في صفحتي، يفرك في الصباح عينيه ويقرأ، فأسأله مازحا وأنا أعرف الجواب: لا أرى لك تعليقا، فيجيبني: لن ترى ولا ربعَ لايك!

ذات ليلة اشتدّ عليّ "كريب" حتى أقعدني عن أن آخذ الهاتف مستنجدا. في حرارتي المرتفعة لم يفارق الدكتور خلدون خاطري: آه لو أنّ القدر يمنّ عليّ بأن أراه أمامي الساعة! وإذا هو في

حديقة بيتي يطل عليّ من وراء زجاج النافذة!

آية ذلك أنّ ابنتي خلود (وقد كانت يومذاك هي وابنها في حلب) قد رابها أمري، فهتفت إلى صديقي الحميم الحكيم تلتمس منه أن يزورني، فهُرع إليّ، وباب الدار لا أسمع رنينه ولا أقوى -إن سمعت- على الحركة. هتفت ابنتي من حلب لأحد الجوار، فقام يطلب من أحدهم أن يتسوّر، ويفتح الباب.. وتراءت لي طلعة الدكتور خلدون ملاكا هابطا عليّ من السماء، ويشير بأن يمضي بي إلى المشفى، حيث قضيت ليلة في كامل العناية.

ماذا حل بالدكتور خلدون الصيرفي؟

في تفانيه في خدمة المرضى وإسعافهم أيام الكورونا، أصيب. هتفت له قبل أيام أسأله في أمر وأنا أجهل ما به، ولم يعد الكلام أنطق به أو أسمعه بالمريح لي، سمعته يقول عبارة تنتهي بكلمة "الشفاء"، ظننتها لي أنا الذي أعاني من أوجاع السنين والحياة. تابعتُ، أعاد، فهمت أنه يريدني أن أدعو له بالشفاء، وأبى عليه أدبه الجمّ وكبرياؤه أن يقول لي إنه مصاب! إلى أن عرفت اليوم.

لست بقادر على التعبير عن حزني لذهابه، استبدلت بذلك هذا الذي أروي. أقدّم التعازي لأسرته الجميلة، ولمحبيه الكثر في كل مكان. وأقول إنه طبيب ناجح، وإنساني إلى أبعد الحدود، وواحد من أصحاب الأخلاق النبيلة، قلب ناصع البياض ومُحيّا وسيمٌ منير

هل أقول: ليتني كنت مكانك، يا صديقي، يا زين الرجال؟ لسوف أظلّ أذكرك وأبكيك وإن جفّت الدموع.

دمشق الشام: ليل السبت ١٨-٧-٢٠٢٠

من نحو أسبوعين

من نحو أسبوعين وأنا أشعر بعُسر خفيف في التنفس يظهر خاصة عند النوم.

لكنّ ذلك تزايد عندي ليلة أمس وأنا أمام الشاشة.

وعندما دخلت السرير صَعُبَ عليّ النوم، وغفوت قليلا واستيقظت وهذه الحالة أشد.

صعب عليّ النوم، فقمت عند الرابعة صباحا آخذ كأس "عيران" مملّح (لانخفاض الضغط عندي أصلا)، لم ينفعني ذلك. جلست في الحديقة ساعة الفجر، لم يخف.

فجئت أكتب هذا عند الساعة ٧: ٣٠ والتنفس يزداد صعوبة.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٢٠-٧-٢٠٢٠

في عيادة طبيب "الصدريّة"

سألت طبيبةً صديقة عن متخصّص في "الأمراض الصدرية" تكون عيادته قريبة في منطقة "الجسر الأبيض"، ثم أخذت التكسي ومضيت إلى حيث دلّتني، التمست من السائق أن يتوقف عند صيدلية يسألها، وإذا العيادة في مواجهتها.

وجدت العيادة أنيقة بما يزيد عن الكفاية، تتحرّك فيها ثلاث سكرتيرات جميلات، يدخلها المراجعون كلٌّ يسجل دورًا له. وجاء الطبيب يسألني، فشخّص مرضي بأنه "الوذمة" في الساقين تحت الركبتين، وقد كنت أهملت تعاطي الدواء في ذلك ظنًّا بأن لم تعد ثمة حاجة لذلك.. اليوم وصف لي حبّة ع الريق وبخّاخا للحَنْجَرة كلما اقتضى الأمر... فالمرض بعيد عما هو منتشر اليوم في دول العالم، هذا الذي فقدت فيه بالأمس أعزّ الأصدقاء.

أشكر أصدقاء الشابكة الذين قرؤوا منشوري الصباحي، وأبدَوا من الخوف عليّ ما جعلني

أسرع إلى الطبيب المتخصص، الذي أشكره لما رأيت فيه من المعرفة والفهم واللباقة على نحو يجعله عندي في طليعة الأطباء. ومن كياسته أنه ألحق بي شابا يأخذ بيدي، ويستوقف لي تكسي للعودة.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٢٠-٧-٢٠٢٠

الكاتب الذي يبحث عمن ينشر أعماله

غصة متجددة أبوح بها من جديد، بحق صديقي العظيم فاضل السباعي.

لا أحتاج إلى أن أسرد عليكم من هو فاضل السباعي، لا في أنه من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب منذ ١٩٦٩، ولا في أنه من جيل سليمان العيسى وحنا مينه والماغوط، وغيرهم عشرات، وإن كان بعضهم لا يقارَنون به، وما وصلوا إلا بما هو معلوم في سوريا.

كُتبتْ حول أعماله عشرات الدراسات الأكاديمية، آخرها في جامعة إسطنبول، وصُورتْ بعض أعماله تلفزيونيا، وما زالت أسئلة الامتحانات في سوريا ولبنان تأتي من أدبه، عشرات الأعمال الأدبية الخالدة.

هذا الرجل، بلغ من العمر مبلغاً ينبغي لمثله أن يكون في قصر على بحر يمارس متعة التأمل في أعماله التي تطوف البلاد.

أما هو، ولأنه يعارض الظلم والقهر، فما زال يبحث عن دار نشر تَطبع له عشرات الأعمال المتوقفة، لأن راتبه التقاعدي لا يكفي ثمن حبر لقلمه كما بينت ذات يوم... وما زال بيته المستأجر يحكي قصة الوطن في تعامله مع هؤلاء الكبار.

ما زلنا نتواصل ونراسل دور النشر في واشنطن وقطر وكندا، يكتب لي فأحس بالمرارة في حلقي، حين أقارنه بأمثاله في بقية البلاد، وما زال يبحث عمن يخدمه في التنضيد.

لا تقولوا: إن السبب مستقر في المتحكم بالوطن، فها نحن خارجَ أطواقه، نعرف مأساتَه، وما زال يكتب لي كل ليلة فيما وصلنا إليه بمتابعة دور النشر..

إنني أقصد ذوي الشأن ممن يسرفون في الإنفاق على الجندرة والمؤسسات الفارغة، ويتركون هذا الكبير، الذي ينهض للظلم وحده هناك، يبحث عن أدنى متطلبات الحياة.

لا أظن الأجيال التي سيزول عنها حجاب المعاصرة بينها وبينه، لا أظنها تسامحنا.

د. أحمد علي عمر، إسطنبول، فجر الثلاثاء ٢١-٧-٢٠٢٠

في العام ٢٠٠٥ (أو ما بعده)

في العام ٢٠٠٥ (أو ما بعده) أراد اتحاد الكتاب إقامة حفل يكرَّم فيه الأعضاءُ المؤسسون ولحظة اقترح أحد أعضاء المكتب التنفيذي أن أتكلم في الحفل باسم المؤسسين. ارتفعت أصوات ترفض.. وكأنني قاتل أبيهم، أولئك.. "الطيبين"!

كراهية... دون حدود.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٢-٧-٢٠٢٠

من "الصدريّة" إلى"القلبيّة"، إلى مشفى للمعالجة..

قررت ليلة أمس مراجعة طبيبي المعالج، بعد أن لاحظت أن "عُسر التنفس" لم يفارقني.

وقفت على رصيف بيتي أنتظر مرور سيارة تكسي في هذا الشارع السكني الذي أقيم، فلما عيل صبري (وأنا أقتعد كرسيا قدّمته لي "بقاليّة اطلب واتمنى" المقابلة لباب بيتي) تراءى لي أن أحاول استيقاف إحدى السيارات الخاصة العابرة، وأبديت لصاحبها -وكان برفقته صبيتان- العذر بأني ما زلت أنتظر سيارة تكسي دون طائل، وأني أقصد عيادة طبيب في الشارع القريب

الذي يُفضي إلى "ساحة الجسر الأبيض" قُدومًا من دوّار "التربية"، وسرعان ما أوسعت لي إحدى الصبيتين مكانا، ولدى نزولي لامست أذني دعوتُها: "دير بالك على حالك، عمّو".

عايني طبيب الصدريّة في زيارتي له الثانية هذه، وأشار بأن أتوجّه إلى طبيب قلبيّة للتصوير بالإيكو، وكلّف أحَدَ الشباب عنده أن يرافقني حتى عيادته في الجسر الأبيض.

دخلت، فرأيت أناسا ينتظرون. سألتني السكرتيرة -ولم أكد أتبيّن كلامها مع السماعة التي في الأذن- فأخذت السيدة بجواري تنقل لي: ما الاسم؟ العمر؟ قلت: تسعون، ففغرت الطيبة فاها: أنت وحدك؟ أين أبناؤك؟ قلت: قد فرقت الحرب مابيننا.. ولم أتمالك نفسي فاستأنفت: هل سمعتم أن نظاما يُشرّد نصف سكان بلده، ١٢ مليون!

هنا نهض من بين الحضور شاب وسيدتان يغادرون.. ولم يشفع لي أني تكلفت الابتسام وأنا أشير بيدي أني.. سأكفّ!

في التصوير بالإيكو، تبيّن أنّ في القلب شيئا، هو -عدا ما يختزن من الحزن على ما حلّ بالوطن- قصورٌ ما، وأشار عليّ الطبيب بأن أراجع مشفى في "حي الميدان"، قلت: بعيد، وأنا من سكان الجوار هنا، فغيّر إلى مشفى في "ساحة الشهبندر" القريبة.

في مروري بالمنتظِرين رأيت الثلاثة قد عادوا.

مشكلة صادفتني وأنا أمام باب بيتي: أني بدل مفتاح الدار كنت تناولت غيره!

تحيتي لمن لم تنفضّ عنهم الذرية.

دمشق الشام: عصر السبت ٢٥-٧-٢٠٢٠

تغيب عني بعضُ الأسماء

تغيب عني بعضُ الأسماء، وكذا مفرداتٌ في اللغة آلفها، أكدّ الذهن فأستحضرها.

تعبت الذاكرة

وتعب القلب أكثر

الإثنين ٢٨-٧-٢٠٢٠

اشتدّ عليّ المرض مساء الثلاثاء الماضي

فجاءت ابنتي خلود وحفيدي ماجد

ومعًا إلى بيتهم في ضاحية دمّر

أعود عند التحسّن

جئت مساء اليوم

جئتُ مساءَ اليوم إلى بيتي لأسقي الزرعات العطشانة وأغادر ثانية

أبكيك يا بيروت

ما زلتُ منذ عشر سنين أبكي سورية

اليوم.. عدتُ أبكيك يا بيروت.

من طبيب.. إلى طبيب..

من طبيب.. إلى طبيب.. إلى طبيب.. آخرها السيروم الممزوج بالفيتامين.

وتظل نوافذ الأمل مفتوحة أمامي.. مع تراجع الصحة.

لبنان في غير حاجة إلى انقلاب عسكري

لبنان في غير حاجة إلى انقلاب عسكري يظنّ أصحابه أنهم منقذون.

لبنان يحتاج إلى ثورة شعبية تُخرج من أعماقها أبراراً مصلحين.

إليك.. يا الله...

أشكو ضعفي

وضعفَ أمتي...

ربّ "وامعتصماه"

ربّ "وامعتصماه" انطلقت ملء أفواه الصبايا اليُتَّمِ

لامست أسماعهم.. لكنها لم تلامس نخوة "المعتصمِ"

الشاعر عمر أبو ريشة

تحية للزعيم اللبناني العربي العظيم "صبحي الطفيلي"[١]

على صرخته الزهراء.

دمشق الشام: الأربعاء ١٢-٨-٢٠٢٠

(من سرير المرض أكتب)

---

(١) وهو أيضاً عالم دين شيعي، عُرِف بانتقاده الشديد لتدخُّل حزب الله في الحرب في سورية.

كنت هممت بأن أنشر هذه التغريدة

يا أصدقائي في دمشق،

هل من "يعيرني" مثوى له يضم جثماني؟

وعدلتُ

توجهت صباح اليوم

توجهت صباح اليوم إلى بيتي الأول (في نوري باشا) ترافقني ابنتي وحفيدي، وينتظرنا مَن يساعدنا في تدبير البيت

وسوف نعود بعد قليل..

سلام.

جسّ الطبيب نبضي وقال:

ليس ما عندك مرض يُسمّى.. إنها أعراض الشيخوخة فقط.

كلْ، واشرب، واكتب، وامرح.

عائد الآن..

إلى بيتي الثاني (في دمّر..)

لن أسامح بعضَ ذرّيتي وأهلي ومن يحيطون بي..

لن أسامح بعضَ ذرّيتي وأهلي ومن يحيطون بي.. لتقصيرهم في إعانتي ثقافيًا وصحّيًا، وسوف أشكوهم.. هناك.. لربّ العالمين.

أصدقائي الأعزّاء

قد زادت الصعوبة في الإنجاز عندي!!

دوائر "التذكرّ" عندي تضيق

ومساحات "النسيان" تتّسع

"الرواية الاجتماعية عند فاضل السباعي"

رسالة ماجستير بدرجة "ممتاز مرتبة الشرف الأولى

حصل عليها الأديب الإعلامي المصري محمود القاعود.. في كلية آداب جامعة عين شمس..

وأنا في مرضي

هنيئا لمحمود ولي..

وأطروحة دكتوراه له مستقبلا عن قصصي السياسية..

وأطروحة ماجستير للأديب وائل الآغا بجامعة البعث بحمص، مؤجلة لسبب لأحداث..

وهناك بجامعة إسطنبول أطروحة دكتوراه تُعَدّ عن أدبي الروائي من قِبَل الأديبة كلثوم سليمان

عسى أن يكون ذلك من دواعي شفائي.

أنا الآن في بيتي بنوري باشا..

أنا الآن في بيتي بنوري باشا.. وسوف أعود مساء إلى بيتي الثاني في دمّر..

شكرا لمتابعتكم.

سمعت عجوزا تشكو من أمراضها فتقول:

الوجع بيجي كَرْفَتة..

وبيروح من خُرم الإبرة

زارتني حفيدتاي

زارتني، يوم الثلاثاء الأول من أيلول، وأنا عند ابنتي الحبيبة خلود، "الحفيدتان" العزيزتان: مريم هيثم الحسيني، والدكتورة جودي إسماعيل، فأسعدَتَاني.. لساعتين فقط!

لهما كل المحبة والتقدير.

عدتُ بشوق...

عدت ظهيرة اليوم إلى بيتي في نوري باشا، يا أصدقائي.. بشوق لا يوصف!

يا الله..

لقد أتعبَتْني أوجاعُ الجسد وصروفُ الحياة..

فخذني إليك يا الله..

المحتويات